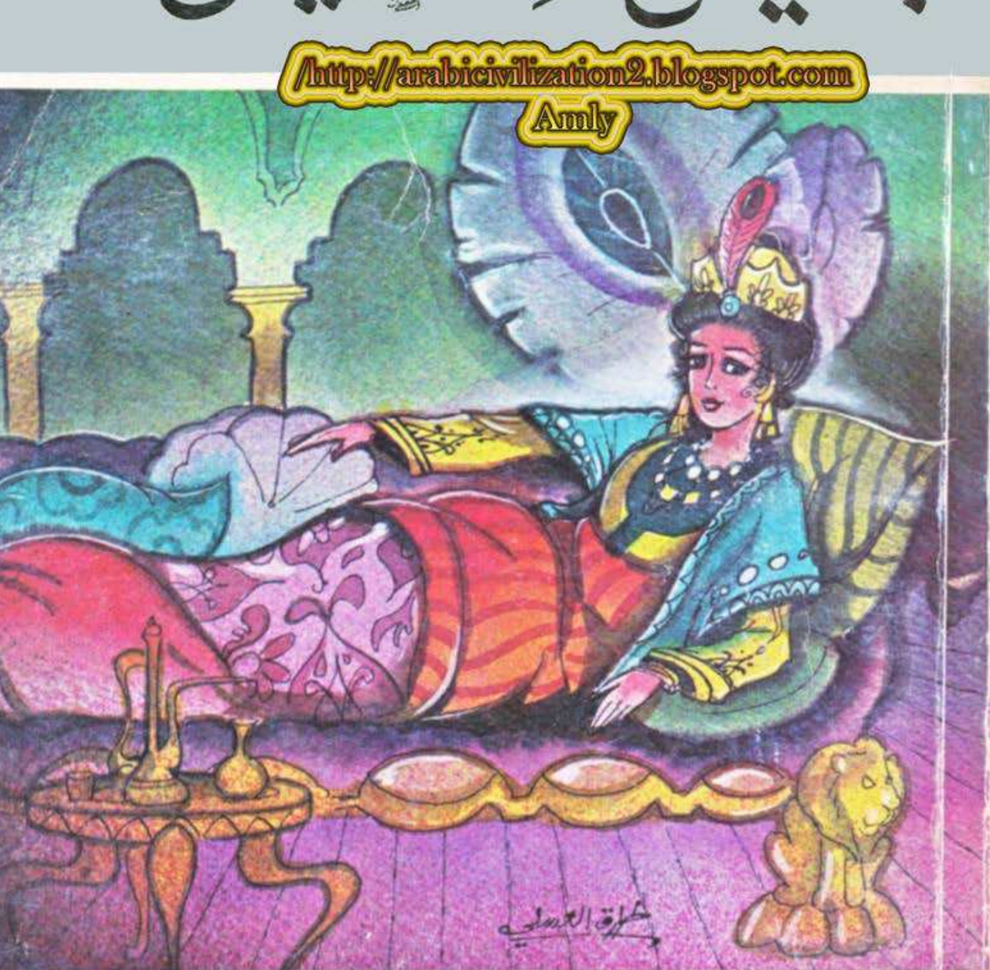
... تاريخ العرب والإسلام

إميل حبشي الأشقر

بلقيس ملكة اليمن (١)



دار الأندلس

بلقيس ملكة اليمن

رواية تاريخية أدبية غرامية

روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر

بلقيس ملكة اليمن (سبأ)

رواية تاريخية أدبية غرامية

الجزء الأول

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

اليمن في التاريخ القديم

●

عندما ذكر المؤرخون العرب ، بلاد اليمن في التواريخ التي كتبوا ، قالوا :

اليمن هي الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب .

وليس في هذا القول خطأ فقد كانت اليمن ولم تزل الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة ، وكانت حدودها ، في الزمن القـديم ، تتسع باتساع النفوذ والسلطان وتضيق بالخمول والضعف في الدول المالكة التي تربعت على العرش اليمني .

وهكذا تخضع الحدود في كل دولة وفي كل جيـل ، لهذين المظهرين اللذين ذكرات .

اما مؤرخو اليونان ، فقد ارادوا باليمن ، في التاريخ القديم ، العربية السعيدة « Arabia Felix » ولعلهم ارادوا بها بلاد البركات واليمن « بضم الياء وسكون الميم » او لعلهم جعلوا بلاد العرب قسمين ، اليمن قسمها الزاهي الزاهر والبوادي قسمها الآخر ، وهو لا يدخل في التعريف .

وجعلوا حدودها من الجنوب بحر العرب ، ومن الشمال بادية الشام والعراق وبلاد بطرا ، ومن الشرق خليج العجم ، والبحر الاحمر ويسمونه خليج العرب من الغرب ، فدخل في تحديدهم ، اليمن ، ومعظم الحجاز ، وتهامـة ، ونجد ، والشحر ، وعمان ، وحضرموت وغيرها ، وهي القسم الغربي الذي كان زاهراً ، في ذلك الزمان .

اي انهم حددوا الجزيرة ، لم يتركوا منها غير بعض الاطراف .

اما حدود اليمن اليوم ، فخط يمتد جنوبا من المخـا على البحر الاحمر الى تعز فماوية فقعطبة . وخط يمر شمالا في بلاد خولان وبني بشر الى نجـران . اما من الغرب فبلاد الادريسي ، ومن الشرق الربع الخالي .

المخاليف اي الاقضية

ألم تر سوريا ولبنان « مثلا » كيف جعلوهما الوية واقضية على رأس كل لواء وقضاء حكومة صغيرة هكذا جعلت حكومة اليمن بلادها في زمنها الاول ، اقضية ويسمونها مخاليف ، في كل مخلاف منها المدن والقرى والسدود والجبال ، هذا ضيق وهذا واسع ، هذا صغير والآخر كبير ، فيه الاغنياء والفقراء والصعاليك والامراء ، وفيه الجيش يشبه في نظامه الاحتياطي جيوش القرن العشرين .

وقد ذكر اليعقوبي مخاليف اليمن ، كما كانت في اواسط الجيل الثالث للهجرة ، فاذا هي اربعة وثمانون مخلافاً ، وقام المؤرخ الهمداني ، في اوائل الجيل الرابع ، يذكر في تاريخه «صفة جزيرة العرب» جميع هذه المخاليف بما فيها من قرى وسدود واودية ، كالجغرافي الصادق الذي لا ينسى قيد ذراع من الارض التي يصف .

ولكن هذين المؤرخين ، لم يستطيعا ان يذكرا كل شيء ، على رغم الجهد الذي بذلاه ، فقد كان في اليمن مدن زاهرة دفنتها العصور تحت التراب ، وقبائل كثيرة فرقها الزمان ولم يبق لها في اليمن غير الاثر البالي ، ومن اين لليعقوبي والهمداني وابن الاثير والطبري والاصفهاني وغيرهم من المؤرخين ، اجل من اين لهؤلاء ان يبذلوا الذهب الكثير لينقلوا تراب هذا البلد الغائص في الارض ويستنطقوا آثاره ، ويستخرجوا انقاض البلد الآخر ويقرأوا السطور التي كتبت فيها ، بل من اين لهم ان يفعلوا ، مثلما يفعل رجال المال والعلم في هذا الجيل ، الذين يحملون ذهبهم واموال دولهم ويطوفون في الارض باحثين عن الامجاد التي ترقد في جوفها .

نعم : كان هنالك قبائل ومدن ، في شرقي البلاد وقلبها ، في اليمن ، والجوف وحضرموت ، وما وراءها لم تر عيون المؤرخين غير انقاض اشهر هذه المدن مأرب ، او سبأ ، ومعين وصرواح وشبوة وشبام وتريم وظفار التي تهدم معظمها قبل الاسلام .

اليمن الخضراء

يقول الهمداني : سميت اليمن الخضراء لكثرة اشجارها وثمارها وزروعهـــا والبحر مطيف بها من المشرق الى الجنوب فراجعاً الى المغرب .

ومن الجزائر التي في البحر المحيط بهـــا ، دهلك ، وكمران، وهي حصن منيع لملوك تهامة ، وجزائر فرسان ، وجزيرة زيلع ، وفيها سوق يجلب اليهـــا المعزى من بلاد الحبش فتشترى جلودها ويرمى باكثر مساليخها في البحر وجزيرة بربرا وهي قاطعة من حـــد سواحل اليمن ملتحقة من البحر بغدن ، وجزيرة سقطرى واليها ينسب الصبر السقطري وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخاً .

ويذكر من القبائل العدد الكثير ، منها خولان وهمدان وذوال المغفر والاشعر، وحكم بن سعد ، وغيرها .

ومن الاوديـــة المشهورة ، التي تجري فيها المياه الى السدود،موزع والشقاق ووادي زبيد ، ووادي رمع ، ووادي سهام ، ووادي اذنـــه ، ووادي سردد ، ووادي مور الذي يدعى ميزاب تهامة الاعظم ، ثم يتلوه في العظم وبعد المـــأتي زبيد ، ومساقي مور شكيل غربي همدان ، ووادي نخياة .

ويقال عن صنعاء ، انها ام اليمن وقطبها لانها في الوسط منها ، وكان اسمها في الجاهلية « ازال » ويسميها اهل الشام صنعاء القصية وتقول العرب لا بد من صنعاء ولو طال السفر .

وينسب الى صنعاء صنعاني لانهم رأوا النون اخف من الواو كما تقول في بهراء بهراني وهي اقدم مدن الارض ويقولون ان الذي وضع الحجر الاول فيهـــا سام ابن نوح .

وعرف حضرموت بقوله : انها جزء اليمن الاصغر نسبك الى حضرموت بن حمير الاصغر فغلب عليها اسم ساكنها كما قيل خيوان ونجران « وهذان رجـــلان نسبت اليهما البلدان » فيها من القبائل : بنو الصدف ، والعباد ، ووهب ، وبدا ابن الحارث . وبنو الرائش بن الحارث ، وبنو عمرو بن الحارث ، وبنو ذهل ،

والمحايل وبنو سهل .

وفي كتاب نهاية الارب ، في اخبار العرب ، ان اليمن سميت يمناً لوقوعها عن يمين الكعبة اذا استقبلت المشرق، كما سميت الشام باعتبار وقوعها عن شمالها .

وهنالك رأي ، ان « يمن » اسم يعرب به قحطان سميت البلاد به ، وان لفظة « يعرب » لقب غلب عليه لاستنباطه العربية .

وقد رأيت في الروايات السابقة ، وفي الاسلوب التاريخي الذي قرأت اننا نذكر لك باختصار جميع اقوال المؤرخين ، في البلد الذي نكتب تاريخه ونذلك على الاشخاص ؛ والقبائل والمدن التي كانت معروفة في ذلك التاريخ ليسهل عليك فهم الرواية التي تقرأ .

اجل ، وخير لك — اذا وقعت عينك على اسم بلد يمني ، او عشيرة من عشائر اليمن — ان تعرف مقام هذه العشيرة وموقع ذلك البلد ، دون ان تحتاج الى كتاب آخر غير الليالي التي هي بين يديك .

* * *

دول اليمن في التاريخ العربي

•

لم يجد المؤرخون طريقا اصعب مسلكا واكثر خطرا من الطريق الذي يؤدي الى العصور الاولى في اليمن .

ان التاريخ العربي قبل الاسلام وعر المسالك في مجموعه كما قرأت ، غير انك تجده سهل المنال، عندما تتصدى فيه للتاريخ اليمني الذي يرافقه الغموض والابهام ويسود الغلو معظم حوادثه واخباره .

هنالك المؤرخون الذين كتبوه يعترفون بالتعب الذي احسوا به عندما تغللوا فيه . بل يعترفون بذلك الغلو الوارد في حكاياته ، حتى ان ابن خـــلدون ، وهو من اصحاب الفضل على امته لم يتردد في القول :

في انساب التبابعة تخلط واختلاط .

وقد صدق في هذا ، فالتخليط والاختلاف يكاد يلمسهما العاقل بيديه . ولولا الآثار الخالدة التي هي دعامة التاريخ وركنيه لما قام لبعض اقوال المؤرخين وزن. ولما آمن العقلاء بالاعمال الجبارة التي اتاها الانسان .

اجل ، ان في كلمةواحدة تقرأها محفورة على حجر، ايمانا بتاريخ لا يتزعزع، وحجة ثابتة لا يذكر معها انشاء المؤرخين وبيانهم الخلاب .

ولولا هذه الآثار التي عبثت بالزمان ، لكان التاريـــخ اليمني قصة نصفهـــا صحيح والنصف الآخر كاذب ، لما فيه من خرافة وضعف .

يقول قائل : كان في اليمن ملك يدعى القليص ، مثلا ، ويقول آخر : ان القليص لم يكن من اولئك الملوك فتقف بين القولين ، مضطربا في ايمانك ، ضعيفا في عقيدتك ، حتى يعثر احدهم على تمثال حجري للقليص او على كلمة حفرت في

الصخر تدلك على وجوده ، فيضمحل الاضطراب والضعف من صدرك ، ويزول الريب الذي علق في الذهن .

لاجل هذا ، ولكي تقرأ جميع اقوال المؤرخين التي تتناول القطر اليمني نورد لك في تمهيدنا هذا ، قبل ان تقرأ الرواية ، آراء العرب واليونان والفرنج المستشرقين ، ونبسط امامك الآثار التي لا تكذب ، لتزول الاوهام والخرافات العالقة في بعض الصدور .

عندما نزل بنو قحطان بلاد اليمن ، كما قرأت في الجزء الاول من حسناء الحجاز ، كان فيها بقية من العرب العاربة ، اولئك الذين نزحوا من بابل وهم قوم عاد .

وكانت هذه البقية ، صاحبة السلطان في اليمن وسيدة الموقف .

غير انها كانت قد استسلمت الى الترف ، مثل جميع الدول التي تبطرها النعمة والعز ، واستخفت بجميع الاسباب التي تحفظ العرش .

وبنو قحطان كثار ، ملأوا مدن ذلك القطر وقراه ، وانتشروا في جبله وسهله، يضعون على مهل ومن وراء الستار ، الحجر الاول من الملك الذي يفكرون فيه، دون ان يرتفع لهم في ذلك صوت ، ودون ان يباح سر ، حتى زاد عددهم ووفرت عدتهم ، فوثبوا الى العرش فنحوا اصحابه عنه ، واستولوا بعدهم على الملك ...

ثم ما لبثوا حتى ابادوا عدوهم وانشأوا دولتهم وذهب في ذلك صيت وذكر.

واول ملوكهم يعرب بن قحطان .

ويعرب لم يرض باليمن فحسب ، بل ارسل نظره الى العمالقة في الحجاز ينظر اليهم كما ينظر الفاتح الطامع الى الاقطار ، ثم ارسل خيله تحطم العرش الحجازي فكان له العرشان .

وولى اخوته امور الاقليم التي دانت له ، جعل اخاه جرهما سيد الحجاز ، واخاه عاداً سيد الشحر ، وتولى اخوه حضرموت ، جبال الشحر وحضرموت ، واخوه عمان ، أمر عمان .

ويقول : ان اول من نطق بالعربية يعرب ، وكان فصيح اللسان صادق الرأي وهو الذي عناه الشاعر العربي حسان بن ثابت الانصاري بقوله :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب ابينا فصرتم معربين ذوي نفر
وانتم قديماً ما لكم غير عجمة كلام ، وكنتم كالبهائم في القفر

وكان يعرب مغرماً بالبناء وهو اول من بنى المدن والقصور في اليمن .

ومن وصيته لبنيه قوله :

« اتركوا الحسد ولا تلتفتوا اليه فانه داعية القطيعة بينكم . وتجنبوا الشر واهله فان الشر لا يجلب عليكم الا الشر ، وانصفوا الناس من انفسكم فانهم ينصفونكم من انفسهم ، واجتنبوا الكبرياء فانها تبعد قلوب الرجال عنكم ، وعليكم بالتواضع فانه يقربكم من الناس . واذا استشاركم مستشير فاشيروا عليه بما تشيرون به على انفسكم في مثل ما استشاركم فيه فانها امانة قد القاها في اعناقكم » وكان ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة .

* يشجب بن يعرب

وقام بعده ولده يشجب وكان ضعيف الرأي واهي العزيمة كثير الغفلة وليس له في ايامه ما يستحق الذكر. فلما مات خلفه ابنه عبد شمس، الذي يقال له (سبأ)

سبأ

وكان مهيباً فاتحاً كثير الغزوات شديد التيقظ محبوباً من الجيش ، غزا الديار المصرية اكثر من مرة واكثر المصاب في اهلها وحمل السبايا الى بلاد اليمن واقتاد اليها اكثر من عشرة آلاف اسير ، فقيل له : سبأ ، وهو الذي اغار على بابل وفتحها واخذ الجزية منها وفيه يقول الشاعر :

لقد ملك الآفاق من حيث شرقها الى الغرب منها عبد شمس بن يشجب
سعى بالجياد الاعوجية والقنا الى بابل في مقنب بعد مقنب

وكان لا يسمع ببلد الا قصدها وساق خيله اليها فاستظهر على كثير من البلاد ودانت له الاقاليم الكبيرة ، القريب منها والبعيد .

وهو الذي بنى السدّ في مأرب، وفجّر اليه سبعين جدولا تصب مياهها فيه. وعاش سبأ على الارض خمسا وثلاثين سنة ثم انتهى الملك بعده الى ولده .

حمير

وكانت حياته طويلة ، بنى فيها حصونا ومدنا ، وفتح بلادا كثيرة ، وخفق لواء نفوذه في ما وراء بلاد العرب ، على ما يقولون .

وهو جد الاسرة الحميرية ومؤسس الدولة التي تولى امرها من ذريته الرجال المشاهير اصحاب، الذكر الخالد الذي لا يبلى .

وملوك حمير ، عند العرب فئتان : فئة الملوك ، وفئة التبابعة .. وقد اختلفوا في عددهم وزمان ملكهم كما اختلفوا في اعمارهم وتعاقبهم حتى لا تجد مؤرخين اثنين ، توافقا في امر مما ذكرت .

الا الحارث الرائش ، الذي هو اول التبابعة ، فقد توافقوا في امره واجمعوا على انه « تبع الاول » كما سيجيء .

ويقول حمزة الاصفهاني ان دولة حمير ، كانت قبل الحارث الرائش دولتين احداهما في مأرب ، والاخرى في حضرموت ، فلما ظهر الحارث الذي ذكرنا ضم حضرموت الى سبأ ، وتبعه في ذلك قومه فسمي تبعاً كما مر .

وعدد التبابعة عند حمزة ستة وعشرون اولهم الرائش وآخرهم ذو جدن الذي حكم بعد ذي نواس وسلبته الحبشة ملكه وقد قرأت شيئاً من هذا في روايتنا الاولى ، الحارث الاكبر .

وحكاية استيلاء الحبشة على اليمن ، حكاية صغيرة نختصرها لك من جديد

عند اعتقادنا ان هذا الاختصار ، خير من رجوعك الى رواية الحارث تستعيد فيها خبر الحبشان الذي نرويه الآن .

« اضطهد تبع ، ذونواس ، جماعة النصارى المقيمة في نجران اضطهاداً شديداً مريبا بلغ فيه الحد الاخير من القسوة والعنف ، فخرج رجل منهم اسمه ذو ثعلبان يقص على صاحب الحبشة اخبار ذلك الاضطهاد ويدعوه باسم الدين الى فتح القطر اليمني ...

فارسل قواده بسبعين الفاً من الرجال ، ففر ذو نواس ثم اقحم فرسه البحر وغرق فيه ، فخلفه تبع ، ذو جدن ، فغلب على امره ، واستولى ابرهة الاشرم على ملك اليمن واستقام له ذلك الملك .

وبعد اعوام خطر له ان يهدم الكعبة ، فقاد جيشه اليها في عام الفيل فهلك ذلك الجيش .

ثم خلفه ابنه يكسوم ، وكان قاسيا ظالما يستحل دماء اهل اليمن ويستبد باموالهم لا ينهاه عن ذلك شيء .

فلم يطق الامراء وابناء الملوك ذلك الاستبداد والظلم ، فذهب احدهم ، وهو سيف بن ذي يزن الى كسرى يستنصره ، فقبل كسرى وبعث بالجنود المحربين يحملون قوته التي لا تغلب ، فطردوا الحبشة ونوا سيفاً باسم مولاهم الملك الفارسي .

ولكي يذل سيف بن ذي يزن ، اولئك الحبشان ، جعل حراسه وحجابه منهم ، يمشون بالحراب امامه ووراءه .

غير ان اولئك الحراس غدروا بسيف فقتلوه ، ولم يملك احد بعده ، بل استقل اهل كل مخلاف بما عندهم ، تحت سيطرة الفرس ، حتى ظهر الاسلام » .

اما عدد الفئة الاولى ، فئة الملوك الذين تقدموا الحارث الرائش ولم يكونوا تبابعة ، اي منذ ظهر حمير ، الى ان ظهر الحارث المشار اليه ، فخمسة عشر ملكاً على ما ورد في القصيدة الحميرية المشهورة لنشوان بن سعيد الحميري « من اهل القرن الخامس للهجرة » وعشرة ملوك على رأي المؤرخ ابي الفداء ، وسبعة على

رأي ابن خلدون ، واربعة ملوك لا غير ، على رأي المسعودي .

وجميع هؤلاء المؤرخــين لا يذكرون « بلقيس » التي نكتب تاريخها ، بين ملوك الفئة الاولى ، كذلك لم يعدها حمزة الاصفهاني سهم ، بل جعلهــا جميع من ذكرنا ، من ملوك الفئة الثانية ، اي التبابعة .

واما كتاب « نهاية الارب في اخبار العرب » فقد جعلها من فئة الملوك فكان قوله بعيدا عن الصحة ، كما اثبتت الآثار التي عثر عليها المستشرقون وستقرأ ذلك فيما يلي من الفصول .

اذن فقد رأيت التناقض والاختلاف في اقوال المؤرخين ، ولو لم يكن هنالك تناقض ، في تاريخ العرب قبل الاسلام ، لما كان هذا التاريخ صعباً ، كما قلنا .

على ان هذه الصعوبة لا تلبث حتى تزول ، عندما تقرأ اراء المستشرقين الذين طافوا في ارض اليمن ولمسوا الآثار الباقية في الانقاض ؛ واتحفوا دولهم بنقوش كبيرة جداً حملوها اليها من الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب ، واستطاعوا بفضل العناية التي بذلوا ، ان يذكروا اسماء الملوك ويذكروا عددهم بعد قراءة المسند المعروف بالحميري .

اعظم هؤلاء المستشرقــين ، ادورد غلازر ، وجوزيف هاليفي ، وارنو ، ويوليوس اويثين وغيرهم من الباحثين طلاب العلم .

وانت لا تستطيع ان تستخرج الواقع الذي لا ريب فيه الا اذا قابلت بــين اقوال العرب ، واقوال الفرنج المسلحين بالسلاح العظيم الذي هو الآ ثار .

رأي اليونان في اليمن

لم يكتب المؤرخون ، عـلى رغم كثرتهم واختلاف اجناسهم تاريخاً خاصاً يبحث في احوال اليمن ، او في احوال قطر من اقطار الجزيرة ، ولكنهم ذكروا العرب ومروا بشؤونها كما يمر الكرام ، عندما يبحثون في الجغرافية العامة وعلى اثر الرحلات الى تلك البلاد .

الا العرب ، فقد كتبوا الكتب الخاصة عن بلادهم ، وجاء بعدهم المستشرقون فدرسوا وقرأوا ثم نشروا ما رأوه ولمسوه بالايدي فجاء درسهم وافياً بالغرض التاريخي من كل نواحيه

ولم يوافق هؤلاء الفرنج ، اولئك العرب في الرأي ، فقد ذكروا امماً ودولا لم يعرفها العرب ولم ترد في كتبهم ،ولم ير الجميع رأياً واحداً الا في الاحوال الظاهرة كظهور القمر والشمس .

ولليونان ، مثل سترابون ، وبطليموس وبلينوس ، فضل على التاريخ العربي فقد عرفوا من امر الجزيرة مـــا لم يعرفه اهل الجزيرة انفسهم ، ووصفوا الطرق والتجارة والاجتماع وصفاً مستفيضاً ، دل المستشرقين في الجيلين الاخـــيرين على الآثار الباقية في اليمن

اجل ، ذكر اليونان دولة المعينيين التي لم يعرفها العرب قط ، وذكروا دولة سبأ التي لم يعرف العرب عنها غير الشيء القليل ، كما انهم ذكروا أمماً غيرها لم يقل مؤرخو العرب عنها كلمة .

خذ لك مثلا ما قيل عن ، مأرب المدينة التاريخية العظيمـة التي كانت اعظم مدن اليمن وابعدها شهرة ، ان العرب لم تذكر مـــأرب ، الا عند مـــا ذكرت انفجار السد الاكبر فيها ، وتفرق القبائل بعدانفجاره ، مع ان اليونان لم يكتفوا بذكرها بل صوروها باقلامهم تصويرا صادقا بليغا ، وهي عندهم «Mariaba» كما صوروا « Sabatta » شبوة ، والقرن «Garnus» وغيرهـا من المدن الـــتي

عاشت في ظلال العظمة والمجد ، في الزمن القديم .

على ان الامم والمدن التي ذكرها اليونان ، وحدهم ، لم يقدر المستشرقون ان يضعوا ايديهم على انقاضها ، الا بعد ان بذلوا راحتهم وذهبهم، وقضوا الاعوام الكثيرة يتمرغون في الرمال ويهامسون الانقاض .

حتى عثروا من النقوش ، على اكثر من الفين ، معظمها كتابات ونقود وتماثيل ، حملوها كلها الى اوروبا كما مر .

وحتى ظهرت لهم معين عاصمة المعينيين ، ونشق ، والقرن ، وظفار وشبوة ومدن اخرى لم يرد ذكرها في تاريخ من تواريخ العالم .

وخدمهم الحظ فعرفوا ملوكاً ودولا لم يعرفها المؤرخون ، وهكذا ترى التاريخ يرتقي من قمة الى قمة ، حتى يبلغ اخيراً ، بعد زمن قصير ، المستوى الذي يرغب فيه ، اهل المعرفة والعلم .

دولة معين

« يقول كتاب العرب قبل الاسلام » نقلا عن استرابون اليوناني في كلامه عن بلاد اليمن :

« يشمل القسم الجنوبي من جزيرة العرب اربعة شعوب . المعينيون « Minaei » وعاصمتهم قارانا ، والسبانيون « Sabaei » وعاصمتهم مأرب والقتابيون ، « Cataban » وعاصمتهم تمناء ، والحضرميون وعاصمتهم شبوه » .

وذكر استرابون في مكان اخر ان المعينيين كانوا يحملون التجارة الى بطرا مدينة الانباط ، التي ورد ذكرها كثيراً في الروايتين ، الحارث الاكبر ، وزينب ملكة تدمر .

وقال بلينيوس : كان المعينيون يقيمون ببلاد كثيرة الغاب والاغراس ووصف غيره من المؤرخين سلطتهم وتجارتهم الواسعة .

ولم يكن العلماء يعرفون « معين » ولا اكتشفوا انقاضها فذهب بعضهم الى ان المراد بلفظ « Minaei » نسبة الى منى قرب مكة ، وقال آخرون غير ذلك حتى ارتاد المستشرق هاليفي بلاد الجوف الجنوبي شرقي صنعاء واكتشف انقاض « معين » وقرأ اسمها عليها بالحرف المسند ، ، وبجانبها مدينة براقش ، فاتجهت اليها الانظار .

وبلغت النقوش الكتابية التي عثر عليها هاليفي في بلاد الجوف وحدها للاثمائة وثلاثة : تسعة وسبعون منها في معين نفسها ،ومائة واربعة وخمسون في براقش ، وسبعون في السوداء وهي « القرن » وكارنا او قارنا عند اليونان .

واكتشف مدينة نشق ، وهي « Nascus » عند اليونان ويسميها العرب الآن « البيضاء » فذهب هاليفي ووافقه غلازر وغيره ان « معين »عاصمة المعينيين وان هذه المدن التي اكتشفها هاليفي في الجوف مدن معينية ولا سيما براقش .

يؤيد ذلك ورود اسم معين وبراقش معاً في جملة ما ذكرته العرب من اسماء المحافد في الجوف . (المحافد جمع محفد وهو الموضع الذي يقيم فيه الخدم والاتباع)

ويقول الهمداني في كتاب الاكليل : محافد اليمن براقش ومعين وهما باسفل جوف الرحب ، وفيها يقول مالك بن حريم :

ونحمي الجوف ما دامت معين باسفله مقابلة عرادا

وقرأ هاليفي على الانقاض ، كثيراً من اسماء ملوك هذه الدولة وآلهتها وعادات اهلها حتى لم يبق هنالك شك في ان المعينيين ينسبون الى هذا المكان وهو الرأي الصادق المعول عليه .

وعثر المنقبون على اسماء ستة وعشرين ملكاً من ملوك الدولة ، يحمل معظمهم اسما واحدا ويتميز البعض عن الآخر بالالقاب اذا كان لملوكهم نعوت تفخيم على مثال ما يقولون : الغازي والفاتح ، والناصر والمنتصر وغير ذلك .

وقد رأى الاستاذ ميلر ، بعد درس النقوش ، وحل رموزها ان الابن كان يرث اباه في الجلوس على العرش ، وقد يتولى الوالد والولد امر الملك في وقت واحد، وان هؤلاء الملوك كانوا يعرفون في اول عهدهم بلقب « مزواد ، كما كان ملوك

سبأ يسمون « مكرب » . ولعل هذين اللقبين يتضمنان معنى الكهانــة والملك ، كما كانت الحال في بابل ، ايام الامارات الصغرى .

وامتد نفوذ هذه الامة في ابان دولتها ، الى شواطىء البحر المتوسط وشواطىء خليج العجم وبحر العرب ، اي انها بسطت سلطانها فوق الجزيرة وبظاهر انها لم تكن دولة استعمار وفتــح بل دولة تجارة كما كانت دولة الفينيقيين على شواطىء سوريا ، ودولة الانباط في بطرا .

وثبت ان ذلك السلطـــان شمل اعالي الحجاز بدليل تلك النقوش المعينية التي عثروا عليها في العلاء قرب وادي القرى ، وفي الصفا ، وفي حوران في الشمال .

ولكن لم يكن هنالك اثر تاريخي يثبت زمان نشأتها ، بل استدلوا عــلى قدم عهدها بالنقوش التي ذكرنا .

وقد فهم من كتابة قرأها غلازر أن السبائيين « دولة سبأ » افنوا المعينيـــين واستولوا على ما كان لهم يوم كان اولئك الملوك يلقبون « مكرب » وان القوم ظلوا يتعاطون التجارة على عاداتهم فقد ورد ذكرهم في اواسط القرن الثاني قبل الميلاد ودولة سبأ في عنفوان المجد .

ويرى الاستاذ ميلر ايضاً ، ان كارنا التي ذكر استرابون انها عاصمة المعينيين كانت عاصمتها الحديثة ، وان «معين» عاصمتها القديمة .

ولغة المعينيين كثيرة الشبه بلغة حمير ؛ وحروفهما واحدة تقريباً لكنها تختلف عنها اختلافاً واضحاً في ضمير الغائب . .

وبنو معين اقدم من بني قحطان ، في اليمن ، فقد ورد ذكرهم في سفر الاخبار الثاني الاصحاح ٢٦ حيث يقول :

« واعانه الله اي عزيا ، على الفلسطينيين وعلى العرب المقيمـــين بجوار بعل وعلى المعينيين » وقد يكون هذا الشعب اقدم من ذلك ايضاً لانهم عثروا عـــلى امة بهذا الاسم ذكرت في آثار بابل بين اخبار نرام سين سنة ٣٧٥٠ قبل المسيح .

فلما دالت دولة بابل ، غادر المعينيون العراق والتمسوا لهم بلاداً يقيمون بها فطابت لهم الاقامة بالجوف وبنوا الحصون والقصور على العادة التي الفوهـــا في

بابل،ثم جعلوا يتاجرون ويطوفون في الاقاليم ، ثم اضطروا الى الكتابة فاقتبسوا الابجدية الفينيقية لسهولتها ودونوا بها لغتهم .

وبتوالي الاجيال تنوعت تلك اللغة حتى صارت الى الحرف المسند .

وقد ساعدهم تمدنهم البابلي في نشر نفوذهم ومـد رواق ملكهم قبل ان تنشأ دولة سبأ .

وللعلماء آراء في يقين عمر هذا الشعب ، فذهب بعضهم الى انه يبدأ في القرن الرابع عشر ، ويقول «Dassaud» ان البعض الآخر يذهب الى انه يبدأ في القرن السابع والثامن قبل المسيح .

والثابت من الآثار ، ان اصل ذلك الشعب بابلي .

دولة سبأ

يقول المسعودي : ان دولة سبأ عاشت ٤٨٤ سنة ثم جاءت بعدها دولة حمير .

ولكن العرب واليونان لم يذكروا احـدا من ملوك هـذه الدولة بل اكتفى اليونان بان قالوا ، حوالى تاريخ الميلاد ، ان السبائيين امـة من اكبر الامم في اليمن ، عاصمتها «أرب» ، ووصف استرابون هذه العاصمة ، واحوال التجـارة والاجتماع كما تقدم .

والمعروف عند العرب، ان سبأ ، من ولد قحطان ، وقحطان ابو اليمن كلها . ويزعم بعضهم ان « قحطان » تعريب يقطان من ابناء سام بن نوح وليس لنا ان نبحث في هذا .

على ان الآثار اظهرت للناس ان هذه الدولة لم تكن معروفة قبل الجيل الثامن ، قبل الميلاد ، اذ لم يجدوا اثرا واحداً يدل على انها كانت قبل ذلك العهد .

اجل ، يجوز الظن ان امتهم اقدم عهدا ، ولكن الدولة لم تكن كذلك ، ونحن انما نعني في هذا البحث ، دولتهم ليس غير .

كما انه يجوز الظن ، ان هؤلاء « القحطانيين » عرب نزلوا الحبشة ، في الزمان

القديم ، بطريق صحراء مصر الشرقية التي كانت قسما تابعا جزيرة العرب ثم عبروا مضيق باب المندب الى اليمن ومكثوا فيها اجيالا طويلة لا يسمع لهم صوت حتى كثروا وظهرت قوتهم فانشأوا الدولة .

وقد يكونون من عمالقة مصر الذين ظفر بهم المصريون فلجأت طوائفهم الى بلاد الحبشان ، ثم انتقلت منها الى القطر اليمني فدان لهم اهله .

وليس هنالك وجه للغرابة ، فالحبشة اقرب جيران اليمن ، والاتحاد الذي بين البلدين قديم جداً ، حتى انهم كانوا يعدون اليمن جزءاً من اثيوبيا .

ويجب ان تعلم ان لفظتي تبع وحمير حبشيتان ،الاولى معناها القادر والثانية « ظلام يخالطه بياض » وذلك لون بشرة الحبشان ...

آشور وسبأ

ذكر الاستاذ ميلر ، انه ورد ذكر دولة سبأ في اخبار آشور ، على قرميدة ذكرت فيها الامم التي تؤدي الجزية الى الملك الآشوري سرجون الثاني « ٧٢١ ـ ٧٠٥ قبل المسيح » وبين هذه الامم او الدول ، فرعون ملك مصر ، وشمسية ملكة العرب ويثعمر ملك سبأ ، ذلك الملك الفاتح اسرحانو ملك غزة .

ان هذا القول يثبت ان السبائيين كانوا دولة ، في الجيل الثامن قبل يثعمر ملك سبأ .

اما عدد ملوك سبأ الذين قرأوا اسماءهم على انقاض مدينتي مأرب وصرواح فاكثر من ثلاثين ملكاً ، عرف من القابهم انهم تدرجوا في الحكم من الامارة الصغيرة او الكهانة الى الملك الواسع الضخم .

ويظهر ان هؤلاء القحطانيين كانوا من قبل امراء اصحاب قصور ومخالف كما كان المعينيون ، فلما نبغ « سبأ » صاحب قصر صرواح شرقي صنعاء ، وكان قوياً ، مد يده الى ملك جيرانه فاستولى عليه ، ثم نهض خلفاؤه بعده فحطموا

عرش المعينيين ، وانتقلت عاصمتهم من صرواح الى مأرب .
وللدولة سبأ اربعة ادوار فيما يعني سعة الملك ، فقد كان الملك منهم في الدور الاول يدعى مكرب سبأ ، ثم دعي في الدور الثاني ، ملك سبأ ، ثم قالوا : ملك سبأ وريدان ، « وريدان مقاطعة كبرى في اليمن ، ثم قالوا : ملك سبأ وريدان وحضرموت .
وهذا معنـــاه انهم كانوا في اول عهـــدهم مكارب ، ثم ارتقوا فصاروا ملوكاً ، ثم توسعوا فصاروا ملوك سبأ وريـــدان ، ثم امعنوا في التوسع فضموا حضرموت الى الملك .
وقد رأى صاحب كتاب العرب قبل الاسلام ، نقلا عن غلازر وسواه من المستشرقين ، ان يجعل هذه الادوار الاربعة دورين اثنـــين ، يشمل الاول منهما المكارب والملوك ويسميه دولة سبأ ، ويشمل الثاني ملوك سبا وريدان وحضرموت وهو العصر الحميري .

العصر السبائي

لم يستطع المؤرخون ان يعينوا الجيل الذي ظهرت فيه دولة سبأ ، فاذا كان « يثعمر » الذي دفع الجزية لسرجون الآشوري اول ملوكها كان ظهورهـــا في الجيل الرابع قبل الميلاد .
ولكن ، تجيء التوراة فتذكر ملكة سبأ في ايام سليمان اي في القرن التاسع ، وهذا يفضي الى الاعتقاد ان العرش السبائي كان موجودا قبل يثعمر .
على اننا لا نعلم اذا كان التاريخ المقدس اراد بلفظة «سبأ» جزيرة العرب .
ومع ذلك فالقول ان الدولة وجدت في الجيل التاسع والثامن لا نعبأ به ،لان الشك يكتنفـــه من جميع النواحي ، بل نعبأ بالقول الصريح الذي قامت حوله الشواهد التي لا ترد .
اجل : وعلينا ان نكتب الحقيقة التي لا يكتنفها الريب ، ونرسلها الى القارىء

حلية ظاهرة تغذي نفسه ، ونحن مستندون الى مـــا يستند اليه العالم الراقي ، من الآثار الصادقة الحاملة الى هذا الجيل ، اخبار الاجيال التي طواها الزمان .

لقد نقلت النقوش والآثار الى الاجيال الحاضرة ، اسماء سبعة وعشرين ملكاً من ملوك « العصر السبائي » الذي تقدم العصر الحميري .

وقالوا ان عمرهم كان سبعة اجيال .

ثم نظر غلازر ، في امر الجيل الذي انتقلت فيه الدولة الى حمير ، فثبت له ان ملوك سبأ انتهوا سنة ١١٥ قبل المسيح ، وفي ذلك التاريخ ظهرت دولة حمير .

اما سبب انقضاء دولة سبأ ، فمثل جميـــع الاسباب التي تنتهي بالدول الى الاضمحلال .

كانوا اصحاب تجارة وعز ، نشروا تجارتهم في الهند والحبشة ومصر والعراق والشام ، وشادوا الحصون والقصور والهياكل وجعلوها في فنهم من الاعاجيب ومهدوا طرق البادية وحولوا الصحاري الى جنات غناء .

ولكن تجارتهم نزلت عن عزها ، بتحولها من البر الى البحر في اواخر الجيل الثاني ، قبل الميلاد .

وكان اصحاب ريدان وهم من حمـــير ، فرع من سبأ ، قـــد اشتد ساعدهم ووفر مالهم ، وامتد نفوذهم ، وريدان اقرب الى البحر من الجنوب ، فوثبوا الى العرش السبائي فقذفوا به الى هوة الفناء . ثم بنوا عرشهم الرفيع العالي على انقاضه

وكانت عاصمة سبأ ، صرواح ، فلما انشأوا الدولة بنو مأرب واسمها سبأ ايضا فدعي سيدهم مكرب سبأ ، ونقل الى عاصمته الجديدة عرش الملك .

ومن الواجب ان تعلم ، ان جميع نقوش واثار العصر السبائي التي نقلوها الى اوروبا ، لم يعثر فيها على اسم الملكة بلقيس ، التي اراد بعض المؤرخين ان يجعلها من ملوك الدور الاول ، بل التي اراد ان يجعلها « ملكة سبأ » التي زارت سليمان في فلسطين ، ولكن عثر على اسمها بين ملوك الدور الثاني الذي هو العصر الحميري ، والذي ابتدأ سنة ١١٥ قبل المسيح كما قرأت .

اذن فبلقيس التي نكتب روايتها ، ليست هي « ملكة سلـــيمان » بل لا تعرف

سليمان ولا يعرفها وليس بينهما عهد ، ان سليمان من اهل الجيل التاسع قبل المسيح وبلقيس هذه من اهل الجيل الرابع بعدد وبينها وبينه اكثر من اثني عشر جيــلا كما ترى .

نعم لقد وردت قصة بلقيس ملكة سبأ ، مع سليمان في معظم تواريخ العرب ، ولكن ليست بلقيس هذه بطلة روايتنا وليس لنا بها شأن . وستقرأ كل ما يهمك الاطلاع عليه في الفصول التي تجيء .

العصر الحميري

حمير عند العرب ، ابن سبأ .

على ان المؤرخين اليونان لم يذكروا الحميريين في كتبهم الا في اواخر الجيــل الاول قبل المسيح .

والثابت ، كما قرأت ، ان الحميريين كانوا قبل ذلك التاريخ باجيال ، اصحاب ريدان ، وهم امراء ليس لهم من النفوذ ما يحجب نفوذ السبائيين .

حتى آنسوا غفلة الزمان ، فسلبوا الملك السبأي تاجه ، وضموا دولته الى مــا يملكون ، ثم اصبح لقب سيدهم « ملك سبأ وريدان » .

وليس بين الدولتين ، سبا وحمير ، تشابه في النظام والمبدأ الا من بعض الوجوه فدولة سبأ دولة تجارة ، ودولة حمير دولة تجارة وفتح ، وقد لمع بين ملوكها افراد هم المثل الاعلى في قيادة الجيوش وحكمة الحرب ، بل هم الابطال الميامين ، الذين يقل وجود مثلهم في كل جيل .

نقول هذا ونحن معترفون بان هناك غــلوا في ايراد قصصهم نشير اليــه ولا نكتبــه . . .

اجل ، واولئك الابطال الذين خلدت الكتب فعلهم ، حاربوا الفرس والحبشة وغيرهما من دول ذلك الزمان ، وكانوا في معظم حروبهم القادة الظافرين الذين كتبوا اسم اليمن على صفحات المجد والفخار .

ولدولتهم دوران كما عرفت ، دور ملوك : « سبأ وريدان » ودور التبابعة ، ملوك سبأ وريدان وحضرموت .

وقد ذكرنا لك ، ان ذا جدن اخر ملوك التبابعة ، استولت الحبشة على بلاده سنة ٥٢٥ بعد المسيح .

فيكون عمر العصر الحميري ، من سنة ١١٥ قبل الميلاد ، الى سنة ٥٢٥ بعده ، ستمائة واربعين سنة .

نصف هذه المدة « تقريبا » للطبقة الاولى من الملوك ، والنصف الإخر للطبقة الثانية التي هي التبابعة .

على ان الحارث الرائش ، الذي هو اول التبابعة في نظر مؤرخي العرب ، لم يعثر على اسمه في النقوش الباقية ، بل كان « الملك شمر يرعش » اول ملوك الطبقة الثانية اي تبع الاول .

وقد تربع في العرش سنة ٢٧٥ وبقي عليه خمسا وعشرين سنة .

اذن لم يبق لنا الان ، بعد درس آراء المستشرقين ، وقراءة الآثار المحفوظة في متاحف اوروبا ، الا الاعتراف الصريح الجريء ، بان العصر الحميري الثاني عصر التبابعة ، لم يبدأ الا في اواخر الجيل الثالث كما تقدم .

وشمر يرعش اول ملوكه ، وهو في نظر حمزة الاصفهاني الملك الثامن بعد الحارث الرائش ، اي « تبع الثامن » .

على ان حمزة وسواه من المؤرخين ، اجمعوا على ان شمر يرعش اعظم التبابعة واشهرهم وابعدهم نفوذا ، وانه دخل العراق وفارس وخراسان فاتحا مظفرا تستسلم اليه الملوك وتنحني له الرؤوس .

وستقرأ اسماء التبابعة في غير هذا الموضع من الليالي ، قبل ان نبدأ بالاسلوب الروائي . . .

الحبشة في اليمن

ليس في التاريخ العربي ذكر لاستيلاء الحبشان على اليمن الا في ايام ذي نواس، اي في اوائل الجيل السادس للميلاد .

بل ليس في التاريخ المشار اليه ، ذكر لصلة تجارية اقتصادية بين الامتين .

مع ان الامتين كانتا في نظر العالم القديم ، امة واحـدة ، حتى ان « رنان » يقول ، نقلا عن الاستاذ « سالت » والاستاذ « ريتر » وغيرهما من العلماء : ان الحبشة مهد الساميين واصل منبتهم .

ويقول اخرون : ان الحبشان عرب ، نزحوا الى الحبشة من اليمن قبل عصر التاريخ ، يؤيد قولهم تشابه اللغتين ، واحرف الكتابة التي تكاد تكون واحـدة عندهما .

وهنالك رأي ، ان دولة سبأ حبشية الاصل ، قدم رجالها اليمن قبل المسيـح باجيال ، وبقيت الصلات محترمة بين الامتين .

ولكن ، لم يظهر الى اليوم . برهان يؤيد هذا الرأي .

ويظن البعض ، ان طائفة من الحبشان، وضعت يدها في الجيل الاول قبل المسيح على شاطىء اليمن الجنوبي عند « مهرا » ومعها السلاح والجند تعد العدة للوثوب عندما يغمض القدر عينيه .

على ان الاستاذ ميلر يقول : ان طمع الحبشة في اليمن لم يثبت للمؤرخين الا في اوائل الجيل الثاني بعد المسيح ، حيث زحف نجاشي « النجاش تعريب نجوس بالحبشة اي ملك » الى شواطىء اليمن راغبا في فتـح ذلـك القطر الزاهر الغني بكل شيء .

يثبت ذلك كتابة محفورة على صخر في « زيلع » .

وفي اواخر الجيل الثالث ، زحف نجاشي اخر فاتحـا مدمرا واستولى عـلى بغض اليمن وبعض تهامة ؛ وجعل بلاده والاقـاليم التي دانت له ، بلدا تجـاريا واحدا لها نظام واحد .

لكن الحميريين لم يستسلموا الى الذل ، فقد استطاعوا ان يخرجــوه من بلادهم ويسترجعوا شرفهم بعد حين .

ومضى على ذلك الحادث نصف جيل ، فساقت الحبشة خيلها من جديد الى ارض حمير تطأ بحوافرها معظم اليمن ، وتهدم وتدمر ما طاب لها الهدم والتدمير ، لا تبقي على شيء .

وهو فتح عظيم قرأوا أثاره واخباره بلغة اليونان ، على ابنية اكسوم عاصمــة الحبشان ، ودعي النجاشي بعد ذلك الفتح « ملك اكسوم وحمير وريدان واثيوبيا وسبأ وزيلع الى اخر ما هنالك من الالفاظ »

وقد عثروا على اثر كتب بلغة الحبشة في ذلك الزمن فيه ان النجاشي « ملــك اكسوم وحمير وريدان وسلحين »

ثم كثرت الوقائع بين الامتين في الجيل الرابع وكانت الحرب سجالا بينهما حتى انتهت اخيرا الى تخلي الحميريين عن الملك بضعة وعشرين عاما استعادوا خــلالها القوى واسترجعوا ما كانوا يملكون .

وقد عرفت مما مضى كيف فتــح الحبشان اليمن في اوائل الجيــل السادس وكيف سلبهم اياها الفرس بعد حين ورفعوا ابن ذي يزن الى العرش .

حكومات اليمن

لقد ذكرنا لك ان اليمن كانت في القديم مخاليف ، اي اقضيــة تختلف في السعة والكبر .

وكانت هذه المخاليف مقسومة الى محافد ، جمع محفد ، وهو الموضع الذي يقيم به الخدم والاعوان والاتباع .

وفي المحفد قلاع وحصون وقصور يحيط به سور له ابواب الحجر والحديــد وفي اعظم قصوره يقيم اميره وصاحب الامر فيه .

ويعرف هذا الامير بلفظ « ذو » يضاف الى اسم المحفد فيقال ذو غمران وذو

صرواح اي صاحب غمدان وصاحب صرواح ، كما كانت الحال في اوروبا وفي هذه البلاد ، في ايام الاقطاع .

ولهذه المحافد حكومات تقوم بنفسها على نظام « اللامركزية » وقد يستقوي احد اولئك الامراء فيستقل ويستأثر بالحكم لا يعبأ بالاخرين ثم يمد يده الى المحافد التي تقوم في جواره فيضمها الى محفده ويقال عندئذ لمجموعها مخلاف ويرتقي لقب « ذو » فيصير « قيل » جمع اقيال كأنك تقول : ملك صغير .

وينسب المخلاف الى المحفد الذي يقيم به هذا الملك الصغير ، وقد يصبح القصر او المحفد ، بعد ظهور الدولة ، مدينة وقد تتغير الاسماء كما جرى في قصر ريدان الذي امسى مدينة « ظفار » وسلحين الذي تحول الى مدينة مأرب .

وهؤلاء الاقيال ، او الملوك الصغار ، يتحاربون ويتنازعون السلطان ، على مر الايام ، جريا مع الطمع والطموح اللذين يملآن الصدور ، فينتهي ذلك التنازع بالفشل او الفوز ، على قدر همة الغازي الطامع وقد يرجع هذا الطامع عن غزوه لعذر لا يصح ان يكون سببا للرجوع .

ولم يكن لملوك المخاليف نظام خاص يسمونه نظام العرش ، بل لم يكن لهم في سيادتهم رابط يحترمونه وشريعة يتبعونها .

نظامهم الغزو ، وشريعتهم السيف الذي هو اصدق الشرائع . . . والقوة ، سيدة الاحكام ، والضعيف ــ ويل للضعيف ــ لا يقدر ان يتمتع بالحق الذي يتركه له اباؤه . . .

وقد ذكر الطبري شيئاً من هذا بقوله :

يكون الرئيس في اليمن ملكا على مخلاف لا يتجاوزه ، وان تجاوز بعضهم عن مخلافه بمسافة يسيرة من غير ان يرث ذلك الملك من ابائه ولا يرثه ابناؤه انما هو شأن شداد اللصوص يغيرون على النواحي باستغفال اهلها فاذا اقعدهم الطلب لم يكن لهم ثبات . كذلك كان امر ملوك اليمن ، يخرج احدهم من مخلافه بعض الاحيان ويبعد في الغزو والاغارة فيصيب ما يمر به ثم يتشمر عند خوف الطلب زاحفا الى مكانه من غير ان يدين له من احد من غير مخلافه او يؤدي اليه خراجا» .

وكانت اسباب العيش في اليمن موفورة للناس بنوع عام ، وللامراء بنوع خاص ، اعظم هذه الوسائل واصدقها التجارة .

واليمن تقع بين الحبشة والهند ، وبلاد الصومال ومصر ، والشام والعراق ، فكانت تجارتها تنقل الى هذه الاقطار في طرق يعرفونها ، بقوافل كبيرة يرأسها « الاذواء » او الاقيال ، حتى اذا عادوا الى اليمن بعد سفر تطول ايامه ، حملوا الذهب بالاكياس .

وعلى تعاقب الرحلات والاسفار ، يكثر مال الملك الصغير ، ويبعد صيته ، فيبذل لمن حوله بعض ماله ، ثم يمد رواق سلطانه فوق جيرانه ، ثم يتوسع فيجاوز اولئك الجيران الى المخاليف التي تبعد عنه فيدين اهلها له ، ثم يخلق دولة ويبني عرشا ، يطول عمر هذا العرش او يقصر ، ويتولى الامر بعده ابناؤه واحفاده ، على قدر ما يبسم لهم الحظ .

هكذا انشئت دول المعينيين والسبأيين والحميريين ودول غيرها لم يذكر التاريخ عنها شيئا يستحق الذكر .

وقد يبقى بعد ظهور الدولة ، مخاليف ومحافد عليها الاذواء والاقيال ، يتبع بعضها الملك المتوج ، ويحفظ البعض الاخر شيئا من الاستقلال فيه الخوف الدائم والضعف ... مع الاعتراف بسيادة الدولة .

اما اشهر المحافد التي كان لها الشأن في اليمن ، فغمدان وصرواح ، وسلحين وناعظ ونلغم وطفا . وبراقش ، ولا نعدها كلها اذ ليس لنا حاجة الى ذلك .

وبعض هذه المحافد او القصور ، بقي الى ما بعد الاسلام ، وذكرته العرب كما بقي نفوذ اصحابها وثروتهم الى اوائل القرن الثاني للهجرة على ما يقول ابن خلدون .

تمدن الجزء الجنوبي الشرقي

جاء في الجزء الاول من كتاب العرب قبل الاسلام ، ، نقلا عن الهمداني وسترابون وميلر وغيرهم ، ان اهل اليمن كانوا كما رأيت ، اهل تمدن ودولة ،

تشبه دول معاصريهم في آشور وفينيقية وفارس ومصر ، وكان تمدنهم هذا صورة مصغرة عن تمدن « حمورابي » الملك البابلي العربي الذي تقدم ذكره ، في احـــدى رواياتنا السابقة .

اجل ، وهذا التمــدن الذي ذكره العرب والمستشرقون ، ثابت ظاهــر كالشمس ؛ في المدن والهيا كل والقصور التي بنوها ، وفي السعــة والترف اللذين تبسطوا فيهما .

على ان تمدنهم القديم لم يكن حربيا كتمدن آشور وفارس ومصر ، بل كان تجاريا كتمدن الفينيقيين ، في تجارتهم بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب .

وكانوا اهل عناية وجهــد في كل مــا يصنعون . يستثمرون ارضهم بغرس الشجر والحبوب ؛ ويحفرونها ليضعوا ايديهم على المعادن التي فيها ، ويعالجون الطيوب والعطور حتى يستقيم لهم امرها ، ثم يركبون الخيل والبغال في القفار ، والسفن في البحار ، ينقلون سلعهم الى العالم البعيد .

وانقضت اجيال كثيرة كانوا هم وحدهم فيها تجار العالم ، كما كان الفينيقيون في اجيال اخرى .

ونحن نكتب لك الان ؛ شيئاً عن انظمتهم واجتماعهم وعاداتهم قبل ان ينصرف ذلك كله الى ما ستقرأ من الحادث الروائي .

كان الملك ، رأس الحكومة في ايامهم ، كما هو رأس كل حكومة ملكية اليوم. وكان مطلق اليد لا يرد له امر وليس عنده وزراء ومستشارون يشاركونه في الرأي ، اللهم الا رجال بلاطه واعوانه الذين نستطيع ان تسميهم كما تشاء .

ولم يكن يخرج من قصره في « مأرب » او غيرها من العواصم الا لحادث او فتح جديد .

والدول التجارية لم تكن تعبأ كثيرا بتجنيد الجند وتنظيم اموره ، لانصرافها الى الفتح التجاري وحده ، بل لم يكن جندها غير طوائف قليلة تدافع بهـــا عن العرش عند الحاجة ، وتتخذها درعاً لحماية القوافل في الاسفار .

بلى ، كانت تجند الناس للتسخير ، في بناء المدن والقصور وفي انشاء السدود

التي هي حياة اليمن ومنبع البركات .

والعرش عندهم في الدول الكبرى التي ذكرناها ، يتوارثه الابناء وقد يتوارثه الاخوة ، الا حضرموت ، فقد كان نظام العرش فيه قبل النصرانية ، غريبا كما يقول استرابون .

نعم كان الملك في حضرموت ؛ غريباً بصورة دائمة ، عن الاسرة المالكة وكان النظام يقضي بان ينتقل التاج ، بعد موت الملك ، الى اول مولود من الاشراف يجيء الى هذا العالم ، في اثناء ملكه .

والعادة في ذلك انهم يرفعون الى الملك، على اثر تتويجه ، اسماء النساء الاشراف الحوامل فيجعل لكل منهن الجواري يراقبن وضعها ويعلن ايتها كانت السابقة الى الوضع ، فاذا وضعت غلاما ، امر بالعناية به وتربيته كما يربى ولي العهد ...

وقد ضرب الملوك اليمنيون نقودا نقشوا عليها صورهم واسماءهم واسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند ، وتوجودا برمز سياسي او اجتماعي كصورة البومة أو الصقر او رأس الثور رمز الزراعة او صورة الهلال الذي هو رمز ديني ، وفي متحف فينا مجموعة كبيرة من هذه النقود .

ويستدل من صورهم على النقود ، انهم كانوا يجعلون شعرهم جدائل يرسلونها على الاكتاف او الظهور او الخدود ، كما يستدل انهم لم يكونوا يرسلون اللحى والشوارب ، فهم يشبهون المصريين والحبشان في هذا اكثر مما يشبهون الاشوريين ؛ وهذا فيه بعض الظن ان اصل السبائيين من الحبشة .

وكانوا اذا ارادوا الخروج لصيد او لامر ، ركبوا الافراس عليها السروج واللجم من الذهب ، والمركبات تجرها الخيل او الافيال .

وذلك مظهر من مظاهر ملوك الحبشة في ركوبهم .

وقد روى تيوفان ، خبر الوفد الذي ارسله يوستين قيصر الى الملك الحميري في اوائل الجيل السادس للميلاد ، واسم رئيس الوفد يوليانس ، قال :

« رأى الملك واقفا على مركبة يجرها اربعة افيال وليس عليه من الثياب غير مئزر محوك بالذهب حول حقويه وفي ذراعيه الاساور الذهبية الثمينة .

وكان يحمل بيده اليمنى ترسا ورمحين « ولعلها الصولجان عندهم » وحوله رجال حاشيته عليهم الاسلحة ينشدون له اناشيد الاطراء والشكر .

فلما اقبل سفير القيصر ، ناوله الكتاب ، فقبله ثم قبل السفير ، وقبل الهدايا التي يحملها اليه »

وقد جاء في الكتاب ان القيصر يسأله ارسال رجاله لارجاع الفرس عن حدود بلاده ، ويحفظ طريق التجارة مفتوحا لاهل الاسكندرية .

طبقات الامة

اما الامة فطوائف اربع ، الجند المسلح لحفظ النظام وحراسة القوافل والقلاع وطائفة الفلاحين الذين يستثمرون الارض ، والصناع والتجار ، ولكل طائفة منها حدود لا تجاوزها وقد لا تجد رجلا ينتقل من هذه الطائفة الى تلك .

ولعل اغرب ما ذكره استرابون ، تلك الاشتراكية الغريبة عند اولئك العرب المتمدنين ... اسمعوه يقول :

« يشترك افراد كل عائلة في الاموال والمتاع ورئيسهم اكبرهم سنا ...

وليس هذا القول غريباً كما ترى ، لكنه يعود فيقول :

« والزواج مشترك عندهم يتزوج الاخوة امرأة واحدة فمن دخل الى حجرتها ترك عصاه بالباب ... ومن تزوج من غير عائلته عوقب بالموت » .

ثم يورد حكاية يثبت فيها قوله ، لا نجد ما يدعونا الى نشرها ...

الفلاحون

هم الطائفة الاولى في العدد ، وهم اركان عمران القطر اليمني وغناه .

جعلوا الجبال سهولا زاهرة وحولوا الرمال الى بساتين ، وغرسوا في ارض اليمن من الاشجار والازهار ، ما جعلها جنات غناء كما قرأت .

وليس في اليمن انهار .. ولكن تلك السدود (الخزانات) التي بنوها في الاودية والباقية انقاضها الى اليوم ؛ كانت بحرا فياضا يروي ماؤه الارض الجدباء فيصير الجدب خصبا .

اجل ، والعرب اول من بنى السدود يحفظون فيها للصيف ، مياه الشتاء ويرسلون تلك المياه في أقنية طويلة عجيبة تسقي سفوح الجبال وما يجاور الاودية من السهل .

ويستغرب المرء اليوم ، عندما يرى تلك المواضع التي كانت فيها من معين وسبأ وحمير ، رمالا محرقة ، وجبالا جرداء ، نعم يستغرب ذلك وهو يقرأ عنها في كتب الفرنج والعرب انها كانت في عهد ذلك التمدن الذي وصفوه ارضا تنبت لاهلها البركات .

وارض اليمن ، اخصب بلاد العرب على ما يقول استرابون ، وعلى مايذكر الهمداني الذى رأى بعينيه ، ولمس بيديه .

الصنائع

كانت صناعة اليمن قائمة بصنع الطيوب والسيوف وبعض الاسلحة ليس غير؛ ولم يكن ، بين الامم القديمة من يجاري اليمنيين في صناعتهم هذه .

وفي اليمن ، البخور ، واللبان ، والمر ، والبلسم ، يجنون كل هذه الانواع بجهد وتعب ، ويرسلونها طيبة حسنة الى جميع الاقطار .

اما المعادن فكثيرة جدا وارض العرب فيها الذهب بالقناطير . وقد كان ذهبها سببا لطمع الفاتحين في العصور التي تقدمت الميلاد .

المدن

لقد رأيت ان المدن كانت عامرة وكثيرة في ذلك الزمان ، اعظمها كلها مأرب ثم يجيء بعدها في العظمة ، معين وبراقش وناعط وبليون وشبوة وظفار وغيرها . وكل واحدة منها ، بما فيها من قصور وهيا كل وقلاع اعجوبة في الزخرف والفن ،

ويقول استرابون وغيره ان قصورها تشبه في وضعها وبنائها قصور مصر حتى ان زخرفها يكاد يكون واحدا .

ويظهر ان الشعب اليمني ، كان مولعا بالبناء واقامة الاثار الخالدة لآلهته مثل جميع الشعوب التي لم تزل هياكلها الجبارة مظهرا من مظاهر الاحترام الديني والمدنية التي لا يبليها الدهر .

ولعل آلهة اليمن اوفر حظا من آلهة البابليين والمصريين ، بدليل انهم بنوا لها في مدينتين اثنتين ـ ناجية وتمناء ـ خمسة وستين هيكلا وفي شبوة عاصمة حضرموت وحدها ستين هيكلا ليس غير ... !!

ونحن لا نستطيع ان نصف لك جميع المدن التي ذكرها المؤرخون ؛ بل نصف لك مأرب ـ صناعة بلقيس ـ كما عرفناها ؛ لتلمس بيديك تلك العظمة التي جعلتها في صف المدن الكبرى بل التي جعلتها محجا للعلماء والمؤرخين .

مأرب ، « التي يقال لها سبأ » لفظة آرامية هي ماء وراب اي الماء الكثير سميت كذلك لان المياه كانت تنحدر الى سدها العظيم ، في وادي اذنة القائم على جانبها الشرقي .

وتثبت الانقاض والاثار ، انها كانت مستديرة قطرها لا يجاوز الكيلومتر الواحد ولها سور ضخم يدخل منه من بابين ، احدهما من الشرق والاخر من الغرب كما كانت الحال في جميع المدن التي تشبه مأرب .

وعلى ذلك الباب الغربي ، كتابة ذكر ميلر تفسيرها .

« هذا بناه يثعمر بن سمهعلي ينوف مكرب سبأ »

وفي قلب مأرب ، انقاض هيكل عظيم يدعوه اهل تلك الناحية اليوم ، هيكل سليمان وفي مأرب يقول الطمحان :

اما ترى مأربا ما كان احصنه   وما حواليه من سور وبنيان

واغرب ما تقرأ وتسمع ، ان قصور مأرب كانت من الرخام !! وهي قصور الملوك الذين استووا على عرشها ، يبني احدهم فيها قصرا يقيم به ويجعله بلاطا له ، لم يجيء غيره فيبني غيره حتى امسك قصورها كبيرة ، منها سلحين ، قصر بلقيس ،

والنهجر والقشيب وفيها قال علقمة .

رمنا الذي دانت له الارض كلها بمأرب يبني بالرخـــام ديارا

وقد طاف الهمداني بين انقاض مأرب في الجيل الرابع للهجرة فـــذكر في كتاب الاكليل اعمدة عرش سلحين قائلا :

انها لا تزال قائمة ولو اجتمع جيل على ان يصرعوا واحدا منها لم يقدروا لانهم نقبوا لكل عمود في الصخر وصبوا النحاس في اسفله »

نعم ان قصر سلحين يسمونه قصر بلقيس ، وهو اعظم قصور العاصمة وقد اشار اليه علقمة بقوله :

وقصر سلحين قـــد عفاه ريب الزمـــان الذي يريب
تعوي الثعاليب فى قراهـــا ما في مسا كينهـا غـريب

ويقول فيه علقمة ايضا ، وقد ذكره الاستاذ ميلر :

اوما ترين وكل شيء للبلا سلحين خاوية كأن لم تعمر

وهنالك اثر آخر لبلقيس ، يقال له حرم بلقيس ، لا يبعد كثيرا عن مأرب وهذا الاثر احد هيا كل العبادة .

وعظمة سلحين وزخرفه ، وكثرة قاعاته ومقاصره ودهاليزه تكاد تضيع كلها عندما تذكر قصر غمدان في صنعـاء ، وقـد وصفناه لك في رواية الحـــارث الغساني .

ولكن ننشر لك شيئاً عنه ، فقد يكون بين انصار الليالي من لم يقرأ روايـة الحارث التي ذكرناها .

اثبت ارنو وهاليفي وغلازر ، ان الهمداني صادق في كل ما ذكره عن اثار اليمن بدليل انهم شاهدوا تلك الاثار بعد ان وصفها في كتابه .

والهمداني يقول فى وصف غمدان :

ان بانيه اليشرح يحصب ، « من ملوك الجيل الاول للمسيح » وظل قائماً الى ايام الخليفة عثمان بن عفان « رضي الله عنه » في اوائل القرن الاول للهجرة فيكون عمره اذاً اكثر من ستمائة سنة .

كان غمدان عشرين سقفاً غرفاً بعضها فوق البعض الآخر « اي عشرين طابقاً مثل الابنية التي تراها اليوم في نيويورك وغيرها » .

وبين كل سقفين عشرة اذرع ، وان بانيه لما بلغ غرفته العليا اطبق سقفهـا برخامة واحدة شفافة وكان يستلقي على فراشه في غرفته فيمر به الطائر فيعرف الغراب من الحدأة « الشوحة » وهو تحت الرخام ، وكان فيه اربعة تماثيل اسود من نحاس مجوفة، رجلا الاسد في الدار ورأسه وصدره خارجان من القصر ، وما بين فمه الى مؤخره حركات مدبرة ، فاذا هبت الريح ودخلت اجواف الاسود تسمع لها زئير كزئير الاسد ، وكانت غرفة الرأس العليا التي هي في مجلس الملك اثنا عشر ذراعاً ولها اربعة ابواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب عندكل باب منها تمثال من النحاس اذا هبت الريح زأر .

وكان فيها ستور لها اجراس اذا ضربت الريح الستور تسمع الاصوات من بعيد ، ومما قيل في وصف غمدان :

يسمو الى كبد السماء مصعدا	عشرين سقفا سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة	ومن الغمـام منطق ومؤزر
متلاحماً بالقطر منه صخره	والجزع بين صروحه والمرمر

ويلي غمدان بالعظمة والشهرة قصر « ناعط » وهو في همدان ، وتتبعه قصور كثيرة تزيد على العشرين .

وفي تلك القصور بقايا مسامير حديد قيل انها كانت مراقي الى رؤوسها فاذا ارادوا الدعوة الى امر او الى حرب ، وضعوا على تلك المسامير الشمع واشعلوه ، ليرى الناس النار من جبل سفيان وغيره من الجبال .

وناعط اقدم من غمدان لان الملوك الذين كانت لهم يد في اصلاحه ، هم من اهل القرن الثاني قبل الميلاد .

افلم تر الآن ، ان اثار اليمن تشبه اثار مصر واثينا وتدمر وبعلبك وغيرها من الآثار التي هي مفخره الاجيال ؟

بلى : وقد رأيت ايضاً ان اهل اليمن لم يكونوا في مجموعهم من البدو بل من

الحضر اصحاب المدن والقصور والهياكل التي هي مضرب المثل من الشعوب اهل الترف والبذخ الذين لبسوا الديباج والخز وافترشوا الحرير واتخذوا الفضة والذهب آنية لهم .

قال اغاثر سيدس : «للسبأيين في منازلهم ما يفوق التصديق من الانية والاوعية على اختلاف اشكالها من الفضة والذهب .

وعندهم الاسرة والموائد من الفضة والرياش من افخر الانسجة واغلاها .

قصورهم قائمة على الاساطين المحلاة بالذهب او المنزلة بالفضة ، يعلقون على افاريز منازلهم صحائف الذهب مرصعة بالجوهر ، ويبذلون في تزيين قصورهم اموالا طائلة لكثرة ما يدخلونه في زينتها من الذهب والعاج والحجارة الكريمة وغيرها من المواد الثمينة » .

وليس في ذلك غلو ، فقد اثبتت التواريخ هذا القول وجاء في شعر العرب ما يؤيده كقول تبع في عرش بلقيس :

عرشها رافع ثمانون باعا	كللته بجوهر وفريد
وبدر قد قيدته وياقو	ت بالتبر ايما تقييد

وقوله في وصف مأرب :

ومأرب قد نطقت بالرخام	وفي سقفها الذهب الاحمر

ولم يتمرغ اهل اليمن في احضان الترف والغنى ، الا لان بلادهم كانت بلاد البركات كما تقدم، ولان المال وفر لهم وكثر في ايديهم حتى تفننوا في بذله وتمادوا في انفاقه .

والفضل الاول في الغنى للسدود ، التي جعلت معظم بلاد اليمن رياضا مثمرة خضراء كما قرأت .

وسد العرم اعظمها واشهرها وقد ذكرته جميع التواريخ .

اجل ، تلك فكرة للعرب يذكرها لهم اهل الجيل العشرين المتمدنون ، فهم الذين اخترعوها للعالم وجعلوها سببا من اسباب العمران والرقي .

ارادوا ان يحيوا ارضهم وليس في ارضهم ماء فعمدوا الى الاودية يحجرون

سيرها بالسدود لم يدعوا واديا منها الا واستثمروا مياهه .

فكانت لهم في هذه الفكرة الجداول والانهـــار ، في فصل الصيف ، تسقي بساتينهم وجناتهم على مر الايام .

هكذا فعلت مصر من قبل ، وهكذا تفعل اليوم .

لقد رأى المصريون ان النيل ينخفض في بعض الاودية فلا تستفيد ارضهم من مائه ، فبنوا الخزانات فارتفع ذلك الماء ثم اطلقوه يجري على الجانبين وينبت الذهب للمصريين .

وجاوزت سدود اليمن المئات الى حـــد انك لا تمر ببلد الا وترى حولـــه بضعة منها يختلف الواحد عن الآخر بالطول والسعة على قـــدر امتداد الوادي او قصره .

وفي مخلاف يحصب وحده ، اي في قضاء واحد من اقضية اليمن ثمانون سدا ذكرها الهمداني باسمائها واشار اليها الشاعر بقوله :

وبالبقعة الخضراء من ارض يحصب ثمانون سدا تقذف المـــاء سائلا

اما سد العرم أو سد مأرب ، فقد اختلف المؤرخون في خبره :

قال بعضهم ان بانيه سبأ بن يشجب وقال البعض الآخر : بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخاً في فرسخ وجعل له ثلاثين منفذا وجعل بناءه بالصخر والقار « اي الزفت » يحبس سيول العيون والامطار ثم يصرفون الماء من خروق في ذلك السد على مقدار ما يحتاجون اليه في سقيهم .

ويقول ياقوت : انه ظل كذلك الى ايام حمير ، فلما انحل نظام ملكهم وتقاص ظلهم وذهب الحفظة القائمون بامر السد انذروا بخرابه على عهد عمرو بن مزيقياء ملكهم .

وزعموا ان كاهنة اسمها طريفة انذرتهم بذلك في حديث طويل جاء فيه انهم رأوا الجرذان تنقب في السد فخافوا انفجاره .

كذلك اختلفوا في عهد ذلك الانفجار ، وتفرق قبائل اليمن .

ان حمزة الاصفهاني يقول : حدث الانفجار قبل الاسلام باربعة اجيال اي في القرن الثالث للميلاد .

وذكر ياقوت ان السد تهدم في ملك « حبشـــان » اي الحبشة .



أسماء الملوك

•

بدأ ملوك الطبقة الاولى من حمير ، اي ملوك سبأ وريـــدان ، في اواخر الجيل الثاني قبل المسيح ، سنة ١١٥ ، كما مر .

وقد اثبتت النقوش والآثار ان الملوك الذين جلسوا على العرش الحميري من ذلك التاريخ الى سنة ١٧٠ بعد المسيح ، كانوا ثلاثـــة عشر ملكاً اولهم « علهان نهفان » وآخرهم « وهب ايل يحز » .

ومن سنة ١٧٠ الى سنة ٢٥٠ ، تولى امر الملك ، مــلوك لم يعثر على اسمائهم ولم يرد لهم ذكر .

ثم لبس التاج من سنة ٢٥٠ الى سنة ٢٧٥ ، ياسر انعم آخر مــلوك العهــد الحميري الاول ، وبدأ في السنة نفسها العهد الحميري الثاني واول ملوكه شمر يرعش ملك سبأ وريدان وحضرموت .

ولم يظهر في الاثار اسم للحارث الرائش الذي قالت العرب انه اول مــلوك العهد الثاني اي عهد التبابعة .

كما ان ملوكا كثارا ذكرتهم العرب ولم تذكرهم الاثار .

والسبب في هذا ان العرب جعلت بعض اصحاب المخاليف في صف المــلوك ونقلت اسماءهم الى الاجيال ولم يكونوا ملوكا متوجين .

نعم ، ونحن لا ننظر الآن الى اقوال المؤرخـــين فحسب ، بل ننظر الى تلك الاقوال المحفورة على انقاض اليمن ، فهي مع الاستعانه بالتواريخ ، تخرج لنـــا الواقع كما هو لا كما شوهته الخرافات والاوهام .

وليس لنا ان نثبت وجود الحارث الرائش او ننفيه ، فقد يكون من اولئك

الملوك الذين طمس اخبارهم الزمان ، وقد يكون من الاقيال الذين جعلهم المؤرخون في جدول الملوك .

ان الليالي لا ترسل الكلام الطائش الذي يعوزه البرهان ، بل تتخذ الآثار المكتوبة التي يستند اليها العالم حجة لما تكتب ، ليكون الضمير راضيا عن الخدمة التي نؤديها الى الامة .

اذن نبدأ بالعهد الحميري الثاني منذ تولى شمر يرعش امر الملك :

شمر يرعش

هو في نظر العرب اشهر ملوك حمير واعظمهم شأنا وابعدهم نفوذا وهيبة غزا فغنم ، واستولى بقوة السيف على الاقطار البعيدة النائية ينتقل من فتح الى فتح ومن نصر الى نصر لا تقف في وجهه القوى الكثيرة التي تصدت له في فتوحه .

ويقول المؤرخون ، منهم ابن خلدون ، انه غزا العراق وفارس وخراسان ففتح ودمر وخرب مدينة « الصفد » وراء جيحون فقالت العرب « شمركند » اي شمر خرب ، ثم بنى هنالك مدينة سميت باسمه وعربها العرب فصارت « شمرقند » .

ويقول بعضهم انه اخضع لسلطانه بلاد الروم وهو قول لم يرد له ذكر في كتب الامم الاخرى .

اجل ، لقد فتح الغزاة من العرب ، بلاد لم يخطر للناس انهم يستطيعون اخضاعها بالسيف ، ولكن لا نستطيع ان نصدق ان فتحا مثل هذا الفتح الذي ذكروه ، تسكت عنه الاقلام ، ويغفل عن ذكره ، جميع الادباء الذين خلدوا في كتبهم اخبار الدول والشعوب .

وعاش شمر يرعش على العرش خمسا وعشرين سنة ، حتى نهاية الجيل الثالث فملك بعده افريقس الصعب ، الذي يسمونه :

وهو عندهم فاتح بلاد المغرب وناقل قبائل العرب اليها !!

وانت ترى ان في هذا القول غلوا لم نجد له اثراً واحـــداً بين جميع الآثار التي عالج امرها المؤرخون .

ومن يعلم ، فقد يخلق الزمان آثاراً جديدة تثبت هذا الخبر الذي نعده غلوا .

وسمي ذا القرنين ، لضفيرتين من شعره كان يرسلهما على قرنيه اي جـــانبي رأسه ، وكان كثير الاسفار والغارات لا يطيق الاقامة بالقصر شهرا واحدا فكأنه خلق ليطوف في البلاد والاقطار كما يطوف الاسد في الغابات .

ملك طامع لا يهدأ ولا يستريح ، وليس في اليمن كلها من يجسر على الوقوف في وجهه . .

* * *

نحن الآن في اوائل الجيل الرابع للمسيح ، سنة ٣١٥ ، وذو القرنين على عرش اليمن كما قرأت .

وهو في عنفوان القوة والمجد ، يغزو كلما طاب له الغزو ، ويضرب عندمـــا يطيب له التذمر والضرب ، والناس حوله راضون بسلطانه ، مطمئنون الى اعمال الفتح والغزو في ظل ملكهم الجبار .

وجنوده كثار ، وكلهم ابطال الميادين ، يرأسهم قواد بسلاء يستهينون بالموت في سبيل نفوذه ، ونشر لواء ملكه في الاقاليم .

وهم الاغنياء اصحاب الذهب ، يسعى اليهم سعيا على اكتاف الزعماء والعبيد كما يسعى الى سيدهم ذي القرنين .

ولكل واحد منهم قصر يجاوز قصر الملك ، فيه طوائف الجواري والغلمان، وما يتبع هذه الطوائف من ازواج وانسباء .

اجل : ان قصور القواد بمن فيها من هؤلاء ، مدن صغيرة في قلب عاصمة الملك الواسعة الاطراف .

والقائد ملك صغير يعيش في ظل الملك الاكبر ، يطيعه الناس كما يطيعون مولاه ، ويخضعون لارادته القاسية التي لا ترد .

ان ذا القرنين لا يختار قواده الا من الاقيال ، اصحاب المخاليف الكبيرة الذين الفوا سياسة الحكم ، وتعودوا النظر في شؤون اليمنيين .

هكذا كان يفعل الملوك الذين تربعوا قبله في عرش حمير ، في العهد الاول وهكذا كان يفعل شمر يرعش نفسه ، الملك الغازي العظيم الذي رفع الاسم الحميري الى ذروة العلياء .

وان ترى ان في هذا الاختيار دهاء وحكمة ؛ فاصحاب المخاليف ملوك هم السلطان والسؤدد ، واهل الكلمة النافذة في القبائل المنتشرة في سهول اليمن والجبال ...

نعم ، يختار الملوك قوادهم من هذا الصنف ، ليستغلوا نفوذهم في ادارة الملك ويكفوا انفسهم شر هذا النفوذ .

وغاية كل ملك ان يفرق بين اولئك «الاقيال» ان كان في اجتماعهم خطرا على عرشه ، لا يستطيع في كل ساعة ــ بل لا يريد ــ ان يتصدى له .

يساعده من وجه اخر ، طبيعة الانسان التي ترغب في الاستئثار ..

فهؤلاء الامراء لا يحب بعضهم البعض الآخر ولو اظهروا هذا الحب ، وليس بينهم من يرضى ، مختاراً بامارته ، بل ليس في صدورهم عاطفة الاخاء .

هذا يريد ان يترك « مخلافه » غازيا مخلاف جاره ، وهذا يلعب من وراء الستار لتقوم الفتنة في البلد القريب منه ، والآخر ينفخ في بوق الثورة لتتم له الغاية التي يمهد اسبابها ، ولولا الملك ، اجل لولا الملك لفعلوا كل هذا في كل يوم ولم يبالوا ...

ان غرض التفريق الذي يجول في صدر الملك الحميري ، يقف عند هذا الحد

عند الحد الذي تبدأ منه الحرب بين اصحاب المخاليف ...

ليكن الامير نمّاماً واشياً اذا شاء ، وليكن ظالماً سفاحاً عندما يشاء ، ولكن ليس له ان يشهر الحرب على اخيه ويرسل جنوده الى الساحة الا اذا امره الملك بأن يفعل .

ان الحرب نار .. لا يلبث لهيبها حتى يمتد الى البلاط ، وهذا ما لا يريده الجالس على العرش .

ولكن ، لا يستطيع الملك مهما تكن قساوته وحزمه ، ان يمنع هذه النار من الظهور ، ففي اليمن امراء لا يطيب لهم الا العصيان ولا يفكرون الا في الثورة ، يغلي الحسد في صدورهم ، وتطل الشهوة والطموح من عيونهم فهم يقولون كلما هبت الريح في الفضاء : علينا وعلى اعدائنا يا رب ...

كأنهم لا يريدون الا ان يكونوا دائماً سادة الموقف في اليمن ...

او كأنهم من اولئك النـــاس الذين لا يرضيهم الا ان تهبط السماء الى الارض او ترتفع الارض الى السماء .

والملك يستعين عليهم بالسيف فيسكت مطامعهم ويعيدهم الى الهدى ، واذا عجز ، قلبوه عن العرش وولوا غيره، وهم يضمرون له ما كانوا يضمرونه للرجل الذي خلعوه .

وكثيراً ما يغض الملك طرفه عن مظاهر العصيان التي يرى ، عندما تكون في هذا الغض سلامة العرش .

تلك كانت حال اليمن في ذلك العهد ، ولعمري انها لحال جميع الدول التي يتنازع النفوذ فيها اصحاب « المقاطعات » طلاب الشهرة والمجد .

بلاط الملك

كان ذو القرنين في بلاطه ، غيره خارج القصر وفي ساحات الوغى .

ان الملك الطماح الفاتح ، الذي يقود خيله الى البلاد الامنة فتطأ حوافرهـــا

التيجان وتحطم العروش ، الملك القاسي الذي لا يعبأ بالجثث يدوسها بقدميه ، والدماء تصبغ وجهه وثيابه ويديه ، كان في بلاطه ، بين نسائه وجواريه ورجال مشورته ، الملك الهادىء المستسلم الى الترف واللذة لا يبالي بما يسمعه ويراه .

كأن امر البلاط لا يعنيه ، او كأنه غريب ليس له شأن مع اهل قصره الذين هم نبلاء الناس واشرافهم.

يدلك على هذا ، ان هؤلاء الاشراف كانوا احراراً ، لا يعرفون في البلاط نظاماً ، ولا تسودهم عادة من عادات الملوك في القصور .

الا نساءه ، فقد جـــار عليهن حتى رأى اخيراً ان يمنعهن من ان ينظرن الى الشمس او يستقبلن الهواء الحر .

وكل شيء ، عدا هذا ، يراه اهل القصر حسناً فهو حسن ..!!

وكانت نساؤه ، على رغم هـــذا الجور ، يحترمن امره وفي ذلك الاحترام شيء من الحب ...

لقد احاطهن بجميع اسباب العز وهذا يكفي ...

ولم يكن لذي القرنين ولد غير عمرو ولي عهده ؛ وعمرو في السابعـــة عشرة من عمره ، يحسب الارض صنـــع يديه ، وما على الارض من انسان وحيوان ملكا له ..!

انه ابن ذي القرنين ، رب اليمن ، ومالك رقاب اهله ..!

وسيلبس التاج الذي يلبسه ابوه ، بعد حين .

وعندئذ يصبح في بلاده السيد الاكبر الذي ليس في اليمن اعظم منه غــير الالهة .

ولكن الالهة لم تكن اعظم مقاما منه . . العبيد حوله في نهاره وليله والبخور يحرقه اتباعه عند قدميه ، والطيب تفوح رائحته في الجناح الذي يقيم به وامراء اليمن والاشراف بين يديه ينشدون له اناشيد التكريم والاعجاب .

واذا خرج من القصر ، فعلى العجلات الذهبية او على اكتاف الغلمان . . .

حياة دلال وعز تجاوز الحد في كل شيء .

وعمرو ، في مجموعه ... حسن الصورة ، ابيض الوجه ازرق العينين يشبه امه التي اهديت الى ابيه من الشام .

غير ان الغرور والكبرياء الباديين في كل مظهر من مظاهره ، حجبا صورته الحسنة فلم يبد منها غير الجانب الخلقي القبيح .

اجل ، ان ولي العهد كان مغرورا . والنفوس الصغيرة تبطرها النعمة ويستهويها الغرور عندما تحيط بها اسبابه .

العرش ينتظر عمرا ، والمال كثير لا يفنيه الزمان ، والناس يسجدون له في رواحه ومجيئه ، وانت تعلم ان السبب الواحد من هذه الاسباب يخلق الغرور .

وقد شاءت الاقدار ان تلبس ولي العهد حلة غريبة لا يلبسها عادة ابناء الملوك . كان قاسياً لا تثبت قوة من القوى في وجه قساوته وطائشا لا يقف عند حد في طيشه ، ومستهترا لا يبالي بما يفعل ، ومتهتكا لا يعبأ بالهوة التي يقذف به اليها هواه .

وكان شبابه ، على رغم صغر سنه ، سلسلة جرائم ، بعيدة الغور ، عظيمة الاثر ، يجلد عبده بسوطه حتى يسيل دمه ، ويضرب البريء بسيفه حتى يلفظ روحه ؛ وهو لا يسمع عند هذه المشاهد الرائعة غير الفاظ الثناء والاطراء ، من رجال البلاط المتمتعين بخيرات ابيه .

وولي العهد شديد البأس ، يصرع الفارس الذي خبر الميادين ، ويقتحم بفرسه الجيش الجرار فيجعله شطرين .

وهذه ساحات اليمن تشهد لعمرو بن ذي القرنين .

وكما ملأ ابوه بلاطه من النساء اللواتي هن آيات الجمال ، هكذا ملأ عمرو جناحه الخاص ، من فتيات اليمن بنات الاشراف .

يعبث زمنا ، بهذه الفتاة ثم يملها ، وينتقل الى غيرها ، ودخان البخور بين هذا العبث وهذا الانتقال ، يتصاعد في الاروقة والدهاليز ، تكريما للفتى المستهتر وارث التاج الحميري .

وكلما وصفت له عذراء ، في ذلك القطر الواسع الارجاء ، ارسل الى ذويها

من يحملها اليه ، ويكفي ان يقول ولي العهد كلمة ، فتبذل له الاعراض ، والدماء ، والارواح .

والويل لمن لا يطيع الامر العالي الصادر عن اله حمير ! ان الموت بالحبل المعلق بالشجرة ... خير جزاء له .

وجميع الامراء الفتيـــان الذين يعيشون في ظل عمـــرو ، مثل عمـــرو ، كلهم مستهترون اغرار ، لا ينظرون الا الى اللذة الزائلة يتمرغون في احضانهـــا حتى ترتوي القلوب .

ولولي العهد ، بين هؤلاء ، فتى هـــو امينه الاول وصاحب سره ورجـــل مشورته اسمه ناشر ، هو صاحب مخلاف ظفار ، واحـــد امراء اليمن اصحاب النفوذ والعز والسلطان في القوم .

وناشر هذا ، صورة « طبق الاصل » لسيده ولي العهـــد ، في الغرور وفساد السيرة ... وفي القساوة الغريبة والكبرياء .

وهو رفيقه في لهوه وصيده ، واسفاره ولعبه ، لا يتركه في العـــام غير شهر او شهرين ينصرف فيهما الى مخلافه ، للنظر في شأنه الخاص .

وليس في فتيان اليمن ورجال البلاط ، اعز من ناشر على قلب عمرو ... انه شريكه في اللذة وعشير صباه ؛ والاثنان اخوا مودة وولاء ، الواحد منهما عون للآخر في كل ما يعرض له من حادثات ...

وبقوة هذه الصحبة ، وفرت لناشر كل اسباب الجاه ، واصبحت كلمته في البلاط وخارج البلاط كلمة ولي العهد نفسه ، يحترمها رجال الرأي والمقربون من الملك ، ويطيعونها كما يطيعون امر الجالس على العرش .

الا واحدا من هؤلاء ، لم يكن يعبأ بالاثنين ، على رغم منزلتهما في دولـــة اليمن ، وادلالهما على ذي القرنين ، هو « ذو تبع » صاحب مخلاف همـــدان ، الذي يعد في اليمن من اعظم المخاليف وارقاها .

ونحن نصف لك هذا الفتى ، في السطور الآتية :

امير همدان

فتى اسمر الوجه ، اسود العينين ، تقرأ المروءة في عينيه ، ويلمع الكبر وعظمة النفس على جبينه الزاهي .

وهو ربعة ، في كل مظهر من مظاهره جمال جذاب ، وفي كل كلمة من كلماته بيان خلاب ، فكأنه اختار بنفسه تلك الصفات الطيبة التي وهبت له ...

وذو تبع ،من مشاهير اليمنيين ، ورث الكبر والاباء عن ابيه ، واستوى بعده في عرش امارته ، وهو لم يجاوز العام السادس عشر من العمر .

ولم يمض على جلوسه في عرشه الصغير ، غير سنة واحدة .

اما ابوه ، فلم يكن من رجال البلاط بل لم يكن من المخلصين للملك كما انه لم يكن من اولئك الخصوم الذين يجردون في وجه الملك ، سيف التمرد والعصيان .

كان راضياً بما قسم له الله ، همدان بلد طيب كثير الخيرات موفور البركات ، واهل همدان اهل سلام وطاعة ، وصدق واخلاص ، وهو بينهم كالصنم في الهيكل يقوم حوله المصلون والعباد .

وفي اي شيء يطمع الامير الراضي بامارته ؟؟ انه يطمع في حب شعبه ، وتمهيد السبل التي تؤدي الى عمران بلده ، ويكفيه انه ذلك الغني الذي لا يحتاج الى رضى الملك ليكثر ماله ...

اجل : انه لم يكن طامحاً الى المجد يبذل دماء قومه ليبنيه ، بل كان راغباً في الحياة الهادئة البعيدة عن متاعب الزمان .

وقد مضى في سبيل تلك الرغبة ، بشرف وعز ، لا بضعف وذل ، كما يفعل الادنياء الساقطون .

وكان يرى ذا القرنين عاتيا مستبداً في حكمه ، وفاتحاً قاسياً في فتحه ، فلا يهتم له ولا يبالي بما يفعل .

ان القساوة والاستبداد والفتح لم تكن من رأيه .

وتعب ذو القرنين كثيراً ليجعله من رجال البلاط فلم يستطع . .

كان عذر امير همدان انه لا يترك قومه ، وكان عذر الملك في سكوته عنه انه لم يظهر عصياناً ولم يخرج عن الطاعة .

وبقيت الحال بينهما كما رأيت ، الوعود تتبع الوعود، والاعذار تتبع الاعذار، حتى مات امير همدان في ساعة لم يكن فيها شيء من الانذار بالموت .

فارتاحت نفس الملك الى موته ، لكن دهاءه املى عليه ان يظهر اسفه ، ويذهب بنفسه الى همدان ، ــ وهو الملك الذي لا يخرج من القصر الا لحرب او صيد ــ ليشيع جثته الى القبر .

ثم مضى شهران ، وهو يحاول ان يضم ذا تبع الى رجاله .

واعترف على الاثر ، بامارة ولده ، واجلسه بيده في مقعد ابيه وزين له العيش في البلاط الحافل بالنبلاء والاشراف من الجنسين .

وقد رأيت ان الامر انتهى برضى الامير الصغير ، وكان رضاه نظراً بعيداً وحكمة غفل عنها ابوه في حياته .

ان الاصرار على البقاء في همدان ، جفاء للملك ، وآخر الجفاء حرب . . . فخير له ان يترك امارته بضعة اشهر في العام ، وينظر اليه الملك كما ينظر الى المخلصين ، من ان يبقى فيها الى الابد ويكون من الاعداء .

ومهما يكن سلطانه وعزه في قومه ، فهو اعجز عن ان يثبت في وجه الملك ، اذا فاجأته الحيل .

ولكنه عندما رضي كان واثقا بحب الملك وايثاره اياه على سواه من الامراء ، وعلى هذا الرجاء ترك امارته بعد ان عهد الى اخيه مالك الذي لم يبلغ الثالثة عشرة ، وعمه عبيد في ادارة الشؤون .

ومنذ وطئت قدماه بلاط ذي القرنين ، عرف اي بلاط هو ، واحس ان ولي العهد المستهتر القاسي لا يستطيع ان يرضي قومه وله مثل الاخلاق التي رأيت .

بل احس ان روحه لا تستطيع ان تتحد بروحه ، وان الاخلاص الذي حدث به نفسه ووضعه امام عينيه ، يكاد يضمحل عند مشاهد الفساد التي لمسها بيديه .

غير ان امير همدان لا يكون خائنا ، ومن المروءة ان ينصح لعمرو بـــترك غروره ، واحترام نفسه في بلاط ابيه .

وهكذا فعل ، لكن نصيحته ضاعت كما تضيع قطرة الماء في البحر . وانتهى امر هذه النصيحة بانصراف ولي العهد عنه .

كان ذلك الامير المتكبر لا يطيق ان يسمع نصائح عبيـــده ...! او كأنه لا يشاء الا ان يسموا الظلام نورا ، اذا قضت ارادته بذلك .

ولم ينته الامر عند هذا الحد ، فان ناشرا امير ظفـــار ، طلب الى عمرو ان يهين صاحب همدان عـــلى مرأى ومسمع من الامراء ، كي لا يعود الى مثلها مرة اخرى ...

والا فهيبة ولي العهد تضيع في بلاط الملك ...

فلم يتردد عمرو في الامر ، بل قال لابيه وهو في مجلسه وبين رجاله :

ان ولي العهد لا يريد ان يكون هذا الفتى من غلمانه ...

واشار الى ذي تبع .

فعرف الملك كل شيء لان الامير كان قد أخبره حكاية نصيحته، فقال :

اذن يبقى ذو تبع من رجال الملك .

ولكن الهمداني لم يسكت ، بل وقف قائلا :

ايكون امراء اليمن يا مولاي ، غلمانا ، في نظر ولي العهد ؟

فلجأ ذو القرنين الى الدهاء بقوله :

كلكم غلمان يرأسكم عمرو .

ثم اومأ الى ولده وقال : انصرف يا عمرو واعلم ان تبع من ابناء الملك .

وقام فخرج من المجلس وامر سيد همدان بان يتبعه .

فعل هذا ليكفي نفسه مؤونة الاخذ والرد ، بينه وبين ولي عهده الذي يعرف ان يرضيه بعد حين .

اما ذو تبع ، فقد رضي بما رأى ، واضمر من تلك الساعة اخلاصاً للملك يقل وجود مثله في صدر ، كما اضمر لولي العهد بغضاً واحتقاراً لا حد لهما ...

وكان قادراً ... فلم يصعب عليــه ان يحب الاب الحب كله ويبغض الابن البغض كله ...

كما ان الملك كان قادراً على نفث السم وزرع بذور التفريق ...

***

ترك ذو القرنين المجلس وذو تبع وراءه حتى انتهيا الى مقصورة وراء جناح النساء فقعد الملك على كرسي من الابنوس وامر الهمداني بالجلوس ثم قال له : لقد جاء دور الملك الآن في النصيحة ...

فأجابه قائلا : مر يا مولاي بما تشاء .

قال : الا تعلم يا بني ان الملك لا يريد اغضاب ولي عهده ؟

— ومن اغضبه يا مولاي ؟

— انت : فقد اردت ان تقول له ان سلوكه في القصر لا يشبه سلوك ابناء الملوك وهذا يكفي .

— ولكني اردت ان اخدم مولاي الملك في ذلك القول ..

قال : الملك يعرف كل شيء فهو لا يحب ان تخدمه الا بما يأمرك به .. لقــد تعبنا كثيراً وبذلنا الجهد كله لاصلاح ولي العهد فلم نستطع ... فآثرنا السكوت ريثما تمر هذه السحابة السوداء التي ترافق الشباب في حياته ... انه فتى مثلك لا يعرف من دنياه غير اللذة ، فليجرع من كأس اللذة حتى يرتوي ثم ننظر بعــد ذلك في امره .

ثم قال : والآن فقد دعوتك لاقول لك ان امير ظفار الذي خصه ولي العهد بحبه لا يطيق ان ينظر اليك ..!

— انا يا مولاي ؟

— اجل، وهو الذي سأل ولي العهد ان يتصدى لك في مجلس الملك .

— ولكني اعلم ان اباه كان صديقاً لابي ، وظفار وهمدان امــارتان لم تعكر الحوادث صفوهما من قبل .

فابتسم ذو القرنين قائلا : لا تراجع الملك في ما يقوله لك يا بني ، لقد قلت ان ناشراً عدوك ، فاحفظ هذا القول ولا تتردد في امرك ، واعـلم ان عين الملك ترعاك فلا تخف .

قال : اترى امير ظفار ينصب لي شركاً يا مولاي ؟

ــ انـه لا يغفل عن عدوه طرفة عين ، وقد تخلق قريحته المكائد التي لا تخطر لك .

ــ وكيف يطيق الملك ان يبقى في بلاطه ؟

ــ لان ولي العهد قد اختاره اميناً له ، وولي العهد لا يقول في البلاط كلمـة الا تكون امراً .

وجعل يصف له دهـاء امير ظفار وبغضه ، حتى قام في ذهن الفتى ان ذلك الامير الذي وثق به ابن الملك ، غول غادر يلبس لباس الامراء .

وعندمـا انصرف من المقصورة ، كان الحقد يغلي في صدره ، وقـد تحول هدوءه الى هياج النمر الثائر .

ومنذ ذلك الحين ، اصبحت حياة امير همدان وامير ظفار في القصر ، حياة عدوين ، يغذي عداوتهما ذو القرنين نفسه ، ويضرم النار بين الاثنين .

وكان الواحد منهما يحذر الاخر ويخاف ان يغدر به ..

هكذا كان الملك يصرع امراءه الواحد بعد الاخر ، ويخدر اعصابهم بسياسته الناعمة المفرقة التي تضمن اخلاصهم للعرش .

ان الامارتين اللتين يرأسهما الفتيان ، ذو تبع وناشر ، من اعظم امـارات اليمن ، فعلى الملك ان يبعد الواحدة منهما عن الاخرى خوفا من ان تتحدا فيصبح هذا الاتحاد خطرا يضطرب له التاج الحميري .

وقد تم للملك ما اراد ، فكان ذو تبع ، من رجاله ، وناشر من رجال ولي العهد ، والامراء جميعهم لا يعلمون شيئاً عن سياسة التفريق .

بل يفهم الواحد ... انه خصم للآخر . ذلك ما قاله له الملك والملك لا يكذب ...

شرحبيل بن عمرو

من سلالة يعفر بن حمير ، امير عظيم له في بلاده الكلمة المسموعة والرأي المتبع ، هو شرحبيل بن عمرو .

اي انه سليل الملك الذي بنى العرش، ومد نفوذه فخفقت ألوية ملكه في سماء القطر العربي .

وشرحبيل من عقلاء الناس وحكمائهم الذين ينظرون الى منتهى الافق .

وكان طامحا طامعاً في العرش ، يسعى مع الانصار الذين حوله الى التربع فيه لان حق ذي القرنين لا يزيد عن حقه . . ولان البلاط الذي يعيش فيه ، بلاط ملك لا يعني بشؤون قومه ، مثلما يعني بشؤون نسائه .

ولكن للوصول الى العرش صعب كما رأيت ، وبين شرحبيل وبينه ، هوة بعيدة الغور تقوم حولها السيوف والحراب .

ومع ذلك ، فالهمة والمال يجب ان يبذلا ليبلغ الامير غايته او يفشل .

وكيف يستطيع ان يبلغ هذه الغاية اذا لم يستعن بالجماعة القوية من الامراء ؟

بل كيف يبلغها وهو لا يجسر على ان يبوح بالامر الا لواحد من المخلصين يدعى « ذا مغار » ؟

وذو مغار وحده لا يكفي ولو كانت جنوده اكثر من الرمال . .

اذن فليصبر ريثما ينقلب الزمان ، او فليبح بسره لكل قوي ، ولينفخ روح الثورة في صدور القوم ثم يفاجيء البلاط بالجيش فيظفر او يموت .

وفي ذلك من الخطر ما فيه ، وشرحبيل العاقل لا يقذف بنفسه الى البحر الهائج الذي يزعزع امواجه جبال اليمن .

وذو مغار نفسه ، الذي خبر الحياة وعالج الحادثات في السنين التي عاشها لم تكن القوة من رأيه بل كان من رأيه الصبر ، واعداد العدة بالهدوء من وراء الستار .

وكان لشرحيل ولدان : بلقيس وهي في زهـــرة الصبـــا وفجر الشباب ، والهدهاد ، وهو في الخامسة عشرة من العمر .

وقد اراد ابوهما ان يطلعهما على الامر ثم يستشيرهما فيه .

فدعاهما اليه ، في ليلة كثر مطرها وعصفت فيهـــا الرياح ، وهو في حجـــرة واسعة تشبه حجرة ذي القرنين لما فيها من الديباج والخز والآنية المذهبة ، ومعه فيها ذو مغار وابنه غالب ، وابن عم له يدعى ياسر .

وفي تلك الحجرة الكبيرة ، وقد ارخى الليل سدوله ، عقد شرحبيل بن عمرو مجلس شوراه ، المؤلف من انصاره القلائل الذين عرفت .

ووقف بالباب عبد جبار ، يمنع اهل القصر وضيوفه من الدخول .

وقد سادت السكينة ، واستولى الهدوء على مأرب النائمة .

بلقيس

لا تقع العين في اليمن كلها ، سهلها وجبلها ، على اجمل من بلقيس واحسن وجها ...

عينان فيهما الفتور والعذوبة ؛ ووجه يتدفق منه نور الجمال والجلال ، وابتسامة تغمر ثغرها الذي يفيض سحرا .

وكأنك ترى ، عندما ترى بلقيس ، صورة للجمال رسمتها يد نابغ في التصوير او تمثالا خلابا خلع عليه صانعه حلة من الحسن لا نرى مثله .

ان بلقيس سيدة العذارى الحسان ؛ فاتنات العقول في اليمن ؛ بل هي انشودة الجيل الرابع ... بل هي الجمال العربي بروعته وسحره .

وليس في جزيرة العرب كلها ؛ فتاة تشبه بلقيس في ثغرها الضاحك ولسانها الفصيح ومنطقها العذب ؛ وليس بين صدور النساء صدر يحمل ما يحمله صدرها من شعور عال ؛ وطموح ؛ وعظمة نفس .

كل ما كان في بلقيس يدعو الى الاعجاب ؛ الا طبيعة واحدة غلبت عليها

وضيعت الشيء الكثير من محاشنها التي ذكرناها ؛ هي طبيعة القساوة التي تشبه طبيعة ذي القرنين وولي عهده .

ولو لم تكن من النساء لكان لها عذر ؛ وقد تكون تلك القساوة في نظر بعض الادباء وعلماء النفس ؛ مظهراً من مظاهر الحزم .

يشفع في قساوتها انها لم تكن تقدم على امر الا اذا قتلته درسا وانفرد به العقل لا تشاركه العاطفة ؛ ثم تمضي فيه بالعزيمة التي لا تعرف التردد، والقوة الجبارة التي لا تلين .

وتلك صفات الرجال الذين يمشون في طريق المجد ؛ كما يمشي التيار القوي لا يلوي على شيء .

اوكما تمشي النار الآكلة تلتهم اليابس ولا تعف عن الاخضر ...

وبلقيس ؛ كبيرة في رأيها ؛ كبيرة في قلبها ؛ كبيرة في عاطفتها واحساسها وانك لتستطيع ان تلمس عظمتها وانت لا تعرف من هي ! .

اجل ؛ انها خير فتاة انجبتها ام في اليمن ؛ واعظم شخصية ظللتها سماء الجزيرة في ذلك الجيل .

وكانت بلقيس في مارب ؛ في قصر ابيها الذي ورثه من آبائه الملوك ؛ تعيش فيه كما تعيش الملكات ؛ وتحفها الجواري والغلمان ؛ بالخضوع والاحترام .

وكل يمني في مأرب ؛ يحب بلقيس ؛ وينحني اجلالا اذا ذكروها له ؛ الا ذا القرنين ؛ الملك المستبد الذي لم يكن يطق ان يرى لها صورة او يسمع لها ذكرا ...

مع انها لم تبصر لهذا الملك وجها ؛ غير مرة واحدة رأته فيها راكباً جواده بين حراب حراسه ؛ وهو في طريقه الى سد العرم يتلهى بصيد الظباء .

ولكنها كانت تعلم ؛ انه لا يحبها ؛ ولا يريد ان يذكر اسمها رجل في بلاطه ؛ لرواية عجيبة رواها لها ابوها منذ عام .

وهذه هي الرواية :

***

كان الملك في ليلة من ليالي الصيف ؛ يشرب مع ندمائه واصحاب سره وقد خيل الى من حوله ان الخمر اخذت فيه

فقيل له : ان شرجيل في الباب يستأذن في الدخول .

فنهض عن مقعده وهو يتهادى بين اثنين ؛ وجعل يقول :

اهلا بابن عمنا الذي لا نراه غير مرة في الشهر .

فعرف شرجيل من تلجلج لسانه ، ومن الكؤوس التي تتلألأ في المجلس ان ذا القرنين سكران : فقال :

ان اهل اليمن يعيشون في ظل ملكهم وان لم يروه .

ـ ولكنك من ملوك اليمن ونحن نريد ان نراك كل يوم ، بل نريد ان تقيم بهذا القصر كما يقيم غيرك من الامراء ..

قال : ان مولاي الملك يعلم اني لست قادراً على هذا ..

ـ لا يعلم الملك شيئاً من ذلك .. بماذا تعتذر يا ابن العم ؟

ـ بولدي الصغيرين اللذين ماتت امهما وليس لهما من يقوم بامرهما من الاهل غيري ...

فقهقه ذو القرنين ضاحكاً واحمرت عيناه ...

ثم قال والسكر يعقد لسانه :

الا ترى ان في بلاط الملك من نساء اليمن والفتيات من هو اصغر سناً من ولديك ؟.

فتردد في الجواب واصفر وجهه ...

فاعاد الملك قوله والغضب في عينيه : عذرك يا شرجيل !!

ـ هذا عذري يا مولاي وانا ارى ان بلقيس والهدهاد لا يصلحان للعيش في البلاط .

ـ بل رأيت انك اعظم من الملك فانفت من خدمته ..

قال : انها فكرة لم تخطر لي يا مولاي .. الا تذكر بلائي في الحروب التي اضرمت نارها وقيادتي فرسان اليمن في سبيل الدفاع عن عرشك ؟؟ الا تذكر

ذلك الرمح الذي وضعه عدوك في صدري يوم كنت اذود عنك في مخلاف شبوة وكان القواد قد تفرقوا عنك والاعداء يحيطون بك .. افلا تذكر يا مولاي كيف انتزعت رمح القاتل بيدي وارجعته الى صدر صاحبه فخر صريعاً عند قدميك.. الك عندما تذكر كل هذا يا مولاي تعلم ان شرجيل بن عمرو لا يأنف من خدمة ابن عمه ومليكه ...

فصور السكر لذي القرنين ان الامير يمن عليه بذكر دفاعه عنه ، في حروبه مع الامراء الخارجين عن طاعته ، فوضع يده على جبينه وهي اول بادرة من بوادر غضبه ، ثم قال : اعد كلامك يا ابن عمرو ..

فلمس شرجيل عندئذ غضب الملك بيديه واجابه بهدوء :

ذكرت لك ذلك يا مولاي لاثبت لك اني عبدك وان دمي ابذله في سبيل طاعتك ...

ونظر الى القوم فرأى السكر يلمع في العيون ...

فأومأ الملك اليه بالسكوت قائلا لمن حوله وهو يتظاهر بالغضب :

اشربوا على شرف ابن عمنا الذي يزعم ان تاج حمير ، لم ينبت لولا سيفه على هذا الرأس .

وقد يظن القارىء ، ان الملك سكران ، وقد ذهبت بعقله الخمر في تلك الساعة فلا يعلم ماذا يصنع ... لا ... كان مظهره مظهر سكران وقد فعلت الخمر فعلها في دماغه ... ولكنها لم تضيع له رشداً ولم يفقد ذلك الدماغ قوته ودهاءه .

ان غضبه اسلوب له يلجأ اليه عندما يريد ان يبلغ غاية له ..

ولسانه المتلجلج المضطرب ، لم يكن يشبه في تلك الساعة ، ادراكه الهادىء الذي عجزت عنه الخمر .

فجعل شرجيل يتمتم الفاظاً معناها الطاعة والخضوع وقد زاد وجهه اصفراراً .

والملك يقوم ويقعد كأن الغضب يرفعه بيديه الحديديتين . ثم قال :

انك تطيع الملك يا شرجيل ، بالقول الذي يضيع كما تضيع الرؤوس التي تظهر العصيان .

ـ بل يتبع فعلي قولي يا مولاي .
قال : اشهدوا يا رجال حمير .. ان ابن عمنا يظهر طاعة ثم يأبى ان يعيش في بلاطنا مع ولديه كما تعيشون ..
قال : ارجو من مولاي ان يقبل العذر الذي سألته قبوله .
ـ قال : نأمرك ان تطيعنا في واحد من امرين ، امـــا ان تجيء الى البلاط وتقيم فيه ... واما ...
ـ واما ماذا يا مولاي ؟
ـ واما ان ترحل عن مأرب ولا ترجع اليها الا عندما ندعوك ...
وغاية الملك ظاهرة في طلبه ... انه يريد ان يجعل جميع الامراء الاقوياء في قصره . لينشر فوقهم ظله ويسوقهم عن كثب ، بعصا حيلتـــه ومكره ، فيسلم تاجه ويصفو له الزمان .
وكان « حاشد » نديم الملك وساقيه ، ساكتا لا يقول كلمة ، فلما سمع تهديد ذي القرنين ، اقبل عليه فهمس في اذنه كلمة افتر لها ثغره ثم عاد الى مقعده كأنه لم يقل شيئاً .
وتغيرت لهجة الملك فجأة بقوله لشرحبيل :
قيل لنا ان « بلقيس » اجمل نساء اليمن وجها ونحن لا نعرفها وانت تحجبها وراء جدر القصر كي لا يراها الملك .. أجميلة هي كما يقولون يا ابن العم ؟
فاحمر وجه الامير وقد كان مصفراً ... ثم قال :
اعترف انها من اجمل النساء يا مولاي .
ـ اذن فالملك يعدل عن طلبـــه الاول ويسألك ان تهبها له او تبيعها لتكون الحظية الاولى في البلاط .
فارتجفت شفتاه قائلا : اما ان ابيعها فابناء الملوك لا يبيعون ابناءهم ؛ واما ان اهبها فما كنت لاهب قطعة من قلبي الذي احيا به ...
قال : وتعلم ماذا يتبع هذا القول يا شرحبيل ؟
ـ اجل اعلم يا مولاي ؛ ان وراءه النفي او الموت ...

ــ ولا تبالي ؟؟

ــ لا ورب اليمن لا ابالي نفيت ام قتلت ..!

قال : سنعمد الى اعظم من النفي والقتل لو تعلم :

قال : ماذا ؟

قال : نقول للجند اذهبوا ودمروا قصر شرجيل بن عمرو واحملوا بلقيس الى هذا البلاط على الرغم منه .

ــ وهل تظن يا مولاي ان الجنود يدخلون قصري وانا حي ؟

ــ وهل تظن انت ان موتك ينقذ فتاتك من يد الملك ؟

ــ نعم ؛ ان الساعة التي يموت فيها شرجيل تموت فيها بلقيس . . ومع ذلك فانت تستطيع ان تقبض علي الان وتبعث رجالك ليحملوا اليك ابنة عمك جثة مضرجة بالدماء ؟

وكان يتكلم وصوته يملأ المجلس وقد احاطـه اولئك السكارى بنطاق من عيونهم الحمراء . . .

ويظهر ان تلك اللهجة الحادة التي كانت دليلا على نبالة شرجيل وعظمة في نفسه ، اثرت في ذي القرنين الى حد انه ابتسم بعد غضبه ، واشار الى حاشد بان يسقي الامير وهو يقول :

اسقه يا حاشد فقد غضب ونحن اردنا ان نمازحه .

وضحك عندئذ ضحك سكران ضيع رشده .

اتدري في اي امر كان يفكر ذلك السكران في تلك الساعة ؟ انـه كان يرى نار الفتنة ترسل السنتها الى مأرب ، ثم الى البلاط ، ثم تجاوزهـا الي المخاليف الكبرى فتلتهمها التهاما .

يشعل تلك النار قتل شرجيل او حمل بلقيس الى القصر . .

وهو بغنى عن الثورة تكرهه على حمل السيف لاجل فتاة .

فلتبق بلقيس اذاً في قصر ابيها ريثما يرى له رأيا آخر ؛ وليفعل شرجيل الان ما يطيب له فسيأتي يوم يندم فيه على موقفه الجريء .

وكان الساقي قد ملأ القدح ومد يده به الى شرجيل .
فتناوله قائلا : اشربه جرعة واحدة لانه دليل على حلم الملك .
وشربه وهو غير خائف من السم الذي يقتل به ذو القرنين رجـال القصر عندما يخرجونه عن حده .
فقال الملك : نفعل اكثر من هذا لنثبت الك ان حلمنا فوق ما تظن . لقـد وهبنا لبلقيس وصيفة من نساء حضرموت هي خير وصائف البلاط .
فانحنى شرجيل حتى لامس الارض .
ـ ووهبنا لها ملء راحتي هذه الوصيفة لؤلؤا من لآلىء التاج .
قال : هذا كثير يا مولاي .
ـ هكذا يكافىء الملك رجاله المخلصين .
ثم قال : والان فلك ان تبقى لتشرب معنا او تنصرف .
ومعنى ذلك انه يأمره بالذهاب .
فنهض قائلا : اسأل مولاي الملك ان يعفو عن ذنبي .
ـ ونحن نسألك ان تنسى ما قلناه لك يا ابن العم .
ومد اليه يده فقبلها وخرج وهو يقول في نفسه :
افعل ما تشاء اذا بقي لك العرش .
لك يوم ولبلقيس يوم يا ابن عمرو .

* * *

عندما دخل شرجيل قصره دعا اليه ابنته وقال لها :
تهيأي يا ابنتي للدخول الى قصر الملك .
ـ انا ؟
ـ نعم انت ، انت بلقيس سليلة الملوك .
ـ وماذا اصنع فيه ؟
ـ تصبحين حظية بين حظايا ذي القرنين .

فابتسمت قائلة : اراك تهزأ بي يا مولاى .

ــ بل اقسم اني لم اقل لك غير ما سمعت .

فتصاعد الدم الى وجه بلقيس وجعلت تنظر الى ابيها كمن اصيب بالذهـول ثم قالت :

ملك حمير يطلب اليك ان ترسلني الى بلاطه لاكون حظية له .

ــ بل امرني بما تقولين وسأفعل .

ــ اذن وعدته يا مولاي ! !

ــ نعم نعم ، ومن يجرؤ على الوقوف بوجه ذي القرنين ؟؟ انه الملك القاسي كما تعلمين وهو ابن عمنا ولا اظن انك تطمعين في زوج اعظم منه .

فسكتت ، وعيناها تختلجان ثم احست ان الارض تهوي من تحتها ، بل احست ان الحياة التي كانت تبسم لها ، اشباح مرت كما يمر السحاب ثم تلاشت .

وكان شرجيل يريد ان يمعن في الاختبار . فقال :

ماذا ترين يا بلقيس ؟ اني اريد الجواب فالملك بالانتظار .

فعادت اليها رصانتها واجابته قائلة :

لقد وعدت يا مولاي وانتهى الامر فانا ذاهبة .

ــ ولكن لا اريد ان تذهبي الا وانت راضية .

ــ وانا لا اريد ان ابقى وانت غير راض . انك لو اردت ان تخيرني بـين البقاء والذهاب لما وعدته .

قال : لقد كان سكران عندما امرني بذلك وكان مجلسه حافلا بالناس فـلم اشأ ان اغضبه .

ــ بل لم تجسر على اغضابه يا مولاي . ! !

ــ اجل فالموت جزاء من يغضب الملك . .

ــ اذن لم يبق الا ان اقول كلمتي قبل ان انصرف ، لقـد شئت يا ابي ان تقذف بي الى هوة عميقة ملوثة فليكن ما شئت ، ولكن اعلم ان هـذا الملك الذي تخاف غضبه والذي ينتقل من حضن الى حضن لن يستطيـع ان ينظر الى بلقيس

بنت الملوك نظرة واحدة . ! !

ـ ماذا تقولين ؟ ؟

ـ اقول ان ذا القرنين السفاح اعجز من ان يضع يــده بيدي اسمعت .. قم الان . فانا سألبس حلة تليق بالملك واخرج من قصرك لادخل الى قصره ولكن اتعلم ماذا اصنع فيه ؟؟ سأطرح بنفسي بين يدي الموت قبل ان تمتد الي يدا الملك. قم يا ابي . ان الساعة التي تثبت فيها بلقيس لاهل اليمن انها سليلة يعفر بن حمير قد اتت الان .

فخنقت الدموع ذلك الوالد البار ومد اليها ذراعيه .

فنهضت وهي تحاول الهرب منه .

فقال : بلقيس .

قالت : منذ سبع عشرة سنة وانا ادعوك ابا لي . اما الان فقد عرفت انك لم تكن ابا بل كنت جبانا يبيع شرفه وشرف آبائه خوفاً من الموت . قم ان الملــك ينتظرك الان وسيغضب كما قلت وقد يضيع رأسك .

فرفع صوته بالبكاء ثم قال : لتباركك الآ لهة يا سليلة المجد وابنة المــلوك .. ان ذا القرنين لا يصل اليك وانا حي .

فجعلت تتفرس فيه كأنها تستعيد قوله .

اما هو فكان يقول : تعالي يا بلقيس فقد شرفك اباك وقومك واحييت ذ كر يعفر . اني اردت ان المس من جديد عظمة هذه النفس التي تتغلل في صــدرك .

ـ ولكنك اقسمت انك لم تقل لي الا الذي سمعته .

ـ اجل لقد اسمعني الملك امره فاسمعته ما يكره . اجلسي اقص عليك مــا جرى بيني وبينه في مجلس الشراب .

فزها جبينها المكفهر وجلست بالقرب منه يروي لها حكاية الملك معه ويصف لها سكره .

حتى انتهى الى ذ كر الوصيفة التي وهبها لها ذو القرنين فقال :

وهذه الوصيفة التى هي خير وصائف البلاط ؟

قالت : لا اجد في وصيفة من وصائف قصر الملك خيراً يا مولاي ، انها جاسوسة ذي القرنين تحصي له انفاس اهل شرحبيل وتحمل اليه اخبارهم وتطلعه على كل ما يجري في قصرك من همس واسرار .

فابتسم قائلا : ولآلىء التاج ؟

ـ اما هذه اللآلىء التي اهداها الي فدفعة يريد ان يشتري بها حب بلقيس واستسلامها اليه ...

ولمع الشرف في عينيها السوداوين وارتسمت على جبينها صورة العظمة والعزء للذين تكتنف مظاهرهما نفسها وحياتها .

وقد رأى ابوها نوراً غريباً ترسله تانك العينان ، فقال :

اتظنين ان هدية الملك شرك ينصبه لابن عمه ؟

فجعلت تهز رأسها وهي تقول :

اقسم لك بجميع الآلهة ان ذا القرنين لا ينظر الا الى غرضه ولا يذكر ان في اليمن ابناء عم له .. اجل ، اني لا اعرفه يا مولاي ولم اره غير مرة واحدة يوم خرج الى الصيد ، ولكنك وصفته لي وانا ابني حكمي على وصفك وهذا يكفي .

وخرجت الالفاظ في تلك الساعة ، من فمها ، شديدة متقطعة تقذف بها نفس مضطربة وكانت تقول :

ان ابن عمك يريد ان يجعلني حظية له ثم لولي عهده ثم لرجال بلاطه كما هي الحال مع نسائه اللواتي بعن شرفهن بالذهب الوهاج والابتسامات الكاذبة ، الا فليعلم هذا الملك النذل ان ذهبه كله لا يساوي نعل بلقيس ، واني اعظم من ان اجعل تاجه عصابة لرأسي وعرشه الذي يفاخر به عروش الارض مقعدا لي .

ثم هدأت فجأة ثورة نفسها واخذت تنظر الى ابيها وهي تبتسم بكبر ، كأن ذا القرنين لا يستحق ان يخرجها عن هدوئها غير لحظة قصيرة تمر كما يمر الظل ، فقال :

لقد ذكرت صفات الملك كما هي دون ان تعرفيه .. انه رجل طمع وحيلة يرغب ، من الناحية الاولى ، في ان يجعل النفوس والاعراض والشرف في يده

يعبث بها كيف شاء ويرسلها الى حيث يشاء، ولا يأنف ، من الناحية الاخرى من ان يحني رأسه للذل اذا كان في ذله بلوغ غايته .

ثم قال : ولكني اريد ان اسألك سؤالا يا بلقيس .

ـ هات يا مولاي .

قال : ستجيء وصيفة الملك في صباح اليوم الثاني ومعها لآلىء التاج وستقول انها قادمة بأمر ذي القرنين ، فماذا تصنعين ؟؟

ـ ليس لي ان ابدي رأيا قبل رأيك .

قال : هدية الملك لا يردها غير المتمردين الذين هم اعظم منه .

ـ وانت ترى ان نقبلها يا مولاي ؟

ـ نعم : ولكن هذا القبول خضوع له ورضى بما طلب .

ـ بل هو دهاء يشبه دهاءه الذي يحاربنا به .. الم تكن بلقيس بنت شرحبيل فتاة يمنية ؟

ـ بـلى .

ـ اليس من شرف هذه الفتاة ان يعطف عليها الملك ويغدق عليها نعمتـه وعطاياه ؟ ؟

بـلى . .

ـ اذن فبلقيس تنتظر وصيفة البـلاط لتثني على الملك الذي بعث بها اليهـا وترفع اليه فروض الشكر ..!

قال : ما هذا يا بنية ؟

ـ ارجو ان لا تستغرب المظاهر الكثيرة التي سترى. سيكون في قصري عبدة لذي القرنين وحظية من حظاياه .

فهم بالكلام فقاطعته قائلة :

ولكني حظية بعيدة عن البلاط لا يستطيع هذا الملك ان يرفع الي نظـرة .. افهمت الآن ؟

اي انك ستلبسين يا بلقيس حلتين مختلفتين .

ـ اجل ، سألبس حلتين مختلفتين يا مولاي ، احـداهما بيضاء يرى الملـك وصيفته وراءها قلبا يحافظ على الحب ، والاخرى سوداء تحجب قلبا ملتهبا بنار البغض الذي لا يموت ...!

ـ ولكنها حلة لا يراها الملك .

ـ لا يا مولاي ، انه لا يرى غير الاخلاص والاستسلام . وستعرف بلقيس سليلة الملوك كيف تصيد هذا الحميري الوقح ، الذي يحاول ان يجعلها مضغـة في الافواه ... اما الان فقل لي متى تجيء هذه الوصيفة ؟

ـ قلت انها ستجيء غدا اذا بقي الملك على رأيه .

ـ اذا تبدأ غدا حياتي الجديدة وسنرى لمن يكون الفوز يا ذا القرنين .

ونهضت وهي تقول : اتخشى ان يلجأ الملك الى القوة فيبعث رجاله ليحملوني اليه بعد حين ؟

قال : لا يخطر لي انه يجرأ على هذا .

ـ وماذا تصنع اذا فعل ؟

ـ اعمد الى السيف فاذود به عن شرفي ثم اموت .

ـ وانا ..؟

ـ اما انت فتموتين بالسم قبل ان يفتح لك ذراعيه .

فضحكت قائلة : يطيب لي أن اموت في قاعة العرش او في المقصـورة التي يشرب فيها الخمر .

فجعل يحدق اليها كأنه لم يفهم مغزى ذلك القول .

قالت : سأخفي خنجري القصير تحت الثياب ثم اخرج من هذا القصر عـلى العجلة المذهبة الى بلاط الملك ..!

ـ وبعد ذلك ؟

ـ اطلب ان اري ابن عمي الجالس عـلى العرش قبـل ان ارى الوصائف والغلمان .

ـ وهذا ما يرغب فيه ذو القرنين .

ـ اجل ، ولكن عندما امثل بين يديه اتناول خنجري لاضعه في قلبه على مرأى ومسمع من رجاله ، ثم اقول لمن حضر ، اغمدوا الآن سيوفكم في هذا الجسم الذي لا اريد ان يلتحف بالعار .

ـ واذا عمدوا الى ما هو افظع من القتل ؟ ..

ـ امزق احشائي بالخنجر نفسه ثم اغمض عيني ...

فضمها ابوها الى صدره ، وطبع على جبينها الوضاح قبلة الاعجاب والحب.

وانصرف كل منهما الى حجرته يفكر في ذلك الحادث الغريب الذي فاجأه به الزمان .

وقضت بلقيس ليلتها هادئة ... ولكن لم يغمض لها جفن .

* * *

خرج من البلاط ، في صباح اليوم الثاني ، اميران من امراء اليمن ، يحرسان وصيفة بلقيس في طريقها الى قصر شرحبيل .

احدهما ناشر امير ظفار ، وامين سر ولي العهد . الذي ذكرنا لك شيئا عنه في الجزء الماضي .

والوصيفة بينهما على مركبة يجرها اربعة من عبيد ذي القرنين .

وكانت سافرة ليس على وجهها حجاب كالحجب التي تغطي بها نساء البلاط وجوههن .

كأن الملك امرها بالسفور ، ليفتن بجمالها الساحر قلب شرحبيل وقلب ولده المدهاد ، قبل ان تسحر بلقيس بعذوبة الحديث وفصاحة اللسان .

وامر الملك شريعة لا ترد كما رأيت ، يخفي وجوه نسائه عندما يشاء ، ويرسلها سافرة عندما يشاء ، دون ان يكون للقوم وجه للاستغراب .

الموت والحياة بين شفتي ذي القرنين ، شبح اليمن المروع ، وبطلها العظيم وحامي جزيرة العرب .. ؟

وكان ناشر يريد ان يرى وجه بلقيس الذي وصف له وهو لم يره قط ، ولم يخطر له ان يزور شرحبيل ليبلغ غايته .

وكان يعلم ان مولاه ولي العهد لم يبصر ذلك الوجه ، فهو اذا رآه استطاع ان ان يقص عليه حكاية جماله . ويغريه بالحب .

فلما وصل الموكب الصغير الى القصر ، استأذن الاميران في الدخول ففتح لهما باب السور ودخل الجميع الا العبيد .

وشرحبيل والهدهاد في الدهليز ، ينتظران رسولي الملك . اللذين يرافقان الوصيفة الفتانة حاملة لآلىء التاج .

ووقعت العيون على العيون ... فتصافحوا ... ثم انحنى الامير وولده عندما ذكر ناشر عطية الملك التي هي دليل رضاه .

وجلست الوصيفة ، وهي تتظاهر بالخجل ، على وسادة من الارجوان وضعها لها شرحبيل نفسه ..

نعم ، ويكفي ان تكون تلك الوصيفة ، هدية ذي القرنين ، لتكتنفها في قصر الامير مظاهر التكريم والاحترام .

ولم تكن غير لحظة ، حتى خرج الهدهاد يدعو بلقيس الى القاعة .

فاقبلت ... ونور الجمال والجلال يتدفق من ذلك الوجه الذي لم تر مثله العيون ...

فوقف الاميران . وقد رأيا فتاة لا تذكر عندها نساء البلاط ، على رغم جمالهن الخلاب الذي اختاره ذو القرنين لنفسه .

بنان هما عينا غزال . وجبين عال تقرأ عليه سطور العز .. ووجه مستدير جعل الله فيه ما فيه فتنة للالباب .

وكأن لقيس لم تشأ الا ان ترسل سحرها . فنظرت اليهما نظرة قصيرة فيها الرصانة والعظمة ، افتر ثغرها عن ابتسامة اقصر ، فيها الرضى والعذوبة .. ثم قالت الدما :

اني بين يديك يا مولاي .

قال : لقد اراد مولانا الملك ان يهب لك احدى وصائف بلاطـــه وبعض لآلىء تاجه . .

فاجابته قائلة : حِسب بلقيس شرفا ان يذكرها مولانا الملك . ولكن لآلىء التاج لا يستحقها غير رأسه .

فقاطعها ناشر قائلا لو لم يكن رأس الاميرة اهلا لهــا لمــاانعم عليه بها الملك.

قالت : ارجو ان تنقلا الــيه شكر عبدته بلقيس واحترامها اياه . وخضوعها لسلطانه .

والتفتت الى ابيها كأنها تدعوه الى القول ، فقال :

وخضوع شرحبيل بن عمرو ومن حوله ؛ له ولولي عهده . . .

ثم احست كأن ناشرا يريد ان يفترسها بعينيه ، فقالت له ألا تذكر اسمك ايها الامير ؟ ؟

فقال : ناشر امير ظفار .

وزاد شرحبيل بقوله : انه رفيق مولانا ولي العهد وصاحب سره، اما الاميرالاخر فعتيك بن روضة صاحب مخلاف نحلة .

فرفع ناشر رأسه تيها وكبرا .

ــ وهي تشبه همدان في السعة وكثرة الجيش .

فاضطرب ناشر لذكر همدان . ان اميرها في البلاط غدو له كما قرأت فــلا يطيق ان يذكر اسمه . فقال :

ارى سيدتي الاميرة تحسن وصف المخاليف .

ــ نعم فقد سمعت هذا الوصف من ابي ومن الامراء الذين يزورونه في هــذا القصر كل يوم .

ــ ولكن ظفار يا مولاتي اعظم من همدان .

ــ لقد رددت ما سمعته من الناس وليس لي شأن بالامر .

وفي تلك اللحظة جولت نظرها الى الوصيفــة الحسناء التي لم تجد عليها منذ دخولها القاعة ، بنظرة واحدة ... فرأت عينين ساحرتين ووجهــاً خلاب

المحاسن يفيض الجمال منه . فقالت لها وهي تنظر الى ناشر : ارفعي رأسك ايتها الفتاة فانت هدية مولانا الملك .

فرفعت الوصيفة رأسها وارخت نظرها الى الارض .

فقالت بلقيس في نفسها :

لقد اعطاك ملك حمير شيئاً من دهائه .

ثم خاطبت اباها بصوت هادىء يسمعه القوم قائلة له : اذا اردت يا مولاي ان تأذن لي في الانصراف فر هذه الوصيفة بان تلحق بي الى الجناح الآخر .

فكأنها قالت للاميرين : ان المهمة التي قدمتما لاجلها قد انتهت فانصرفا الآن ونهضت قبل ان تسمع جواب شرحبيل .

وماذا يفعل ناشر في ذلك القصر اذا حجبت جدره ذلك الجمال الفتـــان عن عينيه ؟؟

فنهض بدوره وعيناه تتبعان بلقيس وقد ملأ ذلك الجمال نفسه وقلبه حتى خيل اليه ان صاحبته من نساء الجنة .

ثم صافح شرحبيل والهدهاد ، وصافحهما بعده امير نخلة وهما يسمعان الفاظ الثناء على الملك وولي عهده .

غير ان ناشرا لم يكن يبالي بما يسمع ، بل كانت روحه وذهنه يطوفان في تلك الاروقة التي تغلغلت فيها الاميرة الساحرة .

وليس غريباً ان يحب ناشر بلقيس ويملأ الاعجاب بمحاسنها نفسه ، بل الغريب انه احبها لمولاه ولم يحبهـــا لنفسه ، كما يخيل اليك . وآثر ان تكون هذه الحورية السماوية لولي العهد على ان تكون لسواه من اشراف اليمن .

وكان يفكر ، وهو خارج من القصر ، في امر واحد ، هو ان شرحبيل ابن عمرو اذا رفض اليوم ارسال حسنائه الى البـــلاط ، فهو لا يستطيع ان يصر على رفضه غدا ، وسينتهي الامر بان يتلألأ نور بلقيس في ذلـــك القصر العظيم ، ويحجب تلك الانوار الكثيرة التي يعيش في ظلها ذو القرنـــين ، وابنه عمرو ، والرجال الذين يحيطون بالاثنين .

ولم يقم في ذهنه ان في اليمن قوة تستطيع ان ترد امــر الملك الذي هو اعظم من الآلهة .

حتى امسى خارج السور وعاد شرحبيل والمدهاد الى الدهليز ، فقال لرفيقه :

ماذا رأيت يا عتيك ؟

قال : ليس في بلاط مولانا الملك فتاة تشبه الاميرة الحميرية التي رأيت اليوم ، انظن ان الملك يسكت عن امره مع شرحبيل وينسى هذا الجمال الذي وصف له ؟

ـ سيقوم ولي العهد بامر تذكير ابيه عندما ينسى ... اني سأنقل اليه كل ما رأيت وسأفعل في وصف جمالها كما تفعل الشعراء .

قال : الم تسمع من قبل ان بلقيس لا تسفر ؟

ـ بلى ، وقد رأيتها اليوم سافرة ترسل الي نظرات السحر ...

ـ وما معنى هذا ؟

ـ معناه انها تريد ان نقص على الملك وولده من روعة الحسن .

ـ ولكن اباها لم يشأ ان يجعلها حظية للملك .

ـ ومن قال لك انه خبرها ما دار بينه وبين الملك من الحديث ؟

افلا يجوز ان تريد بلقيس غير ما يريده شرحبيل ؟

فسكت عتيك ، ثم ركب الاثنان سفريهما وجرت العبيد المركبة وراءهما الى البلاط وهما يفكران فيما رأيا .

* * *

٣

ما وراءك يا ناشر ؟

قالها الملك وولي العهد جالس بين يديه .

فقال : ورائي فتاة لو جمعت الحسن الذي وهبته الآلهة لنساء اليمن كلهن لما كان عند جمالها شيئاً .

قال : بلقيس ؟؟!

ـ نعم يا مولانا ، ولو غزوت الشرق من ادناه الى اقصاه وسبيت اجمل نسائه لما وقعت العين على وجه يستهوي القلوب مثل وجه بلقيس . . انها يا مولاي اشد بهاء من الشمس التي تطلع من وراء جبال العرم ، وابعد نورا من القمر الذي يبسط ظله فوق مأرب في ليالي الصيف . بل قل يا مولاي انها جنية هبطت من الفضاء لتكون فتنة لاهل اليمن !!.

فجعل ذو القرنين ينظر الى ولي عهده وعيناه تختلجان .

ثم قال : ماذا تصف لنا يا ناشر ؟

ـ اصف بلقيس يا مولاي وانها لاعظم مما وصفت !

قال : ومع ذلك فشرحبيل بن عمرو يبخل بها على مليكه ولا يريد ان يهبها او يبيعها بما عندنا من الذهب .

ـ ومن يستطيع ان يبخل بروحه اذا ارادها الملك ؟

ـ الناس يجودون علينا بالدماء والارواح وابن عمنا يبخل بابنته ؟ .

واطرق ساعة يفكر فيما سمع . ثم رفع رأسه قائلا :

وانت يا عتيك ، ارأيت ما رآه ناشر ام ماذا ؟

ـ رأيت ما رآه يا مولاي وازيد على قوله ان الشرق لا يخلق في عشرين جيلا لفتاة مثل بلقيس !

ـ وماذا سمعتما ؟

ـ سمعنا كلمات الشكر تسندها مظاهر الخضوع .

ـ انها مظاهر كاذبة لا نبالي بها .

ـ واذكر كلمة قالتها الاميرة انقلها الى مولانا الملك .

ـ هـات .

سمعتها تقول انها العبدة الخاضعة للملك ما دام على العرش .

فبرقت عيناه كأن تلك الكلمة الجوفاء ابقت على الامل الذي كاد يضيع .. ثم

استعادها فاعادها عتيك ووجه الملك يزهو وثغره يفتر حتى ظن القوم ان بينه وبين بلقيس عهداً .

ثم قال : انصرفا ايها الاميران وليبق عمرو .

فقبلا رداءه وخرجا .

وكان عمرو ساكتاً وقد انصرفت قواه كلها الى قصر شرحبيل ،

فقال الملك : اليس لك رأي في هذا يا بني ؟

قال : لقد جاوزت الحد في حلمك يا مولاي واخشى ان يطمع فيك ابن عمك بعد حين !!

فضحك قائلا : لم يكن سكوتنا حلماً بل دهاء املاه الغضب .

ــ ولكني اسمي هذا الدهاء ضعفاً يا مولاي .

قال لا تعد الى مثل هذا يا عمرو فذو القرنين الذي حطم عروش الملوك وداس تيجانهم بنعله لا يخاف احـــدا ولا يعرف الضعف . انسيت اباك الذي جعل لك هذا الملك الواسع قذى في عيون ملوك الشرق انك لا تعرف هذه الحياة يا بني الا كما كنا نعرفها ونحن في فجر الشباب نتمرغ في احضان الترف والدلال ...افتظن ان الملك الجالس على عرشه ليس له سلاح غير السيف ؟

ــ واي سلاح يتخذه الملك في امر مثل هذا ؟

ــ سلاح الحيلة التي لا يذكر عنده السيوف .. اسمع يـــا بني ، اليس العرش في نظرك اغلى من الحسان تجعلهن في قصرك ؟

ــ بـــلى ...

ــ وهل يخطر ببال ولي العهد ان يزعزع اركان عرشه قبل ان يتربع فيه ويخضع له القوم ؟؟

ــ ومن يفعل ذلك يا مولاي ؟

ــ انت : انك تؤثر ان تبلغ الغاية من شرحبيل بحد السيف وانت لا تعلم ان له في مخاليف اليمن سيوفاً قاطعة يشهرها الامراء عـــلى الملك دفاعاً عنه .. نعم ليس بين هؤلاء الامراء من يثبت في الساحة الى النهاية ، ولكنهم يستطيعون ان

يسفكوا الدماء وينشروا الجثث حول مأرب . ويجعلوا الناس في المخاليف فريقين هذا يغضب على صاحب التـاج وهذا يغضب له .. واي شيء يكره الملك على الغوص في هذه اللجة الحمراء ... قل يا عمرو ... ايغوص فيها من اجل فتـاة يأنف ابوها من ان يجعلها حظية في البلاط ؟؟! ومن هي هذه الفتاة التي تبذل في سبيلها نفوس القواد والزعماء ؟ انها من سلالة يعفر بن حمير الذي كان لـه بعد جدك الحق الاول بالتـاج الذي تراه على رأس ابيك .. اذن فذو القرنين الذي يسعر نار الحرب في بلاده طمعاً في عينين فاترتين ساحرتين لا يصلح للملك الذي تركه له آباؤه ، ولا يستحق ان يلبس التاج الحميري الباسط نفوذه في البر والبحر تحت كل سماء ! واذن فالملك الذي يقتل شعبه ليضم ابنة عمه الى نساء قصره جدير بان يموت تحت اقدام النبلاء .

وجعل ينظر الى ولده ضاحكا ضحك الساخر .

فحنى عمر رأسه وظل ساكتاً .

فظن ذو القرنين انه رضي بما قيل له ، فقال :

اما وقد فهمت يا بني كل شيء فاذهب الآن .

ونهض عن وسادته وهو يهم بالخروج ، فاستوقفه قائلا :

بقي شيء آخر لم افهمه يا مولاي .

ـ ما هو ؟

هو هذه الحيلة التي ذكرتها لي دون ان تقول عنها كلمة .

ـ اي انك تريد ان تعلم كيف تصبح بلقيس حظية في القصر ؟

ـ نعم .

ـ لقد نسي الملك بلقيس على رغم ذلك الجمال الفتان الذي ذكر له فارتجف صوت الفتى وهو يقول :

ما كنت اظن ان مولاي الملك يطلب اليوم امراً ثم ينزل عنه في اليوم الثاني .

قال : نزلنا عن هذا الامر لولي العهد الذي رأينا غرامه ظـاهرا في عينيه .. ومع ذلك فقد قلنا لشرحبيل امس ان ابنتـه ستبقى في قصره وقد وهبنـا لها ما

علمت .. اي ان الملك طلب امراً ثم نزل عن ذلك الطلب في ساعة واحدة .
ـ اذن لم يبق لولي العهد شيء يا مولاي !.
ـ بقي ان نظهر الرضى لابن عمنا حتى لا يفاجئنا بالعصيان ، ثم نسأله بعد ذلك ان يجود بابنته زوجة لولي عهدنا بدلا من ان تكون حظية للملك .
فاشرق جبينه قائلا : ومتى فكرت في ذلك يا مولاي ؟
ـ في هذه الساعة عندما ذكر ناشر وعتيك جمال بلقيس ، لقد عرفت ان شرحبيل سيمنع ابنته وسيقتلها بيده اذا عجز عن الدفاع فلا نبلغ الغاية . فخير لنا ان تكون زوجة لك وان يبقى شرحبيل من انصار الملك ، من ان تسفك الدماء في مأرب وترتفع السيوف والاصوات في المخاليف .
ـ واذا لم يرض شرحبيل بان يزفها الي .
فاسود جبين ذي القرنين قائلا : الويل لشرحبيل اذا خطر له ما تقول انه يصبح في تلك الساعة عدو العرش الذي يهدر الملك دمه ولا يرجع عنه حتى يمحوه ويمحو ذريته من الوجود . ويلك يا عمرو اتظن ان على الارض رجلا يأبى ان يجعل بنته زوجة لوارث التاج الحميري ؟ واذا وجد هذا الرجل فكيف يستطيع ان يعيش وذو القرنين غير راض عنه ؟ اما والذي رفع هذه السماء لئن فعلها شرحبيل لاربطن عنقه بوتد في جدار القصر واجعلن رجليه في سور من الجلد تجذبها صدور الخيل بالشدة والعنف حتى تنتزع اعضاء جسمه واحداً بعد واحد وعيون الاشراف ترى كل هذا ..! ثم احمل بلقيس مقيدة اليدين والرجلين واطرح بها تحت ارجل الفيل « هوزه » فتمسي في ساعة واحدة جسما مهشما لا يبصر الناس له لا يد ولا وجها ..!
ثم عاد فجأة الى الابتسام وخفض صوته قائلا :
ولكن الوصيفة التي بعثنا بها الى ابن العم ستحصي عليه وعلى ابنته انفاسهما وتنقل الينا كل ما تسمعه من الاثنين ومن اهل القصر .. فاحذر ان تقول لاحد ان الوصيفة جاسوسة الملك. ولا تذكر ذلك لناشر . كثير الكلام لا يحفظ الاسرار ولا يخاف الاقدار .

ـ وكيف تستطيع الوصيفة الخروج من قصر شرحبيل عندما تشاء ؟
ـ ان لها في البلاط اختا تخرج لتراها بامر الملك .
ـ ومتى تنظر في امر الزواج يا مولاي ؟
ـ لا تعجل في امرك يا بني .. ان الوصيفةستبدأ بذكر ولي العهد امام بلقيس لتقرأ ما في نفسها وتسمع رأيها فيك .
ـ ثم ماذا ؟
ـ تقص علينا حكاية حبها اذا احبت ... فيعمـد الملك الى دعوة شرحبيل وولديه وطائفة من الاشراف لقضاء يوم كامل عند انقاض السد نصيد في واديه الوحش والطير ...
ـ وفي ذلك اليوم يصافح عمرو بلقيس ويهمس في اذنها كلمة الحب .
ـ اجل : ثم يزورها بعد ذلك في قصر ابيها ويشكو اليها هواه ما طابت له الشكوى حتى توثق الايام عرى الغرام .
ـ ولا يبقى عندئذ الا ان تنتقل من قصر شرحبيل الى بـلاط الملك لتصبح ولية للعهد ..
فضحك قائلا : لقد سلبت لبك بلقيس وانت لم ترها بعد ..
ـ نعم يا مولاي ومن لا يعشق تلك الحورية الهاربة من السماء .
فاصبح ضحك الملك قهقهة وانصرف وهو يقول في نفسه : يريد ولي عهدنا ان يتخذ الفتاة التي لم يشأ ابوها ان يهبها لنا ، زوجة له .. انه لا يهتم لكرامـة الملك بل يهتم لنفسه وقد نسي ان اباه لا يغفر لشرحبيل ذنبه الا بعـد ان تصبح بلقيس احدى حظـاياه !!! اذن فليصبر ولي العهد .. ان الفرج يعقب الصبر .. ولكن بلقيس لا تزف اليه والملك حي ...

***

٤

تقدمت بلقيس وصيفتها الجديدة الى حجرتها وهي تبتسم باستخفاف فيه كل الدهاء .

وقد قام في ذهنها ، ان لهذه الفتاة الحسناء شأناً في بلاط ذي القرنين . ولو لم يكن لها هذا الشأن لما خطر له ان يجعلها موضع سره ، ويختارها لمثل هذه المهمة الصعبة التي لا يظفر بها غير المجربين .

وهي تعلم ان اهل حضرموت اهل ذكاء وفطنة . وخبث ودهاء وان الملك ارسل اليها ادهى نساء بلاطه لتحمل اليه الاسرار .

فلما وصلت الى حجرتها اشارت اليها قائلة : هذه لي ، واومأت الى حجرة بالقرب منها تقول : وهذه لك مع ما يجاورها من المقاصير ...

فانحنت الفتاة ساكتة .. ولو حولت بلقيس نظرها اليها لرأت على خديها الدموع ..!

نعم : كانت تلك الوصيفة تبكي بهدوء وبلقيس لا تعلم حتى دخلت الاثنتان فجلست بنت شرحبيل على مقعدها الذي يشبه مقاعد الملكات واومأت اليها بالجلوس .

ولكنها رأت في تينك العينين الجميلتين آثار الدموع . فهمت بان تسألها عن ذلك ثم عدلت عما همت به وخاطبتها قائلة : انك لا ترين في هذا القصر ما تعودت ان تريه في بلاط مولانا الملك من مظاهر العظمة والعز .. البلاط يغص بالفتيان النبلاء والجواري الحسان .. وليس في هذا القصر غير بعض الغلمان وجارية لي تدعى نائلة .. هنالك السعة والبذخ اللذان ليس لهما حد ، وهنا العيش الهادىء الذي رضي به رب القصر وولداه ... فاذا اردت ان تعيشي في هذا كما كنت تعيشين في ذاك فاذكري حاجاتك مهما تكن هذه الحاجات لاسأل ابي ان يقضيها لك الساعة .

فتمتمت قائلة : اني ابحث يا مولاتي عن العيش الهادىء فلا اجـد له اثرا في بلاط الملك .

فقالت بلقيس في نفسها :

هذا اول مظهر من مظاهر الرياء ، ثم قالت لها :

سمعت انك من حضرموت أليس كذلك ؟

ــ نعم يا مولاتي .

ــ واسمك ؟

ــ نعمي بنت الريان .

ــ وليس لك من العمر اكثر من سبع عشرة سنة .

ــ بل انا في الثانية والعشرين .

ــ متى قدمت مأرب ؟

ــ كنت يا مولاتي في الخامسة عشرة .

ــ اذن مضت عليك سبعة اعوام وانت في البلاط .

ــ نعم وانا احسب انها سبعة اجيال :

وشهقت بالبكاء . !

قالت : انا اعلم لماذا تبكين . ان الاقامة بهذا القصر لاتطيب للحسان اللواتي قضين الاعوام في قصور الملوك . ولك في ذلك عذر يا نعمى فان الجمـال الذي وهب لك لم يخلق الا للجالسين في العروش .

قالت : انا لا اشكو غير هذا الجمال الذي كان بلية علي .

ــ ولكن البلايا لا تطول في بلاط الملك . انه احاط نساءه بجميـع اسباب النعم ، وملأ احضانهن ذهبا يعيش به اهلهن الى الابد .

ــ الا نعمى بنت الريان فقد ملأ قلبها حِسدا وصدرها بغضا وحقدا يبقيان ما بقيت .!

ــ انت ؟

ــ اجل انا .. انا التي انحنت عند قدمي رؤوس الفتيان الاشراف في حضرموت

وبذل كل واحد منهم ما يملك من المال لاكون له .

وكان ذلك ــ في نظر بلقيس ، مظهراً آخر من مظاهر الدهاء .

فقالت وهي لم تخرج عن رصانتها وماذا جرى لك بعد ذلك ؟

ــ ارسل ذو القرنين نديمه جاشداً الى حضرموت يشتري له العذارى الحسان ويعطي اهلهن المال الكثير للحصول على غايته والويل للوالد الذي لا يبيع بنتــه لنديم الملك .. ان جزاءه الموت في السوق .. ثم تساق العذراء بالسيف الى مأرب ويقذف بها الى ذلك الاتون الملتهب بنار الشهوات .!

وكانت الدموع تتساقط على خديها فلا تمسحها ولا تعبأ بما تقول حتى خيل الى بلقيس ان تلك الالفاظ المتقطعة لا تصدر الا من نفس متألمة تسودها الكآبة الدائمة ...

ولم تسكت نعمى ، بل كانت تقول وهي ترسل الزفرات :

نعم ، لقد كره الريان سيد حضرموت في ذلك الحين ان يبيع ابنته . . فقال لحاشد : ليس لي من الولد غير نعمى فلا ابيعهــا . . وفي ذلك القول يا مولاتي جرأة غريبة هي السبب في هذه الكآبة التي لا تزول .

فتظاهرت الاميرة بالاستغراب قائلة :

ان لوجودك في البلاط حكاية فاعمدي الى الجلاء .

قالت : خلاصة هذه الحكاية ان ابي قتل في سوق حضرموت ضربــا في السوط . .!

ــ ومن هو قاتله ؟

ــ حاشد ... ولم يشأ ان يصغي الى الشفاعات .. ثم امر فضمني عبيده الى العذارى اللواتي اشتراهن وحملت الى هــذا البلاط الاسود الذي لم اخرج منه الا اليوم .

فدب الريب في صــدر بلقيس ، ان نعمى رسولة الملك فليس من الرأي ان تصدق ذلك الحديث الذي روت . ولكن .. ولكن الدموع التي تذرفها الفتاة ،

دموع صادقة لا تستطيع العينان ان تجعلها سلاحاً كاذباً ... الا اذا كانت نعمى ادهى واخبث النساء ، فقالت لها :

ــ الم تقصي ما جرى لك ولابيك على الملك ؟

فابتسمت بألم قائلة : خبرت الملك ورجال الملك فلم اسمع من الجميع غير كلمات الاستهزاء ...

ــ ومن المرأة التي كنت وصيفة لها في البلاط ؟

فاخفت وجهها بيديها وهمست تقول :

كنت حظية لذي القرنين ثم امسيت وصيفة لاحدى لسائه .

فدهشت قائلة : من حظية للملك الى خادمة في القصر ؟؟ انه قول لا يصدقه الناس عن ذي القرنين الذي يحب الجمال .!

اقسم لك بتربة ذلك الولد المسكين الذي قتل ظلمـــاً اني لم اكذب ولم ازد حرفاً واحداً على ما جرى لي .

ــ اذن رأى الملك خيراً منك بين حظاياه فصرفك عنه الى خدمة المرأة التي احب ...

ــ لقد ملني يا مولاتي ومل بكائي فحطني من مقامي كما ذكرت .

ومع ذلك فليس لي ان اشكو ، ان البعد عن الملك هناء لي وانا اهب نصف حياتي لمن ينقذني منه ومن بلاطه .

فجاء دور بلقيس في الدهاء ، فقالت :

لا تهيني صاحب التاج ايتها الفتاة ..!

ــ لقد قتل ابي بامره ثم اهانني وعبث بي ..

قالت : ان ارواح الناس واموالهم واعراضهم للملك فليس لاحد ان يشكوه او يذكره بغير التكريم والاحترام ...

فرفعت رأسها بكبر قائلة : يقتل ابي .. ويـلوث عرضي ! ! وانا خـاضعة للقوة لا اقول كلمة ؟؟ ..

ــ افعلي ما تشائين في غير هذا القصر ان بلقيس التي هي عبدة الملك لا تسكت

عن الاهانة التي توجه اليه . . . ولو كان الفاعل ابي ، شرحبـيل بن عمرو . . .

ــ اراك شديدة الاخلاص لذي القرنين ايتها الاميرة !!

ــنعم كما ان ابي عبد من عبيده وسيف قاطع بين سيوفه . . .

ــ ولكنك تقذفين بنفسك الى اشداق الموت وانت لا تعلمين .

ــ اني من سلالة يعفر بن حمير والشريف لا يخون مليكه . .

ــ وانا من سلالة الامراء يا مولاتي وقد ورثت الشرف من آبـائي . . الذين كان امر حضرموت في ايديهم قبل ان يظهر ذو القرنين الى هذا الوجود .

ــ ومعنى هذا ؟

ــ معناه اني كنت احترم الملك واحبه قبل ان تطرحني الاقدار بين يديـه ، اما الآن فقد رأيت انه لم يكن اهلا لذلك الحب بل رأيت انه لا يستحق الا . . اللعنة . . ان الشريف لا يخون الشريف ولكنه يخون النذل الذي يدوس الشرف ويستحل الاعراض والدماء .

واسود وجه الفتاة ، وجعل صدرها يعلو وينخفض من شدة الغضب ،والالم، الظاهرين في كل كلمة من كلماتها الجارحة .

وكان صوتها يملأ الحجرة ، حتى ان شرحبيل الجالس في الغرفة المجاورة كان يهم بالخروج ليأمرها بالسكوت .

اجل : لقد سمع شرحبيل كل شيء . وكان يرغب في ان يرى وجهها ليتبين في تلك الساعة ملامح ذلك الوجه .

وقبل ان يغادر موقفه سمع ابنتـه تنادي جاريتها نائلة ثم سمعها تقول لهـا : ارسلي الي اخاك نائلا وقولي لابي وللهدهاد ان يحضرا الآن .

فقالت نعمى وقد خفضت صوتها :

اصبري يا نائلة ريثما اقص على الاميرة حكاية جديدة عن مولاهـا الملك لم تسمعها بعد .

والتفت الى بلقيس وهي تقول :

يخيل الي انك تريدين ان تطرديني من هذا القصر .

ـ نعم فانا لا احب ان اسمع اكثر مما سمعت .

ـ والى اين تبعثين بي ؟

ـ الى البلاط فانا لا اطيق النظر الى وصيفة خائنة .

قالت : خير لي ان تأمري بقتلي يا مولاتي من ان يحملني رجـالك الى القصر الذي خرجت منه .

ـ ان الملك وحده يأمر بالقتل ، اما انا فقـد عرفت الآن انك لا تصلحين للخدمة في قصر شرحبيل وهذا يكفي .

ـ واما انا فقد جئت الى هذا القصر على امل ان لا اعود الى الاقامة بالبلاط يوماً واحدا .

ـ وستعودين الآن الا اذا اعترفت بان حديثك عن الملك كان جنوناً .

ـ سأعترف لك بكل شيء ثم ترين بعد ذلك من هو المجنون انا ام الملك .

قالت : علي بنائل وليخرجها الساعة .

فغمرت ثغرها ابتسامة قصيرة ثم رفعت يدها اليمني الى العلاء قائلة :

لا تغضبي الآلهة ايتها الامـيرة . اني لن اعود الى بلاط الملك ولو ارسلتني اليه السماء .

ـ ولكني لا اريد ان تبقي في هذا القصر .

ـ وانا لست باقية .. لقد اقسمت اني سأنقذ فتاة من العار وسأفعل ثم اخرج من قصرك الى الابد !!

ـ ماذا ؟. تنقذين فتاة من العار ؟؟

ـ نعم وامنع اليد الجانية من ان تلوث شرفها ثم اموت .!

ـ ومن هي هذه الفتاة ؟

ـ هي انت .. انت بلقيس الحميرية التي ذهب لك في البلاد صيت وذكر .

وكأن الصاعقة انقضت على بلقيس . اتبوح لها نعمى بذلك السر الهائل الذي لا يعرفه غير الملك ثم تظن بها الظنون ؟؟

انها اذن فتاة بلهـــاء لا تستطيع ان تكيد ذا القرنين الذي يبذل دهـــاءه كله ليجعلها بين نسائه .

وكأنها عرفت في تلك الساعة ما يجول في صدر نعمى لكنها ظلت على جفائها خوفاً من ان يكون ذلك الغضب دورا تلعبه الفتاة بامر الملك فقالت لها : انـــا هي الفتاة التي تريدين انقاذها من العار ؟

ـ قلت انك هي ، واعيد قولي الآن ...

ـ ومن يستطيع ان يهدد شرفي وانا في قصر ابي ؟

فنظرت الى نائلة نظرة قصيرة ثم سكتت .

كأنها لم تشأ ان تبوح امامها بما في الصدر .

فأومأت بلقيس الى جاريتها تأمرها بالخروج ثم هامستها قائلة : قولي الآن من هو الذي يهدد شرف بلقيس .

ـ هو الملك الذي تذكرين اسمه كما تذكرين اسماء الآلهة .

ـ الملك نفسه ؟

اجل وقد ارسلني اليك لأنقل اليه كل كلمة تقولينها لابيـــك او لاخيك او لاحد الغلمان !

ـ ولكن ليس للملك شأن مع بلقيس .

ـ ان للملك شأنا مع هذا الجمال الفتان الذي تسحرين به قلوب الفتيان .

ـ اي انه يريد ان يكون هذا الجمال له لا لسواه .

نعم ، وقد طلب الى شرحبيل ابن عمه ان يبعث بك الى البـــلاط لتكوني من حظاياه .

قالت : لم يذكر لي ابي شيئا من هذا .!

ـ اما انا فقد ذكرته الآن ولا ابالي . . وسأموت بعد ساعة قريرة العين لاني احبطت مساعي الملك الظالم القاسي القلب .

ومدت يدها الى كمها فاخرجت خنجراً كالخنجر الذي تخفيه بلقيس في ثوبها وهي تقول :

قلت اني لن اعود الى بلاط الملك وسأثبت هذا القول .

فاجابتها بهدوء قائلة : ستموتين بعــد ان تقصي علي كل شيء . قولي ، ولا تنسي كلمة مما حدثك به ذو القرنين .

ـ سأفعل ، على رجاء ان تذكري قولي بعد ان اترك هذا العالم وتعملي به .

ـ اعدك بهذا ...

ـ بل اسألك يا مولاتي ان تقسمي لي بشرف جــدك يعفر انك ستكونين عدوة للملك .

ـ اقسم لك اني سابغض الملك اذا هو حاول ان يهين شرفي كما تقولين .

قالت : لقد رضيت فاسمعي :

كان الملك يسكر عندما طلب من ابيك ان تكوني له .

ـ ومتى كان ذلك ؟

ـ امس ، ولكن اباك اغلظ له في القول حتى نزل عن طلبه واوهمه ان ذلك الطلب كان مزاحا .

ـ نعم .

ـ ثم اظهر له رضاه بقوله : لقد وهبت لبلقيس خير وصائف البلاط وخير لآلىء التاج وقام ابوك فخرج وانا لا اعلم ماذا يضمر لذي القرنين .

ـ ومن كان حاضراً من الامراء ؟

ـ اولئك الذين تعودوا ان يشربوا معه الخمر كل يوم بينهم حاشد اللعين نديم الملك وساقيه .

ـ ثم بات يشرب على عادته حتى انتصف الليل .

ـ لا يا مولاتي بل ترك الكاس غاضبا وامر نديمه بان يدعوني اليــه بعد ان صرف رجاله ثم باح لي برغبة نفسه التي هي رغبة ابليس .

ـ وكان حاشد يسمع ؟

ـ لقد امره بان يترك القاعة فخرج منها ولكن ليضع اذنه على الباب .

ـ ماذا قال ؟

ــ بدأ بذكر الدموع التي يراها في عيني كل صباح ، ثم طلب الي ان اصفح عن ذنبه ، كالذليل الجبان يحني رأسه حتى يلامس الارض لينـال غاية لـه . فعرفت ان وراء ذلك الاستغفار عار آخر يريد ان يلحقه بي ، وجريمة جديـدة يؤثر ان يمد اليها يدا ناعمة كيد نعمى المسكينة . التي قتل اباها وفضح كرامتها ، ولكني لم اظهر له غير الخضوع ، ولم انظر اليه الا والابتسامة الكاذبة على شفتي.. وقد وعدني اللعين انه يعيد الي مقامي في بلاطـه ويجعلني من جديـد حظية له ولولي عهده •• ثم قال :

اتعرفين بلقيس بنت شرحبيل ؟

ــ لا يا مولاي .

ــ وهل تعرفين شرحبيل نفسه ؟

ــ نعم وانا اراه في قصرك واعرف انه ابن عمك .

قال : لقد سألناه ان يبيعنا ابنته فلم يرض . . .

فقلت : اقتله يا مولاي ومر رجالك بان يحملوا اليك بعد موته تلك الفتاة التي احببت . . !

وخفت ان يغضب لذلك القول فيضرب عنقي ، غير ان السكر كان عونا لي فلم يدرك مغزى كلمتي بل اجابني قائلا : انه من انسباء الملك ولـه في اليمن الاعوان والانصار فليس من الرأي ان نشهر الحرب لاجل بلقيس .

ثم قال : ولكني اريد ان ابلغ بالدهاء ، ما لم استطع بلوغه بالقوة ، وقد تركت رجال الرأي والامراء واخترت لهذه الغاية فتاة من فتيات البلاط هي انت ! ! •

فترددت في الجواب يا مولاتي .. ثم خطر لي ان اتصدى له في امره واجرب دهائي في احباط مسعاه فقلت :

اني عبدة الملك فليأمر بما يشاء . . .

قال : ستصبحين غداً في قصر شـرحبيل وصيفة لابنته وتحملين اليها بعض اللآلىء هدية من الملك.

ثم قص علي ماجرى بينه وبين ابن عمه ، ولكني لم اعلم في تلك الساعه ما هي المهمة التي ندبني اليها..

أأكون وصيفة في بلاط الملك ثم اصبح وصيفة في قصر شرحبيل ؟؟ وما هي الغاية من هذا الانتقال الذي لا معنى له ؟ ! بلى لقد عرفت ، ان الغاية منه شريفة طاهرة مثل جميع غايات ذي القرنين اتعرفين ما هي ؟

ـ لا ..

ـ انه يريد ان انفخ في صدر بلقيس روح الحب ، واقص عليها حكايات الغرام التي تجري في البلاط ، واصف لها الملك وصفا يحملها على هجر ابيها واخيها لتلقي بنفسها بين ذراعيه ! أفهمت الآن يا مولاتي ما هي غاية الوصيفةالتي ارسلها اليك الملك .

قالت : وماذا يصنع ان لم يخفق هذا القلب على حبه ؟

ـ يعمد الى حيلة افظع من هذه هي انه يبعث رجاله في ليلة من ليالي الشتاء الى هذا القصر فيعصبون عيني بلقيس النائمة ، ويحملونها اليه قبل ان يبزغ الفجر ..!

ـ وحراس القصر ورجاله ؟؟

ـ ابعدهم عنه في تلك الليلة بامر من مولاي شرحبيل .

ـ ومن ينقل اليهم هذا الامر ؟

ـ انا !

ـ ومن يفتح ابواب القصر ؟

ـ انا !

ـ اذن كان الملك يتآمر على بنت عمه ؟ !

ـ نعم ، ولكني سمعته يقول:

لا الجأ الى هذا الامر الا اذا اكرهتني عليه بلقيس .

ـ اي انه يهاجم القصر في ظلام الليل عندما يعلم اني لا احبه ولا ارغب فيه ..

ـ نعم

ـ وينسى عندئذ ان لشرحبيل الاعوان والانصار في اليمن ؟
ـ ينسى عندئذ كل شيء ويشهر السيف في وجه كل امير يرفع صوته .
والآن فارجو ان تذكري نعمى بنت الريان يا مولاتي كلما ذكرت الملك .
وهمت بأن تغمد خنجرها في صدرها المضطرب .
فانتهرتها قائلة : لي كلمة اخرى اقولها لك قبل ان تفعلي .
ـ قولي كلمتك .
ـ لقد ذكرت الآن انك لم تعرفي بلقيس التي تخاطبينها الساعة .
ـ اجل لم اعرفها الا اليوم .
ـ اذا لم يكن هذا الموقف دفاعاً عنها ، بل كان عاطفة بغض تضمرينها للملك ، وتحجبينها وراء مظاهر الطاعة والاخلاص .

ـ هو ذاك وانا لم اقل قط اني فعلت ما فعلت دفاعاً عن بلقيس .. ولكن لماذا تسأليني عن هذا ؟
ـ لاني اريد ان اعلم اذا كنت مدينة لك بحياتي .

ـ لست مدينة لي بشيء يا مولاتي .. لقد كان غرضي ان ابوح لك بسري ثم نرد نحن الاثنين كيد الملك ... اما الان فقد عرفت انك الفتاة الصادقة في الاخلاص له ، فلم يبق الا ان يفصلني القبر عن الناس لان العيش لا يطيب للمرأة الغريبة التي ضيعت شرفها وخسرت اباها وقل حولها وجود الاصدقاء الذين يمدون اليها يد المعونة والحب .

فلمست بلقيس بيديها الاثنتين نفس الفتاة الثائرة ، وايقنت انها في تلك الصراحة والجرأة ، تؤثر الموت على الحياة .

وقد اضمحل الريب الذي قام في صدرها ، وحل محله الوثوق بانها ستكون عوناً لها على الملك الجاني .

وكانت نعمى قد عادت الى البكاء ، فتركت بلقيس مقعدها ، والشفقة في عينيها ، وجلست بالقرب منها وهي تقول :

اذا قل الاصدقاء في قصر ذي القرنين ، فقد كثروا في قصر آخر حول نعمى بنت الريان . .

فتنهدت قائلة : ما عرفت في مأرب غير قصرين ، بلاط الملك وقصر شرحبيل . . .

ــ وفي قصر شرحبيل تجدين من ذكرت .

ــ هنا يا مولاتي ؟

ــ نعم هنا ، فانا بلقيس بنت حمير امد اليك يدي واسألك ان تعاهديني على الطاعة كما اعاهدك على الوفاء !!

فجعلت تقول : عار على بلقيس ان تهزأ بالفتاة التي تتهيأ للموت .

قالت : اقسم لك برأس شرحبيل وتربة يعفر اني لست هازئة .

فرفعت رأسها والدموع تتلألأ على خديها ثم قالت لها :

اذن اموت وانا واثقة باني قهرت الملك .

ــ ان الموت لا يمد اليك يده وانا بالقرب منك ، قلت لك عاهديني على الطاعة فانت اخت بلقيس منذ الان .

ــ ولكن هذه الاخت لن تعيش !

ــ لماذا ؟

ــ لان الذي يخون الملك لا يبقى حيا .

ــ بل تخونينه من وراء الستار ويبقى راضيا كما سترين .

ثم قالت : والان فاقسمي لي كما طلبت لنبدأ بعهد جديد ، ولا تخافي ذا القرنين فهو لا يستطيع الوصول اليك وانت في ظل شرحبيل .

فابتسمت وهي تمسح دموعها وتقول :

اقسم بذلك الدم الطاهر الذي سفكه نديم الملك ظلما ، اني اطيع الاميرة بلقيس بنت شرحبيل في كل ما تأمرني به والا فانا بريئة من دم الريان .

فاشرق جبين الاميرة وتناولت الخنجر من يدها ونهضت قائلة :

بقي ان ادعو والدي فيعرف كل شيء .

وكان شرحبيل كما عرفت، يسمع حديثهما كلمة كلمة وقام في ذهنه ان الاقدار تخدم بلقيس في غايتها التي قرأت .

ولم يبق له ما يصنعه في تلك الحجرة الصغيرة التي تجاور حجرة ابنته ، فخرج منها بهدوء الى الرواق ثم مشى يريد الحجرة الاخرى التي تتحادثان فيها وهو ينادي بلقيس .

فلما رأته ، عرفت من وجهه انه سمع حكاية نعمى ففاجأته قائلة : كنت اهم بان ادعوك الآن لأقص عليك خبراً جديدا .

قال : ومن يأتيك بالاخبار وانت بين اربعة جدران ؟

فاومأت الى الفتاة وهي تقول :

نعمى ، انها وصيفة تصلح للعيش في قصور الامراء ولا تصلح للخدمة في قصور الملوك .

قال : لعلها ملت عيش الترف في قصر مولانا الملك !

ــ بل قل انها ملت تلك المفاسد التي تسود اهله .. اجلس يا مولاي اقص عليك الخبر الذي ذكرت .

وجعلت تعيد عليه ما سمعه منذ ساعة وهو يتظاهر بالاستغراب حتى انتهت بقولها :

لقد كان في مأرب فتاة واحدة تكره الملك الجائر فارسلت اليها الالهة فتاة اخرى من حضرموت .

ــ اذن اصبحت بلقيس ووصيفتها الجديدة متآمرتين .

ــ نعم واصبح شرحبيل بن عمرو سيد المتآمرين .!

ــ ولكن الملك سيفضح المؤآمرة وينتهي الامر بيننا وبينه الى السيف .

ــ بل ينتهي الامر بيننا الى ما نحب وسترى يا مولاي ان ذا القرنين ليس اشد دهاء من ابنتك .

قال : افعلي يا بلقيس ما تشائين فانا لا ابالي ، غضب الملك او رضي ، ان الشرف عندي فوق كل شيء وليس احب الي من الموت في سبيل الدفاع عنه .

ولكن لم تقل نعمى متى يريد الملك ان يراها ..

قالت : يريد الملك ان يكون لي اخت في بلاطه .!

فضحكت بلقيس قائلة : وستذهبين الى هذا البلاط كلما طاب لك الذهـــاب لتري هذه الاخت .

ـ نعم وانا استأذنك في هذا الامر منذ الساعة .

ـ لقد اذنت لك على امل ان لا يدفعك الشوق الى الذهاب في كل يوم .

ومكث الثلاثة في تلك الحجرة ساعتين طويلتين وضعوا في خلالهما منهاجهم الذي يريدون ان يضيعوا فيه دهاء الملك .

***

٥

لم تشأ بلقيس ان تطول غيبة نعمى عن البلاط اكثر من عشرة ايام ، فدعتها اليها في صباح يوم وقالت لها :

لقد رأيت في منـــامي ، ان اختك ترغب في ان تراك وستزورينها في هذا الصباح ...

ـ وانا قد رأيت يا مولاتي اني لا اطيق النظر الى اختي ولا اريد ان اراها ،

ـ بل تريدين كل ما اريده وان لم تكن لك رغبة فيه ، تذهبين الان وتقولين لحراس هذا القصر ان لك اختاً في البلاط كما امرك الملك بان تقولي .

ـ ولكني اخشى ان ينم وجهي على ما في الصدر .

قالت : احذري ان يعرف الملك شيئاً من ذلك .. ان الموت من يده ، يتبع الشك الذي يدب في نفسه .. لقـــد اراد وهو الملك القادر المسلط على الارواح والاجساد ، ان يجعل دهاءه سلاحاً يصيدنا به ، فلنعد لصيده هذا السلاح نفسه ولنظهر بمظهر الخضوع الدائم والطاعة الصادقة التي لا يشك فيهما .. اذهبي ولا تنسي كلمة واحدة مما حدثتك به وخاطبيه والاعجاب في عينيك والابتسامة في

ثغرك ، حتى يقوم في ذهنه انك لا تفكرين الا فيه ، ولا تنظرين الا الى الناحية التي يكون فيها رضاه وستصفين لي بعد ان تعودي امراء البلاط الذين يعيشون حوله .. وجميع الرجال اصحاب المشورة والرأي وانت تعرفينهم .

ـ اجل : وقد درست في الاعوام السبعة التي قضيتها في البلاط اخلاق اولئك الرجال .

فاومأت اليها بالخروج وهي تقول :

اذكري اباك ولا تنسي شرفك الذي اهين .

فخرجت الفتاة ونار الحقد تتقد في الاحشاء .

***

كان ذو القرنين ، في ذلك الحين ، بين عاملين .

الحب ، الذي جرح كبرياءه والتاج .

احب بلقيس ، على السماع ، حباً اوحى اليه به ذلك الجمال الذي وصفوه له ، فتصدى له شرف شرحبيل وشرف ابنتــه ، فامسى حبه جرحاً في القلب ، بعيد الغور ...

انه الملك لا يسأل عما يفعل ولا يرد له امر ! فكيف يقول ابن عمه ان موت بلقيس خير من ان تكون في بلاطه ؟!

ايقوم تحت سمــاء اليمن رجل مثل شرحبيل يغضب الملك ولا يبالي ويجرح كبرياءه ذلك الجرح الدامي ويبقى حياً ؟؟!

انها جرأة لا يفكر فيها غير اليمني القومي الذي تحميه سيوف قومه ، او اليمني المجنون المستخف بكل ما حوله !

وان كرامة الملك وكبرياءه ، تقضيان عليه بان يضرب ذلك القوي او المجنون ضربة قاتلة لا يقوم له بعدها شأن .

ولكن الثورة .! الثورة التي تسعر تلك الضربة نارها ماثلة امام عينيــه وهو

كانت الايام العشرة التي مرت على وجود نعمى في قصر شرحبيل ، كافيـــة لدرس ما اراد الملك ان يعرفه ، من رغبة بلقيس عنه او رغبتها فيه .

وكان واثقا بدهاء حظيته بالامس ، ووصيفة احدى نسائه اليوم .

كما كان واثقا بان بلقيس ستكون له ، وسيلوث شرف ابيها ، ولو طال على دلالها الزمان .

وذلك بفضل المال الذي سيبذله لاجل هذه الغاية .

وقد جلس في صباح ذلك اليوم على احدى الشرفات ، وحاشد بين يديه ، والاثنان ينظران الى اسد هائج يدور في قفصه في فناء القصر .

وكان حاشد يقول له :

لقد سلبت الاسود تيجانها يا مولاي وجعلتها في الاقفاص ...

فقال : ولكننا تركنا بعض الثعالب تطوف في الغاب .

فعرف نديمه انه يعني شرحبيل ، فاجابه قائلا :

انا حاشد نديمك يا مولاي اصيدها لك .

ـ ان زمان الصيد لم يأت بعد ، والويل لهـــذه الثعالب عندما يحمل الصياد سهامه .

وبينا هما يتحدثان ، اقبل يقول : لقد جاءت نعمى بنت الريان .

فنهض عن مقعده وهو يقول :

انصرف يا حاشد وقل لها انت ايها العبد ان تتبعنا الى قاعة الملك في الجناح الغربي ..

وكانت تلك القاعة احب قاعات القصر الى الملك لبعدهـــا عن الجناح الذي يغص بالنبلاء والامراء . ولانها في الجناح الذي تقيم بــه نساؤه وحظاياه .

فمشى اليها والرؤوس تنحني له في الاروقة والدهاليز ، حتى جلس على مقعده فيها ودخلت وصيفة بلقيس .

ونعمى تعلم عادات الملك في استقبال اهل البلاط ... فجثت على ركبتيهـــا ولامست جبهتها الارض .!

فاذن لها في النهوض ، وهو يبتسم ثم امرها بالجلوس قائلا :

خيل الينا انك لا تعودين الى هذا القصر .!

فخفق فؤادها ، وعرفت ان الملك يريد ان يفاجئها باسلوب من اساليب الخبث التي الفها في حديثه ، فقالت له :

لقد آثرت قصر شرحبيل على بلاط الملك الذي ربيت في نعمته .

قال : وانستك الايام العشرة ، السنوات السبع التي قضيتها في ظل الملك .

فذكرت عندئذ اباها وشرفها وتمتمت قائلة :

اقسم ان الحياة كلها ، بما فيها من عظمة ومجد وذهب ، لا تستطيع ان تنسيني مولاي العظيم الذي غمرني بالاحسان والفضل .

وقد صدقت نعمى في قسمها ، فهي لم تنسه ولن تنساه .

ومن اين له ان يعلم ان ذلك القسم كان تهديداً .

فاشرق جبينه وقال : لو لم يكن الملك واثقاً باخلاص نعمى بنت الريان لما باح لها بسره الذي لم يبح به الا لولي العهد ، ولما عهد اليها في تنفيذ غايته ، ما وراءك الآن ؟؟

قالت : سل يا مولاي .

قال : كيف رأيت القصر الذي ارسلناك اليه ؟

ـــ ان المرأة التي تنشأ في قصر ذي القرنين لا تعبأ بما تراه في غيره من قصور الاشراف !

ـــ لا نسألك عن القصر بل عن سكانه ... ابدأي بشرحبيل .

فخفضت صوتها قائلة : رجل انس يا مولاي ولكنه خائف .!

ـــ وما هو سبب خوفه ؟

ـــ انه يخاف الملك والذعر يملأ قلبه .

فجعل ذو القرنين ينظر الى عطفيه .. ان في خوف شرحبيل اثراً ظاهراً من آثار هيبته في نفوس القوم ، ثم قال :

حدثينا بكل ما تعلمين عن هذا .

ـــ لقد قص علي يـــا مولاي كل ما جرى بينك وبينه في هذا القصر وكان يقول : لقد اغضبت الملك والذنب ذنب الشرف الذي خلقنا لنصونه . !

قال : ويلك ايذكر شرفه وتقولين انه يخافنا ؟.

ـــ نعم يا مولاي ولو لم يكن هنالك شرف يريد ان يصونه كما قال لمـــا كان سبيل الى الخوف .

ـــ اذن يرى ابن عمنا ان وجود بلقيس في البلاط يضيع شرفه .

ـــ لا يا مولاي بل يقول غير ذلك .

ـــ ماذا ؟

ـــ يقول ان نسبه لاحق بنسب الملك وهو يطمع في ان يكون له اكثر ممـــا لسواه ...

قال : اذكري طمعه .

ـــ انه يكره ان تكون بلقيس حظية في القصر مثل جميع النساء .

ـــ وهل يريد ان يجعلها ملكة ؟

ـــ بل يريد ان يجعلها ولية عهد !

فاصفر وجه الملك وخفق قلبه .

ان ولده عمرا يرغب في بلقيس وشرحبيل يرغب فيها ، وشرف الملك يقضي عليه بان يرد طلب الاثنين .

وهنالك غاية اخرى كانت تجول في صـــدره ، هي انه يأبى ان تكون بنت شرحبيل ملكة حمير ، وان يكون لذرية شرحبيل علاقة بالعرش .

وماذا يصنع ليبلغ غايته ؟ يعالج الامر بالدهاء والحيلة حتى يستتم له كما يشاء ثم ينظر بعد ذلك في شأن الزواج .

فقال : ورأي بلقيس ؟؟

ـــ اما بلقيس فقد خالفت اباها في هذا الرأي فهي لا تستطيـــع ان تتزوج اليوم ولو طلبها الملك نفسه .

فبرقت عيناه قائلا : ولكنها جـاوزت العمر الذي تتزوج في مثله فتيات اليمن ؟ .

ــ اجل ، غير انها نذرت نذراً يا مولاي .

ــ ما هو ؟

ــ ان لا تتزوج قبل ان تبلغ الثانية والعشرين .

ــ وماذا تبلغ من العمر الان ؟

ــ الثامنة عشرة .

ــ وسبب هذا النذر ؟

ــ لم تذكره لي يا مولاي ، ولكنني سمعت جاريتهـا نائلة تقول انها احبت فتى من فتيان قومها وعاهدته على الوفاء ولكنه قتل في صنعاء .

ــ متى كان ذلك

ــ منذ ثلاثة اعوام ، فحلفت وعاهدت الالهة انها لا تتزوج الا بعد ان تمحو السنون من ذهنها ذلك الحبيب .

ــ اذن نرى انك ستفشلين في المهمـة التي ارسلناك من اجلهـا الى قصر شرحبيل ...

ــ من يعلم يا مولاي فقد ترضى الفتاة غدا بان تصير حظية لمولانا الملك .. اما الان فليست راضية .. وعذرها في ذلك ان اعظم فتـاة في اليمن لا تكون حظية ....

فجعل يمضغ كلماته مضغاً وهو يقول : لقد نسيت بلقيس انها لا تصير اعظم فتاة الا اذا اصبحت في بلاط الملك .. ومع ذلك فلننس هـذا الان ولننظر في امر الزواج .. ان الملك لا يريد ان تكون بنت شرحبيل زوجة لولي العهد ...

ــ ولكنك لا تستطيع يا مولاي ان تجد له زوجة مثل بلقيس .

قال : للملك نظر آخر لا تفكرين فيه ويجب ان لا تعرفيه .. يكفي ان تعلمي انه ليس لنا رغبة في ذلك وهذا الزواج لا يتم ونحن في الوجود .. ولكن نريـد

ان يصبح الاثنان عاشقين وان تشعل نار الغرام في الصدرين •

ــ لماذا يا مولاي ؟

ــ لتذل بلقيس في هذا الحب ويذل ابوها في استعطاف الملك ليرضى بالزواج، بل للملك رغبة اخرى هي ان يذيع امر حبهما ويملأ اليمن كلها فتتحدث به الامراء والنساء •

ــ وبعد ذلك ؟

ــ يطلب الملك بعد ذلك ان تزور بلقيس البلاط ثم يأذن في الزواج .

ــ ولكن الفتاة اليمنية لا تفعل هذا يا مولاي ..

ــ تعرف ذلك وهذه غاية الملك .. اتعلمين ماذا يحدث عندئذ ؟ يحدث ان بلقيس تصبح بعد دخولها البلاط على رغم ابيها وكبرياء الاثنين ، احدى حظايا ذي القرنين .. وينتهي الامر .

قالت : المهمة صعبة يا مولاي كما نرى .

ــ انك تستصعبينها في هذه الساعة .. ولكن عندما يوحي اليك الملك برأيه يهون الامر الذي تستصعبين .

فحنت رأسها تنتظر ذلك الرأي .

فقال : اعلمي اولا ان ولي العهد يريد بلقيس زوجة له .

ــ يريد ذلك وهو لم ير وجهها من قبل ؟

ــ اجل وقد احبها بعد ان وصفها له ناشر امين سره .

ــ وطلب ذلك من مولانا الملك ؟

ــ وطلب ذلك من ابيه فوعده بان يمهد له جميع الاسباب .

قالت : وهو يجهل غايتك يا مولاي ؟

ــ نعم والويل لك اذا عرف هذه الغاية .

ــ ان نعمى بنت الريان لا تخون المحسن اليها وليس اشهى لديها من ان تخدم مولاها الملك باشد ما في صدرها من اخلاص وعاطفة ووفاء ولو كلفتها هذه الخدمة شرفها وحياتها •• ولكن ما هي هذه الاسباب التي وعدته بان تمهدها له؟

ـ تمر الايام الان وانت في قصر شرحبيل تروحين وتجيئين الى البلاط دون ان يعلم احد ما تصنعين ·· ثم يأتي يوم يأمر الملك فيه جميع رجال البلاط ونسائه بالذهاب الى سد العرم ويـــدعو ابن عمه واهل بيته الى قضاء ذلك اليوم معهم يتنزهون في الوادي حول تلك الانقاض فيرى عمرو بلقيس ويزداد بها غراماً ··

ـ وان لم تذهب يا مولاي ؟

ـ هذا الذي نأمرك بأن تفعليه ·· يجب ان تذهب عندما يأمر الملك بذلك دون ان تتردد في الامر ·· وعليك ان تصفي لهـــا جمال عمرو وعظمة نفسه حتى يتغلل الهوى في قلبها قبل ان يجيء ذلك اليوم ·

ـ سأفعل يا مولاي ·

ـ اما نحن فقد قام البغض في صدرنا مقام الحب ولا تخطر لنـــا بلقيس كما ذكرنا فاما ان تصان كرامة الملك واما ان يظفر شرحبيل ··

ـ اذن لقد انتهت مهمتي الاولى يا مولاي ··

ـ لا لم ينته شيء ·· ان السعي لاجل الزواج يفضي الى جعل بلقيس حظية لنا افهمت الان ؟

ـ اي انه لم يبق الا ان اسلك طريقاً آخر ···

ـ اجل وهو طريق الحب ، وان تنسى بلقيس نذرها وتفكر في الزواج ·

قالت : لي رأي اخر يا مولاي هو ان يزور ولي العهد شرحبيل ابن عمـــه في قصره فيرى بلقيس ··· وذلك خير من ان تخرج الى العرم ··

قال : نؤثر ان ترى ولي العهد في موكبه يحف به الامراء والقواد من ان تراه في قصر ابيها ومعه عبد له ليس غير ·· ولكن ان لم يكن هذا فليكن ذاك وستنظر في هـــذا الشأن ··

ثم قال : والان فقد بقي سر آخر يتعلق بالعرش ··

فقالت في نفسها : وهذا ما تريده بلقيس ايها المغرور ·· انها تنظر الى عرشك بعينين يلمع فيهما الطمع ولا تعبأ بك وبولي عهدك ·

وتظاهرت بالاستغراب قائلة : ايجرؤ احدهم على خيانة عرشك ؟

قال : ان في اليمن رجلا يفكر في هذه الخيانة هو شرحبيل !

فذعرت نعمى لهذا السر الهائل يبوح لها به الملك ، ثم قـالت : شرحبيل نفسه يا مولاي ؟

ــ هو لا سواه وقد نقل الينا رجال القصر انه يظهر الطاعة ويتهيأ من وراء الستار للعصيان .

ــ انه شيء جديد لم اعلم عنه شيئاً في الايام العشرة التي مرت على وجودي في القصر وسأبذل الجهد كله بعد رجوعي للاطلاع على هذا السر ٠

قال : تظاهري انك تخونين الملك لتقرأي افكار القوم ٠

ــ ايجوز لمثلي ان يفعل هذا يا مولاي ؟

ــ يجب ان تفعلي كل ما يأمرك به الملك ٠ وقولي لشرحبيل ان ذا القرنين لا يصلح للعرش وان معظم الذين يقيمون ببلاطه لا يترددون في الخـروج عن الطاعة وتحطيم ذلك العرش اذا دعاهم احـد الامراء الى تحطيمه ٠

فجعلت الفتاة تهزأ بسرها ببلاهة هذا الملك الذي يثق باخلاصها له وكادت تفضح نفسها باظهار ذلك الاستهزاء ٠٠ ثم قالت :

لقد فهمت الان كل شيء وسيعرف مولاي الملك بعد حين جميـع اسرار اهل القصر ٠

فقال : اذهبي اذن وخبري بلقيس ان الملك يثني على جمالها وولي العهدشغوف بها وقد اذابه الحب ٠

وقام فخرج وهو يخاطب نفسه قائلا :

لا يقدر شرحبيل وبلقيس ان ينجوا مـن ذي القرنين الذي اخضع الانس والجن ٠٠٠

* * *

٦

كان ذو مغار ، صديق شرحبيل في قصره ، يوم مر بذلك القصر ، ذو تبع امير همدان ، في طريقه الى امارته ٠

وذو مغار صديق الامير ، يعود عهد هذه الصداقة الى الزمن المـــاضي الذي كان فيه ذو تبع فتى يلعب في فناء قصره ، وكان ابوه سيـــد القوم وحاكمهم المطاع .

فلما خبروا ذا مغار ان امير همدان يستأذن عليه خرج من القاعة التي كان فيها مع ولده غالب يستبقلانه في الرواق .

وتعانق الفتيان ، ثم فتح له ذو مغار ذراعيه ، ووضع يده بيده ودخل الثلاثة الى قاعة الجلوس .

وكان ذو مغار البادىء بالحديث فقال : متى تركت البلاط؟

ـــ منذ ثلاثة ايام .

ـــ وهل تبقى في همدان حتى ينقضي الصيف ؟

ـــ اجل ، فقد اذن لي الملك في هذا وسأقوم في الوقت نفسه بجمع الخراج على عادتي في كل عام .

قال : اظن ان جميع الامراء غادروا البلاط في هذه الايام .

قال : يخرج الواحد منهم وراء الاخر فلا يمر الشهر حتى يكون الجميـــع في المخاليف ٠

ـــ وكيف رأيت ذا القرنين في بلاطه ؟

فهامسه قائلا : رأيته كثير العطف علي وانا لا اعلم ما في نفسه ٠

فابتسم وهو يقول : كما رأيناه كثير العطف من قبله ، على الامراء الذين كانوا من رجاله ، ولكن ذلك العطف انقلب اخـــيرا الى غضب ولم يلبث الملك حتى حطم نفوذهم بحد السيف ٠٠٠ ومع ذلك فقد يكون حبه هذه المرة حبا صادقا لا رياء فيه ٠٠٠ ثم قال :

وولي العهد ؟
ــ اما ولي العهد فلا شأن لي معه وهو في بلاط ابيه بعيد عني كما اني بعيد عنه ٠
ــ اتخاصم عمراً وولي العهد وتطيع اباه ؟
ــ وماذا يمنعني من ذلك ؟
ــ غضب الملك ٠
ــ ان الملك راض وهو يعلم كل شيء ٠
قال : الا تذكر لي اسباب هذا العداء ايها الامير ؟
ــ اذكرها لك كما وردت وهي هذه :
وقص عليه حكايته مع ولي العهد ، فقال :
ــ اذن فعمرو ابن الملك لا يصون كرامة ولاية العهد ٠
ــ بل هو لا يعلم انه سيصبح ملكا ولا يعبأ الا بالحسان اللواتي جعلهن الملك حوله .
ــ تلك هي حياة ابيه في البلاط ، انها حياة اللذة والهوى واللهو والاستهتار وقد تكون ايها الامير من عشاق هذه الحياة .
ــ لقد مللت العيش في القصر ، ولولا حب الملك وايثاره اياي على معظم رجاله لخرجت منه على ان اعود اليه ولو قتلت ٠٠
قال : انك شديد الاعجاب بذلك الحب الكاذب الذي يظهره ذو القرنين .
ــ لا : ولكني اقابل المعروف بالمعروف ولا اريد ان يقال ان امير همدان لا وفاء له . واعترف لك باني لا احترم الملك في بلاطه ، كما احترمه في فتوحه وحربه ، وقيادته الجيش الى الميادين ، ويكفي ان اذكر حادثته مع الامير شرحبيل ابن عمرو ، لتضعف هذا الاحترام ويزول اثره من الصدر ٠
فدهش ذو مغار قائلا : واية حادثة هذه ؟
ــ لقد خرج شرحبيل عن حده في حديث له مع الملك وكاد الملك بدوره يخرج عن هذا الحد ٠٠

قال : عهدي بشرحبيل انه رجل رصانة وادب ، يخضع للملك ويطيعه لانه ملك وان يكن على غير دعوته ...

فخفض صوته قائلا: ولكن الملك اهان ابن عمه وصفع شرفه صفعة لا يحتملها مثل شرحبيل .

فاستوى ذو مغار في مقعده وهو يقول لقد اراد الملك اذن ان يشعل النار . . هات ايها الامير .

قال : طلب اليه الملك ان يقيم ببلاطه كما يقيم غيره من الامرأ فلم يرض . . .

ـ ليس في هذا الطلب اهانة كما قلت .

ـ نعم ولكنني لم اقص حكايتي بعد ..

قال : لي كلمة اقولها قبل او تفعل .. ما هي غاية الملك من جعل امراء اليمن كلهم في البلاط ؟

ـ ليفاخر جميع الملوك بمظاهر العز التي تحيط به .

فضحك قائلا : اخطأت فذو القرنين لا يفكر في هذا ولا يعبأ به ، ولكن غايته ان يراهم بعينه ويسمع اقوالهم باذنيه ، ويخدر اعصابهم بالوعود الخلابة والنعم الكثيرة حتى اذا انصرفوا الى مخاليفهم بعث وراءهم عيونه وجواسيسه ينقلون اليه كل كلمة يقولونها في تلك المخاليف .

ـ وماذا يفعل ذلك ؟

ـ ليكون امر اليمن في يده . لا ينقل احدهم قدماً الا باذنه ، ولا يرتفع في البلاد صوت الا للدعاء له ... والا فما هو العز الذي يكتنفه اذا احاط بهامراؤه في قصره ؟ انه سيد اليمن وملكها سواء اعاش وحده ام حفت به الرجال .. وانه الملك المستبد القاسي الذي يريد ان يقضي على أمرائه الواحد بعد الآخر ، ويمحو هذه الامارات التي هي قذى في عينيه من صفحة الوجود .! هذه غاية الملك يا بني اترا بأمر قواده بالاقامة بالقصر ليحادثهم بشؤون الحرب والفتح ام ليجعل نساءه شركاً يقعون فيه ؟؟ قل لي ايها الامير ماذا يصنع ذو القرنين ورجاله في

ذلك البلاط العظيم.. انا اعلم ماذا يصنعون.. يتمرغون في احضان اللذات والنعم. يلعبون ويسكرون ، ويعبثون بالحياة واهل الحياة ، والخبث والرياء يسودان القصر وسكانه وهم لا يعلمون .

ثم خفض صوته قائلا : اني احبك يا بني كما كنت احب اباك فانصح لك بان تترك ذلك القصر الذي تمثل وراء جدره ادوار الحيلة والفساد ، وتقيم بقصرك في همدان للعناية بامور قومك كما افعل انا وكما يفعل ذلك الامير الكبير شرحبيل ابن عمرو ...

وكان وجه الفتى يحمر خجلا وشفتاه ترتجفان .. ان ذلك القول صحيح لا ريب فيه والبلاط بلاط مكر وخداع وجب .. ولكن الملك يعطف عليه ويؤثر على سواه فليس من المروءة ان ينسى عطفه واحسانه . وكيف يخرج من بلاط الملك بدون عذر يكرهه على الخروج منه ؟؟ اجل كانت حادثته مع ولي العهد عذراً غير ان اباه محا تلك الحادثة بحلمه فلم يبق هنالك شيء يتخذه وسيلة لترك القصر والالتجاء الى همدان فقال للامير : يصعب علي ان اغادر الملك المحسن الي.

ــ وبماذا احسن اليك يا بني؟ ابا لكلمات تقذف بها شفتاه الملوثتان ام بالوعود الكاذبة يرسلها لسان كاذب لا يعرف صاحبه ما هو الوفاء ؟!! اذكر يا بني هذا هذا الاحسان الآن ..

ــ اذكر شيئا واحدا هو ان مقامي في البلاط يشبه مقام ولي العهد ومقعدي من الملك لا يبعد عن مقعده .

قال : لا يليق بامير همدان ان يعد قربه من الملك احساناً .. انك يا بني ملك في قومك ولهمدان المقام الاول بين امارات اليمن فاذا لم يعرف الملك هذا فهو الجاهل الذي لا يعرف شيئا .

فاحس الفتى انه مغلوب ، لكنه لم يشأ الا ان يكون ذلك المخلص الوفي الذي لا يخون للملك عهدا ، فقال :

ومع ذلك فانا اعترف للملك بالجميل واحفظ له الفضل .

فعرف ذو مغار ان وفاء الفتى النبيل يملي عليه ذلك القول ، وان من الرأي ان

يترك الحديث في هذا المعنى الى وقت اخر ، فقال له :

لنعود الآن الى الحكاية ، لقد ذكرت ان شرحبيل لم يرض بما امره به الملك ولكنك لم تذكر عذره .

ـ كان عذره انه لا يترك ولديه .

ـ وعندئذ اهان الملك شرفه كما قلت .؟

ـ لا بل جعل يعتبه بنعومة ولين ثم سكت .

ـ وبعد سكوته ؟

ـ قام حاشد يهمس في اذنه كلمة خرجت من فمه بعدلحظة كما تخرج الصاعقة واصفر لها وجه شرحبيل .

قال : ما هي ؟

ـ هي انه سأله ان يجود عليه ببلقيس او يبيعها له .

ـ انه طاب يشبه الصاعقة ... وماذا قال ؟

ـ رأيت وجهه يسود ثم سمعته يقول : لم تخلق بلقيس يا مولاي لنهبها او نبيعها .

واخذ الفتى يروي للاثنين كل ما حدث في تلك الساعة .

فقال ذر مغار : صدق شرحبيل ان بلقيس لم تخلق الا لتكون ملكة اليمن .

ـ يقولون انها من اجمل النساء .

ـ بل هي اجملهن جميعا ولا يستطيع ذو القرنين ان يرى مثلها في جميع الاقطار التي تخفق فيها الوية ملكه .

قال : ايعرفها ؟

ـ اجل ، فشرحبيل احب الناس الي وانا انزل في قصره كلما قدمت مأرب واقيم به الشهر والشهرين .

ـ اما انا فلم اعرف شرحبيل قبل ان ادخل البلاط . رايته فيه بضع مرات يزور الملك كما رأيت النبالة مكتوبة على جبينه . ولكني لم احدثه ولم اختبر عـزة نفسه غير تلك المرة التي ذكرت ..

— ان شرحبيل بن عمرو عظيم في كل شيء ، ولو لم يعمد الملك الى الحلم واللين في حديثه معه لرأيت رجلا لا يخاف احدا ولا يحترم ملكا في سبيل الدفاع عن شرفه ... انه ابن يعفر يا بني ، ويعفر مفخرة من مفاخر اليمن . وامير من امراء البيت المالك الذين كان لهم شأنهم في هذا القطر .

— ولكنه لا يحب الملك على ما ظهر لي .

— يكفي انه يحب بلاده وقومه اكثر مما يحبها ذو القرنين وله عليه وعليهما فضل لا ينكره صاحبك ... الم يخمد النار التي اشتعلت في شبوة وكادت تمتد الى مأرب نفسها فتزعزع العرش ؟ الم يقتحم بصدر جواده صفوف العدو في جميع الحروب التي اثارها ابن عمه على الملوك والامراء ؟ ان شرحبيل الظافر لا يفاخر الناس بظفره ولكن الملك لا يذكره له ولا يعترف بجميله وبلائه .

ثم قال : اجل لقد احسن الى ابنته بالوصيفة التي ورد ذكرها في حكايتك ووهب لها بعض اللآلىء التي يجود بمثلها على نسائه في كل يوم ، ولكن هذه الهبة هبة ملك يريد ان يبلغ بالمال ما لم يستطع بلوغه بالقوة من غايات نفسه .. ولو عرف بلقيس التي احب ان يجعلها حظية له ، لاخفى وجهه بيديه خجلا ، ولجثا امامها كما تجثو له القوم ، وحنى لها رأسه كما تنحني له الرؤوس وهو على العرش .

— اذن بقي ان تقول ان بلقيس من صف الآلهة !.!

— اجل ، هي كما تقول وليس في هذه الكلمة من غلو كما يخيل اليك حكمة لا تجدها الا في صدور الآلهة !! وعقل لم يكن لشيوخ اليمن مثله ، ووجه يحجب جماله كل جمال تحت هذه الشمس .

فبدأ الفتى يشعر ، بمثل ما شعر به ولي العهد ، عندما وصف له ناشر امير ظفار ، جمال بلقيس ، واستيقظت في صدره عاطفة جديدة لم يحس بها وهو في بلاط الملك بين حسان اليمن والحجاز والعراق .

وكأن ذا مغار عرف ما يجول في خاطر الامير الشاب فاستطرد قائلا : تلك هي بلقيس ايها الامير ، ولو لم يكن ولدي غالب صغير السن لطلبتها من

شرحبيل زوجة له وملأت هذا القصر حكمة وجمالا .

قال : والهدهاد ؟

ــ اما الهدهاد فصورة ابيه في النبالة وعزة النفس ، ولكن بلقبس في نظــري خير من الاثنين ..، نعم خير من الاثنين .

قال : ساقضي هذا الصيف في همدان ثم اعود الى مأرب لازور شرحبيل بن عمرو قبل ان ادخل البلاط ، افلا تمهد لي سبيل التعارف يا مولاي ؟

ــ سافعل ولكنى اخشى .

ــ ما الذي تخشاه ؟

ــ اخشى ان تنسى الملك وبلاطه عندما ترى بلقيس .

ــ قال : اتظن ؟

ــ بل اثق بان هذه الفتاة لا يراها احدالا ويخفق قلبه على الحب .

فقال في نفسه : صدق مغار .. لقد خفق هذا القلب الآن وانا لم ارها فماذا يصنع عندما اراها ؟ انه يثب من الصدر .

وبات الفتى ليلته في قصر ذي مغار ثم انصرف عند الصباح قاصداً همــدان وصورة بلقيس الخيالية امام عينيه .

***

٧

قصت نعمى على اميرة القصر جميع ما سمعته من الملك دون ان تزيد حرفا او تنسى كلمة .

وكانت بلقيس تضحك لبلاهة الرجل وتهزأ برأيه .

غير انها وقفت عند قوله : « ان البغض يقوم مقام الحب » وكانت تظن من قبل ، ان امتناعها من الذهاب الى البلاط يزيده شوقا وغراما .

ثم استعادت كلمات الملك الاخرى القائلة :

« ان ولي العهد يحب بلقيس ويطلب ان تكون زوجة له .

وقام في ذهنها ان الذي لا تستطيع ان تناله من ناحية الملك ، تناله من ناحية ولده ، وان الامر ينتهي الى خصومة تقع بين الاثنين بفضل العاطفتين التي تناقض احداهما الاخرى .

وذلك ما تسعى اليه بلقيس وتتهيأ له .

انها تريد ان يغضب ولي العهد اباد في غرامه ، ويغضب الملك ولي عهده في منعه عن ذلك الغرام ، فيسود الخلاف بلاط ذي القرنين ويضطرب العيش بين اهله .

اجل ، وليس في البلاد من لا يعلم ان لذي القرنين انصارا ولعمرو انصارا يشدون ازرهما ويلتفون حولهما عندما تدعو الحاجة .

بل ليس هنالك من لا يعلم ان صغار الامراء يمشون خلف ولي العهد في حالتي الرضى والغضب ، وان فريقا آخر من قواد الملك يشهر سيفه دفاعا عن ذلك الملك اذا ندبه للدفاع .

والملك عندما يقسو ، لا يرجع الى اللين الا بعد ان يفرغ كنانة قساوته الى النهاية ، ويمعن في التهشيم حتى تتم له الغاية .

واما عمرو ، فقد جعلت له التربية الحرة المطلقة ، والدلال الغريب فطرة جديدة قوية لا تنزعها يد الموت ، وروحا متمردة ثائرة على كل نهي وكل امر ، فهو لا يستسلم الى القوة الا اذ ضيع قوته وخسر كل شيء .

ولو لم تكن في القضية كرامة للملك ، لهان الامر ونزل الملك عن رأيه ليرضى وحيده . ولكن سيد اليمن لا يذل ، وصاحب التاج لا يجعل عزته تحت الاقدام .

وماذا يحدث بعد ذلك ؟ يزداد النفور ويشتد ، ويبسط الجفاء ظله فوق الوالد والولد ، وتقوم السعايات في القصر على ألسنة الرجال والنساء وفي افواه العبيد والغلمان ، فلا يبقى عندئذ الا ان يخرج ولي العهد من البلاط طريدا مغضوبا عليه .

اضف الى هذا كله ، ان نعمى ، بفضل سيدتها الجديدة توغر الصدرين .

وتبعد الواحد من الرجلين عن الآخر ، فيرنع الستار اخيراً عن خروج ولي العهد عن طاعة الملك .

وتلك هي امنية بلقيس الطامعة في عرش حمير .

نعم ، كانت بلقيس طامعة في العرش ، وهي لا تستطيع ان ترضي نفسها الكبيرة الا اذا اصبح بيد ابيها الصالح ، صولجان الملك الحميري العظيم .

وبعد ذلك ، ينتقل الى يدها ذلك الصولجان ، وتجلس في المقعد الذي اعدته الآلهة لطموحها الغريب الذي لا ينتهي عند حد .

وقد تخدمها الاقدار في كل ما تفكر فيه وينتهي الامر .

تطلق الابن على ابيه الذي يريد بلقيس لنفسه ، وتملأ صدره غراما مبرحا يقذف به الى الموقف الذي تشاء ، وهو لا يعلم ان ذلك الغرام امل كاذب لا رجاء له به .

والغريب انها تريد ان تفعل كل هذا دون ان يراها ولي العهد او تراه ، ودون ان تسمع ذلك المسكين كلمة حب تلفظها شفتاها الساحرتان .

ذلك ما خطر لبلقيس في تلك الساعة ، ولكنها لم تستسلم الى ذلك الخاطر الاستسلام كله ، عند اعتقادها ان ولي العهد لا يرضى الا بان يرى وجه تلك الفاتنة التي تملي عليه ارادتها من وراء الستار ويسمع من فمها كلمات الحب .

وهذا حقه . وبلقيس لا تقدر ان تمنعه من الوصول الى هذا الحق اذا هو لج في طلبه .

اذن فلتفعل الاقدار ما تشاء ، ولتأذن بلقيس لولي العهد في اللقاء اذا اكرهتها الحادثات .

ولكل مقام مقال ...

* * *

خبرت بلقيس اباها ما عرفته من افكار الملك ثم قالت له :

لقد كان ولي العهد عاشقا كما رأيت ، قبل ان تضرم في صدره نار العشق .

ـ اجل ، ولكني اخشى ان يتغير الموقف بعد حين .

ـ اي موقف هذا يا مولاي ؟

ـ موقف الملك . اتظنين ان الكلمة التي قالها لنعمى اليوم ، ستكون كلمته الاخيرة عندما يسأله ولي عهده ان يأذن له في الزواج ؟

قالت : لم افهم شيئاً يا مولاي .

قال : الم يقل لنعمى ان بلقيس لا تزف الى ولده وهو حي ؟

ـ نعم .

ـ ومن يعلم انه لا يقول غدا غير ما قاله اليوم ؟

ـ واذا فعل ؟

فابتسم قائلا : اذا تغير رأيه بعث الي باميرين من امراء بلاط، يطلبان بلقيس لعمرو . ثم يدعوني الى مجلسه ليعيد علي هذا الطلب ويأمر بما لا نرضاه .

قالت : لقد نسيت يا مولاي ان لبلقيس نذرا ذكرته له نعمى .

ـ ومتى كان ذو القرنين يحفل بالنذور ؟. انه الرجل الذي لا يبالي بشيء ولا يهتم الا لنفسه .

ـ بل هو الرجل الذي لا يغضب آلهته لمثل هذا ، ومع ذلك فانت القائل ان الشرف قبل الحياة وشرحبيل بن عمرو لا يخاف احدا .

ـ ولكني لا اعلم ماذا اقول له .. لقد طلب الي ان اكون من رجال قصره فلم ارض ، ثم طلب ان اهب له بلقيس فلم ارض ، وقد يطلب غدا ان اجعل ابنتي زوجة لولده فلا ارضى .. وهذا معناه اني اشرف منه نسباً واعز مقاماً وان بلقيس اعظم من ان تزف الى نذل مثل ولي عهده !!

قالت : اظهر الرضى يا مولاي ولكن اجعله رضى معلقاً على ارادة بلقيس .

ـ اذن اعود الى حكاية النذر .

ـ نعم .

ـ وان لم يقبل ؟

ـ تذكر عندئذ موقفك الاول معه وتقف مثله من جديد .

— ولكنه يعمد عندئذ الى السيف .
— ونعمد نحن مثله الى سيوفنا ولا يغمدها الا الموت .
قال لي رأي اخر يا بلقيس .
— ماذا يا مولاي ؟
— ارى ان ترضي بولي العهد زوجاً لك فتصبحي بعد حين ملكة اليمن وتبلغي الغايـــة . . .
— ما خلقت لاكون زوجة للفتى المغرور مثل عمرو ؟
— واي امير من امراء اليمن تختاره بلقيس زوجاً لها ؟
— لم افكر في الزواج بعد .
— ارجو ان تفكري فيه فقد يأتي يوم تؤثرين فيه عمرا على جميع النبلاء .
— سأرضى بعمرو عندما لا اجد خيراً منه اما الآن ، فهب اني اردت الزواج فانا لا استطيعه !
— وكيف ذلك ؟
قالت : اتحفظ بلقيس نذرها عندما تشاء وتنساه عندما تشاء ؟؟
— لقد فهمت الآن فانت لا تقدرين على الزواج الا في الثانية والعشرين .
— اجل وقد لا نستطيع الوصول الى العرش الا اذا جعلنـــا ولي العهد سلما نصعد فيه ·· اتعلم يا ابي اني لم افكر قط في ان ارى وجه الامير الذي تذكره لي؟
قال : وجه لا بأس به لولا غرور صاحبه .
— اذن سنراه في هذا القصر كما قالت نعمى للملك .
— او عند انقاض العرم كما قال الملك نفسه . .
— اما عند العرم فلا . . ان بلقيس لا تخرج من قصرها لترى احداً ولا تبالي بدعوة ذي القرنين . . . ومن يعلم ، فقد تفعل هذه ولا تفعل الملك والحكم للزمان .
قال : انك تترددين في الامر يا بلقيس .
— نعم وساظل على هذا التردد حتى ارى ولي العهد ! .
قال : كلمة واحدة تقولينها له تدفعه الى هذا القصر !

ـــ ومن يقول هذه الكلمة يا مولاى ؟

ـــ نعمى .

قالت : سأفعل هذا عندمــا تأتي ساعته ، اما الان فلننظر في امر اخر يشك فيه الملك .

ـــ في امر شرحبيل الذي يخونه اليس كذلك ؟

ـــ نعم فماذا تقولي ؟

ـــ لا اقول الان شيئاً ولكني اصبر ريثما يعود ذو مغار .

ـــ واي شأن للرجل يا مولاي ؟

ـــ سيكون عونا لي في الامر الذي تسألين عنه .

ـــ انا لا اسألك عن هذا يا مولاي فالعهد بينك وبينه اعرفه كما تعرفه انت ، ولكني اسأل عن الكلمة التي ذكرها الملك عنك واريد ان اعــلم من هو الساعي الذي نقل اليه انك تظهر الطاعة وتتهيأ للعصيان .

قال : ليس في القصر من يعلم هذا السر الذي احفظه في الصدر .. ان الخروج عن الطاعة ، فكرة لم ابح بها الا لذي مغار وذو مغار لا يخون .. وانا لم احدث الناس بها بعد لينقلوها الى ذي القرنين ولم يخطر لي ان اجعلها مشاعاً تتناقله الافواه في البلاط .

ـــ وكيف عرفها هذا اللعين ؟

ـــ انه لا يعرف شيئــاً يا بلقيس ، غير انه يعــلم ، عندما يعود الى نفسه ان شرحبيل بن عمرو لا يطيق ان يراه عــلى العرش بل لا يطيق ان يكون سيده .. وليس ذلك عن حسد كما تظنين انما هنالك نفس ابية تأنف من الخضوع للنفس الساقطة ، مثل نفس الملك ، وذو القرنــين يعرف النفسين ومن حقه ان يظن الظنون .

قالت : اخشى ان تنم عليك المظاهر يا مولاي قبل الاوان .

ـــ ان مظهري خارج القصر مظهر يمني خاضع لمليكه مخلص له ، الخضوع والاخلاص الصادقين ، واما داخل القصر فقد كتمت امري جميع من فيه ، ولم

اذكره الا لك وللهدهاد الذي هو احرص عليه منا نحن الاثنين .

ـــ ولكنني لا ادري كيف يدب الريب في صدر الملك دون ان يسمع كلمة في هذا الشأن .

ـــ لقد ذكرت لك سبب الريب فلا تعودي الى البحث عنه .

قالت : يهمني ان يظل الملك واثقاً باخلاص ابن عمه حتى تأتي ساعة العصيان.

ـــ اي انك تخشين ان يفاجئنا بالسيف قبل ان نتهيأ له وقبل ان نعد الرجال .

ـــ اجل واذا حدث ذلك غاصت مأرب في الدماء وملأت الجثث الساحات والاسواق ، وخرج ذو القرنين ظافراً رافع الرأس .

ـــ يخيل الي ان الجوف يملي عليك هذا الكلام .

ـــ لو قال هذه الكلمة غيرك يا مولاي لكان له عذر ، اما انت فقد علمت ان بلقيس تخاف شيئاً واحدا هو الفشل ... قل يا مولاي من هم الرجـــال الذين اعددتهم للحرب اذا حمل لواءها الملك ؟

ـــ لم احدث غير ذي مغار كما قلت .

ـــ ولكن ذا مغار وحده لا يكفي والجيش الذي يقوده لا يستطيع ـ بالنظر الى عدده ـ ان يثبت امام جيش عدوك .

ـــ ويتبع ذا مغار ابن عمه ياسر .

ـــ وهذا اضعف من الاول ، وانت تحتاج الى عشرة من الامراء ، بما عندهم من الجنود والاتباع لتقدر ان تخلع الملك عن العرش وتلبس تاجه .

ـــ سنرى بعـــد ان يعود ذو مغـــار من هم الامراء الذين يحملون السيف لاجل هذه الغاية .

ـــ ان جنود ذي القرنين لا يغلبون الا اذا حاربوا الكثرة التي لا تغلب فاذا وفر لك العدد يا مولاي فقد بلغت غايتك ؛ والا فانا مكرهة على المضي في المنهاج الجديد الذي وضعته اليوم بعد رجوع نعمى من البلاط .

ـــ ولكن لنفرض ان الملك نزل عن طلبه ونسي كرامته واطلق يد ولي العهد في ان يتزوج من يشاء ؛ فماذا تصنعين ؟

قالت : اسمع يا مولاي ؛ سأبذل جهدي كله لا فرق بين الاثنين ؛ فتضعف في هذا التفريق تلك القوة التي يستند اليها الواحد منهما ليغلب الآخر . ثم انفخ في صدر ولي العهد روح الثورة ، فتشتعل النار ، ويقف العاشق فيوجه ابيه ، موقف العدو الذي لا يترك الميدان الا اذا نال غرضه .

ـ وعندئذ ؟

ـ وعندئذ يحدث واحد من امرين ، اما ان يتراجع ذو القرنـــين مغلوبا بقوة السيف او بقوة العاطفة، واما ان يزداد غضبا لكرامته فيسحق ولده تحت حوافر جواده ولا يبالي .

ـ واي شيء يكون لشرحبيل بعد ذلك ؟

ـ ان شرحبيل في تلك الساعة يبرز الى الساحة مع انصاره ؛ ويبـــدأ بالملك فيضربه ضربة لا قيام له بعدها ثم ينثني الى ولي العهد فيرسل اليه ضربة مثلها ويثب بعد ذلك بين دهشة الناس واستغرابهم ؛ الى العرش ويتربع فيه .

ـ وهل يستطيع شرحبيل ان يضرب الاثنين في ساعة واحدة ؟

ـ نعم فانت لا تخوض المجال الا عندما تخور العزائم وتنهك القوى .

ـ ومن قال لك ان الفريقين لا يتحدان على شرحبيل الواثب الى العرش ؟

ـ عندما تموت الرؤوس تضمحل القوة وتموت الهمم .

قال : يطيب لي ان اقول ان الامر انتهى بفشلي وقتل ولي العهد .

ـ نعم .

ـ ثم يقوم الملك القاسي فيمد يده الى بلقيس .

ـ ولكن بلقيس في ذلك الحين تكون في القبر !

ـ واذا طاب لي ان اقول ان ولي العهد ظفر بابيه واستولى بعده على الملك ثم خطر له ان يمد يده اليك .

ـ امد يدي اليه واصبح ملكة !

قال : خير لك اذن ان تلبسي التاج نقيا ابيض غير مصبوغ بالدماء .

قالت : انك كثير النسيان يا مولاي ؛ ان ذا القرنين لا يريد هذا الزواج ولا

يرغب فيه ، وانا .. وانا من الناحية الاخرى ، لا يخطر لي ، الا اذا انتهى الامر كما تقول .. اذكر ما حدثتك به يا مولاي منذ ايام ولا تنسى . . الم اقل لك ان الصولجان لا تحمله غير يد واحدة وان التاج لا يوضع الى على رأس واحد هما يدي ورأسي ؟ ! اتريد يا مولاي ان انتقل اليوم من قصرك الى قصر الملك لأصير ولية العهد ثم اصبح ملكة بدون تاج الامر والسلطان والقوة لعمرو بن ذي القرنين وعلي الخضوع والطاعة ؟ اتريد ان يقال ان عمرا ملك اليمن وان بلقيس زوجة الملك ؟ ام تريد ان يقال ان بلقيس بنت شرحبيل ملكة اليمن تخضع لها سلالة حمير ويطيعها الامراء والقواد الطاعة العمياء ؟ لا اني اذا قدرت ان اعصب رأسي بتاج حمير فقد صدق الامل الذي اعلل نفسي به ، والا فسأرضى مكرهة بولي العهد على ان انظر بعد ذلك في امر آخر لا اجسر على التفكير فيه الان .

ـــ اذن نحن امام امرين لا ثالث لهما يا بلقيس ؛ اما ان يظفر ابوك بخلع الملك وولي عهده ويستولي على الملك ثم يهبه لك بعد ذلك ، واما ان تظفري انت بما تقولين ، من الطريق الآخر ، الذي ذكرت .

ـــ نعم ولكن يجب ان تعلم ، اني اتردد كثيراً في امر الزواج كما علمت ولا الجأ اليه الا اذا خانني القدر في جميع ما اصنع .

ومشت الى غرفتها لتتحدث مع نعمى في بعض الشؤون ، كما سيجيء .

***

٨

اذكري يا نعمى من تعرفين من امراء القصر ولا تنسي احدا .

ـــ انك تريدين يا مولاتي ان اصفهم لك واحداً بعد واحد اليس كذلك ؟

ـــ اجل ، ولا تعرضي لذكر ما تعلمين من الاوصاف .. لقد قلت لي ان الاميرين اللذين رافقاك الى هذا القصر بامر الملك ، اميرا ظفار ونخلة فايهما اعظم من الآخر واقرب الى ذي القرنين ؟

ـ ناشر امير ظفار يـا مولاتي ، انه من اعظم الامراء ومن احبهم الى ولي العهد . . .

قالت : رأيت المكر في عينيه الصغيرتين اللتين لا تهدآن ؟

ـ وهو كما تقولين فاليس في البلاط رجل شر ومكر مثله .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ من رجال البلاط انفسهم فكلما ارتفـع صوت احدهم بالشكوى عرف الاخرون ان ناشرا كان السبب في شكواه .. واظن يا مولاتي ان الفتى لا يحب احداً ولم تجل في صدره ، منذ خلق الى هذه الساعة عاطفة حب !.

ـ وانا اظن انه لو لم يكن كما تذ كرين لما وضع ولي العهد يده بيده وجعله اعظم المقربين ..

ـ اجل ولما وافق الواحد منهما الآخر في كل شيء حتى في الاستخفـاف بالملك وقد سمعت يا مولاتي ان ذا القرنين يظهر الحب لناشر ليس لانه امين ولي العهد بل لان نخلافه اربعة الاف من الجنود .

ـ صدقت فجنود ظفار كثار كما يقولون والملك لا يعبأ الا بهذا .

ـ وناشر يا مولاتي في القصر ، كالنمر في الغـاب لا يجرؤ احد على الدنو منه واذا داناه فلكي يتملقه ويحرق له البخور .

قالت : كفى فقد عرفت من هو الرجل .. وامير نحلة ؟

ـ اما الآخر فعتيك بن روضة وهوهادىء الطبع قليل الكلام يحمل في صدره قلباً من الفولاذ .

ـ وماذا يضمر للملك ؟

ـ لا يعرف النـاس ماذا يضمر له من خير او شر .. اذا رأيته في مجلس الملك رأيته سا كتاً .. واذا مشى مع الامراء في الرواق ارخى نظره الى الارض ومشى ساكتاً . واذا خرج الى الشرفات لم يسمع له الناس غير تردد الانفاس .

ـ انه اذن رجل تفكير ورأي !

ـ بل هو رجل صمت دائم لا يقرأ ما في نفسه غير الآلهة ولم يقل رجل في القصر ان لعتيك رأياً .

ـ وكيف يعيش هذا الرجل في البلاط ؟

ـ يعيش كما وصفت وينشر حوله ظلا خفيفاً لا يشعر به اقرب الناس اليه.

قالت : اقسم برأس ابي ان في صدر عتيك سرا من الاسرار .

ـ لقد ظن الملك كما ظننت يا مولاتي وسأله اكثر من مرة فـلم يسمع جوابا وكثيراً ما كان يمازحه قائلا لمن حوله :

يريد الملك ان يسمع صوت عتيك فيبخل عليه به ...

قالت : لك لؤلؤة من لآلىء الملك اذا استطعت ان تعرفي سر الرجل .

ـ اعترف بعجزي عن هذا يا مولاتي فالحجر لا يتكلم .. ولكن انقل اليك خبرا تردده بعض الافواه وراء الجدر وانا لا ادري اذا كان كاذبا .

ـ ما هو ؟

ـ يقولون ان ابا ذي القرنين قتل ابا عتيك يوم كان هذا طفلا عند اخواله بني خولان .

فاشرق جبينها قائلة : ذلك هو السر . وبعد ذلك ؟

ـ وان اهل عتيك واخواله الذين ذكرت كتموا هذا الطفل خـبر القتل ، عندما اصبح رجلا وخلف اباه ، ولم يريدوا ان يقصّوه عليه حفظاً لحياته وخوفا من غدر ذي القرنين .

ـ ثم خبروه اياه بعد حين ؟

ـ بل خبرته عجوز من عجائز قومه قتل ولدهـا في حرب شبوة دفاعا عن الملك .

ـ كأنها ارادت من وراء خبرها ان تثأر بالقتيل .

ـ نعم فلقد قالت له على مرأى ومسمع من رجاله :

ان والد الملك يغش اباك وانت تقذف برجالك الى اشداق الموت دفاعا عن عرشه ! ! ؟

فتغيرت حياة الامـــير ، من ذلك اليوم واستسلم السكوت والصبر ريـــثما يغفل الزمان فيطلب بدم ابيه .

هذا ما يتهامس به بعض رجال القصر وغلمانه يا مولاتي وقد يكون ولي العهد وناشر مطلعين على هذا الهمس .

ــ وهل تعلمين ما هو الخبر الاول الذي نقلوه اليه عن موت ابيه ؟

ــ كانوا يقولون له ان اباه قتل في ساحة الشرف .

ــ بقي ان نعلم ما هو سبب القتل ؟

فضحكت وهي تقول : المرأة يا مولاتي .. ان والـــد الملك اراد ان يسلب ابا عتيك زوجته الحسناء فغضب الرجل لعرضه وذلك هو ذنبه .

ــ كما اراد ابنه ذو القرنين ان يسلب ابن عمه ابنته .

ــ ولكن اتعلمين يا مولاتي كيف قتله ؟ انه امر به فطعن بالرمـــاح ثم سلخ جلده كما يسلخ جلد الشاة وجعل في الوادي طعاما للسباع ! !

ــ وعتيك يعرف هذا يا نعمى ؟

ــ يقولون انه يعرف كل شيء . !

فاطرقت مليا ثم رفعت رأسها قائلة :

واحد لنا وواحد للملك .

كأنها ارادت ان تقول :

ناشر من انصار الملك وعتيك من انصار بلقيس .

وقد فهمت نعمى معنى ذلك القول وقوته ، واكتفت بالابتسام .

ثم قالت بلقيس : لقد انتهينا الآن من الاثنين فاذكري اميراً ثالثا .

ــ اذكر الآن معدي كرب صاحب مخـــلاف صرواح وهو في الخمسين من عمره .

قالت : لم اسمع بهذا الاسم من قبل .

ــ وخير لك ان لا تعرفي صاحبه ... انه يشبه الملك وولي عهده بالكبرياء ، والقساوة والاستهتار وهو من اغنى الامراء .

ـــ يجب ان اعلم مصدر هذا الغنى قبل ان تصفيه .
ـــ مصدره ذو القرنين الذي يهب له المال بدون حساب .
ـــ وسبب ذلك ؟
ـــ ان معدي كرب رسول الملك الى الاقطار يبحث له فيها عن الحسان وهو رفيق حاشد اللعين .
ـــ اذن خضب سيفه بدم ابيك الريان .
ـــ لا .. فهو لم يرافقه الى حضرموت في ذلك الحين .
قالت : كفى فهذا لا يخون الملك ولنصف غيره .
قالت : هنالك امير يدعى عبد شمس يحب الملك كما يحب نفسه .
ـــ واسم مخلافه ؟
ـــ ناعط ولهذا الحب حكاية يرويها رجال البلاط ونساؤه .
ـــ ابدأي بها .
ـــ يقولون ان عبد شمس هذا كان فلاحاً !
ـــ ماذا ؟
ـــ نعم وقد خلف هذا الفلاح امير ناعط وجلس في كرسيه بامر الملك .
وكيف كان ذلك ؟
ـــ لقد قيل للملك منذ بضعة اعوام ان مخـــلاف ناعط يتهيأ للثورة وسينضم الى مخلاف شبوة الذي شهر الحرب .
ـــ وبعد هذا ؟
ـــ لجأ الملك الى البحث عما قيل له ، فمنع ناقل الخبر من الخروج من بلاطه . وبعث الى ناعط رجالا يستطلعون اسرار صاحبها من وراء الستار .
ـــ ثم عرف بعد ذلك ان الناقل كان صادقاً في حكايته فارسله الى ذلك البلد ليقتل اميره بالسم ووعده بان يهب له كرسي امارته وقد وفى بوعده كما ترين .
ـــ اذن كان ذلك الواشي عبد شمس الذي تصفين ..
ـــ اجل هو نفسه ولم يكن يدعى عبد شمس من قبل بل كان يدعى زهيراً .

ـ وكيف رضي اهل ناعط ان يستولي على الامارة فلاح وفيهم النبــلاء والاشراف اصحاب الجاه والمال ؟

ـ لقد كان سيف الملك كفيلا بذلك الرضى وانتهى الامر .

قالت : انه رضى تكمن النار وراءه .

ـ اصبت يا مولاتي ولكن الملك لا يبالي لان جيشه يملأ ناعطا كما عرفت .

ـ نأخذ علماً بهذا على ان نسأل عنه في وقت آخر ، من بقي في البلاط من الامراء ؟؟.

ـ بقي امير ترك قصر الملك الى مخلافه منذ بضعة ايام .

ـ ولم يبق هنالك سواه ؟

ـ بلى ولكنهم جميعهم لا يستحقون الاهتمام والوصف .

قالت : اليس لهذا الامير الاخير حكاية يا نعمى ؟

ـ ان لوجوده في البلاط سبباً لا تجدين فيه شيئاً من الغرابة .

ـ ما هو ؟

ـ كان له اب لا يحب الملك ولا يبغضه وقد بذل ذو القرنين جهده كلــه ليحمله على الاقامة بالقصر فضاع ذلك الجهد .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم مات الامير الذي ذكرت وخلفه ولده الذي استطاع الملك ان يقنعه بما لم يقنع به اباه من قبل ، وانتقل الى البلاط . ذلك مــا قصه علي الملك نفسه في ساعة من ساعات رضاه .

ـ قالت انه خامل ضعيف لم يرث عزة ابيه .

ـ بل هو اعز امراء البلاط يا مولاتي واعظمهم نفسا وابعدهم عن غــرور الهوى وطيش الشباب .

ـ لعله جاوز العمر الذي يملي الغرور والجنون .

ـ اعتقد انه اصغر امراء البلاط سنا .

ـ وما اسمه ؟

ـ ذو تبع صاحب همدان .

قالت : صفيه لي .

ـ وماذا اصف يا مولاتي . انه جميل في مشيه ووجهه وعينيـــه ، وعذب في حديثه وابتسامته حتى لاستطيع ان اقول انه اجمل من في البلاط من النـــاس لا استثني امرأة منهم او رجلا .

ـ يخيل الي ان في هذا الوصف غلوا .

ـ اقسم لك اني لا اغالي في الامـــر بل احسب اني ضيعت في وصفي الشيء الكثير من صفات امير همدان ، وهو شجاع يا مولاتي كما عرفت وعرف اهـــل القصر ، وجريء لا يخشى احدا ولا يعبأ بولي العهد نفسه .

ـ انها حكاية جديدة عن الجرأة على ما ارى .

ـ نعم فقد نصح لعمرو بترك غروره فهزأ به عمرو وشكاه الى الملك على مسمع من بعض الامراء ، ويقول اهل البلاط ان ناشرا امير ظفار كان السبب في هذه الشكوى بل في هذه الاهانة التي وجهها ولي العهـــد الى الهمداني في مجلس ذي القرنين .

ـ وماذا صنع الملك ؟

ـ عمد الى اللين والدهاء قائلا : « ان ذا تبع من ابناء الملك » وعندما نهض امير همدان ليرد الاهانة بمثلها قام الملك فخرج وامره بان يتبعه الى مقصورته ثم خرج منها الفتى بعد قليل والابتسامة على شفتيه .ولم يره الناس منذ تلك الساعة، يحادث ولي العهد او يوجه اليه نظرة او كلمة ، كأن الفتيين المقيمين بقصر واحد لم يتعارفا ... وهذا معناه ان امير همدان يذكر عزه ويثق بنفسه وبالقوة الـــتي تسنده .

فجعلت بلقيس تلوك لفظة همدان وترددها كأنها تعرض ما ذكر لها عنهـــا من عظمة ومنعة ومجد .

وقد عرفت نعمى غايتها فقالت لها : ان همدان من اعظم مخاليف اليمن يا

مولاتي وقد ذكرت شيئاً من هذا لناشر امير ظفار يوم مثل بين يديك في هذا القصر .

قالت : لقد كره ناشر في ذلك اليوم ان تذكر همدان على مسمع منه .

ـ اجل وهذا يثبت انه لا يطيق ان يسمع اسم عدوه .

ـ اذن كيف يعيش ذو تبع هذا في بلاط الملك ؟

ـ يعيش بشرف وكبر ليس للامراء مثلهما •• وقد سمعت احدى الوصائف تقول لعتيك صاحب نحلة .

لقد كاد ذو تبع يغضب لكرامة شرحبيل وبلقيس دون ان يعرفهما ••

فخفق قلب الاميرة وعهدها ان ذلك القلب لا يخفق الا على ذكـــر العرش والتاج ، اللذين تحدث النفس ببلوغ الغاية منهما .

ثم قالت : ومن اين لى ان اعرف اخلاص ذي تبع للملك ومبلغ وفائه له ؟..

ـ ذلك امر سهل ينقضي في ساعة؛ لقد سمعت مولاي شرحبيل يذكر صديقا له يدعى ذا مغار .

ـ نعم .

ـ وهو من اوفى الناس لمولاي اليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ اذن ارى انك تقدرين ان تعرفي مبلغ اخلاصه من ذي مغار نفسه .

ـ ومن قال لك انه يعرفه ؟

ـ سمعت الملك يذكر له ذا مغار فيقول : لقد أبى ان يقيم بالبلاط وهو من اصدقاء ابيك وانت قادر على اقناعه .

ـ وهل تحفظين جواب الهمداني .

ـ اجل لقد كان جوابه ان ذا مغار لا يترك مخلافه الا الى القبر .

فقالت : احس ان في الصدر رغبة في التعرف بهذا الفتى .

ـ سيعود الي البلاط بعد ان يجمع خراج قومه .

قالت : وعندئذ ننظر في هذا الامر بالاشتراك مع ذي مغار .

* * *

٩

جرت هذه الحادثات التي قرأت في السنة السابقة اي في سنة ٣١٤ .

وذلك قبل ان يجتمع شرحبيل في قصره ؛ بولديه بلقيس والهدهاد ؛ وذي مغار وابنه غالب وابن عمه ياسر .

وقد وقفت تلك الحادثات عند حدها الذي عرفت ، لانصراف الملك مكرها عن اغراضه الخاصة ، واهتمامه بامر الدفاع عن عرشه الذي تهدده الملوك كما سيجيء .

اذن نعود الى ذلك الاجتماع السري ... الى مجلس الشورى الذي عقده شرحبيل بن عمرو .

كان ذو مغار قد قدم امس من مخلافه ، وهو يعلم حكاية الملك مع شرحبيل وبلقيس ، عرفها من ذي تبع ، يوم مر به قاصدا همدان .

فلما جلس القوم قال شرحبيل :

لقد استخف بنا الملك في غيبتك يا ذا معار ، وكاد ينتهي الامر بيننا الى حمل السيف .

فاجابه قائلا : لقد عرفت بعض هذا وانا في ارض قومي .

فاستولى عليه الاستغراب وهو يقول : انقلت اليك الجن ما جرى بيننا وبين الملك ؟

فقال : لي بين رجال الملك اصدقاء يطلعونني على كل ما يجري في البلاط ؟

— ولكنني اسألك عن الذي خبرك هذا ..

قال : امير من امراء القصر احبه كما احب غالباً ، « يعني ولده » .

— من هو ؟

ـ امير همدان الفتى الذي هو اصدق الامراء .
ـ ليس بيننا وبين هذا الفتى صلة ولاء .
ـ لقد قدم معي امس من همدان .
فلمع بريق غريب في عيني بلقيس وظلت ساكتة .
اما شرحبيل فكان يقول :
واي شأن لنا معه سواء اقدم امس او اليوم .. اني لا اصدق ان بين رجال ذي القرنين رجلا واحدا تجول في صدره عاطفة حب شريف ..
فهمت بلقيس بالكلام فقاطعها ذو مغار قائلا :
سترى صاحب همدان غدا في قصرك ايها الامير فتعلم اي رجل هو .
ـ ماذا تقول ؟ ارى الهمداني غدا في هذا القصر ؟؟
ـ نعم ، وسيخرج غالب عند الصباح ثم يعود معه ..
ـ ويذهب غالب الى البلاط ؟
ـ لا فذو تبع لم يدخل البلاط بعد وهو في منزل احد اخواله .
ـ واي شيء يصنعه هنا .
ـ انه يرغب في ان يرى الامير ويحادثه ويلمس بيديه عظمة نفسه التي حدثته بها يوم زارني في مغار ...
ـ بل يرغب في ان يلمس بيديه اخلاصي لمولاه ... ان ذا القرنين يستعين برجال بلاطه ونسائه ليعرف ما في هذا الصدر من اسرار .
ـ اخطأت ايها الامير فذو تبع اعظم مما تظن .
ـ لو كانت له هذه العظمة التي ذكرت لما رضي بالاقامة بالبلاط كالاسير المقيدة يداه وروحه ، ولما صبر ذليلا خاملا على ما يراه من مشاهد الذل والعار التي تمثل في حجر القصر ومقاصيره .
وكانت بلقيس تصغي بقلبها الى ذلك الحديث .
فقال : ولكنك لا تعرف والد الفتى الذي تهينه؛ لقد كان اعز امراء المخاليف وابعدهم عن الملك ، نعم لم يكن عاصيا ، ولكنه كان راضيا بامارته وكان ينظر

الى ذي القرنين بعينين ليس فيهما شيء من الاحترام .

ـــ ثم جـاء ولده فحا عز الوالد واستسلم الى الهـوى الذي يسود البـلاط ومن فيه ..

قال : اصبر ايها الامير حتى ترى الفتى غدا .

قال : ليأت غدا ، ولكنه سيجد رجلا اشد اخلاصا للملك منه .

ـــ اذن تظن انه من جواسيس ذي القرنين .

ـــ بل اعتقد وهذا شأن جميع الامراء الذين يعيشون في القصر .

قال : لك ان تقول انه وفي للملك مخلص في الطاعة .

ـــ وهذا معناه انه أغتر بمظاهره الكاذبة فاسترسل في الوفاء له .

ـــ اما هذا فقد اصبت به ، لقد قربه الملك وآثره على من حوله من الفتيان فقام في ذهنه ان مظهر الملك مظهر عاطفة وحب ولم يعلم انه اسلوب ناعم مـن اساليب الحيلة والدهاء . نعم ايها الامير ، لقد خدع الفتى بابتسامة ذي القرنـين فاعطـاه وفاءه واخلاصه بـدلا من ابتسامته ولكنه لم يشأ ان يظهر مثل هذا الاخلاص لولي العهد عندما رأى انه لا يستحق غير الاحتقار والاستخفاف .

فذكر شرحبيل قول نعمى لبلقيس ان صاحب همدان لا يحب ولي العهدولا يريد لو استطاع ، ان يراه ، فقال :

يبغض هدا ويحب ذاك فلا فائدة لنا منه . افلاتعلم اننا نسعى لتكثير انصارنا وان هؤلاء الانصار لا يكثرون الا اذا ابغضوا الملك واثروا الموت على الاخلاص له والخضوع لارادته ؟ ؟

ـــ اعلم هذا كما تعلمه انت ، ولكني اجد له علاجا .

قال : صف لنا علاجك .

قال : يجيء الفتى غدا فيعطف عليه الامير كما يعطف على الهدهاد ، ويحفـه بجميع مظاهر الترحيب .

ـــ وبعد ذلك .

ـــ ثم ينصرف ، وقد استأنس ، على ان يعود مرة اخرى الى هذا القصر .

ـ ونحن نغمره في المرتين بعواطف الحب .
ـ اجل ثم نجول معه في الحديث جولة نعرف فيها اسراره .
ـ وان لم يعد ؟
فالتفت الى بلقيس قائلا : بل يعود ليرى في قصر الامير شرحبيل ما لم يره في قصر الملك من ... صراحة في القول .
وكاد يقول من نور وسحر يبعثهما وجه بلقيس .
فعرفت بلقيس من نظرته انه يعنيها بكلمته .
ولكنها آثرت السكوت ريثما يتسع لها مجال الدخول في البحث .
فقال شرحبيل : لقد نسيت امرا يا ذا مغار .
ـ ما هو ؟
ـ نسيت ان الهمداني من رجال البلاط وانه لا يخرج منه الا باذن من الملك .
ـ واذا كان هذا ؟
ـ اذا كان هذا فاي عذر يعتذر به كل مرة عن خروجه .
فتردد في الجواب .
اما الامير فاستطرد قائلا : ايجسر على ان يقـــول له انه يزور شرحبيل بن عمرو ؟ .
فخرجت بلقيس عندئذ عن حيادها قائلة :
اذا كان عزيز النفس كبيرهـــا كما وصفه ذو مغـــار فهو يجسر على اعظم من هذا ! ...
ـ ولكن الملك يظن به الظنون .
ـ وهذا ما تريده انت يا مولاي ، انك لا تستطيع ان تجعله من رجال دعوتك الا اذا شك الملك في اخلاصه ودفعه هذا الشك الى امتهان كرامته .
ثم قالت : وقد يكون صريحاً الى حد ان يقول للملك ؟
اقيم ببلاطك على ان ازور شرحبيل بن عمرو عندما اشاء .
قال : ما اظن ان رجلا يجرؤ على مثل هذا غير شرحبيل وذي مغار .

فقال ذو مغار : سترى ايها الامير ان الجرأة والشرف يقومان جميعاً في صدره ...

قال : لم يبق الا ان نصبر لنرى .. والآن فقد عرفت ما صنعه الملك ونحن بحاجة الى الرأي .

ــ قل لي اولا من هي الوصيفة التي وهبها الملك لبلقيس ؟

ــ فتاة من حضرموت وقد كانت من حظاياه .

ــ انها اذن تنقل اليه كل كلمة تقال في هذا القصر .

ــ اجل وتفعل ذلك بامر بلقيس !

ــ ومعنى ذلك ؟

ــ معناه انه ارسلها جاسوسة علينا فامست جاسوسة عليه تنتزع الاسرار انتزاعاً من صدره الذي تتأجج فيه نار البغض .

واخذ يقص عليه حكايتها مع حاشد ومع الملك في البلاط .

ثم قال : لقد رأينا من قبل ان نعد العدة للثورة ونتهيأ لخلع الملك يوم تجتمع تحت لوائنا القوى التي تصلح لهذا الامر ، اما الآن فقد رأت بلقيس رأياً آخر احب ان استشيرك فيه .

ــ يخيل الي اني اعلم هذا الرأي ... ان الحيلة في نظرها خير من السيف .

ــ السيف يتبع الحيلة على كل حال غير ان هنالك شيئاً جديداً لم يعرفه ذو تبع ليقصه عليك هو ان ولي العهد يريد بلقيس زوجة له .

فاستوى في مجلسه قائلا : وهذا وهو السبب الذي دعاها الى تغيير الرأي ؟

ــ اجل : وستخبرك الآن اي امر ستقدم عليه للحصول على الغاية التي تعلم .

وجعلت بلقيس تروي روايتها حتى انتهت الى قولها : انها ستتزوج ولي العهد اذا اكرهتها الاقدار .

فقال ذو مغار : اذن لا ينتهي الامر الا بالسيف كما قال الامير . ولا بد من ان تتولى الرجال امر حمل التاج من رأس الى رأس .

قالت : اصبت وسيمد شرحبيل بن عمرو يده في قضية التاج سواء اظفر ذو

القرنين في النزاع او ظفر ولده .. والآن فلنفرض ان امراء اليمن اصبحوا فريقين هذا ينتصر للملك وهذا ينتصر لابن يعفر فاي فريق منهما يكون لنا ؟

فاجابها دون ان يتردد : الفريق الضعيف في عدده وقوته .

ـ اعرف ان امر اليمن في يد الملك ونحن لا نستطيع ان نجعل حزبنا اعظم قوة واكثر رجالا من حزبه . ولكن اردت ان اعرف الرجال باسمائها لاتبين التأثير الذي يحدث في القوم عند خروج هؤلاء الرجال عن طاعة ذي القرنين .

ـ نحن اليوم في الخطوة الاولى ولم نر احداً .

ـ ومع ذلك فانت قادر على النظر في الامر الآن .. من هم الامراء الذين تظن انهم يمشون وراءك ووراء ابي الى ساحة القتال ؟

فنظر الى ابن عمه قائلا : رأيك يا ياسر .

فتمتم قائلا : تريدون ان تندبوا الناس الى خلع الملك وانتم وراء جدر القصور لا تنقلون الى الاقاليم قدماً .

قالت : لكل امر دوران ، دور القول ودور العمل ونحن في الدور الاول الآن ...

ـ اخشى ان يضيع الامل عندما ينتهي الدور الاول الذي تذكرين .

ـ لا تضيع الآمال وولي العهد يحب بلقيس ... اذكر من تعرف من الرجال.

قال : ابدأ بالامراء الذين يقيمون بالبلاط .

ـ بل تبدأ بالامراء المقيمين بالمخاليف وتترك من ذكرت .

ـ قلت لذي مغار ان جبار بن دوير يبغض الملك وله عليه ثأر لا ينساه ..

ـ من هو جبار هذا ؟

ـ امير بينون وعنده الرجال البسلاء الذين يستهينون بالموت .

ـ وغير جبار ؟

ـ الغوث بن راهط صاحب براقش وقد سلبه ذو القرنين فتاة من بنات عمه هي احب النساء اليه .

فجعلت بلقيس تردد الاسماء قائلة :

ذو مغار وياسر ، وجبار بن دوبر ، والغوث بن راهط ، وشرحبيل بن عمرو. خمسة امراء يتبعهم بضعة عشر الفا من الرجال! انهم لا يثبتون في وجه ذي القرنين عندما ينفخ في بوق الحرب . عنده اكثر من عشرين اميرا يجرون اذيال النفوذ والجاه وعندنا خمسة ليس غير ، هو الملك الذي يمد رواق سلطانه في فضاء اليمن، ونحن الرعية الضعيفة التي تفكر في الثورة لتنزع منه التاج ! هو القوي بالمال والجيش ونحن الضعفاء بكل شيء الا بالعاطفة الطاحة والعقيدة الثابتة وهذا وحده لا يكفي، نعم لا يكفي فلنصبر ولنعلل الملك وولده بالوعود حتى يستقيم لنا الامر كما نشاء .

وكان ياسر صريحا كما رأيت ، فقال :

للقدر ارادة لا ترد فيجب ان نعد له العدة قبل ان نستسلم الى الاحلام .

ــ وماذا يفعل هذا القدر ؟

ــ يغضب ، ثم يثور ، ثم يخرب ويهدم ولا يبقي على شيء .

فاعجبها هدوء الرجل وحكمته فقالت :

وهل نستطيع ان نعد العدة لامر لا نعرف ما هو ؟ اذكر مخاوفك .

قال : افرض ان الملك وولي عهده لم يصدقا وعود بلقيس .

ــ وماذا ايضا ؟

ــ ان الملك استطاع ان ينتزع الاسرار من صدر الوصيفة .

ــ وعندئذ ينسى الملك غرام ولي عهده ويعمد الى الضربة القاضية التي ترسل شرحبيل ومن حوله الى الفناء ، أليس كذلك ؟

ــ نعم .

ــ ولكن نسيت ما قلته منذ ساعة ، ان الملك عندما يتغلل الشك في صدره ويعمد الى ما ذكرت اعمد انا الى التضحية واتزوج ولي العهد .

ــ بل انت التي نسيت ما ذكرته لك نعمى ، الم تقولي الآن ان ذا القرنين لا يسلم بهذا الزواج ؟

ــ بلى ، غير اني لا ابالي بقوله ولا اعبأ به .

ــ اي انك تتزوجين على الرغم منه .

ـ اجل ويوافقني ولي العهد في ذلك دون ان يبالي بابيه !

ـ يعز علـي ان تستسلم بلقيس الى الغرور .

ـ ويعز على بلقيس ان ينسى ياسر امير ريام ان في صدر ولي العهد حبا يبيع في سبيله العرش والتاج . افلا تذكر ان الرجل من ابناء هذاالبيت ، البيت المالك يبذل ملكه ونفسه وماله في سبيل غرامــه ، ويخرب اليمن كلها اذا استطــاع ليبلغ غايته ؟

ـ بل اذكر ان الملك يبيع اليمن والجزيرة كلها ليبقي التاج على رأسه ، الم تري ماذا صنع هو وولي عهده عندما بلغهما خبر ســابور بن هرمز الزاحف الى بلاد العرب ؟ وخبر ملك الحبشة الجديد «العلي اسكندي» الذي يفكر في الاستيلاء على ملك حمير ؟ الم تري كيف ارسل ولي عهده على رأس فريق من الجيش ، الى البلاد البعيدة . الى بلاد عبد القيس ثم الى اليمامة ليتبين امر ذلك الفارسي الزاحف ويتهيأ لقتاله اذا حدثته النفس بدخول بلاده؟ الم يرسل عبد شمس الذي كان فلاحا ومعدي كرب صاحب صرواح الى الناحية الاخرى يستطلعان اخبار الحبشة ويحملان اليها تلك الإخبار ؟ الم تري كيف نسي غرامه وحسانه ، بل كيف نسي بغضــه وحقده على بلقيس وترك نعمى تروح وتجيء في البلاط دون ان يسألها عنك او يقول كلمة واحدة ؟ ان في هذا وحده دليلا على ان التاج في نظره فوق كل شيء وليس في العالم امر يستحق ان يحول بينه وبين الحرص عليه .

ثم قال : وارجو ان تعلمي ايتها الاميرة ان ذلك الحب الذي وصفت تأثيره ، حب وحشي ليس فيه اثر للعاطفة ، وسحابة صيف لا تظهر اليوم الا لتزول غداً.

وكانت لهجته لهجة رجل خبر دنياه فوثق بنفسه .

فابتسمت قائلة : وماذا ترى الآن ؟

ـ ارى ان تنظر الاميرة الى هذا الامل الذي تحلم به ، كما انظر اليه انا ياسر امير ريام ..

ـ اي انه امل كاذب ..

ـ نعم وليس من الحكمة ان تسند المؤامرات الى الآمال وتبنى العروش على عواطف الغرام ..!

قالت : ان الحيلة التي الجـأ اليها تستند في النهاية الى قوة السيف وهذا مـا تريده انت .

ـ ولكنك تظنين ان ولي العهد سيغضب اباه وسيعمد كل منهما الى سيفه لينال غايته وهذا ما لا اصدقه .. انا اعلم ان السيف ينقل التـاج من رأس الى رأس فاعمدي اليه وحده ليتم لنا الامر او نموت .

ـ لقد بدأت ان انظر الى الشعب اليمني كأنه رعية لي .. فلا احب ان تغوص اليمن في بحر من الدماء لترفعني او ترفع ابي الى العرش .

ـ ولكن هذه الدماء ستجري كالانهار عندما تنتصرين لولي العهد يوم يغضب اباه ويبرز الاثنان الى الميدان .

قالت : لا تنس اني احارب في ذلك اليوم الملك وحده الذي تضعف قوتـه ويخسر الفريق الكبير من رجال حربه .

ـ بل تحاربين الملك وولي عهده . تبدأين بالاول ، ثم تنثني الرجال الى الآخر ليخلو لك الجو .

ـ اجل : ولا يتم الامر الا بالتفريق بين الاثنين ، اي انه خير لي ولك ان نحاربهما منفردين الواحد منهما عدو الآخر ، بدلا من ان نحاربهما مجتمعين ومعظم اليمنيين تحت لوائهما .

فاطرق ياسر ملياً وقد رأى ان الصواب في ذلك الرأي ، ثم قال :

ومع ذلك فانا اخاف الاقدار ولا يخطر لي ان الحب يقـدر على هذا التفريق الذي تفكرين فيه .

قالت : سنظفر في الحالين ،اما ان يستقيم لنا الامر كما اظن ، واما ان نفشل فارضى بعمرو زوجاً لي .

وهمت بان تقول كلمة اخرى فوقفت عند شفتيها ولم يسمعها القوم .

فقال الهدهاد : اما نحن فلا نرضى بان تصبح بلقيس بنت شرحبيل عبـــد لهذا النذل ..

فاجابته قائلة : ارضى به لاصير سيدة اليمن ..!

فخيل الى ذي مغار انه ادرك معنى ذلك الكلام ، فقال : اما انا فقد عرفت الغاية من هذا الرضى .

ــ ماذا عرفت ؟

ــ ستتزوجين عمرا لتمهدي السبيل للمتآمرين عليه وعلى الملك .

فبرقت عيناها ولم تجب .

فقال ياسر : لو لم تكن بنت شرحبيل لسألتها بان تصير حظية لذي القرنين في هذه الساعة .

قالت : وفي ليلة واحدة اقلب العرش .!

ــ نعم وهذا الذي اعنيه .

فبانت العظمة على جبينها وفي عينيها وهي تقول :

خير لبلقيس ان تكون جارية في منزل فلاح من ان تكون حظية في البلاط ..

وعادت الى حديثها الاول قائلة :

لنعد الى النظر في امر الحرب .. الا تجدون من الامراء غـــير اولئك الخمسة الذين ذكرتهم ؟

قالتها وهي تنظر الى ياسر ، فقال :

في اليمن امراء كثار كما تعلمين ولكن لا نعلم ماذا يضمرون ولا نجسر على ان نخاطبهم في هذا الامر .

ــ يجب ان ينضم الينا عشرة امراء على الاقل .. انتقلوا الآن الى مخاليف غمدان وتلغم وشبام وارياب وعمران اليس بين امرائها واحد يضمر البغض للملك ويحمل سيفه ليدافع به عن كرامته ؟

ــ ان هذه الاقاليم جميعها مخلصة للملك وهي التي ارسلت جنودها يحارب بها اقليم شبوة يوم حمل لواء العصيان .

ـ اذن لننتقل الى البلاط فعسى ان نجد فيه واحداً .

قال : قد يكون عتيك بن روضة من اعداء ذي القرنين وهو يكتم عداوته في صدره لا يبوح بها لاحد .

ـ ومن يحدثه بالامر ؟

ـ نرسل اليه رجلا من ابناء قومه .

ـ وهل يعرف احد منكم سبب عداوته ؟

ـ لقد قتل والد الملك اباه وهي قصة يعرفها معظم اهل اليمن وقد كتموه اياها من قبل .

قالت : انه لنا ولم يبق الا ان ترسلوا اليه نسيبا له .. وذلك الفلاح صاحب ناعط ماذا تصنعون به ؟

ـ عبد شمس ؟ انه بعيد عن البلاط اليوم وهو اشد الناس اخلاصاً للملك واصدقهم طاعة .

ـ ولكن قومه لا يعبأون باخلاصه كما علمت .

ـ اجل : غير انهم فوضى ، وليس لهم رئيس يرجعون اليه .. نعم .. ولولا تفرقهم لما استطاع الملك ان يولي امورهم فلاحاً ذليلا لا شرف له ولا نسب . ومع ذلك فجيش الملك في ناعط لا يخرج منها وعندما يرفع احدهم رأسه يخفض السوط ذلك الرأس او يفصله السيف عن جسده .

قالت : هاتوا غيره فلا خير فيه .

وهي تريد ان يتناولوا في بحثهم امير همدان الذي تملأ صورته ذهنها وقلبها كما تملأ الاحلام العذبة اذهان العاشقين .

فقال : امير همدان وقد وصفه لك ذو منار الآن .

ـ واي رأي لك فيه ؟

ـ لقد اسرته ابتسامة الملك كما تعلمين فهو لا يخونه !

قالت : يظهر انه يبيع نفسه بابتسامة كاذبة .

قال : عندما يقوم في ذهنه ان ابتسامة الملك ابتسامة مكر ورياء يصبح

اخلاصه بغضا وحبه حقدا .
ــ هب انه اصبح منا .
فقاطعها ذو مغار قائلا : اذا اصبح منا ضمنت الظفر .
فاشرق جبينها قائلة لنفسها :
لقد امسى تاج حمير لبلقيس بنت شرحبيل .
وكان الليل قد مضى نصفه فقالت لابيها :
لم يبق الا ان ننصرف على امل ان نجتمع غداً بذي تبع .
قال : اترين ان نخاطبه بالامر غدا ونحن لا نعرفه ؟
ــ ليس لي ما اقوله الآن فلنصبر .
وقامت فانصرفت الى غرفتها وقلبها يخفق .
فرأت نعمى بالباب فقالت لها : سأحاول غدا ان اشتري سيف الفتى الهمداني الذي وصفته لي .
قالت : ذو تبع ؟
ــ نعم وسيجيء الى هذ القصر كما وعد ذو مغار .
فقالت في نفسها كما كان ذو مغار في تلك الساعة يقول في نفسه :
سيدخل صاحب همدان قصر شرحبيل وهو خلي القلب . ولكنه يخرج منه وهو اسير الغرام .

***

١٠

مرت بضعة اشهر لم يعبأ ذو القرنين في خلالها بنعمى واخبارها كما تقدم ، ولم يجالس نساءه وجواريه ، ولم يخطر له الا ان يحافظ على عرشه .
وتلك هي الاسباب التي جعلت تلك الحوادث تقف عند الحد الذي قرأت .
ان الحبشان من جهة يطمعون في بسط نفوذهم على اليمن ، وملكهم الجديد ،

العلي اسكندي يريد ان ينشر النصرانية التي دخلت الحبشة من عهد قريب .

اجل يريد ان ينشرها في القطر اليمني بمساعدة كاهن رومي اسمه فرومنتوس بشر في الحبشة باسم الناصري ، وساموه اسقفا عليها في اواسط ذلك الجيل .

وسابور بن هرمز الذي يعرف بسابور ذي الاكتاف ، يقود جيشه الصغير طائفا به في بلاد العرب ، يضرب بيمناه ويسراه ، ضرب ثائر مجنون يستلذ الدماء ويطيب له اللعب فوق جثث الابرياء .

وسابور فتى في عنفوان صباه ، يبتسم للمعارك الحمر ويستهين بالموت وله على العرب ثأر لا يضمحل تأثيره ولا تخمد ناره .

فذو القرنين اذن بين طامعين لا يعرف ايهما يسبق الآخر الى دخول بلاده ليضع السيف في رقاب اليمنيين .

وقد علمت انه لا يخاف كما يخاف الجبناء . بل كما يخاف الحكماء . فهو فتى الحروب اذا استعرت نارها وصاحب السيف القاطع الذي تعود ان يغمده في صدور الاعداء .

وكان يعلم ان الحبشان لا يرجعون عن اليمن الا اذا دهمتهم الرجال وان الثأر الذي لهم والبغض الذي يغلي في صدورهم لا يذكر معهما ثأر سابور وبغضه .

ألم تقرأ من قبل ، ان ملك الحبشة في اواخر الجيل الثالث ، فتح بعض اليمن وبعض تهامة ولم يلبث حتى رده الحميريون واخرجوه ؟

اذن فالحبشان لا يطيب لهم الا ان يسترجعوا ما خسروه ، ان لم يكن اليوم فغدا ، والويل لصاحب التاج الحميري اذا كان ضعيفاً او تردد في الدفاع .

انه يخسر تاجه ويضيع العرش الذي ورثه من الاجداد .

وكان بعض اليمنيين ، الذين يحملون اشياءهم الى الحبشة للتجارة قد خبروا ذا القرنين ان الكاهن فرومنتوس ينشر مذهب الناصري في القوم ، وان الحبشي الذي اضحى نصرانياً يطيب له الموت في سبيل مذهبه الجديد .

وقصوا عليه في الوقت نفسه ان القيصر الذي تخضع له نصف الارض ، يرسل المال الى العلي اسكندي بدون حساب ليستعين به على الفتح .

واعد له جيشاً جراراً يبعثه الى الحبشة عند الحاجة لينضوي الى الجيش الحبشي ويمشي بقيادة النجاشي الى الميادين .

وتلك اخبار رهيبة كما ترى تملي على ملك حمير الحذر ، ان لم تبعث الخوف .

وكان عليه ان يتدبر امره قبل ان يفاجئه الخطر الذي لا مفر منه . فارسل ولي العهد الى بلاد عبد القيس ، ومعدي كرب وعبد شمس الى ناحية الحبشة كما قرأت .

وامر الجميع بان يرسلوا اليه الرسل اذا ابصروا الخيل .

على انه كان يخاف شيئاً واحداً هو دخول الملكين الطامعين اليمن ، في وقت واحد فيضطر الى جعل جيشه فريقين ، يولي احد امرائه قيادة فريق منهما ويرأس هو الفريق الآخر .

ولكن ايقود الجيش الذي يتصدى لسابور ام للعلى اسكندي ؟

هذا ما لا يعرفه وسيصبر حتى ترد عليه الاخبار الاخيرة في هذا الشأن .

وفي الشهور التي مرت على الحال التي ذكرنا ، لم يكن له هم الا دعوة الامراء من ادنى اليمن الى اقصاها ، يأمرهم بان يتهيأوا للقتال وينتظروا امراً آخر .

وملأ بلاده جواسيس ، يقبضون على كل حبشي يشتبهون في امره .

واقام صابرا ، لا يعنى الا بشؤون الجيش ، وبذل النصائح الحربية للامراء .

***

١١

سابور ذو الاكتاف

•

مات هرمز بن نرمي من سلالة سابور ملك الفرس ، ولا ولد له يرث ملكه وتاجــه ..

بلى ، كانت احدى نسائه حبلى ، وذلك الجنين الذي يختلج في احشائها كان الملك بعد ابيه ، بقوة الحق الشرعي ، وبقوة تلك الوصيـــة التي تركها هرمز قبل موته ، بين ايدي انسبائه ووزرائه .

ورجال الدولة ، مكرهون على تنفيذ وصية الملك ، سواء اكان المولود ذكراً ام انثى .

على ان المرأة ولدت طفلا هو سابور .

وقد تولى كبير الوزراء امر الملك ، وتقـــلد الموظفون الذين كانوا في عهـــد هرمز اعمال الدولة ، على ان يكبر الملك الطفل ويستوي في عرش اجداده .

فشاع في بلاد العرب ان الفرس لا ملك لهم ، وان الامر فوضى بينهم ليس في الدولة عهد او نظام .

وكان ذلك ، في اوئل الجيل الرابع اي في سنة ٣٠٩ للمسيح .

ولم يبلغ الخبر العرب فحسب ، بل تجاوزهم الى قيصر الروم الطامع في ارض فارس كما كان يطمع فيها القياصرة الذين تقدموه .

وقد لا تقرأ رواية من روايات العرب قبل الاســلام ، الا وتجد فيها ذكراً للرومان والفرس فالدولتان كانتا سيدتي العـــالم كما عرفت ، تتنازعان النفـــوذ

والسلطان في بلاد العرب الخصبة الكثيرة الخيرات .

وفارس اقرب الى العرب من روما ، ولملكها في جزيرة العرب وما حولها ، اغراض لا تشبه اغراض قيصر ، الا من ناحية التوسع والفتح .

وكانت تلك السنة مجدبة ، وقد شمل الضيق معظم القبائل العربية النازلة في بلاد عبد القيس وكاظمة ، والبحرين .

وماذا تصنع العرب اذا اصابها الجدب ، انها تنتقل من ارض الى ارض وتهجر الاقليم الذي تعيش فيه الى اقليم آخر فيه السعة والمرعى ، ثم ترحل عنه الى سواه، عندما تضيق في وجوهها السبل ويطيب لها الرحيل .

وتلك عادة القبائل اهل البادية ، من قديم الزمان الى اليوم .

فلما عرفت ان فارس ليس لها ملك ، وان ملوكها وزراء هرمز واهل بيته ، استهانت بالدولة التي لا رأس لها ، فتركت بلاد عبد القيس ، الى سواحل اردشير خره وشواطىء الفرس .

وفي تلك الشواطىء الواسعة نشرت العرب الذعر ، وملأت قلوب اهلها خوفا ورعبا . ان نزولها فيها لا يختلف في شيء عن نزول الغزاة الفاتحين .

ولم يكن هنالك جيش فارسي ، بل لم تكن هنالك هيبة للوزراء المتربعين في العروش .

اهل الشواطىء اهل زراعة ، منصرفون الى استثمار الارض التي يكمن فيها الذهب ، وتغمرها مياه الانهار الفياضة .

وهم لا عهد لهم بالحرب ولا يحملون السيف الا اذا اكرههم ملكهم على حمله في الايام السود .

ففروا من وجه العرب كما يفرون من وجه الموت ، وحملوا الى سادة الموقف اخبار الذعر والتخريب والقتل .

ولكن رجال الدولة لا يشهرون الحرب ولا يبرزون الى الميادين ، في زمن هم احوج الناس فيه الى السلام يمد رواقه في فضائهم البعيد الواسع الاطراف .

ووضعت العرب ايديها على كل ما كان لاولئك الزراع ، من ارض وماشية

ومال ، لا تبالي بما فعلت ، ولا تحسب حسابا للزمان .

واي شيء تخافه في ارض فارس ؟ الملك طفل في مهده ، والقـــوم حوله مستسلمون الى لذة الحـــكم لا ينظرون الا الى النفوذ والجـــاه اللذين وهبتهما لهم الاقدار .

والجند الفارسي الذي جعله هرمز في الثغور والاقاليم لا يترك مواضعه !

فقد طابت له الاقامة باحضان الراحـــة ، وآثر الخمول على حمل السيف في وجوه الاعداء .

وكان الزمان يمـــر ، والعرب في الشواطىء لا يغزوهـــا احد حتى ترعرع سابور « و هو غير سابور الذي مر ذكره في روايـــة زينب » وعرف انه سيـــد للقوم وملكهم .

وكانت عاصمة الملك طيسبون ، وهو في قصره فيها ، فـــاستيقظ صباح يوم يسمع اصوات الناس من جهة دجلة تملأ الفضاء .

وهو لا يعلم معنى لتلك الاصوات .

فقال لاحد وزرائه : اي شيء هذا الذي اسمع ؟

قال : الناس مقبلون مـــدبرون على جسر دجلة وهذه اصوات تزاحمهم في المرور ...

ففاجأه بقوله : اتخذوا جسراً جديداً للمقبلين واجعلوا الاخر معبراً للمدبرين فلا يزدحم الناس ولا ترتفع الاصوات .

وذلك اول مظهر من مظاهر الفطنة .

فقال وزيره : لا يمر هذا الشهر حتى ترى الجسر .

فضحك قائلا : لا اريد ان اسمع مثل هذه الكلمة بعد .. لقد امرت بان يبنى هذا الجسر فليبن اليوم ويجب ان ارى الناس يمرون عند غروب الشمس .

وهذا مظهر اخر من مظاهر الحزم وعدم التردد في الامر .

فخرج الرجل ينفذ امر مولاه واستبشر الناس بما رأوا من ملكهم الصغير الذي له حكمة الشيوخ .

وجعل الوزراء يعرضون عليـــه الامر بعد الامر وهو ينصف الناس ، حتى عرض عليه امر الجنود الحاملين المقيمين بالقرب من اعدائه .

فعمد الى الحلم واللين يشتري بهما قلوب جنوده ، وكتب اليهم يقول :

لقد انتهى الي طول مكثكم في النواحي التي اقامكم بها ابي هرمز ، واستغناؤكم عن اخوانكم واوليائكم ، فمن احب ان ينصرف الى اهله فلينصرف مأذوناً لـــه في ذلك ، ومن احب ان يستكمل الفضل بالصبر في موضعه عرفت له ذلك .

ثم ختم كتابه قائلا : وعلى كل من يختار الانصراف ان يلزم اهله وبلاده الى وقت الحاجة اليه .

فقال الوزراء في انفسهم : لو كان سابور قد اطـــال تجربة الامور وسياسة الجنود لما زاد رأيه وصحة منطقه على ما سمعنا منه .

ثم تتابعت اخباره الى الاقطار بما اصلح ومـــا فعل حتى تمت له ست عشرة سنة واطاق حمل السلاح وركوب الخيل .

فجمع اليه رؤساء اصحابه وجنده وقام فيهم خطيباً قال :

اذكروا ما انعم الله به علي وعليكم ، بابي واجدادي ، وما اقاموا منا دبكم ، ونفوا من اعدائكم ، ثم اذكروا ما اختل من اموركم في ايام صباي وما ضاع منها بين ايدي العرب التي استخفت بالفرس .

ولكن ارجو ان تعلموا اني سابتدىء بالدفاع عن الشرف الذي استهان بـــه الناس ، وسأختار رجال الحرب فاقودهم الى المواضع التي نزل فيها العدو، فاسأله عما صنع في بلاد الطفل سابور .

فدعا له القوم ، وسألوه ان يبقى في قصره ويوجه قواده الى ساحة الحرب ولكنه ابى ، ولم يرض الا ان يخرج الى الميدان ، على رأس الرجال الابطال .

ثم غادر طيسبون مجنوناً ثائراً كما قرأت ، ونهى رجاله عن الابقاء على عربي مهما يكن امره .

حتى وضع قدميه في تلك الشواطىء التي غصبتها العرب ، وفاجأ اهلهـــا في ساعة غفلوا بها عن جور الزمان ، فقتل من تصدى له منهم ، ابرح قتل ، واسر

اعنف الاسر ، لا ترده استغاثة النساء وبكاء الاطفال .!

حتى اقفرت الشواطيء الزاهرة لم يبق فيها احد ، ولم يسلم من اهلها غير الذين لجأوا الى الفرار .

غير ان ثورة سابور لم تهدأ ، بل قطع البحر في اصحابه وورد بلاد البحرين . يرسل الموت من سيفه الوانا لا يقبل فداء ولا يلوي على غنيمة كأنه قضاء الله .

ثم مضى على وجهه فاستقر في هجر ، وبها ناس من اعراب تميم وبكر بن وائل ، ينتقل فيها من ارض الى ارض يغشي في اهلها القتل ويسفك الدماء حتى تسيل كما يسيل الماء وحتى كان الهارب منهم يرى انه لن ينجيه منه غار في جبل ولا جزيرة في بحر .

ثم عطف الى بلاد اهل القيس . فاباد اهلها الا من هرب منهم بالرجال .

ثم اتى اليمامة فقتل بها مثل تلك المقتلة ولم يمر بماء من مياه العرب الا غوره ولا بئر من آبارهم الا طمها . !

ثم انتقل الى البلاد التي تجاور المدينة « يثرب » فافنى من وجد فيها ولم يبق على شيء من الزرع والماشية والماء .

ثم تمادى في جنونه وقسوته فجعل ينزع اكتاف العرب ويترك الجثث في الاسواق فسمي ذا الاكتاف .

وفي ذلك الحين بلغت اخباره اليمن ، ونقل الناس الى ذي القرنين حكايات غزوته المدمرة ، فخيل الى الملك الحميري العظيم ان سابور من الجن .

وعمد الى فريق من الجيش ، يرسله كشافا بقيادة ولي عهده كما مر .

غير ان الملك الفارسي لم يفكر في الوصول الى اليمن ، بل لم يكن يفكر في الاستيلاء والفتح . ولم يخطر له الا ان يرضي حقده . وينشر هيبته في الاقطار التي تجاور بلاده .

ولم يكتف بكل ما فعل ، ان ثورة نفسه لم تهدأ ، وغضبه لم يضمحل ، وتلك النار التي تتأجج في صدره ، لا يخمدها غير الدماء التي تصبغ حوله الساحات ...

اجل ، لم يرض الغازي القاهر بما صنع ، بل مشى قاصداً بلاد بكر وتغلب ، بين حدود الفرس وحدود الروم من ناحية الشام ، فاباد سكانها الذين لم يهربوا منه ...

وعندما كان شبح الحرب ماثلا امام عيني ذي القرنين ، كان الغازي الفارسي قد لان وكانت ناره الآكلة قد اطفأتها الدماء .

على ان العرب التي نفرها لم تجسر على الرجوع الى البلاد التي خرجت منها بدون اذنه ، فعمدت الى الاسترضاء . ولكنه لم يرض الا ان يختار بنفسه ، بلادا جديدة يجعلها لها وطنا .

فاسكن قوما من بني تغلب بلدين هما هيج والخط في البحرين ، وجعل بعض عبد القيس وطوائف من تميم، في هجر، وطوائف من بني بكر في كرمان ويدعون ببكراباان . .

ثم عقبت ثورته عاطفة جديدة من عاطفة البناء والتعمير ، فبنى في السواد مدينة سماها بزرج سابور وهي التي عرفت بعد ذلك بالانبار .

وبنى بالاهواز مدينتين هما الكرخ والسوس ، وبارض خراسان مدينة اخرى دعيت نيسابور ..

وذو القرنين لا يعلم شيئا عن هدوء هذا الغازي الفارسي وولي عهده لم يعد،

* * *

١٢

خرج غالب بن ذي مغار من قصر شرحبيل في صباح اليوم الثاني ثم لم يلبث حتى عاد مع ذي تبع صاحب همدان .

وكانت بلقيس سافرة ، وهي في مجلس ابيها تنتظر قدوم ذلك الامير الذي وصف لها ، وفي صدرها عاطفتان . عاطفة شوق لا تعرف سببه ولا رابط له . وعاطفة طمع في اخراج الفتى عن طاعة الملك .

فلما اقبل ، جنى رأسه لشرحبيل وهم بتقبيل يده ، ثم انثنى فصافح الدهاد ولم يجرؤ على مد يده للفتاة التي تملأ المجلس جمالا وهيبة .

ثم قال لشرحبيل : لقد سألت ذا مغار ان يستأذن لي عليك وجاءغالب يحمل الي هذا الاذن الساعة ، فأتيت وأنا فخور بان اصافح الامير العظيم سليل الملوك وسيد الاشراف بعد مولانا الملك .

فأجابه قائلا : اما انا فقد عرفت انك اعز فتيان البلاط واصدقهم عاطفة فلم اتردد في طلبك ... اجلس، فذو مغار يحبك ومن استحق حبه فقد استحق في الوقت نفسه حب شرحبيل بن عمرو .

فجلس ، وقد رفع رأسه ناظراً الى بلقيس ، فتلاقى النظران .

انها عاطفة هوى كانت كامنة في الصدرين ... فاستيقظت فجأة ، ثم وثبت بقوة الشباب يضطرب لها القلبان ... ولولا مجلس شرحبيل ، لباح الواحد منهما للآخر بما احس به .!

احبها كما يحب اليمني آلهته ، واحبته أكثر مما تحب العرش الطامعة فيه ، فلا تعجب للنظرة القصيرة تحمل جميع معاني الغرام .

احب ذلك الجمال وذلك الجلال الساحرين ، واحبت تينك العينين السوداوين ، وذلك الوجه الذي تغمره الخلابة ، وتلمع فيه عظمة النفس .

اجل : لقد صدق في تلك الساعة حديث القلبين ، وحقق القدر احلام النفسين ، فعلق الواحد الآخر كأن غرامهما مرت عليه الاعوام .

وكان ذو مغار ينظر الى الاثنين وهو يبتسم ابتسامة الظفر .

ثم قال شرحبيل : متى قدمت البلاط ايها الامير ؟

ولعله اراد ان يسبر غوره ليعرف اسرار نفسه.

فقال الفتى : لقد انقضى العام الاول على وجودي فيه وهذا هو العام الثاني .

ــ ولكن اباك لم يكن من امرائه ولم يشأ ان يترك مخلافه على رغم طلب الملك وسؤاله كما عرفت .

ــ لقد كان ابي راضياً بهمدان ولولا الامارة التي ورثها من ابيه لآثر الاعتزال

في واد من اودية اليمن لا يرى فيه احداً على الاقامة بالقصور .

ــ واما انت ؟

فقالت بلقيس : اما هو فقد آثر البلاط على كل شيء .

وفي تلك الكلمة معنى عرفه الهمداني ، فقال :

لم يخطر لي من قبل ان اعيش في ظل الملك بين المقربين والامراء .

ــ ثم خطر لك بعد ذلك ان تفعل ففعلت .

ــ بل خطر للملك ان يلج في طلبه فلم اشأ أن اعصي .

فاشار الامير على ابنته بالسكوت قائلا :

قيل لي انك تحب ذا القرنين كما كنت تحب اباك .

ــ نعم ، وانا اعلم انك لا تضمر له الحب يا مولاي .

ــ وكيف علمت هذا ؟

ــ رأتك عيني وسمعتك اذني تخاطب الملك بلهجــة الابي الغاضب لشرفه .

ــ انك تعني حادث العام الماضي على ما اظن .

ــ اجل اذكر انه طلب اليك الاقامة بالبلاط ثم نزل عن ذلك وسألــك ان تبيعه الاميرة بلقيس او تهبها له لتكون بين حظاياه .

قالها وعيناه ترسلان شعاعا غريبا لم يره ذو مغار من قبل .

فابتسمت بلقيس ابتسامة الاستخفاف .

اما شرحبيل فكان يقول : لقد ندمت على ذلك القول ولولا حلم الملك وعدوله عن طلبه لجعلت بلقيس في اليوم الثاني حظية له .

فاحمر وجهه قائلا : لقد رضي الملك بما كان وانتهى الامر .

ــ ولكن شرحبيل بن عمرو لم يرض. ان الملك فوق الشرف والكرامة وفوق كل شيء . وليس من الرأي ان الحل عليه بفتاة يرغب في ان يضمها الى نسائه ، وهي من بنات عمه . !!

فزاد احمرار وجهه وقال : ان البلاط يغص بالحظايا من جميع الاقطار .

ـــ ومع ذلك فهو يرغب عنهن ، وليس بينهن واحـــدة تستحق اعجابـــه كما قيل لي .

فاجابه وشفتاه ترتجفان : ان الذي خبرك هذا كاذب يا مولاي ... لان الملك لا يحادث احدا من امرائه باموره الخاصة التي تتناول امورغرامه وهواه ،واعجابه بحظاياه وجواريه .

ـ ولكنه يحادث وصائف البلاط ونعمى بنت الريان التي اهداها الى بلقيس هي التي نقلت الي ما في صدر مولاها من لواعج الحب .

فكاد الفتى يختنق لهذه المفاجأة . اتصبح بلقيس ، هذه الفتاة الفتانة التي احبها سلعة تباع للملك ثم يملها فيهبها لسواه ؟!

ايحب في لحظة ، ذلك الحب الذي ملأ قلبه ، ثم يخسر من احب الى الابـــد دون ان يبوح بغرامه او يذكر كلمة واحدة عنه ؟

اهذا هو شرحبيل الابي ، الذي قال ذو مغار عنه انه اعظم الامراءنفسا واعز اهل اليمن ؟؟

انه مظهر من مظاهر الضعف والذل ، لم يقم في ذهنه قط ، ان سليل المـــلوك يظهر به .

وماذا يبقى من غرامه الجديد اذا انتقلت بلقيس الى البلاط ، بل ماذا يبقى من قلبه الذي لم يخفق على الحب خفقانه الاول الا ليموت ؟ ؟

لقد فكر امير همدان في كل هذا وهو يتردد في الجواب .

ايصف شرحبيل فساد البلاط واهل البلاط وهو المخلص لذي القرنين المحسن اليه ، ام يسكت وفي سكوته قضاء على تلك العاطفة القوية العذبة التي استيقظت في صدره ؟ ؟

لا . ان خير ما يلجأ اليه : تصوير البلاط كما هو على مسمع من بلقيس دون ان يهين الملك او يقول عنه كلمة سوء .

لعل بلقيس تأنف من الذهاب الى ذلك البلاط فينتهي الامر .

فقال وهو مضطرب : اتقذف بالاميرة الى اتون النار يا مولاي ولا تبالي ؟

ـ بل ابعث بها الى قصر ابن عمها لتكون ربة الحسان وسيدة النساء والرجال.
ـ ليس في ذلك القصر غير سيد واحد هو الملك .
ـ والحظايا اللواتي يملأن مقاصيره وحجراته ؟
ـ ليس لهـــن شأن ولا تقـــدر احداهن ان تبصر نور الشمس الا اذا اذن لها في ذلـــك .
ولكن نعمى التي ذكرتها لك تقول غير هذا !
فتذكر الفتى قول ذي مغار ان نعمى جاسوسة الملك ، فقال :
لتكذب نعمى ما شاءت فهي لا تجسر على ان تقول شيئاً .
قال : احذر ايها الامير فانت تهين الملك .
ـ اني اقول ما اعلم يا مولاي دون ان اهين احدا .. ومع ذلك فانت تستطيع ان تسأل بنت الريان عما جرى لها في البلاط .
وماذا جرى لها ؟ انها الوصيفة التي آثرها الملك على جميع وصائف القصر .
ـ نعم ، غير انها كانت حظية الملك نفسه قبل ان تمسي وصيفة وهذه نهاية النساء اللواتي ترسلهن الاقدار الى قصور الملوك .
فتظاهر بالتفكير ، وذو مغار وبلقيس يتبادلان النظرات وهما يبتسمان .
ثم قال شرحبيل : اذن لم تكن نعمى صادقة فيما ذكرته لنا ؟
ـ لا يا مولاي .
ـ وما هي غايتها من هذه الاكاذيب ؟
فاطرق ولم يجب .
لقد اتت الساعة التي يخون فيها مليكه من حيث لا يريد .
فاعاد الامير سؤاله وهو يتفرس فيه .
ومع ذلك فلم يشأ ان يجيب .
فقال : اتأذن لي يا ذا تبع ان اجاوب عنك ؟
قال : تريد ان تقول ان بنت الريان لا تستطيع ان تقول غير ما امرت بقوله .
ـ ولكن يجوز ان يكون آمرها غير ذي القرنين .

قال لقد نسيت قولك الان ان في القصر سيداً واحداً هو الملك .

ـ عنيت بذلك ان للملك الكلمة الاولى في البلاط ولم انس ان لولي العهد الكلمة الثانية .

ـ وهل يجرؤ ولي العهد على امر لا يستشير اباه فيه .

ـ اذا كانت له بذلك الامر غاية فهو يفعله دون ان يستشير احدا غير ناشر امير ظفار .

ـ ايطيب لك ان تقول ان نعمى جاسوسة عمرو ؟

ـ لا اعرف هذا ولكني اعلم انها كاذبة .

فكاد الامير يلمس ترددة الذي يدفعه اليه اخلاصه للملك واعترافه بجميله كما خبره ذو مغار عندما وصفه له .

ولكنه لم يرد ان يقف عند ذلك الحد ، بل عمد الى اسلوب اخر يقرأ به افكارة فقال له :

لقد قال لي ذو مغار انك فتى تميل الى الصراحة والجلاء في كل ما تفعل .

ـ تلك منة لذي مغار اذكرها له .

ـ بل اريد ان تثبت لي قوله بما اسألك عنه الان .

ـ سل يا مولاي .

ما هو غرضك بزيارة شرحبيل بن عمرو وانت لا تعرفه ؟

فاصفر وجهه قائلا : لقد حبب الي التعرف به ، ذو مغار نفسه بما ذكره لي عنه .

ـ مع انك تعلم اني لا احب الملك وقد ذكرت ذلك الان .

ـ واي شيء يمنعني من هذه الزيارة ؟

ـ يمنعك الخوف من الملك !!

فجعل يهز رأسه وهو يقول : لو عرفت ذا تبع من قبل لما خطر لك ان توجه اليه مثل هذه الظنون . ان ابي لم يخف الملك لاخافه ، ولم يكن جبانا وذليلا

لينتقل الى جبنه وذله . لقد اسأت الي يا مولاي وليس من حـــق الامـــير الكبير شرحبيل بن عمرو ان يستخف بالامراء الفتيان .

قال : عمدت الى الصراحة لاسمعها من فمك . انك اذا اردت ان تلمس اخلاصي لصاحب التاج الذي هو ابن عمي فارجو ان تعلم اني اصدق الناس في خدمتـــه واشدهم اخلاصا له ، واقربهم اليه يوم تتلاحم السيوف .

فقاطعه قائلا : انك يا مولاي كفء للملك في النسب وتكاد تكون كفؤاً له في المقام فليس لي ان ابحث عما تضمره له من جفاء او حب وتأبى نفسي ان اكون عينا على احد من الناس مهما تكن منزلته ومقامه . تريـــد ان تسمع صراحتي يا مولاي اليس كذلك ؟ اذن فاعلم انه لو خطر للملك ان يجعلني جاسوسا لخرجت من مجلسه دون ان التفت اليه وذهبت الى همدان اجمع فيها الرجال لارد اهانته الى صدره . لقد خيل اليك وانت تراني في البلاط ، من اولئك الناس الذين يضعون رؤوسهم تحت قدمي الملك متمرغين في الذل ، ليجود عليهم بابتسامته او ليحسن اليهم بذهبه !! اجل ، وانت تحسب اني لم ادخل البلاط الا لاجل هذه الغاية واني ابذل مروءتي وشرفي في سبيل الحصول على المال !! لا يا مولاي .. لقد وفر المال بين يدي صاحب همدان حتى ليهب منه لعبيده مثل ما يهب الملك للمقربـــين اليه وانا لم ارض بترك قومي والاقامة بين امراء القصر الا للحاجـــة ذي القرنين التي تشبه الالتماس والرجاء . !

ثم قال : اما غرضي بزيارتك الساعة فغرض فتى يستهويه الاباء وعزة النفس ويستسلم بكل قوته الى عاطفة نبيلة تجول في صدره هي عاطفة الاعجاب بكل ابي مثل شرحبيل بن عمرو ... فاذا رأيت اني كاذب فيما ذكرت الآن فليس الا ان تأمر عبيدك بطردي من قصرك وانا احلف لك اني لن اعود اليه ولو قتلت .

فبرقت عينا ذي مغار اعجابا بالهمداني وحول وجهه ليبتسم ابتسامة اخرى هي ابتسامة الظفر .

وجعل قلب بلقيس يرقص في صدرها وهي تحدق اليـــه بعينين يلمع فيها الحب ...

غير ان شرحبيل اراد ان يتمادى فقال :

قد يكون في دفاعك هذا شيء من الصراحة التي ذكرتلي . ولكني لااستطيع ان اصدق ان فتى مثلك يعيش في ظل الملك ويستخف به !

قال : لم اجد اثرا لهذا الاستخفاف يا مولاي .

ــ اما انا فقد وجدته الآن ... الم تزر شرحبيل بن عمرو وهو عدو الملك ؟

ــ لم تخطر لي هذه العداوة من قبل ، وقد قام في ذهني انمولاي الاميرغضب لشرفه في ساعة تغضب في مثلها الرجال ثم تزول آثار هذا الغضب بعد حين . . ومع ذلك فقد قالت لي الآن انك اقرب الناس الى الملك واصدقهم اخلاصا له !

ونظر الى بلقيس بكآبة وألم كأنه يستمد قوة لبيانه ولسانه .

فالتقى النظران مرة اخرى وتمشت كهرباء الغرام الجديد في عروق العاشقين .

فقال الامير : واذا عرفت الآن اني غير مخلص .؟

قال : لا يطيب لي ان اعرف شيئاً من هـــذا . ان امير همدان يعرف نفسه وهذا يكفي .

ــ بل ارجو ان تمعن في صراحتك وتجود بالجواب !

ــ وانا ارجو ان تسأل ذا مغار عن موقفي معه .

ــ واي شأن لذي مغار بهذا ؟

ــ انه احب الناس الي وانا اعلم انه لا يحب الملك .

وهو جواب بليغ كما ترى ، كاد ينتهي معه دور الاختبـــار لولا سؤال آخر خطر لشرحبيل فقال : الا يعلم الملك ان ذا مغار يضمر له البغض ؟

ــ وهذا لا يطيب لي ان اعرفه يا مولاي .

ــ اذن لم تنقل اليه خبر بغضه !

قال : لا تعد سؤالك هذا يـــا مولاي فانا لا اطيق ان اسمعه .. قلت اني لم اكن جاسوساً . وعندما يخطر للملك ان يستثمر اخلاصي ويجعلني نماماً واشياً ، استعين عليه بسيوف قومي وينهي امري معه .

ذو مغار : كفى ايها الامير .

قال : دعني اتكلم فقد بدأت اشعر بصراحة .. قل الآن يا ذا تبـــع ، انت من المخلصين للملك ام ماذا ؟

ــ للملك فضل علي لا انساه .

ــ ويقوم هذا الفضل بانه قربك اليه وادنى مقعدك من مقعده .

ــ نعم وذلك هو الرضى والاحسان .

ــ وهل تصف لنا اخلاصك لولي العهد ؟

ــ ليس في الصدر اخلاص لهذا الفتى لاصفه لك .. انه في واد وانا في واد والامراء الذين يحيطون به اعداء لي .

ــ ونعيش في البلاط بين اعداء ؟

ــ اجل : ولكني لا ابالي بهم ولا اعبأ الا بالملك .

قال : يعز علي ان تكون بين عاطفتين تناقض الواحدة منهما الاخرى .

انك تحب ذا القرنين وتبغض عمرا ، وهـــذا معناه ان الاخلاص بين الحب والبغض لا وجود له .

ــ ان الذي يعرف ان يبغض يعرف ان يحب يا مولاي .

ــ نعم ولكنك لا تستطيع ان تسمي حبك اخلاصاً .. ان الاخلاص للملك لا يعني الا الاخلاص لعرشه !

ــ هو ذاك .

ــ تنتهي مهمتي عندما تنتهي حياة الملك .

قال : اي امر احب اليك في دنياك تكثير الاصدقاء ام تكثير الاعداء ؟

ــ احاول ان اجعل الناس كلهم انصاراً لي..

ــ وانا اقول لك انك ستخسر هؤلاء الانصار من حيث لا تريد ولا تعلم .

فنظر اليه نظرة استفهام كلها استغراب .

فقال : لنفرض ان في اليمن اميراً يطمع في عرش حمير وان امراء كثاراً يمشون تحت لواء هذا الامير ليبلغ غايته .

ــ ولكن من يجرؤ على هذا وامر اليمن في يد الملك ؟

قال : لا تسأل عن هذا فنحن نفترض ... اتحمل السيف عندئذ لتدافع عن ذي القرنين ؟

ــ نعم يا مولاي !

ــ واذا كان ذلك الامير من اصدقائك ؟

ــ افعل ولا ابالي .

ــ واذا كان شرحبيل بن عمرو ؟

فتردد في الجواب . ان بلقيس تنظر وتسمع وهو لا يريد في الساعة الاولى ، ان يعكر الجو بينها وبينه .

ولكن الامير يتعلق بوفائه وشرفه ولا بد من ان يجيب .

وقد ادركت بلقيس سبب ذلك التردد وهمت بان تقول لابيها :

انه يحمل سيفه ليضرب به عدوك .

غير انها لم تشأ ان تتعجل في امرها على تلك الصورة وكانت قد وثقت بان الفتى اصبح لها مثلما هي اصبحت له .

وآثرت السكوت في تلك الساعة على ابداء الرأي واصغت الى ذلك الجواب الذي تلفظه شفتاه .

واذا به يقول : ان سيفي للملك وللامير شرحبيل .

فابتسم ابتسامة الهزء قائلا : انها كلمة لا معنى لها فكأنك لم تقل شيئــاً ونظر القوم بعضهم الى البعض ولم يعجبهم جوابه .

الا بلقيس ، فقد علمت ان وراء هذا الجواب برهانا لا يرد .

ولم يتردد الفتى في اظهار ذلك البرهان فقال : اذا اردت ان تسلب ابن عمك تاجه طمعا بالسلطان وحده فسيفي أدافع به عنه حتى اموت .

ــ ومتى يكون هذا السيف لشرحبيل بن عمرو ؟

ــ عندما يعبث الملك بشرفه وينهض هو ليصون هذا الشرف بقوة الرجال .

وخاف ان يسأله سؤالا آخر فيفضح نفسه ، فنهض قائلا :

استأذنك الآن في الذهاب يا مولاي .

ـ بل تجلس فالحديث لم ينته بعد ولم نعلم اصديق انت ام عدو ؟
ـ عدو وصديق كما قلت .
ـ قل ان العداوة باقية واما الصداقة فستزول غدا او بعد غد .
ـ لماذا ؟
ـ لان الملك سيمنعك من الرجوع الى هـذا القصر عندما يعلم انـك تحب صاحبه .
ـ لا اظنه يفعل ذلك يا مولاي .
ـ اتضمن سكوته ؟
ـ نعم وسيدالك على هذا اني سأعود بعد يومين اذا اذنت لي .
قال : انصح لك يابني بان تبتعد عن شرحبيل فهو عدو الملك في باطنه وأحد المخلصين له في ظاهره ، ولولا وثوقي بك الآن لما بحت لك بامري فافعل ما تشاء وكن وفيا للملك ما طاب لك الوفاء .
قال : كن كيف شئت فانا لا اقبل نصحا وسأزورك يا مولاي ما دامت ابواب قصرك مفتوحة لي .
ـ واذا جفا الملك ؟
ـ اجفو .. ان اللين يعلمني اللين ، والجفاء يملي علي الجفاء .
وحنى رأسه كما فعل عند دخوله وقد استطاع ان يوجه نظرة ثالثة الى ذلك الجمال الفتان الذي غير حياته . وخرج وهو يقول في نفسه :
ويل لي من وفائي .. وغرامي ...

* * *

رأيك ايها الامير فيما سمعت ورأيت .
وذو مغار لا تفارق الابتسامة شفتيه .
فقال شرحبيل : رأيته كما وصفته لي .. ولكنه يحب الناس ويبغضهم في وقت

واحد وانا اخشى ان تغلب عاطفة البغض عاطفة الحب فيه .

قال : ان في العاطفتين وفاء وشرفاً ومروءة كما ترى .

ــ اجل : وكنت اتمنى ان يكون الفتى لنا اكثر مما هي لذي القرنين .

فقالت بلقيس : سيكون كما ذكرت يا مولاي ، ألم يقل انه سيهب لك سيفه اذا عبث الملك بشرفك ؟

ــ بلى :

ــ افلا ترى ان الملك عبث بهذا الشرف يوم سألك ان تجود عليه ببلقيس ؟

ــ بلى :

ــ اذن فانت لا تمد يدك الى العرش الا في سبيل الدفاع عن شرفك وعندئذ يضع ذو تبع سيفه وقومه بين يديك كما وعد وتغلب عاطفة الصديق عاطفة العدو .

ــ ولكن الكلمة التي قالها الملك لي لا تعد سبباً للثورة التي سانفخ في بوقها عندما تأتي ساعتها .

ــ وهل تظن ان الملك وقف عند هذا الحد ؟ سيطلب اليك بعد حين ان تبعث ببلقيس الى بلاطه ليزفها الى ولي العهد وهو يرغب في ان يجعلها حظية له ، فتغضب كما غضبت من قبل ، ويترك بدوره مظاهر الدهاء ليستعين بالقوة .. وتلك هي الحرب ، وذلك هو الدفاع عن الشرف .

ــ ومن قال لك ان الامر سينتهي كما ترين ؟

ــ ليس له وجه آخر يا مولاي ، ان الرياء والدهاء في العمل ، يقومان الآن مقام كل شيء ، ولكنهما لا يثبتان الى الابد ، فسيأتي يوم يرفع فيه الستار عن المظاهر الكاذبة وتبدو على الوجوه عواطف الصدور .

ثم قالت : وهنالك شيء آخر يضمن لك اخلاص الهمداني ساذكره لك في هذا المساء .

فقال ذو مغار : اما انا فاذكره الآن .

قال : ما هو ؟

فأجابه وهو لا يتردد ولا ينظر الى بلقيس : هو الحب !

ــ واي حب هذا ؟

ــ حب ملك قلب الامير الفتى عندما وقعت عينه على الاميرة الفتاة بلقيس بنت شرحبيل !

قال : اراك تصف ما في القلوب يا ذا مغار .

ــ بل اقرأ ما في العيون من اسرار ... ان نظرة واحدة من عيني الفتاة الفتانتين جعلت الفتى صريع السحر .

والتفت الى الاميرة الضاحكة وهو يضحك .

فجعل شرحبيل يتفرس في ابنته وهو يقول : ماذا اسمع ؟

ــ تسمع كاهناً يمنيا يشرح لك السحر يا مولاي .

ــ ومتى كان لذي مغار عهد بالكهانة ؟.

ــ لقد تعلمها الآن اوحت بها اليه نظرة الهمداني الى بلقيس .

قال : اجاد انت يا ذا مغار ؟

ــ نعم ولم يخطر لي ان امزح في مثل هذه الساعة ،لقد خرج الفتى وهو عاشق واقسم ان الاميرة في ذهنه وقلبه لا تبرحهما بعد الآن .

ثم قال : وستأتي ساعة تسمع فيها اعتراف ذي تبع بغرامه ، ثم يسألك ان تزوجه ...

فقال مازحا وهو يظهر الرصانة والهدوء :

انترك ولي العهد ، الذي هو اعظم امراء اليمن ، لنزوج امير همدان ؟

ــ وهل تؤثر عمرا على ذي تبع ايها الامير ؟

ــ اجل ، فبلقيس عند عمرو تكون ملكة ، وعند الآخر تكون اميرة ليس غير ...

وكانت بلقيس قد عرفت لهجة ابيها فظلت ساكتة .

قال : ولكن الاخطار في بلاط الملك كثيرة كما تعلم ، وانت القائل ان بلقيس لا ترضى بولي العهد الا اذا اكرهها القدر على هذا الرضى .

ـ لست انا القائل بل بلقيس. فاترك رأيها الآن وخبرني حكاية هذهالاخطار التي ذكرت ...

ـ خطر الطلاق من جانب وحظايا ولي العهد من جانب آخر .

ـاما الطلاق فقد يلجأ اليه ذو تبع كما يلجأ اليه عمرو .

ـ واذا تزوج ذو تبع الاميرة تزوجها عن غرام وهوى طـاهرين وليس كما يتزوجها الآخر ، ثم ان امير همدان لا يستطيع ان يتخذ له جارية الا اذا لم تلد زوجتهاولادا له وولي العهد قادر على ذلك في اي زمن شاء وتلك هي شريعة اليمن التي تسود جميع اليمنيين الا الملك وبنيه !

قال : الا تأذن هذه الشريعة لليمني في ان يشتري ما يطيب له من الجواري ويجعلهن ملكا له ؟

ـ بلى ، ولكن ذا تبع لا يفعل هذا .

قال : هذا مظهر آخر من مظاهر الكهانة . ومن قال لك ذلك ؟

ـ قاله لي ماضي الفتي واخلاقه وانصرافه عن كل قبيح .

ـ وكل هذا لا يكفي فقد صغرت النفوس في هذا الزمان حتى لترى الملوك انذالا والامراء تباعا لهم في النذالة والشر !

ثم قال : لقد ورثت حمير هذه الشريعه من دولة سبأ ، وورثتها سبأ من دولة المعينيين وانت تعرفها كما يعرفها الناس أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ ولكنك نسيت ان المرأة ، بقوة هذه الشريعة ، تستطيع ان تطلق زوجها اذا ابغضته بقولها له : « لست لك » .

ـ وهذا يعني ان بلقيس تقدر ان تطلق ولي العهد !

ـ اجل ويفصل بالامر كاهن مأرب .

فضحك قائلا : اي كاهن يجرؤ على اغضاب ولي العهد بالحـكم لزوجته ؟ انك في قولك هذا تهزأ بي .

ونظر الى بلقيس كأنه يسألها ان تقنع اباها فقالت :

ليست الشريعة على الملك يا مولاي ... لقد اخذ بعضها وترك البعض الآخر كما فعلت الملوك قبله ، في الدول الثلاث التي سادت اليمن .. ومــع ذلك فانتما تنظران في امر لا وجود له في ذهني وقــد لا يكون له وجود في ذهن صاحب همدان ...

فقال ذو معار : اقسمت انه عاشق وسترون .

قالت : اذن ننظر في امر عشقه عندما يبوح به .

ولو تفرس فيها القوم لرأوا صورة ذلك العشق في عينيها الصافيتين .

ونهضت وهي تهم بالانصراف .

فقال ابوها : لي كلمة اقولها لك يا بلقيس بعد ساعة .

قالت : انتظرك في حجرة الهدهاد يا مولاي .

وانصرفت لتخلو بغرامها الذي خلقه القدر وتناجي فتى همدان .

اما ابوها فكان يقول لذي مغار :

لقد ملأ صاحبك نفسي اعجابا فارجو ان يترك البلاط ..

فاجابه قائلا : سيتركه عندما تشاء بلقيس .

قال : اراك واثقا كل الوثوق بما تقول .

— نعم فالحب الذي يتغلغل في صدور الفتيان يفعل العجائب

وقام غالب والهدهاد يعدان عدة الخروج الى الصيد في صباح اليوم الثــاني ، وبقي ياسر وشرحبيل وذو مغار يتآمرون

* * *

١٣

كانت شرائع اليمن في ذلك الجيل ، ارثا يتناقله الشعب اليمني ، من دولة معين الى دولة حمير .

وواضع تلك الشرائع وصاحب الفضل الاول فيها ، حمورابي العربي ملــك

بابل ، صاحب اقدم كتب الشريعة في العالم كله .

وحمورابي هذا من اهل الجيل الثالث والعشرين قبل المسيح ، وقد قرأت شيئاً عنه في الروايات التي ظهرت قبل بلقيس .

وكان فاتحا مشى بفتوحه ، من بابل غربا الى البحر المتوسط ، وضم اشور الى ملكه ، مستعينا بقوة غريبة على نيل غايته من التوسع والفتح .

وكان مصلحا مجددا ، عني بالاصلاح ووضع النظم كما عني بنشر الوية نفوذه وسلطانه في الاقطار ، وجمع الشرائع التي اتخذ بعضها الملوك الذين تقدموه ، وجعلها في ٢٨٢ مادة ، مظهرا من ارقى مظاهر الاجتماع في تلك العصور .

فلما غلبت دولة بابل على امرها ، خرج بعض اهل الدولة لاجئين الى اخوانهم النازلين في جزيرة العرب ، وانشأوا في اليمن دولتهم العربية التي عرفت بدولة معين ، كما تقدم في الجزء الاول من هذه الرواية .

وحملوا معهم شريعة حمورابي التي تتناول الزواج والطلاق والتبني والارث والتجارة والعلم ، وجعلوها شريعة يرجع اليها الشعب الذي حكموه حتى انقرضت دولتهم وخلفتها دولة سبأ .

على ان سبأ لم تتخذ شريعة غيرها ، ولكنها اتخذت ما طاب لها منها وتركت البعض القليل الذي لا يصلح لها كما فعلت بعدها دولة حمير .

وهي الشريعة التي ذكرها ذو مغار وشرحبيل .

اذن يجب ان تقرأ شيئاً من الشريعة التي اتحف بها حمورابي العالم منذ اثنين واربعين جيلا ، نأخذها لك باختصار عن كتاب العرب قبل الاسلام ، لتفاخر بذلك الملك العربي ، طائفة كبيرة من الملوك ، قبله وبعده .

وقد عثروا على نسخة منها سنة ١٩٠١ في بلاد السوس « من بلاد العجم » منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الاسود الصلب طولها سبع اقدام .

نظام الاجتماع

كان الناس في عصر حمورابي ثلاث طبقات . ألاحرار والعبيد ، بينهما طبقة اخرى تشبه طبقة الموالي في صدر الاسلام .

كان المولى ارقى من العبد وادنى من الحر ، واسمه عند البابليين « ماشنكك » وقد فسر الاب شايل المستشرق الشهير هــذه اللفظة بمــا يشبه لفظة « مسكن » العبرانية ومعناها صعلوك او فقير مسكين .

وقد يتبادر الى الذهن انهم يريدون بهذه الطبقة ، عامة النــاس ، لا . انهم يعبرون عن العامة بلفظ اخر هو في لسانهم « مار اومية » اي ابن الامة اوالصانع وربما كان ذلك اقرب الى ما يعبر عنه عند الرومان بلفظ Plebe .

على ان المولى عند البابليين كان يقتني العبيد ويملك الارض ، وقد يتزوج من بنات الاحرار كما سيجيء .

ولكنه احط منزلة واقل مسئولية منهم في نظر القضاة ، فالمجروح اذا ما تمن جرح وكان حرا فالدية تسعون مثقالا من الفضة واذا كان مولى فالدية ستون .

واذا عالج طبيب مريضا وشفى على يده وكان حرا دفع عشرة شواقل فضة واذا كان مولى دفع خمسة شواقل او كان عبدا فشاقلين .

واذا كسر احد عظم رجل حر ، يكسر عظمه ، فاذا كان المكسور عظمــة مولى يغرم الضارب مائة وثمانين مثقالا واذا كان عبدا فنصفها وقس على ذلك .

ويشبه هذا ماكان عليه اليهود في عصر التوراة ، فقد ذكروالهم ثلاثطبقات الاحرار والعبيد ، وطبقة بينهما يسمونها بالعبرانية « جر او غر » ، وقد ترجموها بلفظة « غريب » او اجنبي .

وكثيرا ما كان اهل التقوى من اليهود يسمون انفسهم بهذه الكلمة مضافة الى اسم الله او الملك فيقولون مثلا « غرملك » او « غرعشتروت » على نحو ما يراد من قولنا عبد الملك او مولى اللات .

ولكن الماسنكك عند البابليين ارقى في الهيئة الاجتماعية من الغر عند اليهود .

المرأة والزواج

العادة في الامة المؤلفة من طبقات مختلفة ان اهل كل طبقة يتزاوجون فيمابينهم ويندر ان يحصل تزواج بين اهل طبقتين الا ما قد يقتنيه الاحرار من الجواري على سبيل التملك .

ولكن يؤخذ من شريعة حمورابي ان العبيد عند البابليين كانوا يتزوجـون من بنات الاحرار احيانا زيجة شرعية ، غير ان ذلك خاص بعبيد القصر الملوكي ومن هم في مقام مثل مقامهم .

والزواج عندهم في كل حال ، لا يعتبر نافذاً ، الا بعقد مكتـوب شأن ارقى الامم المتمدنة اليوم . والمحافظة على الحقوق الزوجية شرط واجب .

عقاب الزنى القتل ذبحا او غرقا الا اذا التجأت المرأة الى رجل اخر وزوجها غائب في اسر وليس عندها ما تقتات به ، فان الشريعة تجيز لها المعيشة مع ذلـك الرجل عيشة الزوجين حتى اذا عاد زوجها من اسره عادت اليه واذا كانت قد ولدت له اولاد تركتهم له .

اما اذا كان غياب الزوج فرار من الحرب او ما يشبه هذا فالمرأة لا ترجع اليه اذا عاد ، وذلك ترغيبا في الشجاعة .

ومن شروط الزواج عندهم ان الرجل يقدم للفتاة مالا من قبيل المهر الشائع في الشرق يسمونه حق العروس اي ثمنها وهي تأتي من بيت ابيها بمال يسمونـه المهر « الدوطة » فكأن البابليين جمعوا في حقوق الزواج عندهم بين عـادات الشرق والغرب .

والمهر وحق العروس ، كلاهما للمرأة ويحفظان باسمها عند الحاجة ، فـان لم تتزوج الفتاة تأخذ المهر من ابيها كانه حق مفروض لها منذ الولادة واذا لم تأخذ مهرها فلها سهم في الارث .

كذلك حق العروس للفتى ، فانـه يعين له من صغره ليقدمـه الى عروسه عند الزواج .

اما الطلاق ففي يد الرجل ، فاذا اراد تطليق زوجته وقد ولدت اولادا دفع اليها مهرها وقال لها : انت طالق : انت طالق فتطلق .

ولكنها تتولى تربية اولادها بنفسها ولها في مقابل ذلـــك حصة من دخـــل زوجها . .

فاذا شب اولادها استولت على سهم مثل اسهمهم من الارث ، واذا لم يكن له اولاد منها دفع اليها حق العروس وارجع اليها المهر وطلقها .

على ان المرأة اذا بغضت زوجها استطاعت ان تطلقه بالحق فتقول له « لست لك » ويتقاضيان الى الكاهن او القاضي ، فـــاذا كانت دعواهـــا افتراء تطرح في المـــاء .

والرجل ليس مطلق الحرية في الطلاق من كل نواحيه ، فهو لا يستطيع ان يطلق زوجته اذا كانت مريضة ، بل يتزوج سواها اذا اراد وتبقى هي في بيتـــه وهو يعولها ، واذا ابت البقاء دفع اليها المهر واعادها الى بيت ابيها .

والزواج وثيق العرى عند البابليين ، فحقوق الزوجـــين متبادلة ، وواجباتهما مشتركة ، وكل منهما مسؤول عن الآخر حتى في الحقوق المدنية .

فاذا كان على احدهما دين فالآخر مسؤول بـــه ، اي ان الرجل اذا تأخر عن وفاء دين عليه قبض الدائن على زوجته حتى تفيه .

كذلك المرأة اذا عجزت عن دفع دين عليها يقبض الدائن على زوجها حتى يفيه حقه ولو كان الدين قبل الزواج .

الا اذا تعاهد الزوجان على ان لا يسأل احدهما الآخر عما عليه من دين قبل الزواج .

واما الدين الذي يحدث بعد الزواج فهما متضامنان فيه .

وليس للرجل عندهم ان يقتني سرية الا اذ لم تلد له زوجته اولادا ، فاتخاذه السرية لاجل النسل فقط ، ولذلك فقد تهب المرأة لزوجها جارية تلد اولادا ولا يجوز له بعد ذلك ان يقتني سرية .

على ان الجارية ولو ولدت اولاداً ، فليس لها حقوق الزوجة ولا منزلتهـــا

واذا ادعت ذلك فلمولاتها ان تكبلها بالحديد وتعيدها الى منزلة الاماء .

اذن فالمرأة عندهم تكاد تساوي الرجل في الحقوق !!

تتعاطى كثيراً من اعماله التجارية والزراعية ، وهي تنظم في سلك الكهـان بدرجات اربع .

اولا ــ الكهانة الكبرى ولا يشترط فيها ان تكون الكاهنة بتولا ، ولا تمنـع من مهرها الذي هو حق لها من بيت ابيها ، واسم كاهنة هذه الدرجة في اللغـة البابلية « نينان » اي السيـدة المقدسة ويشترط في سيرتها الطهارة والقداسة ولهذا كانت الحكومة تحميها وتدافع عنها .

ثانياً ــ كهانة العذارى واسمها « كالاتي » وليس لصاحبتها مهر من ابيها .

ثالثاً ــ الكهانـة المقدسة ويشترط فيها ان تكون الكاهنـة بتولا لا تتزوج وتستولي على ثلث سهم الولد من الارث .

رابعاً ــ النذر للاله مروداخ ، وصاحبته كالكاهنة المقدسة لكنهـا ترث من ابيها ارثاً كاملا .

التبني

كان التبني شائعاً عند البابليين في عصر حمورابي ، فاذا لم يرزق احدهم اولاداً وكان في نفسه ميل الى البنين لغرض من الاغراض ، اخذ من بعض الوالدين طفلا يربيه عنده ويتبناه .

ولهم في التبني شروط حسنة راقية ، منها :

رعاية حرمة الوالدين فاذا تبنى احدهم غلاماً ثم آذى ابويه يرجع الغلام الى بيت ابيه .

ويشترط في ثبوت حق التبني ان يسمى الولد باسم الوالد الجديد فـاذا رباه وسماه باسمه لا يسترجع .

واذا كان المتبني صانعاً فعليه ان يعلم الولد صناعته فاذا فعل ذلك فالولد له .

واذا تبنى الرجل ابنا وسماه باسمه ، ثم تزوج ذلك الرجل وولدت له زوجته اولادا ، واراد ان يخرج الولد من بيته فلا يستطيع ذلك الا اذا اعطاه ثلثحصة الولد من مال ابيه غير العقار .

على ان الرجل عندهم كان يتبرأ احياناً من ابنه لصلبه ، ولكنه لا يقدر على ذلك الا بين يدي القاضي فيقول له :

انا اتبرأ من ابني .

فينظر القاضي في الاسباب فاذا لم يجد مسوغاً رفض الطلب واذا وجد ذلك المسوغ اجل الحكم في القضية لعل الوالد يرجع عن عزمه ، فاذا لم يرجع اجاز له التبرؤ منه .

واولاد الرجل من جاريتة لا يكونون اولاده في نظر الشرع الا اذا دعاهم اولادا له ، فاذا فعل ذلك كان لهم ما لاولاد الزوجة من حقوق الارث ، واذا لم يدعهم فلا يرثون شيئاً ، ولكنهم يعتقون .

الارث

لا يميز البابليون في حق الارث بين الذكر والانثى ، ولكن للوالد ان يمنع بعض اولاده من الارث اذا ثبت ما يستدعي هذا المنع .

على انهم كانوا يختلفون عن سائر الامم بمسألة المهر وحق العروس .

فان الرجل اذا ولد له اولاداً ، فاول ما يفعله ان يفرض للذكور « حق العروس » وللاناث « المهر او الدوطة » .

فمن تزوج منهم في حياة والده اخذ حقه او مهره .

فاذا توفي الاب فللعزاب من اولاده ان يستولوا على حق العروس او المهر فضلا عن اسهمهم من الارث .

ثم ان المهر الذي تأتي به المرأة من بيت ابيها يكون ملكها وحدها ويورث على مقتضى ذلك الملك .

فاذا تزوج رجل امرأة وولدت له اولادا وتوفيت ، فمهرها لاولادها .
واذا توفيت ولم تلد اولاداً فالمهر يرجع لابيها وليس لزوجها .
والهبة عندهم نحو ما هي عندنا الآن ، فاذا وهب الاب شيئا لاحد اولاده ثم مات ، تقسم تركته على اولاده وتبقى الهبة لصاحبها .

التجارة ونظام الحكومة والعلم

والتجارة كانت عندهم قانونية بعقود وصكوك !!
وعندهم للوديعة والرهن شروط لا تختلف كثيراً عما عند الامم المتمدنة اليوم مع مراعاة الحال في ذلك الزمان .
فالبيع بلا عقد باطل ، والدين بلا صك لغو .
ومن شروط وفاء الدين عندهم ان المدين اذا عجز عن دفـع ما عليه يقبض الدائن على زوجته وبنيه فيخدمون في بيته حتى يستوفي حقـه ، واذا لم يفـوه يخدمون ثلاث سنوات ثم يطلقون .
ومما يدلك على رقي الحكومة في ذلك العصر البعيد انها كانت تتولى تسعـير السلع وتقدير اجور الصناع واصحاب المهن حتى الاطباء والبياطرة، فقدفرضت للطبيب اجرة ، وللبناء اجرة ، وللنجار اجرة ، والقت عليهم تبعـة ما يقع على يدهم من الخطر او الضرر .
فاذا عالج الطبيب مريضاً بسكين من المعدن واتلف عينه بها تقطع يدا ذلك الطبيب .
واذا بنى البناء بيتاً وسقط على صاحبه فقتله يقتل البناء .
واذا سقط البيت ولم يقتل صاحبه بناه البناء من ماله .
واذا بنى النجار سفينة وجاءت مختلة فهو المسؤول عن تصليحها .
وقس على ذلك اجور الرعاة والملاحين والدواب والسفن وغيرها مما يطول شرحه ووصفه .

وكانت ادارة الحكومة منظمة في عهد هذه الدولة وفيها بريد لضبط المراسلات وسرعتها ...

واعجب اعمال هذه الدولة انهم قد اكتشفوا في آثار زيبارا ، انقاض مدرسة لتعليم الاطفال ، وهذه اول مرة سمعنا بمدرسة مثل هذه في التمدن القديم اي منذ اربعة الاف ومئتي سنة .

امـــا دروس الاطفال فكانت محفورة على « قرميدات » وهي دروس في الحساب والهجاء وجداول الضرب ونحوها .!

واكتشفوا كثـــيراً من الكتب والرسائل المنقوشة على الاحجـــار والقرميد واكثرها لحورابي ، وفيها الصكوك والعقود والمسائل الرياضية والارصاد الفلكية والنصوص التاريخية والادعية الدينية وغير ذلك من الامور .

ومن اعظم ادلة الرقي في ذلك العهد ان المرأة كانت متمتعة بحريتها واستقلالها مثل نساء هذا العصر المتمدنات .!

وكن يتعاطين المهن القلمية ، وانخرط جماعة منهن في خدمة الدواوين والمصالح الاميرية كما يقول العلامة « كلاي »

اذن فقد كانت العرب اسبق امم الارض الى سن الشرائع وتنشيط العلم وقد بلغوا في نظم الاجتماع ما لم يبلغه اهل تلك الاجيال ، وادركوا من الرقي الاجتماعي ما لا يزال بعض الامم المتمدنة في هذا الجيل بعيدا عنه .

تلك هي الشريعـــة التي حملها بنو معين من بابل الى اليمن ، ونشروهـــا في الامة ، وورثتها بعدهم دولتا سبأ وحمير ، الا بعض النظم التي لا تعيش في الجو اليمني .

غير ان الملك الحميري لم يكن خاضعاً الا لما يريد من هذا النظام ، فهو دائماً فوق الشرائع وفوق النظام ، بل لم يكن يريد ان يخضع شعبه الا لما يراه متفقاً مع ميله وهواه .

* * *

١٤

لقد عرفت بلقيس تلك الكلمة التي يريد ابوها ان يقولها لها بعد ذلك الاجتماع ...

انه رأى الغرام في عيني ذي تبع وعلى وجهه ، كما رآه ذو مغار ، فاحب ان يسألها رأيها فيه .

وكانت تؤثر ان تبوح له بغرامها الفجائي ، على السكوت الذي لا يثمر والذي لا تطيقه عاطفتها الوثابة .

اجل : ليس في ذلك عار ، وبلقيس لا تخجل من ان تعترف لابيها باسرار قلبها الخفاق .

وكيف لا تبوح له بكل شيء ، وهو صاحب سرها ، ومرجعها الاعلى في طموحها وطمعها وعاطفتها بغضاً كانت هذه العاطفة ام حباً .

فلما اقبل على حجرة الهدهاد التي تنتظره فيها ، اغلق بابها بهدؤ وهو يبتسم ، ثم قال : لقد ارسلت الينا السماء نصيراً جديداً كما ترين .

قالت : اتعني صاحب همدان يا مولاي ؟

ــ نعم فقد قرأت الشرف على وجهه والشريف لا يضع يده بيد ذي القرنين الى الابد .

ــ واذا كان هذا الشرف مظهرا من مظاهر الدهاء الذي تختفي وراءه نفس خبيثة غدارة ؟

ــ ان ذا مغار يعرف الفتى وقد وصفه لنا ونحن واثقون بما قال .

ــ ولكني رأيتك منذ ساعة غير واثق .

ــ ذلك اسلوب لي في قراءتي الاسرار .

ــ اذن ماذا تريد الآن يا مولاي ؟

ــ اريد ان اسمع رأيك فيه من ناحيتين ، ناحية اخلاصه الملك ، الذي نشك فيه ، وناحية اخرى ذكرها ذو مغار وهي اعظمهما خطرا .

قالت : تلك ناحية غرامه على ما اظن .
ـ نعم وقد بدت لي مظاهر هذا الغرام كما بدت، لذي مغار ولكني لم اشأ ان اذكرها قبل ان اسمع رأيك في الامر .
فاجابته وهي لا تتردد: غرام صحيح لا ريب فيه يا مولاي.
ـ اذن قرأنا جميعنا سطوره على جبين الهمداني !
قالت : قرأت وقرأ ذو مغار هذه السطور يا مولاي ، اما انا فقد رأيت غير ما رأيتما .
ـ ماذا ؟
ـ رأيت ان نار الغرام تضطرم في فؤاده وسيذيبه الهوى كما اذاب سواه من الفتيان ...
قال : وهذه ايضاً مثالة في الكهانة تعلمتها من ذي مغار .
ـ تعلمت ان اقول ما اعلم وانا واثقة بقولي ... ان صاحب همدان سيترك اخلاصه وينسى ملكه ، ويفدي بلقيس بدمه ، اذا قضت الحاجة بذلك .
ـ وما الذي يدعوك الى هذا الوثوق يا بلقيس ؟
ـ يدعوني هذا القلب الذي يخفق الآن على الحب .!
ـ انت ؟
ـ نعم انا يا مولاي وليس هنالك ما يدعوني الى الكتمان .. فدهش قائلا : اما انا فلا استطيع أن اصدق ان الحب يملأ قلب بلقيس في ساعة ..
ـ وبلقيس مثلك يا مولاي لم يخطر لها من قبل ان فؤادها يعرف الحب ..
قال : يخيل الي انك رأيت ذا تبع قبل اليوم .
ـ رأيته في الفكر والذهن يا مولاي ، وكانت صورته ماثلة امام عيني ، منذ حكت لي نعمى حكاية وجوده في البلاط .
ـ اذن احببته قبل ان تريه ؟
ـ اجل : كان القلب يخفق على ما ذكره يا مولاي ، ولكني عندما رأيته احسست ان قلبي لم يكن لي بل كان ملكا له .
فارخى نظره الى الارض يفكر فيما سمع ؟

فقالت : اتستغرب هذه الصراحة يا ابي ؟
ــ لا بل اعجب لهذا الهوى الغازي الذي لا تذكر معه قوى الفاتحين !
وعاد الى الاطراق .
فقالت : اذكر كل ما يجول في صدرك يا مولاي .
ــ وماذا اذكر ؟ لقد كان موقفنا ثابتا فتزعزع الآن .
ــ وكيف ذلك ؟
ــ الم تفكري في الاقدام على التضحية اذا لم يخلق لنا الزمان انصاراً .
ــ اي ان ازف الى ولي العهد ؟
ــ نعم .
ــ بلى فكرت في ذلك ولا يمنعني هذا التفكير من ان احب .
فجعل يحدق اليها وهو يقول : اني لا افهم ما تقولين يا بلقيس .
ــ وانا لم افهم ما تقول يا مولاي .
قال : كيف تستطيعين ان تصيري زوجة لولي العهد وانت تحبين سواه .
فاشرق جبينها قائلة : ان بلقيس تستطيع ان تفعل كل شيء !
ــ ومع ذلك فابو بلقيس يريد ان يعرف شيئاً .
قالت : لقد تغير الموقف الذي ذكرت بانضمام صاحب همدان الى المؤامرة .
ــ ومن يضمن انضمامه ؟
ــ انا .
ــ ثم ماذا ؟
ــ وسنستطيع بقوة هذا المتآمر الجديد ، ان نضع ايدينا بيد امير اخر من الامراء الذين يجاورون همدان ..
قال : هذا استسلام الى الاحلام .
ــ لي ان افترض ما اشاء وليس عليك ان تصدق كلمة واحدة .
اسمع يا مولاي ، ساوغر صدر امير همدان على الملك وسيتم لي ذلك في زيارته الثانية ...

ـــ ولكن امير همدان وحده لا يكفي كما تعلمين .

ـــ اجل : غير انه سيوغر بدوره صدر امير اخر كما قلت .

ـــ وهذا الامير الآخر لا يفعل شيئــاً .. ان المؤامرة تحتاج الى عشرة من الامراء يقود كل واحد منهم الفي رجل الى الميدان .

قالت : كلما انضم الينا امير سألناه ان يضم معه صديقاً .

ـــ واذا ضاع هذا الامل الذي تفكرين فيه ؟

ـــ اعود الى الرأي الاول وازف الى عمرو !

ـــ والحب ؟؟

ـــ اما الحب فقد يطيب لي ان انساه عاماً او بعض العام !

ـــ انه اذاً حب غرض لا حب عاطفة.

ـــ بل هو دوى لا ينزعه من الصدر غير الموت ، لقد احببت ذا تبع يـــا مولاى حباً لم يخفق لمثالــه قلب عذراء ... ولك ان تقول ان الفتى امل بلقيس ونعيمها ، وحياتها ونور نفسها .. بل لك ان تقول ان عظمتها وكبرياءها وعزتها تبذل عند قدمي ذلك الهمداني في سبيل نظرة واحدة منه ... ولكني تهيأت لهذا الحب من قبل ، وجعلت العرش فوق العاطفة ، وانا اعلم انالقلب سيتمزق ،وان النار ستحرق الاحشاء .

قال : خير لك يا بلقيس ان تعودي عن هذا الغرام الذي يقتل صاحبه .

ـــ بل خير لي ان امضي فيه الى النهـــاية وسترى يا مولاى اني ساستوي في العرشين عرش الغرام وعرش الملك .

قال : لا تنسي انك ستصبحين ملكة اذا تزوجت ولي العهد .

ـــ وماذا تعني بهذا ؟

ـــ اعني انه لا يجوز للملكة ان تفكر في غير زوجها الملك ... اتحلمين بانك ستتزوجين عمراً وتستطيعين ان تطلقيه بعد حين ؟

ـــ لم يخطر الطلاق لي يا مولاي .

ـــ وكيف توافقين بين الاثنين ، العرش والحب ؟

فابتسمت قائلة : اجرؤ على القول اني لا استطيع الجواب الآن . .

ـــ ومتى تفعلين .؟

ـــ لا اعلم يا ابي فقد يبقى هذا السر في الصدر لا اذكره لاحد حتى يعرفه ، عندما تأتي ساعته ، جميع الناس .

ـــ انه سر هائل على ما ارى .

ـــ قد يكون هائلا كما قلت ولكنه لا يعني احدا وليس لاحد شأن به .

ثم قالت : الا تأذن لي في كتمانه ؟

ـــ لك ان تكتميني جميع الاسرار اذا لم تكن خيبة الامل في هذا الكتمان ...

ـــ والآن مـــا هو رأيك في الرجل ؟ اليس في نسبه ما يجعله اهلا لان يكون زوجا لي ؟

قال : لو ذكرنا هذا النسب لرأيناه يتصل باجدادنا الملوك من حمير ، ولكني اريد ان اعرف موقفه الاخير .

وجعل يتمتم كلمات لم تسمع منها كلمة فقالت :

وتريد ان تعلم كيف ينتهي امر بلقيس مع الامير الهمداني وولي العهد ؟

ـــنعم ولا اتردد في التسليم بامر الزواج الا من هذه الناحية .

ـــستكون راضيا يا مولاى وستعلم كل شيء . .

ـــوهذاالحب من يضمنه في صدر الفتى ؟

ـــاثق بوجوده كما اثق بحبي وسيعترف به .

فنهض قائلا : لم يبق الا ان نكتب عقد الزواج يا بقليس .

فتنهدت وهي تقول : قد يكتب هذا العقد لعمرو ولا يكتب له . .

ـ ولكنك تقولين انك ستستوين في العرشين .

ـ اجل ولا ابالي اكتب العقد لهذا ام للآخر .!

فخرج وهو يردد ذلك القول ولكنه كان واثقاً بابنته ومستسلماً الى رأيها كما يستسلم الجندي الى قائده الظافر .

***

١٥

جميع الامراء الذين يملكون المخاليف والجيش قدموا مأرب في ذلك الحين بدعوة من الملك ليحادثهم بشأن الحرب التي يخشى ان يوقد نارها الفرس او الحبشان ...

الا شرحبيل وذا مغار ومن يتبعهما ، فالملك لم يدعهم اليه، ولم يرد احدهما ان يدخل البلاط بدون دعوة منه .

وللملك في دعوته الناس ، وسكوته عن شرحبيل ومن معه ، غاية ظاهرة يريد ان يجعلها احدى الوسائل التي يبلغ بها غايته من ابن يعفر ، وابنته بلقيس . كان يريد ان يعد ذلك السكوت ذنباً على شرحبيل ومظهرا من مظاهر الجفاء او العداوة ، ثم يمن عليه بالتجاوز عن ذلك الذنب ، ليحيطه بنطاق من الحلم والفضل ، كلما علمت .

فلما حادث جميع الامراء وعرف ما اراد ان يعرفه من احوال الجيش خطر له ان يدعو ابن عمه ، ليسأله رأيه في ذلك الجفاء .

وانتهى امره الى شرحبيل في مساء ذلك اليوم .

فقال لذي مغار وبلقيس في المجلس : اي رأي لك في هذه الدعوة ؟

فاجابته بلقيس قائلة : ليس لك ان تخشى شيئا مهما يكن امرها .

وقال ذو مغار : انها دعوة لحيلة جديدة تستطيع ان تعالجها بما شئت .

فقال ؟ لا اجد سببا لها الا الحرب وسيسألني عما اذا كنت اتردد في حمل السيف والدفاع عن اليمن .

ـ اتذهب الليلة ام في الصباح ؟

ـ في الصباح وقبل ان تطلع الشمس ، هكذا نقل الي الغلام الذي حمل امره .

ـ وهل فكرت في الدفاع اذا اشتعلت النار ؟

ـ لم افكر في شيء من هذا بعد .. ان الدفاع يعلي شأن الملوك ويرفع منزلته في عيون الناس وهذا ما لا اريده . والسكوت عن امر اليمن في محنتها خيانة

وضعف وهذا لا يليق بشرحبيل بن عمرو .

فقالت بلقيس : اليمن لنا فلا نطيق ان يضع الغريب قدمه فيهـا ويرفع في فضائها اعلام ملكه . أنا اذا اردنا ان نحطم عرش ذي القرنين فلكي نبني لنـا عرشا حميرياً جديداً تقوم دعائمـه على الاخلاص لليمن ، والوفاء للشعب اليمني الضعيف الذي سلبه الملك ماله وداس شرفه بقدميه . واما ان نمهد السبل لعرش اجنبي فهذا ما لا نفعله وسلالة يعفر لا تخون امتها وفي عروقها دماء الملوك .

ثم قالت : يجب ان يعلم العلي اسكندي ويعلم سابور ، ان اليمن دولة لا تمتد اليها الايدي ، وان الفلاح اليمني الذي لا يعرف غير محرائه يغار على عرش ملوكه كما يغار الملك ويبذل في سبيله ما يبذله الملك نفسه من دم ومال .

وباتوا يتحدثون حتى انتصف الليل ، فانصرف كل واحد منهم الى حجرته وشرحبيل يفكر في دعوة الملك ، وغرام بلقيس .

ولما طلع الصبح غدا على البلاط ، وكان ذو القرنين على شرفة مقصورته التي تعود الجلوس فيها في الصباح والمساء .

فلما وقف شرحبيل بين يديه ، تكلف الابتسام وامره بالجلوس دون ان يمـد اليه يده ليقبلها كما هي عادته مع ابناء البيت المالك .

ثم قال وقد اختفت ابتسامته :

شرحبيل !!. تعلم ان سابور الفارسي يغزو العرب في ديارها وقد تطأ حوافر خيله بلاد اليمن ولا تسأل ملكك عن ذلك ؟

فابتسم الرجل بدوره لتلك اللهجة الغريبة واجابه قائلا :

ــ ليس لي ان اوجه الى مولاي الملك رأياً لا يسألني اياه .

قال : الملك لا يطلب رأيـاً بل يريد ان تغضب لعرش اليمن الذي تهـدده الفرس والحبشة وتظهر هذا الغضب لصاحب العرش .. قل اعلمت كل ما ذكرنا الآن ام ماذا ؟

ــ بل علمت ان مولانا الملك لم يترك اميراً من امراء بـلاده الا دعاه اليه وامره باعداد عدته والتهيؤ للدفاع ! غير انه نسي شرحبيل بن عمرو فلم يوجه اليه

امراً كأنه لا يثق باخلاصه والوفاء له .

ــ اذن تنتظر الملك ان يأمرك باظهار اخلاصك ووفائك ؟

ــ بل انتظر ان يذكرني كما يذكر سواي .

ــ وان لم يفعل ؟

ــ لزمت قصري واقمت على الولاء الصامت الذي يرافقه الالم والكآبة .

ــ ولكن للملك تفسيراً آخر يا شرحبيل .

ــ ما هو يا مولاي ؟

ــ تريد ان تثبت لمولاك انك اعظم منه .

ــ هذه كلمة لا اطيق ان اسمعها من ملك ليس في اليمن والجزيرة كلها رجل اعظم منه .

ــ ومع ذلك فنحن نقولها مكرهين .. ألم تكن اعظم منا يوم سألناك ان تقيم بالبلاط او تجعل بلقيس حظية لنا ؟ انك حسبت الحلم الذي احطناك به من مظاهر الضعف فتماديت في الاستخفاف وقام في ذهنك اننا لا نستطيع ان نجد لاستخفافك دواء .

ــ اقسم برأس الملك اني لا استحق هذا منك .

ــ تحلف برأس يحاول بعض اليمنيين ان يسلبوه التاج .

ــ مولاي !

ــ نعم ان بعض اليمنيين يتآمرون على الرأس الذي تحلف به الآن .

ــ وانا منهم ؟

فهم بان يفاجئه بقوله : انك سيد المتآمرين .

ولكنه ذكر الفتنة التي يخافها كما يخاف ابليس . ولم يشأ ان يوغر الصدور في زمن تهدد فيه الاعداء عرشه .

وتردد في جوابه ثم قال :

لو كنت منهم لملأنا قصرك جنوداً ورفعنا جثث آن يعثر على اسنة الرماح .. ولكن سمعنا هذا ونحن نبحث عنه حتى نعرف كل شيء .

فتجلد شرحبيل وهو يقول : لا ادري لماذا يعمد الملك الى التهديد كلما مثلت بين يديه .. اني عبد الملك الطائع الذي لا يستحق غير عنايته وعطفه .

ـ اجل والطاعة هذه هي التي تعلمك الجفاء وتملي عليك الانزواء في قصرك عندما تجتمع الامراء في قصر الملك للنظر في شأن الحرب .

فتجلد ايضاً وقال : لقد عرفت يا مولاي اني لا اريد ان ازعج الملك الا اذا امرني بالمجيء اليه

ـ وانت قـــد عرفت ان الملك يرغب في ان يراك كل يوم وانت لا تفعل ه فلم يبق الا ان نظن الظنون ونضع حداً لهذه المظاهر الكاذبة التي نراها كل يوم .

فبذل الامير عندئذ جهده كله ليخفي غضبه وظل ساكتاً .

ثم اصفر وجهه وارتجفت شفتاه

فقال الملك : ايسوؤك يا شرحبيل ان تسمع هذا ؟

فاجابه قائلا : يسؤني ان يجفو الملك لامير مخلص له .

قال : الخلاص تذكره الشفتان ولا يعرفه القلب .

فخرجت الكلمات من فمه شديدة متقطعة وهو يقول :

لا تنس اني ابن عمك يا مولاي .

ـ ومعنى قولك ؟

ـ معناه ان ابن عم الملك لا يسكت على الاهانة . قلت اني عبد الملك الطائع وهذا يكفي وعلى الملك ان يصدق ما قلت .

قال : تظهر هذه الطاعة يا شرحبيل عندما تخاف .

ـ ماذا اخاف يا مولاي ؟

ـ غضب الملك الذي يعقبه الموت .

فنظر اليه بعينين تتقد فيهما النار وقال له : دلني على هذا الموت ايهـــا الملك لاقتحمه وعيناك تنظران .

ـ سأدلك عليه بعد ساعة .

ـ بل الآن يا مولاي .

فتناول سيفه الذي كان الى جانبه وقال : انظر الى الموت انه يلمع في هـــذه الشفرة ...

فابتسم قائلا : ولكنك لا تضرب وانا اعزل .

ـــ واذا اعطيناك سيفاً ؟

ـــ اعطني اياه وافعل ما تشاء .

فقال : يا غلام . اعط شرحبيل سيفاً من سيوف الملك وتهيأ لحمل جثتـــه الى الهدهاد وبلقيس .. والآن فاوض يا ابن العم .

قال : اوصي بان تنقل جثتي الى قصري كما ذكرت ... وبماذا توصي انت ايها الملك .

ـــ انا ؟

ـــ نعم فستموت قبل ان يموت ابن عمك .

قال : سنرى اذا كنت تجسر على الدفاع .

ـــ بل سيرى اهل البلاط ملك حمير مضرجاً بدمه .

ـــ اذن فانت اطول باعاً في الحرب من الملك .

ـــ اجل وكان عليك ان تستبقي سيفي لعدوك .

قال : خبرني كيف نموت نحن الاثنان؟

ـــ نموت انت من يدي ، واموت انا من ايدي الرجال الذين يملأون بلاطك.

قال : هات يا غلام .

فاقبل الحاجب يحمل سيفاً وهو مضطرب .

فامره ذو القرنين بان يطرحه بين يدي شرحبيل ويقف بالباب .

ثم قال : قم يا شرحبيل فهذا سيفك ...

فجرد الامير ذلك السيف وجعل يهزه وهو يقول : ستنـــدم ايهـــا الملك اذا اتسع لك مجال الندم ، وسيندم ولي عهدك

قال حدثنا بهذا قبل ان تسيل الدماء .

قال : اما انت فسيستولي عليك الندم عندما تحس بضربات شرحبيل واما ولي

عهدك فلا يشعر بمثل هذا الا عندما يستوي على العرش ويرى اتباع شرحبيل بن عمرو يحملون في وجهه السيف .

ثم نهض كما ينهض الليث واستطرد قائلا :

كنت لك عبداً ايها الملك فصيرتني عدوا وكنت مخلصاً ادافـع عن عرشك وابذل دمي في سبيل تاجك فلم تشأ الا ان تجزي الخير بالشر والحب بالبغض ، والاخلاص بالرياء ، فاضرب الآن ان التاج لا يثبت على رأس ولدك بعد موت شرحبيل .

ووقف كما يقف الرجل الشجاع المستهين بالموت .

غير ان الملك لم ينهض عن مقعده ، بل كان يبتسم ابتسامة مكر وخبث وهو يتفرس في عينيه المتقدتين .

فقال : اغمد سيفك ايها الملك في صدر ابن عمرو .

فاجابه وهو يضحك قائلا : اتعلم ماذا رأيت الآن ؟

ـــ ماذا ؟

ـــ رأيت شجاعاً لا عقل له ٠٠ أيقوم في ذهنك ايها الابله ان الملك يدعوك الى بلاطه ليضع سيفه على عنقك ؟ افلا يستطيع هذا الملك ان يفعل هذا وانت في قصرك بين غلمانك وجواريك ؟ انك عزيز النفس يـا شرحبيل ولكنك جاهل قصير النظر وقد ضيع جهلك اباءك وعزة نفسك .. اجلس واجعل السيف على ركبتيك ان كنت خائفاً .

فقال في نفسه : بل انت الخائف الجبان ايها الملك .

ثم تكلف الابتسام وهو يقول : انجوت من الموت ؟

ـــ اجل وفي نجاتك منه فضل جديد لمولاك .

ـــ ولكني ارى ، عندما ارجع الى نفسي ، اني لا استحق الموت يا مولاي .

قال : لقد قيل انا انك اجبن امراء اليمن عند الشدة فاردنا ان نلمس بيدنـا هذا الجبن ٠

ـــ والآن ؟

ـ اما الآن فقد ثبت لنا انهم كانوا هم الجبناء فيما نقلوا الينا عنك ٠
ولعله اراد ان يسبر غوره من جانب آخر ، فقال :
بقي امران نسألك عنهما فنختبر من جديد اخلاصك للملك ٠
قال : لم يتردد شرحبيل بن عمرو في اظهار هذا الاخلاص من قبل ، قل يا مولاي ٠٠٠
ـ ايطيب لك ان نعود الى ذكر الحرب ٠
ـ كل شيء يطيب للملك يطيب لي ٠
قال : لقد عرفت اننا ارسلنا ولي العهد الى بلاد اليمامة يتبين احوال سابور الفارسي ٠
ـ نعم ٠
ـ ونحن نخشى ان يتلاقى الجيشان في ذلك القطر فتخسر اليمن جنودها ويسلم ولي العهد الى عدوه ٠
فأيقن شرحبيل عندئذ انها احدى حيله وانه يكذب ٠
لقد كان يعلم ان ولي العهد لا يتصدى لسابور ولا يفكر في قتاله ، فقال وهل اذن الملك لولي عهده في القتال ٠
ـ اذنا له فيه عندما يرى انه لا بد له منه ٠
ـ وفي اي شيء يرغب مولاي الآن ؟
ـ نبعثك الى اليمامة في مهمة جديدة ٠
فاجابه هادئاً وهو واثق بانه لا يفعل ٠
ما هي مهمتي يا مولاي ؟
ـ تسعر نار الحرب ان لم يسعرها الفارسي وتكون عوناً لولي العهد ٠
ـ تسعرها في اليمامة وانت في مأرب لا ترى شيئاً ؟
ـ اجل فنحن نحب ان يتهيب سابور ملك حمير وهو بعيد عنه ٠
ـ ولكن الشرق والغرب يخضعان لدولتين احداهما دولة الفرس ٠
قال : ماذا تريد بقولك هذا ؟

ـ اريد ان اقول ان الفرس اكثر جنوداً وابعد نفوذاً من اليمن .
ـ اذن فانت تخوف الملك يا شرحبيل .
ـ لا يا مولاي بل التمس منه ان يسمع رأيي في ذلك انك تستطيع ان تحارب من حولك من امراء اليمن المتمردين وانت في قصرك لا تنقل الى الميادين قدماً واما ان تفعل مثل هذا مع سابور فهذا خطأ وليس من الحكمة ان تقذف بالجيش اليمني الى اشداق الموت .
قال : لقد نقلوا الي ان الجيش الفارسي الذي يملأ قلوب العرب ذعراً لا يزيد عدده على عدد الجيش الذي يقوده ولي العهد .
ـ ولكن سابور يستطيع ان يمـلأ ارض العرب جيوشاً عندما يشاء . اتراه يغزو الاقليم ويفتحها بالجيش القليل الذي يقوده ثم يعجز عن اليمنيين بالجيش الكثير الذي يدعوه اليه ؟؟ اني وانا العبد الطائع كما قلت اخالفك في ما رأيت ولا اتردد في الذهاب الى عاصمة الفرس نفسها اذا كنت تؤثر ذهابي اليها .
قالها ليزيده وثوقاً بطاعتـه واخلاصه وهو متحير في امره ، مستغرب ذلك الموقف الذي يقفه الملك معه مرة اخرى والذي لا يعني غير الريبـة التي تقوم في صدره .
فقال الملك : ومع ذلك فنحن نأمرك بالذهاب غداً ولا نبـالي ربحنا الحرب ام خسرناها قل اتذهب او نختار سواك ؟
ـ اذهب يا مولاي . .
ـ عند الصباح ؟
ـ بل قبل ان يبزغ الفجر .
فاشرق جبينه قائلا : اذن اصبح سابور في يدي فانت لا ترجع الا ورأسه بين يديك .
قال : سيحمل اليك القوم بدلا من رأسه ، رأس شرحبيل بن عمك .
قال : خير لك ان تبقى فقد استولى عليك الخوف .
ـ بل استولى علي ما يشبه اليأس يا مولاي ، اترسلني الى اليمامة احارب فيها

الفارس الظافر الذي مد فوقها رواق ملكه وتجعلني بعيداً عن بلادي تفصلني عنها السهول والجبال وانا لا اجد حولي غير الاعداء ثم تـأمرني بان احمل اليك رأس ملوك ؟ اتريد يا مولاي ان اكذب فاقول لك اني قـادر على ذلك ثم ينقل اليك الامر اني قتلت وقتل ولي عهدك وزالت هيبة حمير من نفوس العرب ؟ قل لي يا مولاي كم هو عدد الجيش الذي بعثته مع ولي العهد؟

. يجاوز الالفين .

. والجيش الذي تجعلني قائداً له ؟

الفين .

. وتريد ان ترد التيار الفارسي بثلاثة آلاف رجل ؟

ـ اجل وليس هنالك ما يمنعنا من ذلك الا اذا ترددت في الامر .

ـ وهل اعددت الرجال يا مولاي ؟

. اعددنا كل شيء ولم يبق الا ان ترضى بالذهاب .

. لقد رضيت وسأبذل دمي في سبيل العرش .

قال : لقد انتهى الامر الاول الآن وبقي الامر الآخر .

فجعل شرحبيل يهامس نفسه قائلا : اذكر امورك كلها ايها المغرور فاناادهى منك وابعد نظراً ، ثم قال له :

ماذا بقي يا مولاي ؟

. بقي ان تجود اليوم بما بخلت به امس .

فارتجف صوته وهو يقول : من هو الذي يستطيع ان يجود على الملك ؟

ــ انت .. فنحن نحسن الى العرب كلها وانت تحسن الينا •

قال : لا تهزأ بي يامولاي .

ــ ليس في الامر شيء من الهزء كـما تظن ألم نسألك من قبل ان تهب لنـا بلقيس ؟ . . .

ــ نعم فعلت ذلك يا مولاي ثم عدلت .

ــ اما الآن فقد عدنا الى الطلب ونحن نسألك ان تهبها لنا .

فتظاهر بالتفكير ثم قال : اتريدها حظية ؟

ـ نعم .

قال : لا تسألني امراً لا استطيعه .

ـ وكيف لا تستطيع وبلقيس ابنتك وهي ملك لك ؟

ـ ولكني لا املك الاستهانة بشرفي يا مولاي .

ـ مع انك تملك الاستهانة بحياتك وتذهب الى اليمامة لتموت فيها ..

ـ استهين بهذه الحياة لاصون هذا الشرف .

ـ واذا غضب الملك ؟

ـ اذا غضب من هذه الناحية فانا لا ابالي بغضبه ، لقد قلت لك يا مولاي ان الموت اهون لدي من العار وخير لي ان تموت ذرية شرحبيل وتفنى من ان احيا حانياً رأسي للذل الى الابد .

ـ ولا ترجع عن هذا القول يا شرحبيل ؟

ـ لا ارجع عنه ولو حمل جسدي على الاسنة .

فبرقت عيناه قائلا : لقد آثرت الموت في اليمامة على العصيان فوثقنا باخلاصك واثرت الموت على الاستخفاف بالعرض فوثقنا بشرفك فانت في نظر الملك خير الرجال وهو لا يريد ان تترك اليمن كما انه لا يريد ان تجعل ابنتك حظية له ..

فتبين الامير من ذاك الحديث دهاء الملك كله ، واجابه قائلا :

اذن ماذا يريد مولاي الملك ؟

ـ يريد ان يجعل بلقيس ملكة .

فجعل يعيد تلك الكلمة كالمجنون وكأنه لم يفهم مغزاها .

اما الملك فاعادها مرة ثانية وشفتاه تنفرجان .

فقال : بلقيس ملكة ؟ .. اتصبح زوجة لمولاي ؟

ـ بل تصبح زوجة لولي العهد ثم تتربع في العرش بعد ان يموت ذو القرنين واخذ يحدق اليه في عينين تلمعان وهو ينتظر ان يرى مظاهر الفرح ويسمع كلمات الشكر .

غير ان شرحبيل لم يستغرب ، ولم تخرجه تلك البشري عن رصانته وكبر نفسه.
وبدلا من ان يعمد الى الجواب ، حنى رأسه يفكر في امره وقد بـــدت على
وجهه مظاهر التردد في ذلك الامر .
فكاد الملك يخرج عن حده لذلك المظهر الغريب .
انه مظهر استخفاف يجرح عزة الملك . فقال :
يخيل الينا انك لم تسمع ما قلناه يا شرحبيل .
ــ هل سمعت يا مولاي وقام في ذهني اني نائم وان هذه البشرى كانت حلماً.
قال : اتعدنا بان بلقيس ستكون زوجة لعمرو ؟
ــ وهل يوجد في اليمن رجل لا يرضى بان تصبح ابنته ملكة ؟
ــ اذن فانت تعد الملك بهذا .
ــ اما انا فليس لي الا ان اشكر مولاي عــلى هذه النعمة . وامــا بلقيس
فسأسألها قبل ان تسمع جوابي الاخير .
قال : اتراها تؤثر فتى على عمرو ؟
ــ لا اظن يا مولاي ولكن الزواج امر لا استطيع الا ان اشاورها فيه .
ــ واي عربي يشاور ابنته ؟
ــ لو لم يكن هنالك نذر لما فعلت .
قال : لقد عدنا الى حكاية هذا النذر وكنا قد نسيناه .
ــ وماذا اصنع يا مولاي والآلهة لا ترضى الا بالوفــاء وليس فينا من يجسر
على اغضاب الآلهة .
ــ ومتى نسمع جوابك ؟
ــ عندما ارى بلقيس واسألها رأيها في قضية النذر .
قال : ان الملك يريد ان يزوج ولده في هذا العام ولا يطيق الصبر .
ــ ولكن لا حيلة لي في الامر يا مولاي كما ترى .
قال : ان لكاهن اليمن رأياً في هذا وسندعوه الساعة .
فخاف الامير ان يغلبه الكاهن على امره ويكرهه على القبول والوعد وهو لا

يريد ان يعد قبل ان يخاطب بلقيس ، فقال :

اي شأن للكاهن بما ذكرت يا مولاي ؟

ــ انه وحده يستطيع ان يجد لبلقيس حلا للوفاء بما نذرت دون ان يكون في ذلك عار .

ــ اتفعل هذا يا مولاي قبل ان نسألها ؟

ــ اجل فالكلمة الاخيرة له وليست لها .

ولم يشأ ان يسمع جواباً بل امر غلامه بان يـدعو الكاهن الاكبر الى القصر قائلا له :

اذكر له حاجة الملك اليه في هذه اللحظة .

فعرف شرحبيل ان الداهية يريد الا يبقي له عذراً .

فاطرق وهو يعد عدة الاعتذار من جانب آخر .

ولولا ذو تبـع ، وتحير بلقيس في موقفهـا بينه وبين ولي العهد لما تردد في جوابـه ...

ان بلقيس احبت امـير همدان وقد يمنعها هذا الحب من الرضى بما يريـد الملك ...

وكان قصر الكاهن مجاوراً للبلاط ، وهو في عظمته وكثرة اروقته وابراجه ، يشبه ذلك البناء العظيم الذي يقيم به ذو القرنين .

والكاهن صنيعـة الملك ، يبيع هيا كـله وآلهته ، ويخون ضمـيره وشرفه ، عندما يرى ان في ذلك البيع وهذه الخيانة رضى مولاه .

وذو القرنين يهب له المال ، ويعطيه ما يشاء ، ويحيطـه بنعمه وعطـاياه ، احتفاظاً بقوته المعنوية التي لا تقف عند حد .

لقد كان الكهان في ذلك الزمان انصاف آلهة وكثيرا ما كانوا يقلبون العروش ، ويرفعون اليها انصارهم من الرجال واشباه الرجال .

ويكفي ان يبتسم الكاهن لقومه فتبتسم لهم الحيـاة ، ويغضب فتسقط السماء على اهل الارض

والويل لمن يتصدى للكاهن في امره . ان ارادة الكهان ارادة الاله الخالق القادر على كل شيء .

***

اقبل « وتار ذمر » كاهن اليمن الاعظم على الرواق الذي يجلس في آخـــره الملك وشرحبيل .

فمشى ذو القرنين للقائه ، وصافحه كالملك يصافح ملكا مثـــله ، وانحنى ابن بطر سليل الملوك ، امام ذلك الرجل الهائل القابض بيده ، بعد ذي القرنين على صولجان القوة والنفوذ في دولة الحميريين .

ووتار ذمر ، طويل القامة جميل الوجه ، يغمر الجلال قامته ووجهـــه وترسل عيناه الهيبة الى من حوله .

وهو في الاربعين من عمره يحسبه الناظر اليه في الثلاثين .

فلما جلس الملك في مقعده ، اومأ اليه بأن يجلس عن يمينه وخاطبه قائلا : لو لم نكن بحاجة اليك لما سألناك ان تجيء . أتعلم لماذا دعوناك الآن ؟

وكانت لهجته لهجة احترام فيها تملق . فقال :

ان الملك لا يدعوني الا للمشورة عندما يريد ان يسمع آراء المخلصـــين له ، اذكر يا مولاي ما دعوتني لاجله .

ونظر الى الامير نظرة قصيرة ايقن شرحبيل بعدها ان الاثنين متفقـــان وان هنالك حديثا جرى بينهما قبل ذلك اليوم .

فقال الملك : في هـــذا القصر فتاة في عامهـــا الثامن عشر هي آية من آيات الجمال .

فقطب حاجبيه وتظاهر بالاصغاء .. ثم قال :

ابنة من هي يا مولاي ؟

ـ ابنة حظية من حظايانا يريد احد امرائنا ان يتخذها زوجة لولده .

ـ اي انها ابنة الملك ؟

ـ اجل ولكن الملك لا يستطيع ان يرضى بهذا الزواج الا اذا شاورك . .
ـ انه عطف لمولاي اذكره ولا انساه .
ـ ليس في الامر منة وفضل بل هنالك نذر ، ان طالب الزواج عزيز على الملك ولا يريد ان يرده . غير اننا نذرنا منذ عامين ان لا نزوج هذه الفتاة الا في عامها الثاني والعشرين .
ـ انت ايها الملك ؟
ـ اجل .
ـ وهل تذكر لي سبب نذرك هذا ؟
ـ خطر لنا ان نفعل وعاهدنا الآلهة على الوفاء به .
والآن فانت تريد ان تصبح في حل مما نذرت ؟
ـ نعم ولاجل هذا دعوناك.
فوضع يده على جبينه كأنه يستوحي آلهته ثم قال :
تستطيع هذه الفتاة ان تتزوج عندما يشاء الملك .
ـ وكيف ترضى الآلهة ؟
ـ يذبح صاحب النذر عشر مرات ويدخل الهيكل مستغفراً عشرين مرة فيغفر له ذنبه .
قال : اشهد يا شرحبيل .
قال : لا يحتاج الملك والكاهن الاعظم الى شهود .
قالها وهو لا يظهر شيئاً من الريب الذي قام في نفسه .
ونهض وتار ذمر في تلك اللحظة يريد الانصراف وهو يتظاهر بان مهمته قد انتهت ولم يبق له ما يصنعه في بلاط الملك .
فقال ذو القرنين : اتذهب الآن ؟
ـ نعم وارجو ان يأذن لي الملك في الذهاب فقد تركت ببابي وفود الاقاليم من جميع انحاء اليمن .
فنهض ونهض شرحبيل يشيعانه الى الرواق ثم رجعا الى مقعديهما والملك يقول :

لم يبق لبلقيس عذر كما رأيت فهي تستطيع ان تذبح الذبائح وتزور الهيكل عشرين مرة كما قال وتار ذمار .

ـ ومن قال لك يا مولاي انها لا ترضى ، لقد قلت لك اني سأستشيرها في الامر واعيد قولي الآن .

قال : انه تردد لا معنى له ، ان الملك يريد ان يتم هذا الزواج في هذا العام وايس لبلقيس ان تجعله بعد اربعة اعوام وقد قلنا لك هذا منذ ساعــة افلا تعد الآن ...

فاملت الحكمة على شرحبيل ان يعده ثم ينظر بالاشتراك مع ابنته في امر آخر يمحوان معه ذلك الوعد ، فقال :

لقد ذكرت لمولاي اني راض بكل ما يرضى به وسأحمل بلقيس على القبول .

ـ وتنقل الي جوابها بعد يومين .

ـ نعم يا مولاي .

فاراد ذو القرنين ان يمن عليه قبل ان يصرفه فقال :

أرأيت كيف آثرك الملك على سواك فجعل عرشه مقعداً لحفدتك الى الابد ؟

قال : لقد اردت يامولاي ان يطوق فضلك وفضل آبائك اعناق آل شرحبيل فنحن عبيد عرشك ما بقينا .

قال : كانت للملك عاطفة فخنقها في صدره لتتم لك الغاية التي اردت .

وقهقه ضاحكاً ليكون في منّه شيء من الاستهزاء .

فقال : ما هي غاية شرحبيل يا مولاي ؟

قال : انسيت انك عتبت الملك يوم سألك ان تهب له بلقيس ؟

ـ ولكن كانت غايتي ان اصون شرف آبائي .

ـ بل كانت غايتك ان تجعل ابنتك ولية للعهد وقد ذكرت ذلك لحبّى فباحت به لاختها التي تقيم بالهلاط .

فتظاهر بالجزع قائلا : ما كنت احسب ان حبى تفضح الاسرار .

قال : انها اقرب اليك منا واحب شيء اليها ان تصف للنــاس جمال بلقيس

وتذكر لهم اخلاقها التي هي اخلاق الملكات

ـ ولكنها باحت بما لا ابوح به لاحد من الناس .. نعم يا مولاي لقد قلت لبلقيس ان الملك يريـــد ان يجعلك من حظاياه وكنت اوثر ان يجعلك زوجـــة لولده ·· ولكني لم اقل ان هذا الزواج غاية سأسعى اليها لدى الملك انها ليست غاية يا مولاي بل امنية تمنيتها بالنظر الى القرابة ولما اعرفه من عطف الملك علي وعنايته بي .

ـــ اما نحن فقد وهبنا لك مـــا تمنيت ولم يبق الا ان ترضى بلقيس فنجعـــل موعداً للزواج .

فتمادى الامير في تجاهله قائلا :

الا يجوز ان يختار ولي العهد فتاة غير الفتاة التي يختارها الملك له ؟

ـــ بلى ولكن الفتاة التي يختارها لن تكون ولية للعهد .

ـــ اي ان الملك لا يهب ولاية العهد لغير بلقيس ؟

ـــ اصبت فبلقيس احب الفتيات الى الملك واجدرهن بالعرش ··

ـــ اتريد ان انقل اليك الجواب قبل ان يعود ولي العهد من اليمامة ؟

ـــ بل نريد ان تنقله الينا بعد يومين فلا تعد الى السؤال عن هذا .

قال : خير للاثنين ان يرى احدهما الآخر قبل ان نعد .

قال : اضمن رضى عمرو ، وتضمن انت رضى بلقيس وينتهي الامر .

وبينا هو يهم بالنهوض ، اقبل رئيس حراس القصر وهو يقول : لقد قبض الجند في مأرب على فتى حبشي يقول انه قدم ليشتري البخور من نحلة والصمغ من همدان .

قال : احسن الجند فقد امرنا رؤساءه بان يقبضوا على كل حبشي مهما يكن امره وغايته ·· اين هو الآن ؟

ـ بباب القصر يا مولاي ؟

ـ ادخله فسننتزع اسراره من صدره ثم ندفعه اليك لترسله حيث تشاء .

قال : ومعه فتى يمني من براقش هو صديق له .

فاهتز الملك لذكر براقش ، ان امــيرها الغوث بن راهــط لا يحبه ولا يبالي به ...

واطرق لحظة ثم قال : اين كان هذا اليمني ؟

ـ له منزل في مأرب اعده لنزول الفتى الآخر فقبضوا فيه على الاثنين .

قال : اتستهين بنا براقش الى حد ان يضع فتيانها ايديهم بايدي الحبشان ولا يبالون؟ انه اذاً مظهر عداء جديد تبدأ به، وشراء البخور والصمغ حيلة لا نصدقها وسننزع عنها الحجاب بعد قليل . ادخله مــع رفيقه وامكث في الرواق فيتولى الملك بنفسه امر البحث معهما .

ثم قال لشرحبيل : اما انت فابق لترى وتسمع .

قال : اتظن يا مولاي ان هذا الحبشي جاسوس ملكه ؟

ـ اثق بهذا كما اثق بان اليمني الآخر شريك له في مهمته وسترى في هذه الساعة اني لم اكن مخطئاً فيما ظننت .

ودخل الفتيان وراء رئيس الحراس وهما في زهرة العمر وعلى وجهيهما دلائل الجرأة وعدم الاكتراث .

* * *

بدأ الملك حديثه مع اليمني قائلا :

ما اسمك ايها الفتى ؟

فاجابه وهو ينظر الى رفيقه : اسمي جرول .

ـ ممن انت ؟

ـ من بني سعد .

ـ سعد براقش ؟

ـ نعم .

ـ واسم بلدك ؟

ـ ربوة .

ــ وماذا تصنع في مأرب ؟
ــ اتسألني ايها الملك عما اصنع في بلاد قومي ؟
ــ ان الملك يسألك عما يشاء فلا تتردد في الجواب .
ــ لي في مأرب منزل تركه لي ابي وانا اقيم به الشهرين والثلاثة في كل عام .
قال : وتبيع فيه البخور والصمغ ؟
ــ ليس عندي منهما ما ابيعه .
ــ وماذا تفعل اذاً ، اتبيع اليمن؟
فنظر اليه بوقاحة وهو يقول : لم اسمع قط ان يمنياً باع وطنه !
ــ اما الملك فقد سمع هذا الآن ألست صديقاً لهذا الرجل ؟
ــ بلى ..
ــ متى عرفته ؟
ــ منذ بضعة اعوام عندما كان ابي يزور اباه في الحبشة .
ــ الا تعلم ان الحبشان يطمعون في اليمن ويعدون العدة للاستيلاء على عرش حمير ؟.
ــ لم اعلم شيئاً من هذا يا مولا ي ومع ذلك فهذا الفتى لا يقدم مأرب الا لبيبع فيها ما يحمله وينقل الى بلاده منها ما يطيب له .
ــ اجل ينقل الى بلاده ما يطيب له من اخبار قومك . خبرنا الآن مـــا هي مهمة هذا الحبشي ؟
ــ لقد خبرتك الآن ما اعرفه عن مهمته .
فتناول سوطه قائلا : سيعلم هذا السوط ما تريد ان تكتمنا اياه .
فمشى رئيس الحراس بضع خطوات يريد ان يتولى الضرب بالسوط عندمـــا يأمر الملك .
فأومأ اليه بان يقف بالباب قائلا :
سترى ان الملك يحسن الضرب .. اعترف يا جرول بمهمة رفيقك .

ـ اعترف بما ظهرمنها يا مولاي .. انها مهمة تاجر لا يعبأ الا بالبيع والشراء كما قلت .
فهم بان يداعبه بسوطه ، فاستوقفه شرحبيل وهو يقول :
الا تأذن لي في القول يا مولاي ؟
قال : احذر ان تشفع فيه .
ـ لا ولكني التمس من الملك ان يسأل هذا الحبشي قبل ان يضرب .
قال : اصبت فخير لنا ان نصبر ساعة من ان نتعجل في الجزاء .
ثم قال للفتى : انظر الى هذا السوط انه ان لم يحل عقدة لسانك حلها هذا ..
واشار الى سيفه .
فقال : سل عما تشاء ايها الملك .
قال : من انت ؟
ـ فتى من الحبشة كما رأيت اصيد السباع في بلادي وابيع جلودها في بلادك .
ـ ثم ماذا ؟
ـ ثم اعود حاملا بخور اليمن الفاخر وصمغها المشهور .
ـ اتعرف ملك قومك ؟
ـ اجل وانا ابيع البخور كله لرجال قصره .
ـ اذن يعلم هذا الملك متى تترك الحبشة ومتى تعود اليها .
ـ قد لا يعلم شيئا مما تذكر يا مولاي .
ـ ولكن قيل لنا انك من رجاله وانك تحمل مع جلود السباع رسالة الفتنة والدعوة الى مذهب جديد نشره رجل من فلسطين يقال له المسيح .
قال : لقد ذكروا لي هذا المذهب ايها الملك ولكني لست من رسله وانا اوثر دين آبائي وادعو الناس اليه اذا استطعت .
ـ ان الرجل الذي نقل الينا خبرك ليس كاذبا ..
ـ بل هو اكذب الناس ، ألم يجد ملك الحبشة في بلاده رجلا يعهد اليه في امر الدعوة التي ذكرت غير صياد السباع ؟

قال : رآك تحسن صيد القلوب فاختارك لغرضه .

وامر رئيس حرسه بان يدنو منه ثم قال له :

ماذا رأى الجند مع هذا الرجل عندما قبضوا عليه ؟

ـــ رأوا قطعا من النقود فتركوها له وهي في كمه .

فخطر للملك عندئذ خاطر فجائي ، فقال :

في اي بلد بعت جلود سباعك ؟

فادرك الحبشي مغزى سؤاله فاجابه قائلا :

ـــ بعت بعضها في ريام والبعض الآخر في بينون .

فاضطرب شرحبيل لهذين الاسمين . ان صديقه ياسراً امير ريام والغوث بن راهط صاحب بينون وكلا الاثنين عدو للملك كما عرفت ، وذلك الفتى يقذف بنفسه الى الهوة وهو لا يعلم .

وقال الملك في نفسه : يكفي ان تذكر بينون وريام لتكون مجرما ..

ثم اومأ الى رئيس الحرس يقول : اعطنا نقوده .

فاخرجها من كمه وهو ساكت وجعل الملك يقلبهـــا بين يديه والغيظ يلمع في عينيه ..

ومرت لحظة ساد فيها السكوت حتى قال ذو القرنين :

اذكر الرجال الذين بعتهم جلودك .

ـــ لقد تم البيع في السوق وانا لا اعرف الاسماء .

قال : اليس في كمك غير هذه ؟

ـــ لا يا مولاي .

ـــ انها نقود قليلة ليست ثمنا للجلود .

فتردد في الجواب ...

ـــ أأنفقت الثمن في مأرب ام اشتريت به صمغاً ؟

فلم يجب ..

ـــ الا تعلم ان نقود اليمن عليها صورة الملك الحميري ؟

فارخى نظرة الى الارض كأنه لم يسمع .

فاستشاط الملك غيظا ومد يده الى سوطه قائلا :

لم نجد في جيبك نقوداً حميرية وهذا معناه انك لم تبع في اليمن شيئاً .

فتمتم الفاظا لم يفهمها القوم ثم قال :

دفنت بعض نقودي في موضع في مأرب واشتريت بالباقي اشياء لي .

ــ اين هذه الاشياء ؟

ــ في منزل صديق لي بعيد عن مأرب .

ــ اذن لك في اليمن اصدقاء كثار ايها الحبشي ؟

ــ نعم كما ان لليمنيين اصدقاء في الحبشة فنحن جميعنا من التجار وابناء البلدين يتزاورون في كل عام .

ولم يكن هنالك برهان يستند اليه الملك في حديثه غير سوء ظنه .

ولكنه كان واثقاً بان الحبشان بدأوا يزرعون الفتنة في بلاده .

فعمد الى الشدة للحصول على ذلك البرهان : فقال :

اجعلوا القيد في رجليه كما يجعل في رجلي الدابة .

ففعلوا ، فتناول سوطه واقبل يضربه على ظهره ثم على صدره ثم انتقل الى وجهه حتى تفجرت الدماء من جراح مستطيلة غمرت النصف الاعلى من جسده وهو يتململ ويتألم دون ان يشكو او يستغيث .

وكانت عاطفة القسوة قد جاشت في صــدر الملك فنسي نفسه ومشى وراء وحشيته لا يبالي بذلك الدم يسفح عند قدميه الى ان تــلاشت قوى ذلك الفتى المسكين واغمي عليه .

ولولا نفس ضعيف يتردد في صدره لظن القوم انه لفظ الروح .

غير ان الملك لم يلن ، بل تحول الى الفتى الآخر الذي هو من رعيته وفاجأه بالضرب المبرح وهو يقول :

اعترف بما تعلم ايها اللعين والا فالسوط لا يهدأ حتى تموت .

فخان الجلد ذلك اليمني وانطرح على قدميه قائلا :

كف عن الضرب يا مولاي فسأعترف بكل شيء .

فبرقت عيناه ورمى بالسوط المخضب بالدم الى رئيس الحرس وجلس في مقعده ويداه ترتجفان من التعب والقسوة الحيوانية تلمع في عينيه الصغيرتين .

ولم يلبث حتى قال : ابدأ باعترافك ايها الخائن واذكر اسم رفيقك الذي قتله الكتمان .

فقال : اسمه اميناس .

ــ أليس هو من رجال العلي اسكندي ملك الحبشة ؟

ــ بلى يا مولاي .

ــ وما هي مهمته ؟

ــ جاء بامر ملكه يعد العدة للمذهب الجديد الذي ذكرته ، ويتبين مـا في اليمن من اصدقاء واعداء لمولاه .

فتنفس الصعداء وقال لشرحبيل : لقد صدق الظن كما رأيت ويخيل الينا ان جواسيس العلي اسكندي تملأ مأرب .

ثم قال لجرول وهو يتكلف الابتسام : متى عرفت اميناس ؟

ــ لم اكذب عندما قلت للملك اني اعرفه من بضعة اعوام .

ــ ولكن كيف رأيته وهو في مأرب وانت في قومك ؟

ــ زار براقش قبل ان يجيء الى مأرب ثم رافقته اليها .

قال : خبرنا من لقي من الامراء .

ــ لم ير الامراء يا مولاي لانه لا يعرف احداً منهم .

قال : يكفي ان تنظر الى هذا السوط لتعترف بما تعلم دون ان تكذب .

ــ اقسم لمولاي الملك اني لم انس كلمة .

ــ سمعنا ان اميناس نزل في قصر الغوث بن راهط صاحب براقش وحدثه بالشأن الذي قدم لاجله .

ــ قال لقد كذب الرجل الذي قص على الملك هذه الحكاية .

قال : هات السوط يا شرحبيل .

فقال الفتى : ايطيب لمولاي ان اتهم الغوث وهو بريء ؟ ان هذا الحبشي لم يره ولم يحدثه بأمره .

— اذن هو لم يحدث من اهل اليمن احدا ؟

— لا يا مولاي لانه لم يشأ ان يبدأ مهمته الا في مأرب .

— واذن كنت انت وحدك اليمني الخائن ؟

— لم يكن في الامر خيانة ايها الملك ، لقد وصف لي مذهبه الجديد كما يصفه لبني قومه فترددت في الجواب وعولت على استشارة الغوث بن راهط في هذا الشأن .

— اجل ونسيت ان لليمن ملكا يجب ان تقص عليه ما علمت .

— لو سألني ان اخون مليكي لدخلت هذا القصر واستأذنت في المثول بين يديك ، ولكنه لم يفعل ولم يعبأ لا بمظاهر البغض او الولاء لملك الحبشة يتبينها من وراء الستار كما قلت وليس في ذلك خيانة لاحد يا مولاي .

فتميز ذو القرنين غيظاً ومد يده ليتناول السوط ثم عدل عما همّ به وخاطب رئيس حرسه قائلا :

مر الغلمان يحملوا اليك هذين الخائنين الى ساحة القصر وائتني برأسيهما بعد ساعة ...

فهامسه شرحبيل قائلا : لا تخرج الحبشة عن حدها يا مولاي فخير لك ان تعمد الى الحلم وتطرد اميناس من مأرب عندما يصحو .

قال : اقسمنا اننا لا نرى في اليمن حبشيا الا قتلناه .. اذهب ايها الرجل ولا تردد .

قال : ولا تسيء الى الغوث بن راهط بقتل احد رجاله قبل ان تخبره بامره وتذكر له ذنبه .

قال : أيتآمر ابن براقش على الملك والغوث لا يعلم ؟ اننا لا نصدق هذا والويل للغوث اذا صدرت منه كلمة سوء .

واومأ الى حارسه بالانصراف كأنه لا يطيق ان يراجع في الامر .

فخرج الحارس وما هي الا لحظة حتى اقبل الغلمـــان فحملوا الجهشي وهم لا يحسون انه حي وجعلوا القيد في يدي جرول ودفعوه بالحراب .

فنهض شرحبيل يستأذن في الخروج .

فمد اليه يده ليقبلها وهو يقول : أرأيت يا ابن العم كيف تنتهي حياة الخائن؟ اجلس لترى رأسيهما يشخبان دما ..

فقال : موت الخائن خير من حياته .

ــ ولماذا اردت ان تنقذ الاثنين ؟

ــ لاني لا اريد ان تشتعل نار الحرب في الخارج والداخل .

قال : اما الغوث بن راهط فهو اضعف من ان يشعل النار واما الجهشة فان لم تشعلها اليوم اشعلتها غدا ونحن بالانتظـــار . . اخرج الآن ولا تنس ان تعود بعد يومين .

فخرج وهو يقول في نفسه : انلم تمت من يد حبشي مت من يد يمني .

وجعل يتلفت في الاروقة التي مر بها عله يبصر ذا تبـــع فلم يره ، وليس من الحكمة ان يسأل العبيد عنـــه .

لقد احب ان يدعوه الى زيارته عند المساء لتقرأ بلقيس اسرار نفسه قبل ان تعد الملك بما اراد فلم يخدمـــه الحظ .

فعول على ارسال حبى في اليوم الثاني الى البلاط لعلها تراه . وهي تعلم كيف تحمله على الذهـــاب .

على ان ذا تبع ابصر شرحبيل ، ابصره عندمـــا اقبل الى البلاط ، ولكنه لم يشأ ان يحادثه خوفا من ان يثير ظنون الملك .

وآثر الذهاب الى قصره ، على اثارة هذه الظنون ...

١٦

عاد اميناس الى رشده عندما حلوه ، ولكنه كان متألماً ذاهلا عن كل مـــا حوله ، ولم يذكر موقفه مع الملك الا ساعة وضعوه في ساحة القصر وقام احد الجنود الى جانبه يعبث بسيفه .

اجل : لقد صحا المسكين في تلك الساعـة ، وجعل ينظر الى جلاده بعينيه الغائرتين وقلبه يخفق مضطرباً وهو لا يعلم ماذا يقول :

ثم رأى جرول بالقرب منه وكان يبكي ، فقال بصوت ضعيف لا يسمعه سواه ...

احكم علي ذو القرنين بالموت ؟

فاجابه هامساً : حكم علينا نحن الاثنين .

فحول وجهه عنه وهو يقول : ان الذي يخون ملكه يخون صديقه . مت فلا عهد ابك .

قال : وثقت بحلم الملك فبحت له بامرك فكان جزائي الموت .

فلم يجبه ولم يلتفت اليه . بل اخذ يجيل نظره بالقوم الذين غصت بهم الساحة كأن بينه وبين احدهم عهداً .

فعل ذلك بلحظة دون ان يشعر جلاده ، وكأن عينيه عينا نسر حتى ابصرتا الى قصير القامة يلبس لباس اهل مأرب قائماً وراء الجنود الذين يمنعون الناس من الدنو الى ساحة الاعدام .

فلمع البشر في تينك العينين وغمرت ثغره ابتسامة عذبة هي ابتسامة الطمأنينة والراحة بعد الالم ..

ثم خاطب جلاده قائلا :

اضرب بأمر ملكك ايها الجلاد فسيأتي يوم يسقط فيه السيف على عنقه .

وكان الفتى القصير القامة يصغي الى ما يقول وقد حاول الدنو منه .

فمنعه الجند واتجهت اليه الانظار .

فتراجع قليلا وكان اميناس يقول : اضرب يا ذا القرنين ان عرشك لا يلبث حتى يتحطم تحت سيوف الحبشان وسيرفعك قومك على اسنة رماحهم لينقذوا اليمن من ظلمك .. اضرب فقد عرفت الامراء الذين يبغضونك وستطأ الحبشة بلادك بعد .

ووقفت الكلمات في صدره لان رئيس الحرس امر الجلاد بان يسكته فبرى

السيف عنقه وقبل ان يجف دمه رفعه ذلك الجندي ليبري به عنق جرول وهكذا انتهت في لحظة قصيرة حياة الرجلين .

وخرجت صيحة ذعر من فم الفتى الذي عرفت .

فاحاط به الجند بأمر رئيسهم ورفع ذلك الرئيس صوته قائلا :

احملوه الى مولانا الملك ليرى رأيه فيه .

ثم امرهم على الاثر بتركه ودنا منه قائلا له :

وجهك وجه يمني فمن انت؟

فظهر التردد والخوف في عينيه ثم قال : عفوك يا مولاي فانا من اليمن كما قلت ...

ـ ولكن اريد ان اعلم من انت واي امر قذف بك الى مأرب ؟..

ـ انا . من . براقش ..

فقال : يظهر ان براقش ارسلت فتيانها الى مأرب لتجعلهم فيها جواسيس الحبشة ... اراك خائفا وارى الدموع تجول في عينيك .

قال : لقد هالني هذا السيف الذي يبري الرقاب يا مولاي .

ـ أتعرف جرول ؟

ـ اعرفه فهو جار لي ولم اعلم في اي شيء استحق الموت .

فهز رأسه قائلا : لو لم تكن لك صلة بالاثنين لما بكيت .. ستعلم ما تجهله بعد قليل ...

واشار على الجنود بان يدفنوا الجثتين ثم مشى راجعا الى قصر مولاه يتبعه جنديان معهما ذلك الفتى المنكود الحظ ...

• • •

قصّ رئيس الحرس على ذي القرنين حكاية الفتى ودفعه اليه .

فجعل يتفرس فيه فخيل اليه ان وجهه يشبه وجه جرول ، فقال :

النار الى دماء اميناس انها لم تغسل بعد ‥ ألست اخا لجرول الذي ضربت عنقه الساعة ؟

فاخذ ينظر الى السوط المصبوغ بدم الحبشي وقد عقّد الخوف لسانه ...

وكان الملك يعيد سؤاله وقد ظهرت القسوة في لهجته .

ولكن الفتى لم يتكلم ، بل كان وجهه يصفر وركبتاه ترتجفان ، حتى خاف رئيس الحرس ان يموت من الخوف .

فرأى ذو القرنين ان الدهاء خير من الجفاء ، لعله يعترف له بما لم يبح بـه جرول واميناس ، فقال هادئا :

قل ما تعلم فنحن نعدك بالعفو اذا اعترفت .

فرفع نظره قائلا : الا تهزأ بي يا مولاي ؟

ـ ان الملك لا يهزأ ...

ـ ولكن قيل لي انك تعد ولا تعفو .

ـ بل نفعل فاجب عما سألناك أليس جرول اخاً لك ؟

فارتجفت شفتاه قليلا ثم انطلق لسانه وقال : بلى يا مولاي .

ـ وكنت شريكا له في خيانته ؟

ـ لم يكن خائنا ايها الملك بل كان ضعيفاً لا رأي له .

ـ وانت ؟

ـ اما انا فخادم اميناس وقد تركت اليمن من عشرة اعوام ؛

ثم قدمتها معه في هذا العام لتخون قومك فخانتك الاقدار .

والآن قل لنا من هو اميناس هذا وما هي منزلته من العلي اسكندي ؟

لقد كان قيم بلاطه يا مولاي ومن اصحاب سره .

ـ وهل تقيم معه في ذلك البلاط ؟

ـ نعم واعرف كل ما يجري فيه .

ـ اذن فانت تستطيع ان تصف لنا ملك الحبشة وتقص علينا بعض ما تعرف من اسراره . ماذا يعلم العلي اسكندي عن اليمن ؟

ـ اما الذي يعلمه فكثير . واما الذي لا يعلمه فقــد بعث ميناس لينقله اليه كما رأيت .

ـ وبعد ذلك يوجه جيشه الى اليمن ليفتحها ويضمها الى بلاده .

ـ اجل هذه هي غايته يا مولاي .

فرأى الملك ان يجعل لهذا الفتى مهمة خطيرة في مأرب يخدم بهـا العرش ثم ينظر في شأنه عندما تتم ، فقال :

ـ يكفي ما ذكرته الآن فقد عرفنا كل شيء .

واومأ الى الفتى بان يتبعه الى احدى قاعاته قائلا لحاجبه ولرئيس حراسه : انصرفا فالملك لا يحتاج الآن الى احد .

ودخل القاعة واخو جرول وراءه واغلق الباب .

* * *

وبعد ساعة خرج الاثنان فـاذا الفتى يبتسم ابتسامة الظفر ولو استطاعت العيون ان تخترق الاثواب ، لرأى الناس في كمه قبضة من ذهب الملك الوهـاج الذي يجود به على عدوه وصديقه ، في سبيل نيل غرضه .

ولم يمكث الفتى في البلاط ، بعد ذلك ، غير لحظـة ، بل انصرف حرآ يجر خيلائه كأنه احد الامراء المقربين ، ولم يجسر الغلمان الذين ابصروه ان يوجهوا اليه كلمة او يسألوا الملك عنه .

غير انه عندما بلغ آخر الرواق وهم بالخروج من باب القصر ، التقاه ذو تبع وجهاً لوجه ، فانكره ، وجعل يتفرس فيه ، وهو لا يعلم اية علاقة لهـذا القصير القامة ببلاط الملك .

وكاد يستوقفه ويسأله عن اسمه ، لكن الفتى لم يعبأ بوقوفه ومظاهر استغرابه بل تعجل في خروجه كأنه اعظم من ان ينظر الى ما حوله .

وبعد ان اصبح ذو تبع في الرواق رأى الغلمان يروحون ويجيئون فقال لاحدهم ، اتعرف هذا الرجل الذي خرج من القصر الآن ؟

ـ اعرف ان رئيس الحرس قبض عليه عندما ضربت عنق الحبشي اما اسمه واسمه فلا اعرفهما ولا اعلم من اي بلد هو .

فقال غلام آخر : سمعت رئيس الحرس يقول لحاشد نديم الملك : انه من براقش وان له صلة بالرجلين اللذين قتلا .

ـ وكيف يخرج حراً من قصر ذي القرنين ؟

ـ تخيل الينا ان حياته ستنتهي كما انتهت حياة رفيقيه .. ولكن الملك دعاه الى قاعته الخاصة ولم يلبث حتى خرج ضاحكاً كما رأيت :

فمضى امير همدان قاصداً حجرته وهو يقول في نفسه :

ان له لشأناً وان للملك غاية في اطلاقه .

وطبعت تلك اللحظة القصيرة صورة الفتى في ذهن الهمداني كأنه يعرفه منذ اعوام ومضت ساعتان طويلتان وتلك الصورة امام عينيه .

• • •

١٧

قبل ان تغرب شمس ذلك اليوم ، اقبل على قصر شرحبيل بن عمرو ، رجل في مقتبل عمره ، قصير القامة عريض الصدر ، له شعر اسود طويل جعله ضفائر وارخاها الى الجانبين .

ولو رآه امير همدان في تلك الساعة ، لعرف انه صاحبه فتى براقش .

وكان سافراً غير متنكر وغير خائف ، وهو الذي قبض عليه لتهمة تستحق الموت ثم اطلقوه .

وكان خبره قد ملأ مأرب ، ونقل الناس ، بعضهم الى البعض الآخر ، ان هنالك فتى يمنياً آخر ارسلته براقش ليخون مليكه ، وستضرب عنقه .

وروي لشرحبيل ان الجنود قادوا ذلك الفتى الى البلاط ليرى الملك رأيه فيه ...

وماذا يرى الملك غير القتل ؟ اتراه يبتسم لليمني الخائن ويحسن اليه وهو الذي يمهد للحبشة سبل الاعتلاء على العرش ؟

لقد سمع شرحبيل باذنه ، ورأى بعينه ، كل ما جرى بين ذي القرنين وبين جرول واميناس ، قبل ان يفصل رأساهما ، فقام في ذهنه ، عندما خبروه حكاية الفتى الثالث ، انه قتل على الاثر بضربة سيف .

ولم يخطر له ان الملك استعان بدهائه وعفا عنه ليبلغ احدى غاياته .

فلما قيل له ان رجلا من براقش يستأذن عليك اقبل على قاعة الجلوس وهو يظن انه رسول الغوث بن راهط، واذن له.

وكان الفتى رابط الجأش فصيح اللسان ، مع كل ضعيف ، وجبانا ذليلا مع كل قوي ، وليس في مظهره ما يدل على ضعفه .

فدخل . . ثم انحنى مسلماً وهو ينظر كالخائف الى جانبيه ثم قال :

ارجو من مولاي الامير ان يغلق بابــه فالامر الذي قدمت من اجله يرافقه الموت . .

فنهض دون ان يجيب ، وتقدمه في دهليز طويل حتى وصل الى قاعة قائمـة بين حجرات بلقيس ففتح بابها وادخله اليها وهو يدعو ابنته .

وكانت بلقيس تحدث حبى بامر الهمداني وتسألها ان تصف لها من جديد حياته في قصر ذي القرنين .

فلما سمعت صوت ابيها خرجت من غرفتهـا فاذا هو امامها يومىء اليهـا بالصمت ويقول هامساً : ادخلي الى هذه القاعـة ففيها رسول اوفده الغوث بن راهط .

ــ امير براقش ؟

ــ اجل وقد شاء ان نكتم حديثه جميع من في القصر .

فدخلت وهي تقول : لعل الغوث اراد ان يخرج عن حيـاده فبعث باحـد اصحاب سره يستشيرك في هذا الامر .

ولكنها عندما اصبحت في الداخل ورأت تلك القامة القصيرة ، والضفائر

الرسالة الى الكاهنين ، تجهم وجهها وايقنت ان الرجل نذير سوء .
وجعلت تحدق اليه كما يحدق النمر الى فريسته ، فاصفر وجه الرجل وما لبث ان اخفى اصفراره وراء ابتسامة كاذبة شوهاء .
ثم قالت بلقيس وقد افتر ثغرها : ماذا يريـــد الغوث بن راهط من شرحبيل بن عمرو ؟
فالتفت الى الامير قائلا : لا اعلم من اخاطب يا مولاي .
قال : هي بلقيس بنت شرحبيل فقل ما تشاء ولا تخف .
قال : ليس للغوث بن راهط شأن بما سأقول .
قالت : ومن ارسلك الينا ؟
ـ رجل هو اعظم من الغوث واشرف نسبا واعز مقاما من جميع الامراء ..
ـ الا هو الملك .
ـ نعم ولكن ملك الحبشة لا ملك حمير .
فالتفتت الى ابيها قائلة : سأتولى امر البحث مع الرجل ان شئت .
قال : افعلي .
فخفضت صوتها وهي تقول : اتعني العلي اسكندي لا سواه ؟
ـ اجل هو الذي اعنيه ، وقد ارسلني الى مأرب لأحادث الامـــير شرحبيل ببعض الشؤون .
ـ ولكن ابي يقول انك من براقش .
ـ صدق يا مولاتي فانا منها ولكني غادرتها الى الحبشة وانا صغير السن واقمت ببلاط ملكها اخدم فيه رجلا من عظماء دولته .
فدب الريب في صدر بلقيس ونظرت الى والدها نظرة خفية ثم قالت :
ألم يجد العلي اسكندي في بلاطه رجلا غيرك يبعثه الينا وبلاطه يغص بالنبلاء والقواد والزعماء ؟
قال : بعث معي رجلا آخر هو ذلك النبيل الذي جعلني خادماً له .
ـ واين هو الآن ؟

ـ اختاره ذو القرنين لمهمة لن يعود منها .
قالت : ويلك اقتله ؟
ـ نعم ولو قتله لهـان الامر ولكنه قتل اخي معه وهم بقتلي لو لم اعمد الى الحيلة ...
ـ ومتى فعل ذلك ؟
ـ في هذا اليوم وقد ضربهما جلاده في ساحة القصر ؟
فقال شرحبيل : ما اسم اخيك ايها الرجل؟
ـ جرول .
واسم رفيقه اميناس أليس كذلك ؟
ـ نعم يا مولاي .
ـ اذن انت هو الفتى الذي قبضوا عليه عنـد حدوث القتل وذهبوا به الى الملك ...
ـ نعم يا مولاى .
فايقن كما ايقنت بلقيس ان في الامر حيلة ، فقال له :
لا تقص علينا اسباب القتل فقد شهدت مجلس الملك مع القتيلين وانا اعرف هذه الاسباب ولكن خبرني كيف نجوت من الملك قبل ان تذكر مهمتك .
ـ اقص حكايتي ثم افعل . ان ملك الحبشة يطمع في اليمن وهو يريـد ان يضمها الى ملكه بقوة السيف ، وقد اعد عدته وتهيأت الرجال للحرب .
ـ اعرف هذا .
ـ ولكنه لم يشأ ان يوجه الجيش قبل ان يضع يده بيد امير يمني له في اليمن الاتباع والانصار وتطيعه الرجال كما يطيعون ذا القرنين ، وهو يعلم يا مولاي ان امراء اليمن واصحاب المخاليف فريقان هذا ينتمي الى الملك وهذا يضمر لـه البغض فاستشار اصحاب سره ثم عهد الى احدهم اميناس في ان يفضي برغبته الى الامير اليمني الذي اختاره ويحمل اليه جوابه .
ثم جاء اميناس لاجل هذه الغاية فخانه الحظ وانتهت مهمته بان ضربت عنقه

فصمرله ، وهو مولاك ، وخسرت اخاك .
فقالت بلقيس : ثم رأيت انت خدمـــة للعلي اسكندي ان تطلع شرحبيل بن عمرو على تلك الرسالة التي ذهب ضحيتها مولاك الحبشي .
ـ نعم يا مولاتي هذه هي غايتي وسأقوم بهذا الواجب حسبما يملي علي الوفاء ،
واشهد على مسمع الامير كلام ملك الحبشة لأميناس كلمة كلمة .
قالت : اما الآن فيجب ان نعلم كيف نجوت .
قال : خبرت الملك كل شيء دون ان اكـــذب ، ثم سألته والدموع في عيني ان يستبقيـــني لخدمته ، ويرسلني الى الحبشة احمـــل اليه من حين الى حين اسرار ملكها الطامع بالعرش الحميري ، فرضي ، واثبت رضاه بقبضة من الذهب هي هذا .
وارسل يده الى كمه فسمع للذهب رنين عذب .
ـ ولكنك اخطأت في مجيئك الساعة وكان عليك ان تصبر ريثما يسدل الليل حجابه ويستسلم اهل البلاط وحراس الملك وجواسيسه الى الكرى
ـ ان الملك لا يشك فيّ يا مولاتي بعد الآن .
فقالت في نفسها : اما نحن فسنشك فيك ايها اللعين .
ثم ابتسمت ابتسامة خلابة وهي تقول : متى تعود الى الحبشة ؟
ـ اترك مدينة مأرب عند الصباح .
ـ ومن يضمن لنا انك صادق في قولك ؟
قال : رأس اخي الذي سقط في الساحة .
قالت : اصبت فحزنك عليه خير برهان .. ولكن الا تذكر لنـــا ما الذي دعاك الى خيانة قومك ؟
ـ ان قومي كما تعلمين لا يحبون ذا القرنين وانا قد نشأت في اليمن بعيداً عن الملك لا اعرف لي وطنا غير القصر الملوكي الذي ربيت فيه .
ـ وكيف عرف العلي اسكندي ان شرحبيل يبغض الملك ؟
ـ ان العلي اسكندي ورجاله يعرفون كل شيء .

فاستوت في مجلسها قائلة : أعد الآن ما قاله مولاك لأميناس .

ـ لقد اعدّ العلي اسكندي اربعين الفاً من رجاله يغزو بهم هذا القطر ويحطم عرش ذي القرنين ، ولكنه يريد قبل ان يفعل ، ان يسمع جواب الامير ويتبين استعداده للاتفاق معه .

قالت : اذكر شروط الاتفاق .

ـ يريد ان يكون له في اليمن انصار يحملون السيف ويكونون عونا لجيشه .

ـ وعددهم ؟

ـ عشرة آلاف .

فقالت لابيها : كم هو جيشك يا مولاي ؟

ـ عشرون الفا .

قالت : نعطي مولاك عشرين الفا من الرجال .. وبعد ذلك ؟

ـ تحطمون العرش تحت الاقدام ويتربع فيه مولاي شرحبيل ثم يجعله لابنائه من بعده فيعيد مجد جده يعفر .

وسكت قليلا ثم قال : والعلي اسكندي في مقتبل عمره يا مولاتي وهو يحب الجمال وقد وصف له جمال بلقيس الفتان وحسنها الذي ليس له مثيل في اليمن .

ـ وما معنى هذا ؟

ـ معناه انك ستكونين ملكة الحبشة ويكول لهذا البيت عرشان عرش ملوك حمير وعرش ملوك اكسوم .

ـ اسمعت العلي اسكندي يقول هذا ؟

ـ لا يا مولاتي بل خبرني اياه اميناس وطلب الي ان انقله اليك اذا هو لم ينج من ذي القرنين .

فخطر لها ان تسبر غـوره الى النهاية فهامسته قائـلة : اتقسم انك صادق فيما قلت ؟

ـ اقسم بجميع الآلهة .

ـ وتقسم انك ستغادر هذا البلد عند الصباح ؟

ـ نعم ...

ـ اذن اعدك باسم شرحبيل بن عمرو اننا سنكون من اخلص الناس للعلي اسكندي وسنعد له داخل جدران القصور عشرين الفاً يحملون السيوف .

ـ وانت ؟

ـ اما انا فسأكون عبدة له لا زوجة . .

فبرقت عيناه وجعل يقول: هنيئاً لشرحبيل بن عمرو فقد عصب رأسه بتاجين يطمع فيهما الفرس والروم .

ـ ولكن ابي كثير الظنون ايها الفتى .

ـ وما هي ظنونه ؟

ـ يخيل الي انه يفكر الآن في امرين اثنين ، احدهما انك خنت اليمن لتخدم العلي اسكندي ، ثم خطر لك اليوم ان تخون الحبشة لتخدم ذا القرنين الا تفكر في هذا يا مولاي ؟

فقال شرحبيل : هذا ما خطر لي .

فاصفر وجه الفتى وتمتم قائلا : لو استطعت ان اضع خنجري في صدر ذي القرنين لفعلت الساعة ... انه قاتل اخي فلا اخدمه وسأطلب بدم جرول ولا ارجع حتى اجعله صريعاً بين يدي وانقذ اليمن من جوره وظلمه .

قالت : مهلا فسيتولى العلي اسكندي امر قتله عنك .

ـ اجل ولكنه لا يموت الا من يدي وسأقضي حياتي جاثياً عند عرشك يا ابنة جهيل بن بعفر .

وحاول ان يرخي العنان لفصاحته ويستهوي قلب بلقيس .

فاسكتته قائلة : اذا كان هذا فانا اقترح عليك اقتراحاً .

ـ ما هو يا مولاتي ؟

ـ هو ان تبقى الليلة في هذا القصر .

ـ وماذا اصنع فيه ؟

ـ تنام كما ينام جميع الناس ثم تنهض قبل ان يبزغ الفجر فتسير بين رجلين من رجال شرحبيل في الطريق الذي يسيران فيه حتى تجاوزوا حدود اليمن .

ـ وما هو القصد من هذا ؟

ـ القصد منه ان لا يكون ابي آخر رجل تخونه .

ـ اني لا افهم يا مولاتي ما تقولين .

ـ بل تفهم كما يفهم الفتيان اصحاب الحيلة والدهاء .. ومع ذلك فانا اذكر لك مخاوفي ومخاوف ابي والشك الذي تغلل في الصدرين .. اننا نخشى ان تنصرف الساعة من هـذا القصر لتدخل بلاط الملك وتقص عليه مـا جرى بينك وبين شرحبيل بن عمرو .

قال : ثقي يا مولاتي بان الموت اهون علي من رؤيته .

ـ اذن تقضي هذا الليل عندنا ثم ترحل غداً كما قلت .

ـ ولكني اريد ان ارحل في هذا الليل نفسه .

ـ وانا اريد ان يسير معك الرجلان اللذان ذكرت .

فثبت للفتى ان بلقيس ادهى منه ومن الملك ، فقال : ارجو من مولاتي ان تأذن لي في الانصراف وان تنسى مجيئي الى هذا القصر باسم العلي اسكندي .

فضحكت ضحكة القوي يهزأ بالضعيف ونهضت ففتحت باب القاعة ونادت وصيفتها حبى قائلة لها :

قولي لذي مغار ان يحضر الآن مع ولده غالب وابن عمه ياسر والهدهاد .

ثم رجعت وهي تقول : في القصر ضيوف نريد ان نستشيرهم في امرك وامر مولاك الحبشي .

قال : لا تبوحي بسري يا مولاتي فذو القرنين لا يعفو .

قالت : وهل تظن اننا نسمع من فمك حكاية الخيانة ونسكت ..؟ ان ابن يعفر لا يبيع وطنه ولم تكن العداوة بينه وبين ذي القرنين الا لاجل هذا الوطن . لقد كذبت ظنون الملك عندما ارسلك الى هـذا القصر تنصب لصاحبه شركاً ، وكان عليه ان يعلم ان اليمن لنا مثلما هي له واننا نفدي العرش الحميري بالدم والمال

وان كنا خصوماً للجالس عليه .

فحاول ان يدافع دأمرته بالسكوت وحولت وجهها الى الباب قائلة لاخيها والسيافها الذين اقبلوا : ارجو ان تسمعوا ما ارويه لكم عن هــذا الجبان النذل الذي اراد ان يضرم النار بيننا وبين الملك .

فقال ذو مغار : من هو هذا ؟

ـــ الم يقص عليك ابي خبر جرول الذي قتل اليوم ؟ . انه اخوه وقد اختاره ذو القرنين ليحدثنا بامر تسليم اليمن الى ملك الحبشة ونعاهده على الخيانة .

قال : لعله الفتى الذي قبض عليه وحمل الى الملك ؟

ـــ اجل ، وقد رأيت ان نقبض عليه من جديد ونرسله الى الملك نفسه .

فاطرق مليا ثم قال : مسكين هذا الملك فقد حسب اننا اذا ابغضناه ابغضنا اليمن ...

ثم دنا منه وهو يقول : اتكون من براقش وتفعل هذا ؟ ويلك الا تخــاف الغوث بن راهط الذي لا يطيق ان يذكر له ذو القرنين ؟

فاستولى على الفتى الرعب وجعل يقول : لا تظلموني فانا بريء وانا خــادم امهناس وقد ارسلنا العلي اسكندي لهذه الغاية .

ـــ اذن ليس من العدل ان يموت اميناس وتبقى .

وعمدوا الى السلاسل فقيدوه وهو يصيح ويستغيث وهم لا يبالون .

ثم هامست بلقيس اباها فخرج ودعا عبدين من عبيد القصر فحمــلا وراءه ذلك المسكين وانصرفوا جميعاً الى البلاط

وكان الليل قد ارخى سدوله عندما امسى شرجبيل واسيره في مجلس الملك.

* * *

كان صاحب همدان جالسا بالقرب من الملك وحاشد ينادم مليكه ويسقيه ، كأن السوط الملوث بدم القتيلين لم يكن سوطه ..

وعندما وقعت عين الملك على شرحبيل وابصر غلمان البلاط يدفعون اسيره ثبت له ان شرحبيل لم يقع في الشرك الذي نصبه له .

ولم يتردد في الابتسام كأنه ذاهل عن كل ما جرى .

وعرف امير همدان صاحبه القصير القامة فتحير في امره وجعل ينظر الى الملك وهو ساكت .

اما شرحبيل فانحنى وهم بالكلام ، فسبقه الداهية قائلا له :

أهذا اسيرك ام اسير الجند ؟

— اسيري يا مولاي .

فقطب حاجبيه وقال : اليس هو الرجل الذي عفونا عنه صباح اليوم ؟

— جئت اسألك عن ذلك يا مولاي .

وكان الاثنان يتحفظان في مظهريهما كأنهما يتسابقان في ميدان الدهاء .

فقال الملك : لقد اعترف هذا الرجل بانه رسول الحبشة مع مولاه اميناس الذي امرنا بقتله ، وكانت غايته وغاية مولاه نشر مذهب جديد ونفخ روح الثورة في صدور القوم .

— وماذا فعل الملك بعد اعترافه ؟

— عفونا عنه ليعود الى الحبشة ويقرأ اسرار ملكها ثم ينقل الينا هذه الاسرار ...

ونظر الى الاسير نظرة هائلة يدعوه بها الى الصمت .

فرأى شرحبيل نظرته وكأنه لم يرها ثم قال : لقد تعجل الملك في عفوه فالفتى لا يضمر الاخلاص والوفاء للعرش .

فرفع صوته قائلا : اواثق انت بهذا ؟

— نعم يا مولاي لقد سألني ان ابيع اليمن للعلي اسكندي واخون مليكي .

فاوحى الدهاء الى الملك بان يقف عند هذا الحد لئلا يفضحه الاخذ والرد ، فنادى حاشداً وخاطبه بصوت لا يسمعه القوم فلم يلبث حتى خرج من القاعة ثم رجع بعد قليل يتقدمه رئيس الحرس .

وأوما ذو القرنين الى الاسير وهو يقول : هذا هو .
وظن الفتى انها احدى حيل الملك ، فراح يجر سلاسله وهو مطمئن القلب .
ولكنه لم يجاوز الباب الخارجي حتى ضربت عنقه دون ان يقول كلمة .
وكان منكود الحظ ، وتلك هي نهـاية كل خائن ، وكان الملك داهيـة في الفن ...
ثم عاد مع رئيس الحرس يقول : لقد تم الامر كما اراد مولاي .
قال : امرناك بان تحمل الينا رأسه فاين هو ؟
ـ بين يدى الحراس ..
ـ مرهم بان يدفعوه الى ابن عمنا ليرفعه على رأس احدى الحراب في فناء القصر ...
فقـال الامير ليس لي حاجـة اليه يا مولاي فحسبي اني اثبت للملك اني لا اخونه ...
قال : انه برهان لا ننساه ولا نستطيع الا ان نجزيك على وفائك ... فاعطه يا ماشد سيفاً من سيوف جدنا حمير .
والتفت الى الهمداني قائلا : أرأيت اغرب من هذا يا ذا تبع ؟ نعفو عن الخائن ونطلقه فيعمد الى مكافأة هذا العفو بالسعي لتحطيم العرش ؟ انها حال لا ترضاها الملوك وسنبحث عن الخونة في جميع انحاء اليمن فنضرب اعناقهم على مرأى ومسمع من الامراء فتعلم الجميع ان الملك لا يغمض عينيه الى الابد .
فأجـابه ذو تبع : رأيت هــذا الفتى اليوم خارجاً من الرواق وهو يبتسم للأمير ...
بل كان يبتسم لفكرة الخيانة التي تأصلت في صدره وكان يظن انه عبث بالملك وهزأ به .. ماذا تريد غير ذلك يا شرحبيل ؟
ـ لا اريد غير رضاك يا مولاي .
ـ اما نحن فراضون وانت قد رضيت الان أليس كذلك ؟
ـ اجل ارضى ان يموت جميع الذين يخونون للعرش .

ونهض يستأذن في الخروج فصرفه باشارة منه وعندما امسى في الرواق قال للذي تبع :
اذا رأيت ان تتبعه وتعرف ما يحدث به اهل بيته فقد خدمت الملك .
فأجابه دون ان يتردد : اما ان اتبعه يا مولاي فليس هنالك ما يمنعني من ذلك ، واما ان اعرف ما يحادث به قومه فذلك ما لا استطيعه .
ـ لماذا ؟
ـ لاني لست من اهله ليحدثني بما يطيب له ، ولاني لم اكن قط من اصدقائه ليبوح لي باسراره .
وهم بان يقول : وامير همدان اعظم من ان يكون جاسوساً لاحد ؛
غير ان الملك اسكته بقوله : اما الملك فلا يجد ما يمنعه من ان يبوح لك باسراره ... ان شرحبيل يلبس ثوب المخلصين للعرش ولكنه عدوه .
ـ انه ابن عمك يا مولاي .
ـ اجل ولو لم يكن ابن عمنا لما قام الطمع في صدره .
ـ وفي اي شيء يطمع يا مولاي ؟
ـ يريد ان ينتزع الصولجان من يدنا ليجعله في يده .
فذعر قائلا : لو خبرني اعظم الامراء ما تقصه علي الآن يا مولاي لما صدقته . من نقل الى الملك هذه الحكاية ؟
ـ نقلها الينا بعضهم ورأى الملك في عيني شرحبيل ما لا يستطيع سواه ان يراه .
قال : أيأذن لي مولاي في ان اقول ما اثق به ؟
ـ قل ..
ـ اكان الذين وشوا بشرحبيل من اهل بيته ام من اين ؟
ـ بل هم من رجال البلاط .
قال : يخشى هؤلاء ان يقرب الملك شرحبيل اليه فيضيع نفوذهم في القوم .
ـ اذن كذبوا فيما نقلوه ؟

ـ هذا ما اظنه يا مولاي اذ لا يقدر احد منهم ان يثبت الطمع الذي ذكرت.
ـ ولكنهم يستطيعون ان يثبتوا بغضــه على الاقل كما اثبتــه الملك بنفسه ولمسه بيده .
عرف الفتى انه يريد ان يذكر حادثته مع شرحبيل بشأن بلقيس فقال :
وكيف كان ذلك يا مولاي ؟
قال : اشرحبيل فتاة هي احسن فتيات اليمن واجملهن وجها ..
ـ نعم .
ولقد وصفت هذه الفتاة للملك فارادها لنفسه وطلبها من ابن عمه ، أفتعلم ماذا كان جوابه ؟
ـ اجل فقد تحدث بهذا الجواب رجال البلاط لانه لم يكن سرا مــن اسرار الملك ولم تهامس به شرحبيل يا مولاي بل سألته ذلك على مسمع من رجالك .
ـ الان ماذا يستحق اليمني الذي يبخل بابنته على مولاه ؟
فاستيقظت عاطفة الحب في صدر الهمداني وعول على الدفاع ، ولكنه رأى الموقف صعبا فتردد في دفاعه ولم يشأ ان يتصدى للملك القاسي في عزته وكبريائه.
فارخى نظره الى الارض وآثر الصمت على الكلام .
فاعاد الملك قوله : ماذا يستحق يا ذا تبع ؟
قال : لو فعلها غير شرحبيل يا مولاي لاستحق الموت ، ولكنه من ســلالة يعد وله في اليمن المقام الاول بعد الملك وولي عهده فارى ان تجفوه يا مولاي وتمنع عنه احسانك وهذا يكفيه .
قال : ان في هذا القول دفاعاً عن شرحبيل .
ـ لا يا مولاي ولكنه تذكير للملك ليصون حرمة الاشراف ويعذر ابن عمه فيما صنع عن خطأ وجهل .
ـ لم يكن ما صنعه جهلا بل هو الغرور .. أتراه كان يدافع عن شرفه عندما رفض ان يقيم بالبلاط مع اشراف القوم ؟
قال : لعله يعلم أن هؤلاء الاشراف خدم له .

قال : حسبك فهذا دفاع ونحن لا نريده .

قال ؟ هب انه عدو الملك كما قلت ، افلم يكن موقفه الليلة مع هذا اليمني الخائن موقف وفاء واخلاص لمليكه وقومه ؟

فظهرت على شفتي ذي القرنين تلك الابتسامة الصفراء وجعل يقول :

نعم ، انه موقف اخلاص ووفاء .. ولكنك لو علمت اي داهية هو شرحبيل لتناولت سيفك الساعة ولحقت بـه قبل ان يصل الى قصره وفصلت رأسه عن جسده .. قم فانصرف .. انك فتى لا تعرف من دنياك غير الصيد في الاودية وعلى رؤوس الجبال . ولكن اذكر قبل ان تخرج ان حديثنا هذا سر من اسرارنا لم نبح به لاحد قبل الآن وانك تستحق اذا فشيته غضب مولاك .

ــ اي سر تعني يا مولاي ؟ ان حديثك الاول مع شرحبيل يعرفه البلاط كله. واهل البلاط كلهم وانا منهم يعلمون انك لا تحب ابن عمك ولا تطيق ان تراه . لقد نسيت يا مولاي اني كنت في مجلسك يوم سألت شرحبيل ان يهب لك ابنته كما نسيت ان ذلك المجلس كان غاصاً بالنبلاء وان هذا الذي تسميه سراً كـان حديث القوم وقد رددته افواه النساء والرجال في هذا القصر .

ــ ومع ذلك يجب ان تتناسى ما قلناه الآن ، ولا تقل لاحد اننا حدثناك به .

قال : اذكر يا مولاي ان بيننا رجلا ثالثاً هو هذا .

واشار الى حاشد .

قال : اما هذا ففي صدره جميع اسرار الملك وهو لا يعرف ان يبوح بواحد منها ...

وأومأ الى حـاشد بان يسقيه وحول وجهه عن الامير الفتى كأنه يطرده من مجلسه . .

فنهض ذو تبع وهو يقول : أأنصرف يا مولاي ؟

ــ اجل ، ولا تعد الينا الا اذا دعوناك ..

فكره الفتى ان يخرج ذليلا على ما رأيت ، فقال وصوته يرتجف :

أيخرج ذو تبع من مجلس الملك مغضوباً عليه ؟

قال : يغضب الملك على كل من ينتصر لشرحبيل ويستحسن عمله . . . فاذا اردت ان نرضى فاستقبح ما يستقبحه مولاك واستحسن ما يستحسنه .

ثم قال والحدة تبدو في قوله : انك ترى شرحبيل اليوم في قصره الذي يشبه قصر الملك تكتنفه العظمة ويحيط به العز ، ولكنك ستراه بعد قليل ذليلا عندقدمي الملك يسأله الرفق به ، ومهشم الكرامة يطلب الى مولاه ان ينقذه من العـــار . . وعندئذ تتخلى انت ويتخلى انصاره عنه وتعلم مأرب ومن ورائها اليمن كلها ان ضليل يعفر لم يكن الا جبانا لا حول له ولا قوة .

وتمادى في حدته قائلا : لقد ظن النذل ان وجود بلقيس بـــين حظايا الملك خرق لحرمته وهذا معناه انه يعد نفسه كفؤاً لنا في كل شيء .. الا فليعلم ان هذا الشرف الذي يزعمه سيداس بالنعال وانبلقيس التي هي في نظره سيدة نساء اليمن ستصبح اذل وصائف البلاط ويمسي شرفها مضغة في الافواه .

ثم خرج عن حده فقال : يطمع هذا اللعين في ان يزف ابنتـــه الى ولي العهد لتستوي في عرش حمير بعد موت ذي القرنين وتعبث ويعبث ابوها واخوها بالملك كما يملي عليهم الهوى . ولكن فاته ان الملك حي وانه يسلب ولده ولاية العهد اذا اصبحت بلقيس زوجة له . نعم . لم يكن العرش مقعدا يتربع فيـــه الانذال مثل شرحبيل ، ولم تكن بلقيس اهلا لهذا الشرف الذي تطمع فيه .

فرأى الفتى ان يعود الى الجلوس لئلا تفضحه ركبتاه المرتجفتان وخطر له ان يغتنم الفرصة فيقرأ من وراء حدة الملك جميع اسرار نفسه ، فقال وهو يتكلف الهدوء :

اذن فماذا يصنع ذو تبع في بـــلاط الملك ؟ خير له ان يعود الى بلاد قومـــه فيعيش في همدان هادئا بعيدا عن مأرب من ان يكون قريبا من مولاه وهو غير راض عنه . اتتهمني بالانتصار لعدوك يا مولاي ؟

قالها وفي لهجته دالة وعتب لاعتقاده ان الملك لا يمضي في غضبه الى النهاية .

وقد احسن فـــيما صنع ، فان الملك ابتسم له بعد حدته وشرب كأسه وهو يقول :

لقد كرهنا ان تغرك المظاهر فاردنا ان نطلعك على كل شيء لتكون شريكاً

لمولاك في حبه وبغضه .. لا بل كرهنا ان تنتصر لرجل ان لم يمت اليوم مات غداً من يد الملك نفسه .

فقال وقد كاد ينسى هدوءه : اتقتل ابن يعفر ؟

قال : لو كان جدنا يعفر حياً وفعل مثلما يفعل حفيده ابن عمرو لقتلنـــاه ولم نبال أفيطيق ملك حمير ان يكون في مأرب ملك آخر يهزأ بما يطلب منه ولا يعبأ به . ايظن هذا المغرور ان ذا القرنين يسكت عن الاهانة التي وجهت اليه ،ويمسح الدماء التي سالت من جرحه دون ان يحدث في صدر ضاربه جرحاً لا يزول اثره؟ اما والذي نفس الملك في يده لأجعلن شرحبيل مظهراً بليغاً من مظاهر الذل بين العرب واكرهه على غمس يده بدمه ودماء ولديه قبل ان يلفظ الروح ...

فقال وهو يضطرب : وتقتل ولديه يا مولاي ؟

فجرع كأساً اخرى وهو يقول : بل اقتل عبيده وغلمانه وجواريه لا اترك واحداً منهم حتى يضمحل ويتـــلاشى ذكر آل شرحبيل من اليمن وحتى يظن الناس انهم لم يكونوا ..

فقال وقد ظهر اضطرابه : اكاد لا اصدق ما يقوله مولاي الملك .

ــ ولكنك ستصدق غداً عندما ترى بلقيس حظية لنا تروح وتجيء في اروقة هذا القصر ، وعندما تراها بعد حين في صف الوصائف اللواتي نزلن عن مقامهن، ويوم نجعلها بين الجواري اللواتي يخدمن اهل البلاط .

فتميز الفتى غيظاً ، واضحت عيناه شرارتين من نار .

وقبل ان يثور ثورته الهائلة ، قهقه الملك ضاحكاً وافرغ كأسه في جوفه ثم مد يده الى حاشد ليصب له الخمر قائلا للامير :

لقد هزأنا بك يا ذا تبع ساعة طويلة وانت لا تشعر .. ايقوم في ذهنك ان الملك يقتل ابن عمه ويستبيح عرضه فيقوض بيده اركان ملكه ؟ انك اذن ابـــله ولست اهلا لتجالس الملوك .. اسقنا يا حاشد من خمرك الطيبة وقص علينا مـــا تحفظه عن اجدادك الذين كانوا ندماء الملوك ولينصرف ذو تبع فنحن لا نحتاج الآن الا الى من يشرب معنا من الرجال .. قم يا ذا تبع وارسل الينا عتيك بن روضة

الذي يشرب وهو ساكت .

واضطجع كما يضطجع السكران وقد اغمض عينيه .

لم يجد الامير بدأ من الذهاب ، وهو مستاء ثائر النفس لما سمعه من وعيد وتهديد .

وقد احس ان حجابا وضع بينه وبين ذي القرنين ، وان ذلك الاخلاص الذي آنسه في صدره امسى احتقاراً فيه شيء من البغض .

وكيف يستطيع وهو العزيز الابي ، ان يصبر على الاذى ويغض طرفه عن موقف الملك السافل مع آل شرحبيل ؟

وماذا يصنع بغرامه الجديد ؟ وكيف ان يرى الفتاة الحسناء التي احبها جارية في قصر الملك يدوس شرفها من يشاء .

ان ذا القرنين ، في ذلك المظهر الذي رآه ، يحفر قبره بيده ، ويجعل انصاره والمخلصين له خصوماً للعرش وهو لا يبالي .

وكان ماشيا وهو يفكر في هذا حتى جاوز الرواق ، ثم خرج الى الساحة كأن قوة تدفعه الى الخروج بدون علم منه .

وفي ذلك الظلام ، والجو صاف والطبيعة هادئة . ذكر وعده بالرجوع الى قصر شرحبيل ، فمشى اليه دون ان يتردد ، وعاطفته الصادقة وحبه الجديد يبسمان على جبينه الوضاح .

ولو التفت الى الوراء لرأى شبحاً يتبعه بخطى هادئة وعينان تلمعان في ذلك الليل كعيني الذئب .

وكان ذلك الشبح نديم الملك وساقيه .

***

مرت لحظة كان الملك فيها يملأ قدحه بنفسه ريثما يعود نديمه فلما اقبل سأله قائلا : ألم يكن الملك صادقا في ظنونه ؟

ـ بلى يا مولاي فقد خرج الامير من البلاط قاصـــدا قصر شرحبيل لا يلوي على شيء .

ـ ونسي اننا امرناه بان يدعو عتيك بن روضة .

ـ بل نسي نفسه ويخيل الي ان بينه وبين ابن عمك عهداً .

قال : يكفي انه كان من المنتصرين له دون ان يعبأ بالملك . ايعاهد الخائن عدونا ويقيم بقصرنا ونحن نفتح له القلوب ونبوح له بالاسرار ؟

ـ لقد عرفت انه من الخونة يوم تصدى لولي العهد في شأنه الخاص .

ـ اما نحن فلم نعلم شيئاً من هذا الا في هـــذه الساعة . لقد رأينا الغضب على وجههعندما ذكرنا له شرحبيلوبلقيس وكدنا نلمس اضطرابه وامتعاضهالظاهرين في حديثه . ولو لم نعمد الى اللين ونغير لهجتنا الحادة لوقف اللعين موقف عداء وانتهى الامر بالالتجاء الى السوط ثم الى السيف . ولكن اتراه شعر بان الملـــك كان جاداً في قوله ؟ نعم ، ولو لم يشعر بذلك لما غضب ولما ارتجفت ركبتاه . . اسمع يا حاشد ، ان الملك لا يريد ان يخرج الفتى اليوم عن حـــده وان ينظر الى مولاه نظره الى عدو له ، بل يريد انيفهم ان مظهر الملك كان مظهر مزاح وان شرحبيل ووالديه اعز الناس عليه .

واطرق يتفرس في كأسه التي صفت خمرها ويتنهد كالرجل الضعيف تنهك الشدائد قواه وتذهب ببصره .

ثم رفع نظره وقال : الا تستطيع يا حاشد ان ترسل احـــد عبيد البلاط الى قصر شرحبيل ؟

ـ وماذا يصنع فيه يا مولاي ؟

ـ يرى حبي وينقل اليها ارادة الملك.

قال : اليس هنالك ما يمنعه من الوصول اليها ؟

ـ اجل ولكن لا نريد ان تبصره عيون شرحبيل والهمداني فانهما اذا ابصراه عرفا غايته

ـ نوصيه بان يقف بالباب ثم يرسل احد الغلمان فيدعوها اليه .

ـ ومن يوصي ذلك الغلام بالكتمان ؟

قال : اظن انه ينصرف فيدعوها دون ان يخطر له في الامر سر من اسرار الملك ..

فقال : ادعه الساعة ... ثم استوقفه قائلا :

بل تذهب انت فتقول له ان الملك يريد ان تسمع حبى حديث صاحب همدان مع شرحبيل وآل بيته ثم تنقل ذلك الحديث اليه ، لينصرف في هذه اللحظة والويل له ولقومه اذا عرف احد مهمته ..

فخرج حاشد ولم يلبث حتى عاد قائلا :

لقد ذهب الرجل وسيعود بعد قليل .

ـ واوصيته بما ذكرت ؟

ـ نعم يا مولاي وسيبلغ امر الملك حبى دون ان يشعر به اهل القصر .

قال : اذا قامت حبى بما نأمرها به عرفنا كل شيء وانصرفنا الى اعدادالعدة للقضاء على الاثنين .. اسقنا يا حاشد فقد طابت لنا الخمر الليلة وسنعود غداً ، عندما تأتي حبى الى النظر في هذا الشأن .

وبات يشرب وهو لا يرتوي حتى نام كل من في الباط ما عدا الغلمان .

* * *

لقد صدق امير همدان في تلك الليلة ، كل ما ذكره له ذو مغار عن قسوة الملك وجفائه .

ووثق بان اخلاصه له سيضمحل ، وانه لا يستطيع ان يبقي ذلك الاخلاص في صدره الى النهاية .

ان بلقيس في نظره تساوي اليمن كلها بما فيها من سهل وجبل ؛ والعرش والتاج ، والنفوذ ، والمال ، اعراض لا يعبأ بها اذا سلبته اياها الاقدار .

فكيف يستطيع ان يكون مخلصاً للملك والملك كالنمر القاسي لا يشبع

جوفه من فريسة له الا ليضع مخالبه على عنق فريسة اخرى يشرب من دمهـــا ثم يقذف بجسدها الى الذئاب الخاطفة الجائعة تمزقه وتجعل اشلاءه طعاماً لكل نهاش ؟..

بل كيف يستطيع ان ينظر اليه وهو الطامع ببلقيس يريد ان يقتل شرفهـــا ويلوث عرضها ثم يجعلها بين جواريه ؟

لا .. لقد جرت يا ذا القرنين وجفوت .. ومددت يدك الى القلوب الخافقة تسكتهـــا ... والاصوات الحرة ، تخنقها ، والعاطفة الصادقة تخمـــد نارها لتكون القلوب والاصوات والعاطفة قرباناً على مذبح ظلمك ، وبخوراً يحرق عند قدميك ..

لقد جرت يا ذا القرنين وجفوت .. وقام في ذهنك ان الشعب اليمني خلقته الآلهة ليكون عبـــداً لاغراضك ... تذل قومك لتعز .. وتسلبهم مالهم ليكثر مالك ، وتقتلهم لتعيش .. ثم تسألهم بعد ذلك ان يهبوا لك نساءهم واعراضهم وارواحهم دون ان يسألوك عن شيء .

اجل : لقد رأيت بين رجالك من لا يعرف الشرف وليس له حرمة،ولكن اعلم ان صاحب همـــدان الفتى غير من عرفت ، وان اليد التي تمدها الى بلقيس يقطعها بسيفه ولو كانت وراءها حراب الجنود وسيوف القواد .

وكان قـــد وصل الى باب القصر وهو يخاطب نفسه بما قرأت ، فلما دخل ذكر حبه المبرح الذي يخفق له القلب ، وجعل يخاطب تلك النفس بلغة الغرام .

***

ان عبداً من عبد الملك يطلب ان يراك الساعة .

فقالت حبى للغلام : دعه يدخل فانا انتظر امر الملك .

ــ ولكنه لا يريد الدخول بل يريد ان تخرجي الى الفناء فيراك فيه .

فمشت وراءه دون ان تتردد ، وهي تعلم ان الملك لا يلجأ الى مثل هذا الطلب الا لأمر .

وكان العبد في الفناء ، فلما اقبلت هامسها قائلا :
لقد دخل ذو تبع قصر شرحبيل منذ لحظة .
وكانت تجهل ذلك ، فقالت : واى شأن لي بدخوله ؟
- يريد الملك ان تصغي الى كل كلمة يقولها لاهل القصر الليلة .
- وبعد ذلك ؟
- ثم تنقلين اليه حديثه معهم غدا عند الصباح .
فقالت في نفسها : لقد تعكر الجو بين الاثنين . ثم قالت له :
أتعرف لهذا سبباً ؟
- لا اعرف الا ان اقول ما امرت بقوله .
وهم بالرجوع ، فاستوقفته وهي تقول : ومن امرك به ؟
- الملك نفسه ... ثم خاف عاقبة كذبه فقال : لا . امرني به حاشد باسم الملك .
فحولت وجهها عنه وانصرفت الى حجرة بلقيس .
وكان شرحبيل قد دعا بلقيس اليـــه وهي تتهيأ للذهاب الى مجلسه فقالت حبى :
لقد اقبل ذو تبع يا مولاتي .
فاجابتها وهي لا تبالي : أقدم الآن ؟
- نعم .
- واين هو ؟
- في مجلس مولاي شرحبيل على ما اظن .
قالت : ايدخل القصر يا حبى وانت لا تعلمين اين هو ؟
- لا يا مولاتي فانا لم اره ولكن خبرني بدخوله عبد من عبيـــد ذي القرنين وامرني باسم مولاه بان احفظ كل كلمة يقولها لك ولمولاي الامير .
فابتسمت قائلة : لقد دبّ الشك في صدر الملك فجعل عيونـــه على الفتى الملصق له ..

ــ اما انا فاظن ان امرا حدث بين الاثنين .

ــ سنعلم ما نريد ان نعلمه بعد ساعة .. لقد رجــع ابي من البلاط وانا لم اره وقد تكون هنالك امور تشغل بال الملك وتخلق الريب في نفسه .

وقامت ، فمشت بخطى هادئة وامام عينها صورة امير همــدان حتى دخلت قاعة الجلوس فتلاقى النظران واهتز القلبان .

* * *

كان الرجلان يتحدثان بامر ذلك البراقشي ، اخي جرول، الذي قتله الملك .

وكان شرحبيل يقول : لقد اعطاه ملء راحته ذهبا ثم استعاد ذهبه بعد ان صيره جثة خرساء .

اما الهمداني فكان يقول : اذن تظن ان الملك بعث به اليك .

ــ نعم فهذه هي حيلة ولا يجسر احد على الدخول الى هذا القصر داعيــا صاحبه الى خيانة وطنه الا بامر ذي القرنين .

وسكت الاثنان عندما اقبلت ، ثم اقبل بعدها الهدهــاد وضيوف القصر ذو مغار ومن معه ، فصافحوا جميعهم الفتى وجلسوا يصغون الى ذي مغار وهو يقول له والابتسامة على شفتيه :

لقد شهدت مقتل ثلاثة رجال في يوم واحد يا ذا تبع .

ــ اجل ايها الامير وهم يستحقون القتل .

ــ ولكن مولاك يجود به على من لا يستحقه عندما يشاء .

قال : اتريد ان يشعل اميناس نار الفتنــة في اليمن ثم تبدو مهمتــه للملك ويسكت عنه ؟ ام تريد ان يفتح ذراعيه لكل حبشي يفسد قومه ويمهد له الاسباب لنيل غرضه ؟

ــ بل اريد ان لا يوغر صدر الملك الحبشي بقتله رجاله لئلا يرى بعد قليل جيوش الحبشة تملأ بلاده وتفتك بنسائه واطفاله .

ــ اذن كان عليه ان يعفو ..

ــ اجل وذلك لمصلحة الملك الجالس على عرشه ، افلا يعلم ان الحبشة ستطالب بدم ابنائها في الميادين وان اليمن التي يهددها الفاتحون احوج الى السلام منها الى الحرب ؟ افلم يكن يستطيع ان يكتفي بطرد اميناس من بلاده فيبلغ بذلك غايته التي هي ابعاد كل حبشي .

قال : كان العلي اسكندي يتهيأ للحرب قبل ان يفكر في ارسال الرجال الى هذا القطر .

ــ اذا كان هذا فقد اخطأ ذو القرنين بتقريب يومها .

فقال شرحبيل : ايطيق صاحبك ان يحارب الحبشة والفرس في وقت واحد .

ــ لا اظنه قادراً على هذا .

ــ ومن قال له ان سابور لا يدعو جنوده ويقودهم الى اليمن غازياً ومدمراً كما فعل في الاقاليم التي هاجمتها خيله ؟

ــ واذا فعل هذا يا مولاي ؟

ــ اذا فعله عجز عن ان يثبت في وجه الاثنين وضاعت اليمن .

ــ وكيف يستطيع ان يمنع الملكين من الحرب ؟

ــ ليس له ان يمنعهما بل كان قادراً على ان يستعين بالحبشة ليرد سابور ثم يفعل بعد ذلك ما يطيب له .

ــ ولكن العلي اسكندي لا يضع يده بيد ذي القرنين وهو اقرب الى الاتفاق مع الفرس .

وكان يدافع عن مولاه والابتسامة على شفتيه .

فعرفت بلقيس ان ادب نفسه يملي عليه ذلك الدفاع ، فقالت له :

اي واحد من الرجلين احب اليك ايها الامير ؟ الملك الذي ينفر قومه ويسومهم الهوان والذل ام الملك الذي يبسط فوقهم ظل عدله ؟

ــ هذا احب الي من الاول .

ــ اذن اسألك سؤالا ارجو ان تجيبني عنه .

فرأى الفتى الكآبة في عيني بلقيس ، فخفق فؤاده واجابها قائلا :

مري يا سيدتي بما تشائين .

قالت : اتستطيع ان تدلني على مظهر واحد من مظاهر عدل مولاك في اليمن ؟..

قال : نعم ادلك على الامن الذي تخفق الويته في السهول والجبال .

ـ تلك الوية الارهاب والظلم ينشرها سوط الملك وسيفه وقساوته وجوره وتصبغها الدماء البريئة التي تسفح في ساحات البلاط .

ـ اذن ادلك على السعة التي تمد رواقها على الشعب اليمني .

ـ ذلك نشاط الفلاح الذي يستثمر ارضه ، والتاجر الذي يجوب الاقطار ليبيع سلعته ويرحل الى الحبشة حاملا اشياءه .

ـ ولكن اذكر ان ابواب الحبشة اغلقت في وجهه بفضل اميناس الذي ضربت عنقه اليوم .

قال : يخيل الي انك ستغلقين في وجهي جميع ابواب الدفاع كما اغلقت الحبشة ابوابها في وجوه اهل اليمن.

ـ اجل ايها الامير ، وهل تعرف لماذا ؟

ـ لا .

ـ لانك تحاول ان تجعل الاسود ابيض وهذا صعب .

ثم قالت : دعني اصف لك عدل الملك وادلك عليه ، انظر الى الامراء في المخاليف ايجسر احدهم عن ان يرفع صوته بطلب او مظلمة او رجاء ؟ ايجسر احدهم على الالتماس منه ان ينزل عن درهم واحد من مال الخراج في اعوام الضيق، أرأيت في اليمن كلها اميراً يستطيع ان يحجب ابنته عن عيني الملك اذا كانت على شيء من الجمال ؟ اتراه ينسى هواه مرة واحدة فكيف عن طلب الحسان من قومه وهن بنات العز والشرف والجاه ؟ اتراه يصغي الى استغاثة المظلوم ونداء الضعيف واستعطاف المعوزين ؟ ان هذه المظاهر كلها مظاهر عدل كما رأيت فدافع من مولاك ايها الامير ما طاب لك الدفاع ولكن له عونا على تنفير الرجال الامناء وابعاد المخلصين .

قال : انها لهجة عداوة واسمعها من آل شرحبيل بن عمرو .

ـ وانت تعلم من قبل ان شرحبيل عدو الملك فكيف رضيت بان تدخل قصره وهو كما علمت .

قال : ارجو ان اعرف الآن يا سيدتي اسباب هذه العداوة .

ـ انها اسباب تتعلق بالشرف وقد ذكرتها انت نفسك لذي مغار .

ـ ولكن هنالك اسباباً اخرى كنت اجهلها قبل هذه الليلة .

ـ اذكرها الساعة .

ـ يقولون ان الامير شرجبيل يريد ان يخلع ابن عمه عن العرش ليتربع هو فيه ...

ـ وغير ذلك ؟

ـ وان تظاهره بالاخلاص للملك تصنع ورياء .

ـ ثم ماذا ؟

ـ وانه يعد العدة من وراء الستار حتى اذا استقامت له ارسل سهمه الى صدر الملك واطلق جيشه الى الانصار الذين يحيطون به فينتهي كل شيء .

ـ وهل بقي لك ما تقوله ايها الامير؟

ـ بقي ان اسمع جواب مولاي شرحبيل عما قلت .

ـ ستسمعه الآن ولكن بعد ان تذكر لنا اسماء الذين خبروك .

ـ ان الذي خبرني واحد هو الملك .

فبدت الدهشة على وجوه القوم واستولى عليهم ما يشبه الذهول .

ان الملك يعرف اذاً اسرار شعبه ويقرأ ما في القلوب .

ومن هو الذي باح له بسر شرحبيل وليس هنالك من يعلم هذا السر غير ذي مغار وولده وياسر امير ريام ؟

ولكن هؤلاء الثلاثة يبغضون ذا القرنين اكثر مما يبغضه شرحبيل فليس من المعقول ان يخونوا انفسهم ويقذفوا بها الى النار .

وهل يعقل ان تخون بلقيس والهدهاد اباهما ويفضحاه ؟

اذن فحبى وحدها هي الخائنة ولم يبق غيرها في الميدان .

ذلك ما خطر لشرحبيل في تلك اللحظة .

اما بلقيس فقد خطر لها خاطراً آخر هو ان الملك لم يكن واثقــاً بما رواه لصاحب همدان ولكنه يظن الظنون . فقالت للامــير : ايروي الملك نفسه هذه الرواية ؟

ــ نعم .

ــ وهل كان سكران ؟

ــ كان يشرب ، ولكنه لو جرع الزق كله لما استولى عليه السكر .

ــ اذن كان يمزح ؟

ــ بل كدت ألمس الغضب في عينيه عندما كان يروي روايته .

فأجابها دون ان يتردد : لقد وهبتها الآن يا سيدتي وانتهى الامر .

ــ لمن ؟

ــ لسيد نبلاء العرب شرحبيل بن يعفر .

فأخفت مظاهر الفرح التي بدت على وجههــا وقالت : ان هذه الهبة خطراً عليك فاسترجعها الساعة اذا شئت .

قال : يطيب لصاحب همدان ان يقتحم الاخطار

ــ ولا تنس انه عــدو الملك ايها الامير وسيأتي يوم يشهر فيه السيف ويبذل ذلك الوفاء .. اني انصح لك مرة اخرى ان تسترجع ما وهبت .

ــ كفى يا سيدتي فذو تبع لا يرجع .

قالت : ان في القضية طمعاً بالعرش كما ذكر لك الملك .

ــ اذن كان الملك صادقاً فيما رواه .

ــ اجل وهي هوة بعيدة الغور كما ترى لا يطيب لبعضهم ان يقذفوا بانفسهم اليهــا !..

فجاشت في صدره عواطف الغرام وجعل يقول : مرحباً بالموت اذا كان فيه رضى شرحبيل ... ان حياتي له فليقذف بها الى الاعماق .

ـ ولكن بماذا استحق ابي منك هذا الاخلاص ؟ انك لا تعرفه كما يعرفه سواك ولا عهد لك به من قبل !

قال : لقد وصفه لي ذو مغار في العام الماضي فاحسست اني له !

وكان يعنيها وحدها بذلك القول والحب يطل من عينيه .

فقالت : الا يجوز ان يكون ذو مغار مخدوعاً فيخدع غيره ؟

فتجهم وجه الفتى ومرت سحابة سوداء امام عينه .

لقد خطر في تلك الساعة ان بلقيس ستستخف بغرامه اذا باح به ، وستقابل اعترافه بالسخرية والاستهزاء .

ومع ذلك فقد اراد ان يعترف ، وبلقيس نفسها تدفعه بذلك السؤال الى الاعتراف فقال : لقد رأيت شرحبيل بعد ذلك وعرفت اي فتى هو .

ـ وهذا وحده لا يكفي ايها الامير فللرجال مظاهر كاذبة وقد لمست بيديك مظاهر الملك كما قلت !

ـ نعم واكنني تعودت ان امشي وراء عاطفة القلب ولو اخطأت .

ـ انه اذاً اخلاص عاطفة وهذا لا يدوم .

ـ والاخلاص بدون عاطفة لا وجود له .

ـ كان عليك ان تمشي وراء حكمة نفسك لا وراء قلبك ليثبت اخلاصك الى الابد .

فضيع الفتى هدوءه وصبره وجعل يقول : لقد كان اخلاصي يا سيدتي صنفاً لم تحس بمثله النفوس والقلوب قبل الآن ..! انه هوى تغلل في هذا الصدر فملأ جانبيه ومد يده الى القلب فقبض عليه . ولمس المشاعر فاهتزت له ثم استسلمت اليه ... انه غرام يذهب العمر ولا تخمد ناره ..! ويفنى الزمان ولا يعرف مقداره .. انياحبك يا بلقيس حباً لا تستطيع العرب كلها ان تصفه لك أفتريدين ان تعرفي شيئاً آخر عن هذا الاخلاص الذي ذكرت ؟

واطرق ، كان ذلك الاعتراف جريمة لا تغفرها له .

فاجابته وشفتاها ترتجفان : اذن فارفع رأسك ايها الحبيب فقد احسست بهذا

الغرام الذي تصفه لي ، منذ يومين ، وهيأت له اسباب الظهور الآن كما رأيت..
انظر ايها الحبيب تر غرامي في عيني ، ولو استطعت ان تبصر ما في الصدرلرأيت رسمك في القلب الذي يخفق فيه ...

فرفع رأسه ... وجعل الواحد منهما ينظر الى الآخر ، وقد عقد الهوى لسانيهما وتكلمت العيون ...

انها ساعة يعرفها المحبون . تغمر فيها اللذة الروحين . وتبسط نشوة الحب ظلها على القلبين ...

* * *

١٩

لقد تم لبلقيس ما ارادت وتم لامير همدان ما اراد .

انها تحبه اكثر مما تحب العرش الذي تفكر فيه . وهو لا يحب احداً في السماء والارض ، مثلما يحب بلقيس .

كأن الاثنين خلقا ليكون الواحد منهما معبود الآخر . او كأنهما كانا حبيبين قبل ان يتلاقيا .

* * *

باتا ساكتين ، والنظرات تنطق بلغة الحب . ساعة طويلة كانت في نظرهم لحظة حتى ليحسبهما الناظر اليهما جسمين جامدين .

ثم خرجت بلقيس عن سكوتها قائلة له : لقد قرأت لواعج القلب الآن ولم تقرأ مطامع النفس ايها الحبيب .

— قولي كل شيء ايتها الحبيبة ولا تنسي كلمة .

قالت : ابدأ بذكر الملك الذي كاد ينتهي الامر بينك وبينه . اني لا اريد

ان تظهر له الجفاء الآن .

ــ لماذا ؟

ــ لانك اذا جفوته غضب وليس من الحكمة ان تغضبه اليوم .

ــ واذا فاجأني هو بجفائه ؟

ــ لو اراد ان يضع الجفاء موضع الدهاء لجفا ابي قبل جميع الناس . ان جفاء الملك معناه الالتجاء الى السيف وهذا ما لا يفعله الآن ؟

ــ صعب علي يا بلقيس ان اجامل رجلا لا احبه .

ــ ولكن يجب ان تتعلم المجاملة منه لتستطيع ان تغلبه ، لقـــد قلت لك اني لا اريد ان اغضبه اليوم وسأذكر الآن حاجتي الى رضاه .

فاضطرب الفتى اضطراباً رأته بلقيس واصفر وجهه ! فقالت :

ماذا جرى لك ايهـــا الحبيب ؟

قال : سأذكر لك بنفسي هذه الحاجة يا بلقيس . لقد ذكرها الملك لي قبل مجيئي اليك فبت اخشى ان يقودني غرامي الى الموت .

ــ اذن كان بينك وبين الملك اسرار .

ــ نعم وقد باح لي بها في تلك الساعة الرهيبةالتي ثارت بها نفسه علىشرحبيل وبلقيس ومن يتبعهما من اهل وانصار .

فاجابته وهي تبتسم : اعد علي ما ذكره لك .

قال : كان لابيك غرض خاص عندما ابى ان يهبك للملك ! وقد املى عليه غرضه طمعه بالعرش الحميري .

فعرفت انه يعني فكرة زواجها بولي العهد ، فعادت الى الابتسام وهيساكتة كأنها لا تعلم شيئاً !

فقال : يطمع ابوك بان يجعلك ولية للعهد .

فحافظت على هدوئها وهي تقول : واي رأي لك في هذا يا ذا تبع ؟

ــ لي رأي لا اذكره الا عندما اثق بصحة الرواية .

ــ هب انها رواية صحيحة فماذا تفعل ؟

فلمعت الدموع في عينيه قائلا : اخنق هـذا الغرام الذي فضحت نفسي به وامحو صورة بلقيس من هذا القلب ؟

فضحكت قائلة : ولكن امر غرامك ليس في يدك لتنزعه من صدرك عندما تشاء . ان الآلهة نفسها لا تستطيع ان تفعل هذا .

ـــ اذن انصرف الى همدان واعيش في غاباتها فاسلو غرامي .

ـــ بل تزيد نار غرامك ضرما وسعيرا.

ـــ اذن اقتل نفسي فينتهي كل شي .

ومسح دمعة سقطت على خده وجعل يتنهد تنهد الجريح المحموم .

فقالت : بل تعيش لبلقيس وتعيش بلقيس لك .

ـــ وولي العهد ؟؟

ـــ يعيش ولي العهد لمطامعي وتعيش انت لقلبي العاشق !!

فكاد هدوء بلقيس يخرجه عن حـده .. انها تتمنى العيش للاثنين كان لها قلبين ...

وكيف يطيق ذو تبع ان ينازعه بلقيس فتى آخر هو اعظم منه شأنـاً واعز مقاماً واقرب الى القلوب بما يكتنفه من عظمة ومجد .

بل كيف يطيق ان يكون ولي العهد عدواً له في غرامه ، وهو عدو له في بلاط ابيه . وسيستوي في العرش والعداوة في صدره ؟

انه مظهر من مظاهر الاستهزاء لا يرضاه لنفسه ·· فقال وهو يضطرب ونار الغيرة تستعر في فؤاده · اترغبين في العيش يا بلقيس بين عاشقين ؟

قالت : لا احب غير فتى واحد هو انت .

ـــ اذا كان هذا فأي شأن للطامع مع هذا الحب .

قالت : لقد اخطأ الملك في قوله ان ابي يطمع في عرشه ، وكان عليه ان يعلم انه لم يفكر في هذا العرش لو لم تدفعه بلقيس الى التفكير فيه .

ـــ انت !؟

ـــ نعم ، واذا كان هنالك شخص غير عمرو بن ذي القرنين يجلس على عرش

عهد وعد الملك فهذا الشخص هو انا !

فهم بالكلام فاسكتته قائلة : ارجو ان تصبر ايها الحبيب ريثما تعلم كل شيء ان لي نفساً وقلباً اعطيهما ما يطلبان ... اما القلب فقد بلغ غايته ولم يبق له غاية سواها ، واما النفس فلم اعطها شيئاً بعد ولكني سأعطيها ما تسأل .. نعم ، ان بلقيس بنت شرحبيل هي التي تطمع في عرش حمير وسيكون هذا العرش لي بالرغم من ذي القرنين الذي ورثه من آبائه !

ـ العرش يؤخذ بالسيف يا بلقيس .

ـ اجل : ولكن مـــاذا يبقى لي اذا فشل السيف في مهمتـــه ؟؟ لا يبقى الا الرأي الذي يفعل ما لا تفعله السيوف .

ـ ولكني لا افهم شيئاً مما تقولين ..

ـ ستفهم بعد قليل ما لا تفهمه الآن .. ان ولي العهد يحب بلقيس دون ان يراها وقد طلب الى الملك ان يزوجه اياها ..

ـ غير ان الملك لا يرضى بهذا الزواج .

ـ ومن قال لك ذلك ؟

ـ قاله الملك الليلة ، وجعل الفتى يقص عليها حديث ذي القرنين .

فقالت : لقد عرفت هذا قبل ان تعرفه انت ، نعم يريد ان يتظاهر بالرضى ليقودني الى قصره ويجعلني حظية له ثم يطرح بي الى ايدي رجاله .. ولكن فاته ان بلقيس لا تقع في شركه ، وانها ستضيع الحيلة التي يعمد اليها بحيلة اخرى تقضي على كل امل يقوم في صدره .

ثم قـــالت : الا يطيب لك يا ذا تبع ان ترى التاج على رأس الفتاة التي احببت ؟..

ـ لا يطيب لي الا ان اصبح زوجاً لهذه الفتاة .

قالت : سيكون لك ما تشاء ايها الحبيب .. اني لك كما قلت ولا يستطيع ذو القرنين ومن حوله من امراء وجيش ان يبعدوني عنك .. ولكن ارجو ان تصغي الى مطامعي وان تكون عوناً لي فيما احلم به ليستقيم لي ولك الامر .

ـ انسأليني ان اكون عوناً لك يا بلقيس وانت نور حياتي وبهجتها وامني التي اجثو عند قدميها ، وخيالي الذي اناجيه ؟

ـ وتعدني بالصمت والصبر على كل ما تراه ؟

ـ افعل اذا وثقت بأنك ستكونين لي لا لسواي .

ـ اقسم لك برأس شرحبيل اني لا احب سواك ولن اكون لسواك .

ـ وانا اعدك باني سأصبر على ما اراه .

ـ اذن فاعلم اني مع ابي وذي مغار وابن عمه ياسر نتآمر على العرش وقد امسيت انت الآن احد المتآمرين .

فاطرق مليا ثم قال : ان الملك لا يغلبه هذا العدد القليل .

ـ اصبت فاذا عمدنا الى السيف كان علينا ان نضم الى المؤامرة غير الذين ذكرت .

ـ ومن بقي من الامراء الذين لا يحبون الملك ؟

ـ بقي الغوث بن راهط وجبار بن دوير امير ينون ورجل آخر من اعداء ذي القرنين وهو يقيم ببلاطه .

ـ من هو هذا ؟

ـ عتيك بن روضة الذي لا يسكت عن دم ابيه .

وروت له رواية والده القتيل كما خبرتها اياها نعمى بنت الريان .

فقال : يقضي هذا الرجل ايامه كلها في البلاط لا يقول كلمة .

ـ اجل هكذا قالوا لي فيجب ان نبحث عن رجل آخر يخاطبه بالامر ويسأله ان يخرج عن طاعة الملك .

قال : ليس في البلاط من تجسرين على الوثوق به .

قالت : ألست صديقا له ؟

ـ اعرفه كما اعرف سواه وليس بيننا صلة ولاء فاسألي عنه ذا مغار فقد يكون من اصدقائه واظن انه هو الذي قص عليك حكايته .

ـ ان نعمى حظية الملك بالامس ووصيفتي اليوم ، هي التي قصتها علي وليس

من الرأي ان تحدثه بشأن المؤامرة .

فجعل يتفرس فيها ثم قال : اما انا فسأحدثه فقد يكون له رأي .

ـ كما انك ستسأل الغوث وابن دوير ان ينضما اليك .

ـ عندما يعلم الرجلان اني اصبحت متآمرا لا يترددان في الانضمام ،

ـ وبعد ذلك ؟

ـ اوغر صدر ولي العهد على ابيه ، واهامسه في ساعة من ساعات جنونه

فاقول له : ان اباك لا يريد ان ازف اليك !

ـ وماذا يفعل هذا المغرور ؟

ـ يغض طرفه عن ابيه عندما يهاجمه جيش شرحبيل ، فنخلعه عن عرشه ثم

نشهر السيف في وجه ولي العهد نفسه وننحيه عن ذلك العرش .

فاستوى جالسا واخذ يحدق اليها كمن اصيب بالذهول .

فقالت : ماذا رأيت ؟

ـ رأيت الخطر يكتنف هذه المؤامرة من الجهات الاربع .

فهزت رأسها قائلة : اتكون من رجال السيف ايها الحبيب وتخاف ذا

القرنين ؟

قال : لقد نشأت بين السيوف يا بلقيس وربيت في ظلها فانا لا اخاف

اخطارها بل اخاف اخطار الغرام . اني افترض ان الحرب ستنتهي بالفشل وان

العرش يبقى لصاحبه فأخسر غرامي ويضيع هذا الحلم .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ قال : خبرني ماذا يصنع الملك عندما يظفر بنا نحن اعداءه ؟

ـ يقتل منا من يشاء ويبقي على من يشاء .

ـ وماذا يفعل ببلقيس اذا اضرمت النار في مأرب ؟

ـ يرفع رأسها على رمح ويضعه في ساحة البلاط .

ـ بل يحملها بالقوة الى قصره ليلوث شرفها او يجعلها ، رغماً عنها ، زوجة

للملك الامير الغر ولي عهده

قالت : عندما يحملني رجال الملك بالقوة الى البلاط يحملونني جثة مخضبة بالدماء .. ذلك ما قلته لابي من قبل واقوله الآن ويجب ان تعلم ان ذا القرنين اضعف من ان يمد الي يدا وانا حية .

ــ وهذا معناه اني اخسر هذا الغرام الذي احيى به ثم اخسر حياتي !

قالت : يحدثني هذا القلب باني سأعصب رأسي بالتاج !

وهمت بان تقول ، وسأتزوج ولي العهد اذا اكرهتني الاقدار .

ولكنها رأته مضطربا فلم تفعل واكتفت بقولها :

لقد عرفت الآن اني لك فارض بما عرفت وسيأتي يوم تطلع فيه على جميع الاسرار التي اكتمك اياها الان.

ــ ولماذا لا تبوحين بها في هذه الساعة ؟

ــ لاني اقسمت انها ستبقى في هذا الصدر الى النهاية ؟

فذكر الفتى وعده انه سيسكت ويصبر على كل ما يراه ، كما انه ذكر قسمها انها ستكون له وحده ، فطابت نفسه ، ولم يشأ ان يلح في طلبه ، خوفاً من ان يشوه ذلك الحب الجديد الذي ابصر النور منذ يومين .

ثم قالت له : بقي ان تعلم كيف يجب ان تقابل دهاء الملك وتعيش في بلاطه في الايام الباقية له .

ــ بل بقي ان اعلم متى تريدين ان اخاطب اباك بشأن الزواج .

ــ اما الزواج فانا اعين موعده ولا يتردد ابي في الرضى عندما ترضى بلقيس ...

ــ اذن فاذكري لي كلمة واحدة عن هذا الموعد .

ــ اتريد ان نتزوج اليوم ونحن نمهد الاسباب لزواج ولي العهد ؟

ــ ومتى اذن ؟

ــ عندما ينتهي هذا الدور الذي نتهيأ له .

قال : اخشى ان ينتهي يا بلقيس بما نكره ..

ــ بل ينتهي بما تحب فلا تتعجل في الامر .

واستظهرت في تلك اللحظة عاطفة القلب على مطامع النفس فجعلت تقول :
لا تزد ايها الحبيب ... ان في القلب من لواعج الهوى ما لا يحتمل العاشقون بعضه ، وسيثبت لك الزمان انه لم يقم في اليمن فتاة اشد اخلاصاً في حبها من بلقيس ، واطهر هوى وغراماً ..
ولعلها ارادت ان تترك حديث الحب فقالت :
سيسألك الملك بعد رجوعك عن شرحبيل أليس كذلك ؟
ـ ان الملك لا يترك كأسه الا ليأوي الى فراشه .
ـ اذن يسألك غداً وعيناه ترسلان سهاماً حمراء .
ـ اما عيناي فسترسلان نوراً هو نور الطاعة للملك والوفاء له .
ـ احسنت ولكن لا تنس ان تذكر له وفاء شرحبيل للعرش .
ـ سأفعل ، على ان تقول له نعمى مثلما اقول .
قالت : سآمرها بما يجب ان تفعل .
وجعلا يتهامسان ويضعان الحديث الذي سينقله الفتى الى الملك حتى الليل ولم يبق الا ان يعود ذو تبع الى البلاط .
فنهض قائلا : أأنصرف الآن دون ان ارى احداً ؟
ـ بل تراهم جميعاً وتقول لابي انك اصبحت نصيراً له .
ومشت امامه في الرواق الى الجناح الآخر وكان القوم في احدى قاعاتـه يتحدثون وذو مغار يقول لهم :
سيخسر الملك امير همدان في هذا الليل ..
كأنه كان واثقاً بان عيني ذي تبع كانتا عيني عاشق برح به هواه .
فلما دخل الاثنان مد الفتى يده الى شرحبيل وهو يقول :
اذا ذكرت ولديك يا مولاي فاذكر ان لك ولداً آخر هو صاحب همـدان الذي يخاطبك الآن .
ـ فابتسم قائلا : وهل عرفت كل شيء يا بني ؟

ـ نعم ولم يبق الا ان تقول كلمتك فاترك بلاط الملك الى الابد واحمل السيف مع اهل همدان للدفاع عنك .

فقال ذو مغار مازحاً : وكيف ضيعت اخلاصك للملك في مثل هذه السرعة؟

قال : يظهر ان الملك لا يثق الا بالرجـــال الانذال الذين حوله ، ولو لم ينظر الي كما ينظر الى خصومه من الامراء لما خطر لي ان اهب سيفي لسواه .

وصافحهم جميعاً وهو يقول : سانصرف الآن وستحدثكم الاميرة بشأني فالى اللقاء . ثم مشى وعيناه تنظران الى بلقيس حتى جاوز الباب وتغلغل في الرواق

فتنهدت بلقيس قائلة : لقد اصبح امير همدان لنا فانظروا فيما تصنعون من جديد ...

* * *

النفوذ الروماني

•

٢٠

كان النفوذ الروماني قد امتد في معظم اقطار الشرق ، كما رأيت .

وكانت رسل القياصرة تروح الى الحبشة وتجيء ، وهي تنقل الى النجاشي ، من القيصر رسائل الود والولاء تمليها السياسة .

انها رسائل دولة قوية تخفق ألويتها في الخافقين ، الى دولة ضعيفة تريد الظهور ، سائلها بها ان تسند نفوذها في الاقاليم التي حولها ، بالحيلة ، والدهاء وبالقوة عند الحاجة ، دون ان تعبأ بدولة اخرى مهما يكن امرها .

ولم يكن ذلك النفوذ الذي يريد الرومان ان يمدوا رواقه فوق بلاد العرب ، سياسياً فحسب ، بل كان هنالك نفوذ تجاري يرغبون في ان ينشر ظله ، في كل قطر .

وقد نشر هذا الظل في بلاد الهند ، فكان تجار الروم يحملون اشياءهم منها ، ويمرون في بلاد اليمن بين خليج العجم والبحر الاحمر ، قاصدين الحبشة ، ومنها الى مصر .

غير ان العرب لا تريد هذا . وكيف يطيق ان يسد الرومان في وجوههم ابواب الرزق ، بل كيف يطيقون ان يجيء الرومي من بلاده فينتزع العيش من

افواههم وسلبهم حقهم وما يملكون من قديم الزمان !

وقد علمت ان دول اليمن جميعها كانت دول تجارة لا دول حرب ، وان تكن دولة حمير اقربها الى الفتح .

فبدأ النزاع بين الرومي والعربي ثم بين هذا والحبشي ، منذ ذلك الحين ، اي منذ اتخذ الرومان ارض اليمن ، طريقا لهم كما مر .

وكان نزاعاً تجاريا في اول عهده ، ثم اصبح صراعاً داميا بعد ذلك ، ثم عمد القوم الى السيف ، الذي كان في ذلك الزمان ، سيد الاحكام .

حمير تسند العرب ، والحبشة تسند الروم ، والضحية تتبع الضحية من الفريقين وتنازع البقاء لا ينتهي الا بسفك الدماء .

حتى اشتدت الازمة وكثرت الحوادث في ايام ذي القرنين ، وانتقلت اخبارها الى الروم والفرس ، فغضب القيصر للدم البريء يسفح في ارض العرب ، واراد الملك الفارسي ان يمد اصبعه ليمنع عدوه القيصر من بلوغ غرضه .

ولكن ذا القرنين لا يستطيع ان يقف ساكتاً عند الحد الذي انتهى اليه الامر بل امر جيشه النازل في ذلك الاقليم ، بين خليج العجم والبحر الاحمر ، بان يمنعوا كل رومي من المرور بارضـــه ، ويجعلوا السيف آخر ما يلجأون اليه من وسائل المنـــع ...

وكان يعلم ان التردد في الامر يفضي الى ما يكره ، فالدول الثلاث ، الحبشة والروم ، والفرس ، لا تحبه ، وهي تنظر الى اليمن نظرها الى البلد الغني الخصب تريد ان تخفق اعلامها فوقه .

وذو القرنين شجاع لا يخاف ، كما علمت ، وداهيـــة لا يغمض له جفن ، وعزيز لا يطيق ان يذله بشري ، مهما يكن جنسه وشأنه .

فوقفت تجارة الهند وقوفا ضيع الكثير مـــن مال اليمن ومال الروم ، وكاد صدر القيصر يضيق ، لضعف الحبشان في الدفاع عن شعبه ، وعجزهم عن رد الحميريين .

وهم بان يوجه الجيش الى ذلك الاقليم النائي ، لا ليفتح اليمن بل ليثأر بالدم البريء .

غير ان رسل العلي اسكندي التمسوا منه ان لا يفعل ، ووعدوه باسم النجاشي والهم ان يمهدوا لرعاياه سبل الرواح والمجيء .

كما وعدوه باسم ملكهم ، بان يعدوا معدات الحرب .

وعندما ارسل ذو القرنين ، معدي كرب وعبد شمس الى حدود ارضه عند البحر الاحمر ، ليتبينا طلائع الجيش الحبشي ، بل ليتبينا عن كثب ، استعداد الحبشة للقتال ، كان الجيش العربي في تلك الناحية ، قد قتل طائفة من تجار الروم وسلبها ما تحمله من اشياء .

وهذه الحادثة كانت الحادثة الاخيرة التي وقعت بعدها تجارة القوم .

غير ان معدي كرب ورفيقه ، لم يبصرا طليعة ولم يريا جيشا ، ولم يكن في البلد اليمني وفي رعية ذي القرنين ، في ذلك الاقليم ، من يعلم ان الحرب على الابواب .

فقام في ذهن الاميرين ان العلي اسكندي يتحفز للوثوب من وراء الستار ، بالبرودة والهدوء ، وان جيشه الزاحف لا يلبث حتى يملأ الشاطىء .

فجعلا على ذلك الشاطىء العيون ، في النهار وفي ظلام الليل تنتظر سفن العدو ومكثا بضعة اشهر والعين لا تقع على رجل من الحبشة او من الروم .

حتى وثقا بان الاخبار التي بلغت ذا القرنين اخبار كاذبة ، وان تلك الحرب التي خوفوه بها لم يكن لها وجود في اذهان الحبشان .

وكان قائد الحامية اليمنية من رأيهما ، اذ لم يكن يخطر له ان الحبشة تشهر حرباً ، ولكنه كان يعتقد بان القيصر لا يترك دماء رجاله ، وان العلي اسكندي لا يعترف لذلك القيصر ، بعجزه عن الطلب بهذه الدماء .

وكان يدعوهما الى قضاء بضعة اشهر اخرى في ذلك الاقليم فلم يرضيا واصرا على الرجوع الى مأرب مع الجيش الذي يقودان .

وبينا هما يعدان عدة الرحيل ، ولم يبق امامهما غير ليلة ، اقبل من الشاطىء احد رجال الحامية يقول لهما :

ان سفن النجاشي في عرض البحر !

فاضطرب القائدان وخيل اليهما ان الحبشان يزحفون اليهما في ذلك الليل .

فقال قائد الحامية لمعدي كرب : انهم لا يقدرون على ذلك ونحن نبعـــد عن الشاطىء بضعة فراسخ كما ترى .

ـ اذن نتهيأ للقتال في يوم غد عند المساء .

قال : من عادة الحبشة ايها الامير انهم لا يفاجئون الشاطىء الا في الظلام .

ـ وما هو رأيك ؟

ـ ارى ان نزحف الى الشاطىء في هذه الليلة ونجعل للجيش مواضع تحجبه عن العيون فلا يراه الجيش الزاحف من البحر .

ـ وغداً

ـ نبقى غداً وراء الحجب حتى يجن الليل وعندما تطأ اقدام الاحابيش رمل الشاطىء نعيدهم بالسيوف والحراب الى احضان المياه .

فاستحسن الجميع رأيه وما هي الا ساعة حتى مشت الصفوف تتقدمها الحامية الباسلة وقائدها الشجاع الى مخابىء جعلتها الطبيعة وراء الصخور .

وقد بلغوها والفجر لم يبزغ بعد .

وكان البحر هادئا ، مظلماً كأن السفن غاصت في اللجة !

فخطر للقائدين ان الرجل الذي روى لهما خبرها كان كاذباً .

وطلبا الى قائد الحامية ان يدعوه !

فضحك ذلك القائد وكان يقول : اسألاني عما تريدان ان تسألاه فانا واثق بصدقه واعلم من حيل الحبشه ما لا يعلم .

فقال عبد شمس : الا ترى هذا الظلام الذي يكتنف البحر ؟

قال : اراه وليس في ذلك شيء من الغرابة .

ـ واين السفن ؟

انها تروح وتجيء في الماء وانت لا تراها وأظن ان رجال الحبشة يستعينون بالانوار ، في مثل هذه الحال ؟

اذن ستبدو لنا عندما يتنفس الصبح .

.. قد لا تجد لها اثراً ايهـــا القائد فهي تخوض العباب في النهار لتختفي عن عيون اهل الشاطىء ، وتعود في اول الليل .

وكان الرجل صادقـــاً فيما رواه فان البحر انكشف للقوم عند الصبـــاح ولم يبصروا الا الامواج تعلو وتنخفض برفق وهدوء .

اصدر الامر بان ينـــام الجيش في خيامه التي اعدها وراء الصخور وسادت السكينـــة ذلك الشاطىء ، من طلوع الشمس حتى المساء . كأن تلك الصفوف مشلولة الاعضاء .

ولكن الليل لم يرخ سدوله حتى استيقظت السيوف النائمة في اغمادها ، وتولى القائد الحامية امور الجند العربي في ذلك الليل .

ولم ينقض الهزيع الاول حتى اقبلت السفن على الشاطىء ولا انوار فيها وانتشر اصحابها بالقرب من مخابىء الجنود طوائف وجماعات .

وكانت الحراب والخناجر في الايدي تنعكس عليها انوار السماء .

غير ان قائد الحبشة لم يكن قد جمع الشمل ونظم الصفوف .

ولماذا يفعل وهو يعلم ان حامية اليمن تبعد بضعة فراسخ عن شاطيء البحر .

فاغتنمت العرب هذه الفرصة ، ومشت صفوفها بسرعة وشدة الى تلك الجماعات المتفرقة التي لا نظام لها تطعن صدور رجالها بالرماح الطويلة وتدفعها مخضبة بالدماء الى الماء الهادىء الذي خرجت منه .

فعلت اصوات الحبشان ، وخيل اليهم في اول الامر ان الجن تكمن لهم ، ثم ثاب اليهم الرشد فعرفوا انه كمين عربي طوقتهم رجاله من الشمال والشرق .

وانت تعلم ان الجيش يختل نظامه ، وتضعف عزيمته في مثل هذه المفاجآت مهما تكن بسالة رجاله ، وخبرة قواده .

اجل : ان الجندي الحبشي خواض الغمرات وهو شديد قوي في الميادين ،

ولكنه اذا فتح عينيه على الرمح يمتد الى صدره ، يفقد حكمته ويتراجع مذعوراً الى الوراء ، ثم هو لا يعود الى نفسه ويسترجع حكمته حتى تكون الصاعقة قد انقضت عليه .

كانت العرب تصيح : يا لحمير ، وتهاجم تلك الاشباح المتحركة على الرمال، ثم لم تلبث في ساعة قصيرة ، حتى قذفت بها الى البحر بين هارب وجريح .

والحبشان في البحر كالاسماك ، وكأنهم نشأوا بين معترك الامواج . ولم تكن السفن بعيدة عن الشاطىء فكانوا يغوصون ثم يظهرون ثم يغوصون حتى بلغوها والسهام تتبعهم من الشاطىء ولكن لتضيع في المياه .

فلما خلا الجو للعرب ، وملأت اصوات هتافها الفضاء ، اضطجع الجند على الرمل المصبوغ بالدم ينتظر طلوع الصبح ليعد ضحاياه .!

ولكن هذه الضحايا لم تكن كثيرة كما اظن ، فان البحر قذف في ذلك الليل بضع جثث انضمت الى الجثث التي تركها الجيش الهارب في البر .

وهكذا قضى عبد شمس ومعدي كرب بضعة اشهر في مهرا وضواحيها لم يشهرا على العدو سيفاً الا في تلك الساعة .

ثم قضيا في ذلك الاقليم شهراً آخر وليس في البر والبحر ظلا للاعداء .

فعولا على الرجوع وكان قائد الحامية يقول : ان النجاشي لا يسكت ولا يمر هذا الربيع حتى تعود هذه السفن من جديد .

***

٢١

نام لهمداني ليله ملء عينيه وشفتاه تبتسمان للاحلام العذبة .

ان بلقيس امست له فليغضب ذو القرنين وليملأ اليمن غضباً .!

لكنه ذكر في الصباح، ذلك الخطر الذي يكمن له في حياته الجديدة ،وجعل يعد العدة للزمن الآتي ويفكر في وسائل الدفاع .

هنالك ملك جبار قاس تريد بلقيس ان تسلبه تاجه ، وعرش تريد ان تحطمه لتبني لها عرشاً آخر ، وقوة هائلة تقوم حول العرش لا بد لها من ان تسحقها بقوة السيف لتبلغ الغاية .!

فلتسلب بلقيس اذاً ما تشاء ، ولتحطم ولتسحق من تشاء، ان سيفه وسيوف قومه ملك لها لا تنازعها اياها قوة او سلطان !

ولتظفر بلقيس في المؤامرة التي هي دماغها ، انها اذا ظفرت، ظفر هو بامانيه، وقضى حياته كلها قريباً منهـــا يراها ويسمع صوتها في نهاره ، ويناجي طيفها في ليـــله ...

واما الخيبة ؟ آه من الخيبة ان وراءها ذيولا من الذل والعار يعقبها الموت كما يموت المجرمون الذين تلعنهم اليمن .

قد يظن القارىء ان امير همدان يخاف الموت في ساحة القتال ويخشى ان تفشل المؤامرة فيخسر حياته وهو في زهرة العمر ، لا .. فالشباب والحياة لا قيمة لهما في نظره اذا سألته بلقيس ان يبذلهما .. ولكنه كان يخاف ان تمسي بلقيس حظية الملك او زوجة لولي العهد وهذا هو العار الذي عناه .

وكان يضطرب عندما يصل في تفكيره الى هذا الحد ، كما يضطرب الجبان ثم يذكر ان بلقيس تؤثر ان يحتضنها القبر على ان تمتد اليها ايدي الانذال ، فيتعزى ويعود الى صدره الامل الذهبي الذي يعيش لاجله.

حتى خطر له خاطر فجائي اشرق له جبينه وابتسمت نفسه ، هو ان يوصي

احد اصحاب سره ، بان يقتل بلقيس اذا هي استسلمت للملك ، او رضيت بولي العهد زوجا لها ، بعد موته .

ذلك لانه لم يكن واثقا ، بانه سينجو من الموت، في تلك الحرب التي سيخوض غمرتها ، بعد حين .

ونهض من فراشه ليستأذن على الملك ، فينقل اليه ذلك الحديث الذي جرى بينه وبين شرحبيل في الليل الماضي .

اي انه اراد ان يمثل دور الدهاء الذي املته عليه بلقيس قبل ان يغادر القصر، فقيل له ان معدي كرب وعبد شمس قدما امس ، وهما بين يدي ذي القرنين، فمشى الى الرواق الذي تعود ان يرى فيه امير نخلة ، ذلك الرجل الصامت ؛ فلم يره بل وقعت عينه على نعمى بنت الريان ، تحادث احدى وصائف البلاط .

فمر بهما كأنه لم يرهما ، وهو يعلم ان نعمى لم تجيء في تلك الساعة ، لو لم ترد حبيبته ان تجيء .

ثم دار دورة انتهى بعدها الى الرواق الملكي فابصر ذا القرنين بباب مجلسه يشيع الآمرين ، ووراءه حاجبه وساقيه .

فدنا من الباب حتى قاربه ثم قال : لي ما اقوله لمولاي الملك اذا اذن لي .

فابتسم الملك ابتسامة الحب ... واجابه قائلا : قيل لنا ان نعمى بنت الريان هنا ولم ترها ، فادعها ثم نراك بعد ذلك .

فانصرف الفتى دون ان يتردد وهو يقول في نفسه: الحراس والحجاب حول الملك وهو لا يختار احدهم ليدعو اليه وصيفة بلقيس .

واجتاز الرواق الى الرواق الآخر الذي ابصرها فيه فاذا هي باقية في موضعها تنتظر اذن الملك لتمثل بين يديه .

فجعل يمشي بخطى هادئة ، وقبل ان يدنو منها ، رأى في طرف الرواق الآخر رأسا يظهر ثم يختفي وراء الجدار وكان ذلك الرأس رأس حاشد اللعين !!

فتظاهر بانه لم يره ، ووقف قائلا بصوت عال : ان مولانا الملك يأمر نعمى

بنت الريان بالذهاب الى مجلسه الآن .

ثم حول وجهه عنها ورجع كأنه لا يبالي بجميع من في القصر .

وكان يقول : يظهر ان الملك يريـــد ان يجعلني في بلاطه ، ضمن نطاق من العيون .

ولكنها خدمة اشكر عليها حاشداً فقد علمني ان احتاط لامري واهرب من الشرك الذي ينصبونه لي !.

لقد ظن ذو القرنين ان بيني وبين الوصيفة اسرارا وولاء فارسل ساقيه ليرى مظهراً واحداً من مظاهر هذا الولاء .

ولعله يشك في حظيته السابقة ويتهمها بالانتصار لآل شرحبيل .

ذلك ما خطر لذي تبع وهو يروح ويجيء في الرواق دون ان يفكر في موضع يتجه اليه .

وبينا هو في ذهوله ، رأى عتيكا امير نخلة يمشي متثاقلا كما يمشي هو ، وشفتاه تفرجان عن ابتسامة وراءها الكثير من الاسرار ...

فابتسم له بدوره ، ولولا ذلـــك الرأس الذي رآه وراء الجدار لدعـــاه الى حجرته وانتزع سره من صدره ، وقرأ ما في نفسه .

ولكن الملك لا يعفو وليس من الحكمة ان يلفت اليه نظر الرقباء .

فاكتفى بابتسامته وهو لا يقف ، غير ان عتيكا لم يكتف ، بل هامسه عندما حاذاه قائلا له : احذر فان عيني الملك تنظران اليك !.

فتراجع قليلا ثم قال : اعرف كل شيء وسأراك !.

وابتعد الواحد منهما عن الآخر وساد السكوت .

* * *

٢٢

كان الملك عابس الوجه مقطب الجبين عندما جئت نعمى على قدميه .

فقالت له وهي لا تبالي : جئت الساعة بناء على امر مولاي .

ــ اذن رأيت العبد الذي ارسله جاشد اليك ؟

ــ نعم يا مولاي وقت بما امرني به باسمك .

وكان حاشد في القاعة لا يفارق الملك .

فقال ذو القرنين : وهل رآك احد من اهل القصر تهامسين الرسول ؟

ــ رآني حراس الباب الذين لا يعبأون بما يرون .

قال : حدثينا بمــا تعلمين .

قالت : ايجوز لي ان اسأل الملك عن سبب غضبــه ؟

ــ قولي فليس لاحد ان يسأل الملك عن شيء مما يفعل !

ــ ولكني خائفة يا مولاي وقد تعودت ان تبسم لي

فتكلف الابتسام قائلا : يغضب الملك لما يراه من خيانة هؤلاء الفتيان الذين قربهم اليه وا حاطهم بنعمه واحسانه .

فعرفت انه يعني امير همدان فقالت : لقد عرفت من تعني يا مولاي .

ــ نعني ذا تبع الذي اغضبنا ولدنا وارضيناه .

ــ سأعيد عليك حديثه يا مولاي دون ان يكون في الامر دفاع عنه .

ــ كيف استقبله شرحبيل ؟

ــ لا اعلم فقد دخل القصر قبل ان ينتهي الي امر الملك ولكني رأيتــه في قاعة الجلوس كالضيف الغريب يرحبون به ويستقبلونه بالانس العربي .

ــ ومن كان في القاعة ؟

ــ صاحب القصر وولده الهدهاد ليس غير .

ــ وبلقيس ؟

ــ ان بلقيس لا تجالس جميع الناس يا مولاي فقد قيل لها ان امير همدان يزور

اباها لم تخرج من غرفتها ولم تهتم للامر .

قال : يظهر انها لا تعرفه .

ـ لا يا مولاي وهي المرة الاولى التي رأيته فيهـا في قصر ابن عمرو .

ـ تقولين انك ستعيدين علينا حديث الفتى فهل سمعت ذلك الحديث ؟

ـ وكيف انفذ امر الملك وانا لا اسمعـه ؟ !

ـ ولكنك لم تدخلي قاعة الجلوس .

ـ لا يا مولاي بل وقفت بالقرب من الباب وراء العمد الضخمة التي تقوم على جانبيه ، وكان هنالك صمت ، ثم همس لم اسمع منه غـير لفظة الملك ، ثم ارتفع صوت ذي تبع فسمعت حديثـه كلمة كلمة وجواب شرحبيل

فردد قائلا : لفظة الملك ؟

ـ نعم يا مولاي وقد سمعتها اكثر من مرة وانا لا اعلم الغاية منها حتى وضح الامر لي بعد ارتفاع الاصوات .

وجعلت تروي له حكاية طويلة مغزاها ان الهمداني كان يلوم الامير عـلى اغتصابه في قضية بلقيس وشرحبيل يدافع عن الملك بقوله : انه لا يغضب على ابن عمه وان حلمه اعظم من ذنبه .

فبان الفرح في عينيه قائلا : ولم يكن له عذر ؟

ـ بلى يا مولاي وكان عـذره كما خبرتك من قبل ان يشرف الملك بلقيس بجعلها زوجة لولي العهد .

فوضع يده عـلى جبينه ثم اخذ يقول : انها نغمة لا تقطع .. وماذا سمعت غير ذلك ؟

ـ ثم سمعت الفتى يتهم الامير بالخيانة .. نعم يتهمه بخيانة الملك ويسأله ان يعود الى رشده ولا يضيع حياته وحياة ولديه .

فنظر الى حاشد وقال : انه خبر غريب لم نكن ننتظره ولم يقم في ذهننا ان ذا تبع يجرؤ على التحدث به .. اتصدق هذا يا حاشد ؟

فضحك اللعين قائلا : وكيف لا نصدقه يا مولاي ونعمى ترويه ؟

قال : وبماذا اجاب شرحبيل ؟

ـ اذا كان الكلام الذي يخرج من فم المرء دليلا على ما في قلبه فانا احلف لمولاي الملك لم ار ولن ارى رجلا اصدق طاعة لمولاي من شرحبيل بن عمرو ، لقد اقسم لامير همدان انه لا يضمر لصاحب العرش الا الاخلاص والوفاء وان حياته وحياة ولديه ملك للملك يفعل بها ما يطيب له .

ـ سنرى اذا كانت هذه الحياة ملكا لنا كما يزعم .. ولكن نسألك سؤالا يا نعمى أتقسمين برأس الملك ان هذه الرواية لا غلو فيها ؟

ـ اقسم برأس مولاي اني لم اقل غير ما سمعت .. لقد اقسمت لك يا مولاي مرات كثيرة وانت لا تصدق كأن نعمى بنت الريان تخون مليكها الذي شرفها بعطفه واحسانه !..

ـ بل نصدق كما تقولين يا نعمى . اتعرفين امير همدان ؟

ـ اعرفه في البلاط يا مولاي كما اعرف جميع الامراء .

فاطرق مليا كأنه يتردد في تصديق ما ترويه ثم قال لها . اليس هنالك اشياء اخرى تذكرينها للملك ؟

ـ ذلك ما دار بين الاثنين نقلته اليك .

ـ ولكن يجب ان تنقلي الينا حديث شرحبيل مع ابنته قبل ان يزور الهمداني القصر .

ـ اجل فقد نسيت ان اذكر لك ان شرحبيل خاطب ابنته بشأن الزواج ولم اسمع جوابها لانها لم تشأ الا ان يتحادثا منفردين .

ـ اذن فانت لا تعلمين شيئا .

ـ لا يا مولاي ولم استحسن أن اسألها عن شيء .

ففاجأها بقوله : لقد انتهت مهمتك الآن فادخلي هذه الحجرة التي ترينها وراءك وامكثي ساكتة فيها ساعة واحدة .

ثم قال لنديمه : اما انت يا حاشد فادع صاحب همدان .

ا‌نالت : وماذا اصنع في هذه الحجرة يا مولاي ؟

— تسمعين منها صوت الهمداني وحديثه فالملك يريد ان يعرف الساعة من هو الكاذب من سكان البلاط الذين يتظاهرون بالاخلاص .

انالت في نفسها : افعل ما تشاء فامير همدان لا يخون بلقيس .

وانثنت فدخلت الغرفة التي اشار اليها الملك وحجبها عن العيون ستار وضع على بابها وقد جلست وراءه .

ولم تمر لحظة حتى كان الهمداني جالسا بحضرة ذي القرنين .

* * *

لقد اسمعناك امس ما لا تحب يا ذا تبع اليس كذلك ؟

فقال : شرف المخلصين للملك ان يسمعوا ويطيعوا يا مولاي . لقد نسيت كل ما حدث امس .

— وماذا صنعت بعد خروجك ؟

— ذهبت الى قصر شرحبيل كما امرني مولاي .

فتظاهر بالاستغراب ثم قال : وكيف لم تذكر لنا انك ستذهب اليه ؟

— وهل يقوم في ذهن الملك اني اتردد في تنفيذ ما يأمرني به ؟

فناوله وسادة كانت الى جانبه وهو يقول : اجلس اذن وخبرنا كل شيء .

— لم اعلم يا مولاي اي حديث جرى بين شرحبيل وبين اهله لاني لم الحق به على الاثر وكنت واثقا بانه لا يذكر لهم امامي شيئا .

— وبينك وبينه ؟

— اما بيني وبينه فقد حدث ما يطيب له نفس الملك . . لقد عرفت انه من اصدق الناس في خدمة مولاه ولا اتردد في القول ان الذين نقلوا اليك خبر خيانته وخروجه عن الطاعة كانوا يكذبون .

قال : احذر يا ذا تبع فقد بلغنا الآن غير ما تقول !

فأجابه وهو هادىء : وقد كذبوا مرة اخرى يا مولاي ، فانا واثق بما اقول ولا اكتم الملك كلمة واحدة من حديث الرجل .

ــ ولكن الذي خبرنا يقيم بقصر شرحبيل ويعرف اسرار القوم .

ــ ومن يقيم بذلك القصر يا مولاي ؟ اجل تقيم نعمى بنت الريان ولا اعلم اذا كانت هي صاحبة الفضل في نقل الاخبار الكاذبة .

وقد بدأ الفتى في تلك اللحظة بتمثيل دوره .

فقال الملك : اتظن ان الوصيفة التي وهبناها لبلقيس تخون ملكها ؟

ــ اذا كانت قد نقلت اليك غير ما انقله الآن فهي خائنة ، ولكنها لا تخون الملك بل تخون شرحبيل النازلة بين اهله .. لقد باح لي شرحبيل بجميع اسراره يا مولاي فاذا هو نبيل في ولائه ووفائه ولا اظن انه يبوح لوصيفة ابنته بغير ما باح لي ، الا اذا كان من اكذب الناس !

ــ واذا خطر للملك ان يدعو بنت الريان الى هذه القاعة الآن ويسألها عن هذا كله فماذا تقول ؟؟

ــ لا تخرج من في كلمة ، ولكني اسأل مولاي الملك وحاشداً ان يحفظا قولي الذي ارويه ، ثم يأمر الملك بشرحبيل فيحضر ويستعيده حديثه ، فاذا رأى اني جاوزت حدي بكلمة واحدة فليس له الا ان يأمر بضرب عنقي ويطرح بجثتي الى كلاب مأرب في احدى الساحات .

ــ أو نضرب عنق نعمى الكاذبة وينتهي الامر .

ــ لا يا مولاي بل التمس منك ان تعفو عنها فهي امرأة والملوك لا يبالون بالنساء .

وكانت لهجته لهجة فتى جريء صريح واثق بنفسه .

فثبت للملك ان الاثنين ، الفتاة والفتى ، كانا صادقين ، وانه تعجل في امر ذلك الشك الذي دب في صدره فقال : كنى يا ذا تبع فانت صادق .

قال : مر يا مولاي باحضارها فتعلم غايتها من الكذب .

ــ سننظر في هذا بعد ذهابك . ولكن الا تذكر ان الملك اوصاك بكتمان ما خبرك به عن خيانة شرحبيل ؟

ـ بلى يا مولاي ولكني لم اطق الكتمان . قد رأيت اني اذا صبرت على الخائن فقد اذلت الى الملك وكنت خائناً .

ـ وهل كنت تظن ان الرجل يعترف لك بما في ضميره ؟

ـ لقد همست في اذنه يا مولاي اني ابغض الملك وسألته ان يكون عوناً لي في بغضي وانا اضمن له العرش الذي يحلم به ، تلك كانت فاتحة حديثي معه يا مولاي ، ولكنه رفع صوته ولم يبال بهمسي واستغرب كثيراً تلك الجرأة التي فاتحته بها دون ان يكون هنالك عهد ماض بيني وبينه .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ قال لي بعد ذلك كلاماً حفظته كما ورد هو هذا :

اريد ان تعلم اليمن كلها ان شرحبيل بن عمرو لا يخون عرش اجداده وانه ليس في اليمن رجل يدافع مثله عن هذا العرش ! ثم قال : لا يليق بك وانت امير همدان وتعيش في ظل الملك وتخونه وخير لك ان تترك البلاط وتنصرف الى بلاد قومك فمثلك لا يجالس الملوك .

ـ وعندئذ؟

ـ رأيت ان ابوح له بامري ، وطلبت اليه ان يعذرني عما رأى وسمع ، ثم تعاهدنا على الوفاء للتاج الحميري وصاحب التاج .

ـ وانت قد صدقت ما قاله ؟

ـ نعم يا مولاي ولم يبق الآن الا ان يمتحنه الملك في شأن من شؤونه .

فذكر ذو القرنين حديث عبد شمس ومعدي كرب منذ ساعة ثم قال :

حسنا فسنختبر الاثنين بعد بضعة ايام .

ـ فتجاهل قائلا : نحن ننظر في امر شرحبيل وحده يا مولاي فمن هو الآخر الذي ستمتحنه ؟

ـ انت ! فلن يزول الريب من صدر الملك حتى يلمس اخلاصك بيده .

فأشرق جبينه وقال : مرني يا مولاي بما تشاء اكن عبداً .

ثم وضع وجهه بين يديه كأن ذلك الريب اهانة له .

قال : اتبكي يا ذا تبع ؟

ـ وهل تستغرب بكائي يا مولاي وانت تضع سهامك في صدري ؟

قال : انهض واترك البكاء ليوم يعرف فيه الملك انك تخونه .

ـ اذن لن ابكي يا مولاي فاليوم الذي تذكره لا وجود له .

فلم يجب ، بل خاطب حاشداً قائلا : اما انت فاركب فرسك الآن وخذ معك من تشاء من الرجال واذهب الى شبام ثم الى عمران فان لم تجد فيهما ولي العهد فامض الى ريدة واسأل عنه فقد طال غيابه وهذا ذو تبع يقوم مقامك في منادمة الملك وسقايته ريثما تعود !

فكاد الفتى يفقد جلده لهذا المنصب الجديد الذي جاد به عليه مولاه .

انه اسر في قفص ذهبي .. بل هي حيلة ضمن بها ذو القرنين بقاء امير همدان الى جانبه ، في الليل والنهار دون ان يسيء اليه .

أجـــل ، ان ساقي الملك الحميري لا يستطيع ان يترك القصر الا اذا هجر الملك الخمر ، وذو القرنين لا يهجرها الا اذا اغمض الموت عينيه ؟

ولو لم يكن ذو تبع عاشقاً ، بل لو كان قادراً على الصبر في غرامه الجديد ، لعد وظيفة الساقي نعمة هبطت عليه من السماء .

ولكنه لا يطيق ان يقوم بالقصر الايام الكثيرة دون ان يرى ذلك الوجه الزاهي الذي فتنه جماله وتيمك العينين الجذابتين اللتان سلبتاه نهاه .

ومن يعلم متى يعود حاشد وولي العهد ايصبح حراً ، كما كان ؟ بل من يعلم اذا كان الملك قصدها ام صدرت منه عن غير عمد ؟

فمرت سحابة سوداء امام عينيه ثم قال : لا عهد لي من قبل بمنادمة الملوك يا مولاي كما اني لم اتعود الشراب .

فضحك قائلا : ولكنك تعرف ان تملأ الاقداح ، اذهب يا حاشد والويل لك اذا غربت الشمس وانت في البلاط .

وعندما هم حاشد بتقبيل ردائه قال له : احذر ان تعود قبل ان يعود عمرو اذا كان في اليمامة ، اما ذو تبع فسيبدأ هذا المساء ان يكون نديمـــاً للملك ولكن

دون ان يشاركنا في الشرب .. اخرجا الآن .
فانصرف الاثنان ، حاشداً يملأ صدره الفرح لهذا الطواف الذي سيجريه .
وصدر ذو تبع يملأه الهم ، لذلـك المنصب العظيم ، منصب صب الخمر في الاقداح .
وعند انصرافهما خرجت نعمى من ذلك المخبأ صفراء الوجه وهي تقول :
لم أر اعظم منك يا مولاي في قراءة الاسرار .
قال : ولكن كنتما صادقين فاستحققتما عطف الملك .. خذي هذا الخـاتم الذي يساوي مأرب على ان لا تلبسيه !
ـ لماذا يا مولاي ؟
ـ لكي لا تظن بلقيس اننا نغدق عليك النعم .
فتناولته وهي تقبل اليد التي جادت به وكانت تقول في نفسها :
انك تحب بلقيس وتبغضها في وقت واحد يا مولاي فالويل لك .
وقبل ان تستأذن بالذهاب سألته قائلة : من كان يظن ان امير همدان يصبح نديماً للملك ؟
قال : ولكن عمر هذه المنادمة قصير كما ترين .
ـ يكفي ان ينادم مولاي يوماً واحداً ليصبح في نظر الناس سيد الامراء .
فجعل يهز رأسه ويقول : الملك كثـير الظنون يا نعمى ولا يستطيـع هؤلاء الشبان ان يخدعوه .
ـ وكيف ذلك يا مولاي ؟
ـ يخيل الينا ان الهمداني يحب بلقيس !.
فنزلت تلك الكلمة نزول الصاعقـة على رأس نعمى وتراجعت بذعر الى الوراء .
اما هو فاستطرد قائلا : وسنضع يدنا على هذا الحب اذا كان موجودا . .
ان نديمنا صريح في قوله وسيبوح لنا بهواه عندما يبرح به الشوق .!
ـ وكيف يحب المرء فتاة لا يعرفها ؟

ــ كما احبها الملك وهو لم ير لها وجها .
فضاق صدرها وارادت ان تعجل في الخروج لترى ذا تبع وتعيد عليه قول الملك قبل ان يتوارى في اروقة البلاط ودهاليزه ، فقالت :
ــ وبماذا تأمرني يا مولاي ؟
ــ أتذهبين الآن ؟
ــ ابقى اذا امرني الملك .
ــ لا . اذهبي وخبري بلقيس ان امير همدان لا يخرج من القصر الا عندما يعود عمرو .
ــ ولكنها لا تبالي بهذا الخبر لانها لا تعرف الفتى كما قلت .
ــ ومع ذلك فانقلي اليها ما سمعت وانصرفي الآن .
واغمض عينيه ليهضم ذلك الدهاء الذي يظن انه بلغ به الغاية .
ولم يدر ان خصومه ، كانوا حتى ذلك اليوم ، اشد دهاء منه .

* * *

خرجت نعمى فلم ترد ذا تبع ولم تجرؤ على السؤال .
وكانت تمشي متثاقلة علها تراه او تسمع صوته في احدى الحجرات .
فلم يخدمها الحظ ولم تبصر له ظلا .
فغادرت البلاط الى قصر الامير تقص على سيدتها تلك الرواية الغريبة التي مثل الملك فصلها الاول في ذلك الصباح .
ولكن بلقيس لم تضطرب ولم تجزع بل كانت تصغي اليها وثغرها ضاحك وهي مشرقة الجبين كأن الرجل الذي تذكره لها لا تعرف من هو !
ثم خبرتها انها لم تره في الاروقة لتحذره من الملك .
فقالت : اتظنين ان ذا تبع سيعترف للملك بغرامه وهو يكاد يكتم نفسه هذا الغرام ؟ انك لا تستطيعين ان تعلمي ما هو الهوى لانك لم تحبي . . ولو كتب

نك ان تعشقي احد الفتيان لاحسست انك اثبت جنانا واعظم قوة مما انت عليه الآن .. اجل سيبذل الملك جهده كله ويستعين بابتساماته ودهائه ليسمع اعتراف ذي تبع ولكنه سيفشل وسيتعثر باذيال الخيبة لان الفتى لا يعـــترف بشيء والملك اضعف من ان يخدعه .

ــ ولكن الحكمة والدهاء لا يتحجبان دلائل الحب .

قالت : ان في صدري من الحب ما لو نزل بالجبل لزعزع اركانه ، ومع ذلك فلو لم اعترف لك ولأبي بحبي لما خطر لاحد اني عاشقة .

قالت : الا يجوز ان يخون الشوق امير همدان فيبوح بكل شيء ؟

ــ بلى يخونه كما تقولين ولكن عندما يصبح مجنونا .. وهل ذكر لـــك الملك شيئا عن الزواج ؟

ــ اجل واعدت عليه القول الذي امرتني به .

نعم لقد خافت بلقيس ان تمر الشهور على غيابه فيبزح بهـــا الشوق الى ذلك الحبيب .

انها اذا تظاهرت لمن حولها بالجلد وقلة الاكتراث فلكي تسلم عظمتها مـــن الظنون ولكنها وهي العاشقة المفتونة ذات العاطفة الوثابة ، لا تستطيـــع الا ان تتألم لذلك الفراق الفجائي الذي خلقه الزمان وهي في فجر الغرام .

وجعلت تستعرض الحادثات ، لترى اية واحـــدة منها بعثت الريبة الى صدر الملك .

ولم يكن امامها غير حادثة واحدة هي ما قام به ذو تبع من الدفاع عـــن شرحبيل ويكفي ذلك الدفاع وحده ليكون سببا للظنون .

ثم رأت اباها وذا مغار فقالت لهما : متى يعود ولي العهد من سفره ؟

فقال ذو مغار : لقد ترك ريـــدة منذ بضعة ايام وهو اليوم في شبام على ما عرفت ...

ــ اذن يكون في مأرب بعد شهر .

ــ ولماذا تسألين عنه ؟

ـ لان الملك جعل حاشداً رسوله اليه وأمر ذا تبع بان ينادمه ويسقيه .

فقال : لقد خدمتنا الاقدار اذاً من حيث لا نعلم .. الذي ينادم الملك يشهد ساعات سكره ويعرف جميع اسراره .

فتمتمت قائلة : ويجب ان يشقى المحبون في سبيل الوصول الى هذه الاسرار.

ورجعت الى غرفتها لتسأل الآلهة ان تهب لها قلباً اشد من الحديد .

• • •

لم يكن هم امير همدان بعدان امره الملك بمنادمته ، الا ان يخلو بعتيك بن روضة ويسمع حكايته من فه ، ويتعاهدا على المضي في امرهما الجديد الى النهاية .

وكان يخاف حاشداً ولا يريد ان يحادث احداً من رجال البلاط وهو فيه .

فصبر ساعة حتى خرج من القصر ، ثم رآه على فرسه تحيط به الغلمـــان ، فطابت نفسه واقبل يسأل العبيد عنه ؟

وكان عتيك بدوره قد رآه ورأى حاشداً ، ولم تكن الا لحظة حتى تلاقيـــا ودخلا احدى الحجرات واغلقا الباب ، ثم رجع ذو تبع :

كيف عرفت ايها الامير ان عيني الملك تنظران الي ؟

ـ ليس لك ان تسألني كيف عرفت ذلك بل يجب ان تعلم اني اعرف كل ما يحدث في البلاط دون ان يفوتني شيء ..

ـ ولكن يجب ان اعلم على الاقل ما الذي يدعوك الى العناية بي .

ـ رأيتك تتصدى للملك في رأي له ، وتقف وانت بين يديه موقف دفـــاع لا يجسر سواك على الوقوف مثلـــه .. ثم سمعت الملك يتهمك بالخيانـــة ويأمر حاشداً بان يحصي عليك انفاسك ويتبع كل اثر من اثارك في القصر وخارج القصر فعرفت ان الآلهة ارسلتك الي وهيأت لي اسباب الظفر بالغرض الذي اقيم بالبلاط لاجله ...

قال : يتهمني الملك بالخيانة ؟

– اجل ولو لم يكن ذلك لما رأيت حاشداً يمشي ووراءك كلما مشيت واللؤم والحقد يطلان من عينيه الخبيثتين اللتين تستقر فيهما النار .

– اذن فانا مدين لك بالحياة ايها الامير .

– لست مدينا لي بشيء فيد الملك لم تمتد الى حياتك بعد ، ولكني انصح لك بان تسمع لي فقد ذقت حلو العيش ومره وبلوت الزمان واهل الزمان

– ولكن من يثبت لي انك لست من رجال الملك الذين ينتزعون الاسرار من افواه الناس ؟

سأثبت لك اني من اولئك الرجال الذين يحاولون انتزاع روح الملك من صدره. انا عمرو بن روضة .

– لقد عرفت هذا الاسم ولم اعرف شيئاً آخر .

– اي اني ابن رجل قتله والد الملك قتلا لم تتحدث بمثله العصور .

– واي ذنب لذي القرنين ؟

– ذنبه انه ابن القاتل الذي تشرب من دمائه قومه ما يملأ سد مأرب ! بل ذنبه انه مثل ابيه يسلب الاعراض وينتهك الحرمات ويدوس شرف الناس بنعله ولا يعبأ الا بما فيه لذته وهواه ... ذنبه انه الملك الظالم الذي يستحل ما حرمته الآلهة ويستبيح الكرامات لا يبالي باصحابها ولو كانوا من صلبه !.. واي ذنب يأتيه الملك افظع من ان يجعل بنت عمه العوبة في ايدي رجاله الذين لا يصلحون ان يكونوا لها عبيداً ! ؟

اتعني بلقيس ؟

– اجل فانا لا اعني سواها ولا اصدق متى يجود الزمان علي بان اراها لاجثو عند قدميها كما اجثو امام الآلهة . انها اطهر من الآلهة واعز مقاما !

ثم قال : لقد ظن الملك ان شرحبيل بن عمرو سيخر ساجداً له عندما يأمره ببيع شرفه ويحني رأسه حتى يلتصق بالارض فيضع عليه قدمه ! ! ولكن طاش سهمه ، فقد كان شرحبيل اعظم منه وهو يهزأ به عندما يعده ببلقيس ويعد له سيف جده يعفر للقضاء به عليه .. ولكن ما لنا ولشرحبيل فقد يستسلم اخيراً الى

الظالم وينسى مجده ومقامه فيهوي الى الاعماق .. نعم ليس لعتيك بن روضة الا ان يهتم لامر نفسه ويسأل روح ابيه ان تهب له القوة ويبلغ بها غايته .

واحمرت عيناه كأن السيف في يده يضرب به عدوا له في ساحة القتال .

فقال الفتى : خير لنا ان نتحدث برفق ايها الامير فللجدران آذان تسمع همس الشفاه .

قال : اصبت فقد ضيعت صمتي وهدوئي اللذين اصبحا مثلا لاهل القصر ، اسأل عما تشاء .

قال : ما هي غايتك ؟

فوضع يده على صدره قائلا : غايتي ان اضرب الملك ضربة واحدة افصل بها رأسه عن جسده ثم ألحق بارض قومي .

فاجابه الفتى وهو يبتسم : تقول هذا وانت غير خائف ؟

ـ وماذا اخاف ؟

هذا الفتى الذي تخاطبه كأنه شريك لك في ثأرك .

قال : وهل اخذت عن الملك رياءه واسلوبه الكاذب يا صاحب همدان او تتظاهر بالاخلاص له وانت لا تحبه ولا تريد ان تجالسه او تسمع صوته ؟؟ ولكن لا فانت تحب ولي عهده الطاهر القلب النبيل القصد الذي سيخلف اباه في مروءته وعدله وعطفه على الابرياء .

فجعل ذو تبع يتفرس فيه وهو يعجب لاطلاعه على جميع الاسرار كأنه من الجن ثم قال له : ارجو الا تثق بي هذا الوثوق كله خوفاً من ان تندم بعد حين . اني احب الاثنين واحترمهما ؛ الاول لانه ملكي ، والآخر لانه وارث العرش وانا مكره على احترامه .

قال : اقسم بدم ابي الذي اراقوه ظلماً انك كاذب .. لقد قلت اني اعلم كل شيء ولا اغفل عن شيء ، اعرف كل كلمة تقال في مجلس الملك على مسمع من الامراء ، واعرف كل ما يدور بين الملك وبين نديمه في ساعات السكر ، اسمع الحديث الذي يهامس به الملك نساءه ، بل اكاد اعرف ما في هذه القلوب عندما

لعنى على البغض والحب !! أفهمت الآن ؟ اذن فاعلم ان هذه المظاهرة الكاذبة لا تخدع عتيكـــا واطلب اليك ان تعترف بالبغض الذي يجـــول في صدرك او فانصرف من هذه الساعة فانا لا حاجة لي اليك .

قال : انصرف واخبر الملك كل ما سمعت .

فنهض بعظمة غريبة وفتح الباب وهو يقول : اخرج وخـــبر الانس والجن فانا لا ابالي .

قال : لم يبق الا ان اعترف لك ببغضي فقد وثقت بكل ما تقول .

فاغلق الباب وقال : لقد اصبحت منذ ساعة نديما للملك وستجالسه عـــلى شرابه وتسقيه عندما يطيب له الشرب .

ــ نعم كما اصبحت انت في نظري ساحراً من سحرة اليمن .

فلم يبتسم بل قال : اجل ولهذا الساحر حاجة يسألك ان تقضيها له .

قال : ما هي ؟

ــ هي ان تسقي الملك بعد ثلاث ليال حتى يسكر ثم يغيب عن الرشد .

ــ ثم ماذا ؟

ــ ثم تنحي الحراس عن بابه قائلا لهم : انصرفوا فالملك يغط في نومه .

ــ وبعد ان افعل كل هذا ؟

ــ تخرج الى الرواق لحظة ثم تعود .أتعلم عندئـــذ ماذا ترى ؟انك ترى الملك غائصاً في دمه وهو جسد لا رأس له .

ــ أتقتله ايها الامير على هذه الصورة ؟

ــ نعم وبضربة واحدة كما قلت .

ورفع عباءته السوداء وتناول من حزامه خنجراً طويل الشفرة وهو يقول : انظر انه طويل كالسيف وضربة واحدة منه تكفي لان تفصل رأس الثور .

فابتسم قائلا : وأين تكون انت في تلك الساعة ؟

قال : يهمك ان تعـــلم قبل كل شيء اين اكون وكيف استطعت ان اعرف جميع هذه الاسرار اليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ اذن فاعلم اني اكون في تلك الساعـــة ، في الغرفة الصغيرة التي تطل على مجلس الملك الخاص والتي يحجبها الستار الاسود عن العيون .

ـ ويل لك يا ابن روضة !! كيف تستطيع ان تصل اليها والملك في مجلسه ؟

ـ الا تعلم ان لها باباً آخر من الدهليز ؟

ـ بلى ، وعلى الباب حارس من حراس الملك .

قال : سيزول عجبك عندمـــا تعلم اني اشتريت هـــذا الحارس بقبضتين من الذهب . . .

ـ واذا دخلها الملك فجأة لحاجة له ؟

ـ يدخلها ولا يرى احداً .!

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لقد وضع الملك في تلك الحجرة صنـــاديق سلاحه فيها السيوف والرماح والخناجر والسهام التي اهداها اليه الملوك والامراء .

ـ نعم .

ـ حتى انك لا تستطيع ان تجلس فيها الا على احد الصناديق .

ـ واين تجلس انت ؟

ـ جعلت لي مخبأ بينها لا يقع عليه نظر الداخل .. ألم يقل لك الملك منـــذ ساعة انه سيدعو نعمى بنت الريان ليعلم من هو الكاذب ؟

ـ بلى .

ـ أتعلم اين كانت نعمى؟ انها كانت في تلك الحجرة أدخلها اليها ذو القرنين قبل ان تمثل انت بين يديه ، وكنت انا في مخبأي احبس انفاسي لئلا تنم علي هذه الانفاس فيصبح احد الصناديق قبراً لي ..

ـ اذن سمعت حديث الاثنين ؟

ـ وسمعت كل كلمة قالها الملك في قاعته قبل اليوم .. والآن فقد عرفت ما اردت ان تعرفه فما هو جوابك عما سألتك ؟

قال : اما جوابي فهو اني لا اغدر بمن وثق بي ولو كان عدوي ولا ارضى بان يكون عنيك بن روضة غادراً وهو ملك في قومه !

ـ وكيف ابلغ الغاية من قتل الملك ؟

ـ انك تقدر ان تضربه عندما تشاء الا في الساعة التي انادمه فيها .

ـ ولكني اموت بعد ان افعل .

ـ نعم فالذي يثأر بأبيه لا يخاف الموت !

قال : لو كنت تعلم من هو ابن روضة لما ذكرت الخوف .. اني لا اغدر بالملك لاني خائف بل لاني اريد ان اموت .

ـ أتكون الحياة عزيزة عليك الى هذا الحد ؟

قال : لي ولدان ، كبيرهما في العاشرة من عمره ، فاذا قتلت الملك ولم افر اليهما قتلني الانصار والجند ومدوا ايديهم بعد ذلك الى الولدين فقتلوهما واستولوا على المملكة .

ـ وهل تنجو من الموت اذا فررت من مأرب ؟

ـ نعم احارب انصار الملك وجنوده في جبال قومي عشرين عاماً .

ـ ولكن يقال انك غادر وهذا يكفي .

ـ عدني بانك ستغض طرفك عما يجري حولك وليقل الناس ما يطيب لهم قوله ...

ـ قلت انني لا اغدر بمن يثق بي فلا تعد الى مثل هذا .

ـ اذن يموت الملك وهو بين حراسه في الرواق ثم اموت بعده .

ـ والصغيران ؟

ـ وليفعل الصغيران ، ان الموت خير من حياة ليس لهما فيها نصير .

وتلألأت في عينيه الدموع .

قال : بل يبقى ولداك وتبقى فقد وجدت لك حلا .

فمسح دموعه وجعل يحدق اليه .

فقال : في مأرب امراء كثار يرغبون فيما ترغب ويفكرون في خلع الملك

الظالم عن العرش بقوة السيف .

فقاطعه قائلا : احلف لي بشرف قومك ان هؤلاء وجوداً ؟

ــ احلف لك بشرفي وشرف قومي .

قال : لقد نسيت اننا نتآمر على الملك ! ! اخفض صوتك فالموت لا يبعد عنا اكثر من خطوتين . . ان شرحبيل بن عمرو احد الامراء الذين ذكرت بل هو سيدهم الذي سيرفع لواء العصيان بعد حين ويرأس جنود للثوره .

ــ لقد فكرت فيه ولكني لم اجسر على ذكر اسمه . والآخرون ؟

ــ اما الآخرون فاهل المروءة والعز واصحاب المخاليف الكبرى في اليمن الذين لم يروا من الملك الا القساوة والظلم والرياء ، انهم ذو مغار وياسر بن عمه وذو تبع واخوه مالك وعمه عبيد ، وجبار بن دوير والغوث بن راهط ، وقد انضم اليهم اخيرا امير آخر هو عتيك بن روضة .

فظهر البشر على وجهه قائلا: اصبت فهم اهل الشرف كما قلت ومتى يبدأون؟

ــ اما هذا فلا استطيع ان اعرفه لان ليس في يدي ولا في ايديهم بل في يد باقيس بنت شرحبيل !

ــ أتتآمر باقيس ايضا ؟

ــ نعم ولا يجلس على العرش بعد ذي القرنين غير بلقيس ، هذه حكايتي قصصتها عليك الآن فعد الى سكوتك واترك ثأرك الى ان تأتي ساعته .

ثم قال : وارجو ان تعلم ، قبل ان تحول المنادمة بيني وبينك ، اني خرجت من قصر شرحبيل على امل ان اراك واسألك رأيك في المؤامرة بل لاسألك الخروج عن طاعة الملك والالتجاء الى السيف عندما نلجأ اليه .

ــ وكيف تجرؤ على ذلك وانت لا تعرفني ولا تعرف حكايتي ؟

ــ بل كنت اعرفها كما يعرفها شرحبيل ومن حوله .

ــ اذن فنعمى بنت الريان هي التي خبرتكم اياها .

ــ اجل وقد روت لبلقيس حوادث ماضيك كله كأنها كانت رفيقة لك في نحلة وانت صغير . .

قال : لم اجد بين رجال البلاط ونسائه واحــدا يضمر البغض للملك غير امي : فبحت لها بسري وطلبت اليها ان تكون عونا لي .

ــ ولكن ماذا تظن ؟ ايذكر الملك ذلك الحادث الفظيع الذي اقدم عليــه ابواه ام نسي الماضي بما فيه ؟

ــ لو كان يذكره لبث علي العيون وانا في بلاطه يحصي علي الانفاس .

قال : كم هو عدد جنودك ايها الامير ؟

ــ في نحلة من الجند مثلما في همدان .

ــ وانت مستعد ؟

ــ نعم على ان تصف لي المنهاج الذي وضعتموه :

فجعل يصف له ما يعلم حتى انتهى الى قولــه : اذا تم كل ذلك كما نظن استولت بالقيس على كل شيء وكنا حول عرشها اصدق الرجال .

فلمس عتيك في تلك اللحظة دلائل الحب تبدو في كل مظاهر من مظاهر الفتى العاشق فقال له :

اقسم بتراب روضة ان بلقيس احب نساء اليمن اليك .

فقال : اخطأت فهي احب الناس كلهم بل هي احب من نفسي !

ــ وماذا تصنعان بولي العهد الطامع في الزواج ؟

فتجهم وجهه لذلك السؤال وقال : اقسم لك بدوري انني لا اعلم الآن كيف ينتهي امر غرامه .

ثم نهض قائلا : اتعود الى صناديقك ؟

ــ اجل : فالجلوس بين تلك الصناديق يشفي غليلي ويبرد ما بي .

ــ اما انا فالجلوس مع الملك يجرح قلبي ويسعر النار فيه .

قال : في صدري نار الثأر ، وفي صدرك نار الغرام ، فالويل لنا من النارين.

وخرج ذو تبع وحده ، فلما تغلل في الرواق خرج عتيك ، وضاع الاثنان بين الجواري والغلمان الذين تغص بهم الدهاليز .

* * *

٢٢

الحبشة دولة قديمة العهد لها الملك الواسع والعرش الثـــابت الاركان يخلف عليه الولد اباه ، ويحميه الرجال المجربون ، الذين حملوا في حفظ ملكهم وتوسيعه ألوية الفخار .

وجو الحبشة ، جو صاف هادىء ، ولكنه حار ، فيه شيء من الاعتدال .

وارضها خصبة ، تدر على اصحابها جميع الخيرات ، وتعيش في غاباتها ، في السهل والجبل جميع اصناف الحيوان .

وانك لتقدر ان تقول ، ان انواع الحيوان التي ذكرنا ، كانت مورد الحبشة وسبباً لتوافر المال بين ايدي الحبشان .

يصيدونها ، ثم يبيعون جلودها فيما يجاورهم من البلدان ، ويجعلون مـــا يبقى منها اثاثاً ورياشاً للاكواخ والقصور ، ولباساً يحسنون صنعه ، للنساء والرجال.

والمرأة الحبشية تشارك رجالها في الصيد ، ولعلهـــا اعظم صبراً على حوادث الزمان واكثر احتمالا منه .

وللصيد عندهم طرق كثيرة علمتهم اياها التجاريب ، وعندهم السلاح الكثير يجعلونه حاداً حتى يجاوز بك حد الدهشة والاستغراب .

وفي الغابات مغاور وكهوف اوجدت الطبيعة بعضها واعـــد الانسان البعض الآخر وهي جميعها ممهدة الجوانب كأنها بيوت في البر .

فاذا ارادوا ان يصيدوا الفيل ، لاجل العاج البارز من بين فكيه ، جلس في كل كهف منها ثمانية اشخاص بايديهم الاقواس والسهـــام المسمومة ، حتى اذا ظهر الفيل ارسلوا سهـــامهم دفعة واحدة وقد تخترق هذه السهام الحجر وتسم الحديد ...

ثم يجعلون العيون على الفيل حتى يقتله السهم ، فينتهكوا حرمتـــه وهو ميت ويخرجوا من فه الهائل عاجه الثمين الذي يحمله .

واذا ارادوا صيد الاسد وما يشبهه من وحش ضار ، عمدوا الى السهـــام

العادية او الخناجر الطويـــلة واغمدوها في جسده الندي ... فيصرعونه في طرفة عـــين ...

والصيادون في الحبشة طوائف تعرف كل واحدة منها الاخرى ولها الرؤساء والقواد الذين لا يهابون الموت .

هذه تصيد الفيلة ، وهذه تصيد الاسد وانواع السباع ، وهذه تصيد القرود والغزلان وكل حيوان صغير .

ولكن هؤلاء الصيادين لا يستأثرون وحدهم بالغنيمة ، فللرئيس حصة منهـا مهما يكن نوعها ، وللملك نصيبه الذي هو الخراج .

اجل لم يكن لملوك الحبشة خراج من المال ، بل كان خراجهم عاجاً وجلوداً وحبوباً ، على مثال العشر الذي يؤخذ في هذا الزمان .

على كل صياد بضعة جلود في العام يحملها الجباة الى الملك صحيحة لا نتن ولا رطوبة ، ويوضع نصيبـــه من العاج في بناء طويل عريض لـــه حراس يدعونهم « حراس الفيل » ثم تحمل هذه الاشياء الى التجار ، او الى الاقطار .

اما الجماعات الاخرى ، من التجار والصناع فخراجها يزيد على خراج الصيد في هذا العام ، وينقص في العام الآخر ، لحكمة يراها الملك وجباته .

وكان العلي اسكندي ، كثير العطف على الامة ، وله العناية الخاصة بالصيادين، فهم في نظره سياج الحبشة وحماتها ، ورجال القوة والبـــأس واصحاب السيف القاطع في اليوم العصيب .

اجل ، ان الرجال الذي يهاجم الاسد في عرينه ، لا يتردد في ان يهاجم عدوه في ساحات القتال

واحب افراد الجيش اليه ، اولئك الرجال الذين يحملون سهامهم كل يـــوم ويطوفون في الغاب بين الاسود والانمار .

وقد جعل معظم قواده من هؤلاء ، وخصهم بالعطايا والنعم ، حتى اصبحوا بعد الملك ، اغنى اهل اليمن بفضل ذلك العطاء .

وكما بز العربي ، جميع الشعوب التي حوله ، بضرب السيف ، هكذا بز الحبشي

بالرماية ، جميع اهل ذلك الجيل لا يجاريه فيه احد .

وكما روضت العرب خيلها حتى ضربت بها الامثال ، هكذا روض الحبشان افيالهم يرسلونها الى حيث يشاؤون كما يرسل العربي فرسه الى حيث يشاء .

وجيش العلي اسكندي ، فرق كثيرة لكل منهـا عمل من اعمـال الحرب ، ولكن ، ليس لها نظام كنظام ذي القرنين ، وقد تكون في الميدان ، اصدق طاعة من فرق الجيش اليمني .

غير ان هنالك شيئا آخر لا ننساه ، هو ان الفارس يستطيع ان يسكت فرسه اذا هاج ، ولكن الفيل اذا هيجوه لا يهدأ ولا يلين .

ولولا هذه الطبيعة الجامحة ، لكان صاحب الفيل سيد الموقف في كل حرب ، ولما استطاعت الصفوف ان تثبت في وجه فيل واحد يدفعه راكبه الى الامام ...

ولم يعن العلي اسكندي بجيش البر فحسب ، بل وجه عنايته الى صنف آخر من الجيش هو جيش البحر ، وليس في ذلك شيء من الغرابة ففي بـلاده امهر الملاحين الذين اخضعوا البحار .

وكانت له مراكب كثيرة عدا مراكب قومه ، يبعثها في تجارته الخاصة الى الشواطىء وينقل عليها الجنود عند الحاجة ، الى بلاد الناس .

وحياة الملك ، في بلاطه ، وبين شعبه ، حياة هناء وصفاء ، ومجد وعز كحياة اولئك الملوك الشرقيين الذين دانت لهم الارض فجروا اذيال الخيلاء .

مال لا تأكله النار كما يقولون ، وحاشية ، من نبلاء القوم واشرافهم ، وملوك الناس يحترمونه ويخطبون ولاءه ، وغابات بلاده تعطيه ما يشاء من الصيـد وقد اولع به الى احد الجنون ، ورجال الحبشة ونساؤها اطوع لهم من ظله .

الا امراً واحداً كان يهمه ويتهيأ له : هو الاستيلاء على العرش الحميري ونقله من مأرب الى اكسوم !

ان اجداده في اوائل القرن الثاني ، واواخر الثالث ، فتحوا بعض اليمن وبعض تهامه ، وجعلوا ذينك القطرين ميدانا للتجارة ومجالا للنفوذ ، امـا هو فيريد ان يفتحها جميعاً ، ويكتب الى جانب اسمه العظيم هذه الكلمة :

ملك اكسوم وسبا وريدان وسلحين !

ان هذه الكلمة ، كتبها اولئك الاجداد الى جانب اسمائهم ، ولكن وضع البطل عليها يده ومحتها الاقدار ، فهو يريد ان يكتبها من جديد بحروف من الفولاذ لا يستطيع ان يؤثر فيها مر الزمان .

على ان هذا الملك ، الصياد ، الطيب القلب ، الذي كان ابا لشعبه لم يكن يطمع باليمن من قبل، ولم يفكر في الفتح لولا القيصر الجالس على عرش الروم .

اجل ، ان حليفه ملك روما يدفعه بيديه الاثنتين الى استرجاع ما خسره الجدود ، ليس « كرامة لسواد عينيه » ، بل لان مصلحة الروم تكاد تضيع ، في كل بلد يخفق فيه لواء ذي القرنين الحميري .

وهو لا يحتاج الى السلاح والمال ، وهب انه احتاج فالقيصر يبعث اليه بهما دون ان يكون بين الاثنين حساب .

وكان يعلم ان ذلك القيصر لا يحب الا نفسه ، وانه اذا دفعه الىفتحاليمنفانما يفعل لاجل الكسب كما قرأت ، ولكنه لم يكن يريد يغضبه خوفاً من ان يوجه اليه الجيوش من مصر فتعكر عليه الجو ، وحفظاً لمصلحة الحبشة وتجارتها في بلاد فرعون الزاهرة ، الكثيرة الخيرات .

على انه لم يكن يجرؤ على التوغل في اليمن الا اذا آنس ضعفاً في حكومته وعجزاً عن حماية الحدود الفاصلة بين القطرين .

والا فالحرب تبقى بينهما معارك صغيرة كما رأيت حتى تسنح له الفرص ، فيمشي الى الامام ويكتب له الظفر بعدوه او يموت .

فلما بلغه ان سابور يطوف في بلاد العرب معه ويطوف معه الفناء والدمار بعث بفريق قليل من جيشه الى الشاطىء اليمني كما مر ، ليسبر غور الحميري موقفه بين عدوين يهاجمان اليمن من الشمال والجنوب .

ثم انتهى اليه ان سابور في اليمامة فخيل اليه ان ساعة ذي القرنين قد دنت ، وعول على احتلال مهرا ، من الجنوب ، اذا غزا ، سابور اليمن داخلا اليها من الوادي الذي هو وادي الدواسر ، اليوم .

وعندئذ يقضي على جاره القضاء الذي لا قيـام له بعده ، ولا يلبث الملك الفارسيَ حتى يعود الى بلاده راضياً بالدماء التي اجراها في سبيل ثأره ، فيخلوله الجو ، ويستقيم له الامر ..

واقام ينتظر اخبار الشاطيء ، وهو واثق بان جنوده سيملكونه ، فـيرسل اليهم فريقاً آخر من ابطاله تتسع بسيفهم منطقة نفوذه وتمتد .

ثم يمشي بخطى موزونة هادئة ، والجيش يتبع الجيش ، حتى يخضع الجنوب كله ويزحف منه الى مأرب فيدمرها ويحمل عرشها الى عاصمة ملكه .

وبينا هو يطوف في الغاب ، باحثاً عن الاسد والنمر والامل يملأ صدره بلغه النبأ الرائع بفشل رجاله ، وهربهم من السيف .

فرجع الى بلاطه وقد ترك صيده ، وذكر عز اكسوم ومجدها الماضيين ، وقوة آبائه الذين فتحوا لهم من قبل طريقاً الى القطر اليمني .

ثم جمع قومه يستشيرهم في الامر ، وقد تحول من ملك هادىء راض بما عنده الى ملك طامع لا يغذي طمعه غير الغزو والفتح .

ودعا القائد الهارب وامره بان يعيد عليه خبر هزيمته وفشله .

* * *

شرب ذو القرنين في تلك الليلة حتى نسي اسراره ، ونسي نفسه .

وذو تبع يسقيه بجود وسخاء كأنه ضيف له .

وهو يتناول الكأس فيجرع ما فيها ثم يجرع الاخرى على اثرهـا كالمحموم الظمآن يشرب ولا يرتوي .

حتى امسى حديثه عربدة وحتى عقد السكر لسانه فبات يمضغ الكلام مضغاً وينظر الى ما حوله كما ينظر المجنون .

وهذا ما اراده امير همدان ، فقد اعطاه الخمر ما لا يعطيه اياه حاشد بليلتين ليقرأ تلك الصفحات السود التي ينطبق عليها صدره .

ومهما يكن الملك داهية في السياسة ، فالسكر يمحو ذلك الدهاء ، ولا يبقي على شيء من ذلك الاسلوب الناعم الجذاب .

وذو تبع لا يهمه من امره ، الا ان يفضي اليه بما يضمره لبلقيس من بغض ، وما يعده لها من حيلة ، وغرض خبيث .

وقد خدمه القدر بالحصول على منصب يستطيع معه ان يدخل معه الى اعماق نفس الملك دون ان ينم عليه مظاهر غايته .

ولكنه لم يكن يجرؤ على السؤال ، خوفاً من ان يصحو الملك لسؤاله ، ويعود الى صدره من جديد ، ذلك الشك الذي كاد يضمحل .

غير ان الحظ كان حليفه في ذلك الليل ، فان اعصاب الملك لم تتخـــدر من هذه الناحية الا ليستفيق شعوره ، من الناحية الاخرى ويفضح نفسه .

وبدأ يقول بلسانه المتلجلج المضطرب :

الم تكن امس في قصر شرحبيل يا ذا تبع ؟ ! .

فدهش الفتى لذلك القول وايقن ان رشد الملك قد ضاع ، ، ثم قال : لقد سألتني يا مولاي مثل هذا السؤال وخبرتك هذا الصباح كل شيء .

فاضطجع على وسائده واجاب قائلا : نعم ، نعم لقـــد سألناك عن ذلـــك ولكنك قلت انك لم تر بلقيس ! أليس كذلك ؟

ــ بلى يا مولاي واعيدها قلته الآن اني لم ار غير شرحبيل وولده .

ــ وقلت انك لا تعرف هذه الفتاة .. الحسناء...

ــ نعم وانا لا اعرفها يا مولاي .

قال : كنا نؤثر ان تراها لتصفها لنا ، ولكن لا فخير لك ان تظل بعيدا عن هوة الموت . .

وخرجت تلك الكلمة كأنها حكم بالاعدام يصدره الظالم على بريء .

فقال : اشرب يا مولاي اذا شئت فالموت لا يجسر على الدنو من نديم الملك وساقيه . ومع ذلك فانا لا اعلم كيف يموت الفتى الذي ينظر الى بلقيس .

فمد يده المرتجفة قائلا : ضع الكأس بين الشفتين وارسل الى جوفنا ما فيـــه

فيد الملك لا تقوى على حمله . واما كيف يموت النـاظر الى بلقيس فذلك سر لا نذكره لاحد .. بل نذكره لك فانت نديمنا كما قلت وصاحب سر الملك .

ــ وكيف ذلك يا مولاي ؟

ــ لقد وصفت لنا بلقيس واثبت واصفها انها اجمل من في اليمن من نساء بل هي اجمل نساء العرب الم تسمع انها كذلك ؟

ــ لا . .

ــ اذن فمن حسن حظك انك لم تسمع !

فكاد يضيق صدر الفتى لذلك الهذيان وهم بان يجلس صامتـا حتى يغمض الملك عينيه فيأمر الحراس بان يحملوه الى فراشه .

ولكنه خاف عاقبة السكوت وخشي ان يفضي السكر بالملك الى غضب يضيع معه امله ويخيب رجاؤه ، فقال :

يظهر ان مولاي لا يريد ان يبوح بسره :

ــ لقد بحنا به ايها الابله ولكنك لم تفهم ، اسمع انـك اذا رأيت بلقيس او وصفت لك احسست انك لا تستطيع العيش الا اذا اصبحت لك .

ــ اي ان وصف ذلك الجمال يخلق الحب في الصدور ؟

ــ نعم ، ولما كان الملك يريدها لنفسه ، كان ذلك الحب جريمة في نظره لا يغفرها لك او لسواك افهمت الآن ؟

ــ فهمت ان من يحب بلقيس كان جزاؤه الموت .

ــ هو ذاك واذا احبت بلقيس ايضا كان الموت جزاء لها .

فاحذر ، ولتحذر تلك الحسناء التي لم تطلع شمس الجزيرة على مثلها .

فدب الذعر في قلب العاشق . ان الملك يعرف حكاية غرامه وهو ينهاه ، في ذلك الاسلوب ، عن هذا الغرام .

والا فما هو معنى الغازه وتحذيره ؟

ولكن من اين للملك ان يعلم ذلك وجميع الذين يعرفون حكاية ذلك الحب لا يبوحون به ؟

ومن هم الاشخاص الذين يعرفونها ؟ هم شرحبيل وابنه ، وذو مغـــار ومن حوله ، وعنيك بن روضة وبنت الريان ، وهؤلاء جميعهم يؤثرون الموت عـــلى الانضاء للملك بما يعلمون .

اذن فالملك لا يظن ولا يتهم بل يهذي ، وعلى الامير الفتى ان يحـــاربه الى النهاية ليبلغ الغاية ، فقال :

اقسم برأس الملك وتاجه اني لا احب بلقيس ولا افكر في هذا الحب،ولكن الحب انت بلقيس وهي الفتاةالتي انفت من العيش في ظل الملك ؟

فبان الحقد على وجهه وجعل يقول : اجبها نعم ، حبا يذيب قلبي ، ويحرق أحشائي : ولكن هذا الحب ، سينتهي .. أتعرف بماذا ايها الابله ؟ انـــه ينتهي بالموت ... وسيحزن ولي العهد على زوجته ويبكي جمالها الفتان .

فأثبت الفتى لمولاه انه ابله بقوله : متى يتزوج ولي العهد ؟

قال : عندما يعود من سفره .

وقهقه ضاحكاً كما يضحك السكارى امثاله .

قال : يخيل الي انك تمازح نديمك يا مولاي .

ـ وما الذي دلك على هذا ؟

ـ قول الملك انه سيقتل بلقيس ثم قوله انه سيجعلها ولية للعهد .

ـ واي القولين تصدق ؟

ـ القول الآخر يا مولاي ؟

ـ اي ان الفتاة ستزف الى عمرو ، اجـــل ستزف اليه ولكن دون ان يكون بينها وبينه عقد زواج !

ـ اذن تكون احدى جواريه .

ـ بل تكون حظية لنا قبل كل شيء ، لقد اراد الملك ان تكون بلقيس لـــه وارادت هي ان تكون زوجةلعمرو فليكن ما اردنا نحن لا ما ارادت هي وليشمل امر الملك جميع من في اليمن من ولده حتى اخر فلاح في حضرموت : لقد قلنـــا هذا من قبل ونقوله الآن وفي كل زمان فليسمع شرحبيل بن عمنا ولتسمع ابنته

وليتنظر كل واحد منهما ارادة الملك التي لا ترد .

ثم جعل يقول : سيجيء شرحبيل غداً حاملا الينا رغبة بلقيس في ما نتحدث به ، فاذا قالت نعم صبرنا حتى يعود ولي العهد وارسلنا رجال البلاط والامراء مع مركبة الملك ليحملوها عليها الى هذا القصر تحف بها نساء مأرب وبنات الاشراف ، واذا قالت لا ، بعثنا جنودنا ليحملوا رأسها ورأس ابيها الى الساحة تحف بهما السيوف الملطخة بالدماء ..! ثم ذكر ذلك المعربد ، تلك الفتنة التي تخيفه ، فقال :

ولكن .. النار .. نار الفتنة التي يسعرها ابن عمنا واتباعه .. النار التي تتعب الملك وتوغر صدور الامراء من يخمدها ويحقن دماء اليمنيين ؟ ومن يقف في وجه التيار الصخاب المنحدر من الجبال والمدمر كل ما يعرض له ؟؟ لا لا ، ان الملك لا ينفر ولا يضرب ، بل يفتح ذراعيه لعدوه ويبتسم له ثم يطعنه بخنجره طعنة تزهق لها روحه ويمسح بثوبه دمه الخبيث الذي تتلوث به يداه .

وتململ كانه يريد الجلوس فلم يقدر ، فتمتم قائلا :

ومن يتبع شرحبيل العاجز من اصحاب المخاليف ؟! لا وتربة حمير .. ان بينهم من يحمل وراءه السيف ونحن نعرفهم كما يعرفون انفسهم ولكننا نؤثر السكوت والصبر حتى يخرجوا عن الطاعة ويظهروا العصيان .! اما اذا شئت ان نعدهم فهم الامراء الخونة ذو مغار وياسر والغوث وجبار ولو كان امير شبوة حياً لكان منهم وجميع هؤلاء لا يرفعون رؤوسهم حتى يسحق الملك هذه الرؤوس .

فسنحت الفرصة كما ارادها ذو تبع ، اي ان البحث انتهى بهما الى ذكر الزواج ، فخفض صوته وهو يقول :

اتقتل شرحبيل وبلقيس وتقطع صلة الرحم يا مولاي ؟

بل نقتل كل من ذكرنا لا نترك احداً ... ولكن لا تظن اننا نقتلهم اليوم فلكل امر ساعة وساعتهم لم تأت بعد .

ــ وهل تفعل ذلك اذا اصبحت بلقيس لك ؟

ــ ان وجود بلقيس في البلاط لا يضمن وجود الاخلاص في صدور هؤلاء

اجل ايها الابله . حظية الملك .. او زوجة ولي العهـــد شيء .. وقضية العرش شيء آخر وبلقيس اضعف من تحول بيننا وبين السيف .
اذن سيموت شرحبيل واتباعه في الحالين .
ـ نعم في الحالين واذا خطر لك ان تنتظر لهم ايها الابله كان نصيبك الموت .
فقال الفتى في نفسه : لولا اباء في هذه النفس لرفعت ستار هذا الباب واومأت الى عنيك بأن يدخل فيقضي عليه بضربة خنجر واحدة .. ثم قـــال : ولكني لم افهم يا مولاي كيف يتم زواج ولي العهد بدون عقد وكيف تمسي بلقيس بعـــد ذلك حظية للملك !
ـ اما بلقيس فستترك قصر ابيها كما قلنا لك لتصير زوجة لولدنا ولكنها لا تدخل البلاط حتى يأمر الملك ولده بالزحف الى بينون ثم الى براقش يتبعه رجال السيف المقيمون في مأرب وفي صرواح !
ـ لماذا يا مولاي ؟
ـ ليضعوا ايديهم على الامارتين ويقبضوا على جبار والغوث ويحملوهما اسيرين الى البلاط فيرى الملك فيهما رأيه !
ـ وما الذي يمنع الملك من ان يفعل ذلك في هذا اليوم ؟
ـ اذا فعلنا ذلك كما تقول حمل شرحبيل ابنته ولجأ بهـــا الى الجبال ليجمع الخارجين عن الطاعة ويضرم النار فتفلت حسناؤه من يد الملك وتضيع هيبته ثم يطول اجل الحرب وتعم الفتنة جميع المخاليف .
قال : لقد فهمت الآن يا مولاي انك تريد ان تغلق ابواب قصرك على بلقيس لتضمن سكوت شرحبيل واستسلامه اليك .
ـ اجل ، وكيف يجرؤ ابن عمنا على ان يقود الجنود وابنته بـــين يدي الملك يدفنها وهي حية عندما يشاء ؟
ـ والآخرون يا مولاي ؟
ـ من هم ؟
ـ ذو مغار وابن عمه ياسر ومن حولهما ؟

ـ اسمع ، ان ولي العهد لا ينتهي من امر براقش وبينون حتى يعود الى ريام ومغار فيقضي على اهل الاثنين ويجعل القيود في ايدي الاميرين .

ـ وكيف يرضى ولي العهد بان يترك البلاط ساعة وصول بلقيس اليه ؟

ـ ومتى كان الامراء مثلك يسألون مثل هذا السؤال ؟ ان الملك اذا اراد امراً لا يبقى في البلاط رجل يسألونه ان يرضى بذلك الامر . يأمر الملك فيطيعه ولي عهده دون ان يتردد او يشكو ، واذا فعل ، اكرهناه على الرضى كما نكره احقر الرجال في الرعية حتى يعلم القوم ان امرنا فوق كل شيء .

وسكت قليلا ثم قال : وبعد ذلك ، اي بعد ان يغادر عمرو البلاط تمشي حسناء العرب بين الحظايا . ويأمر الملك من جديد ، ولي عهده بعد عودته ، بان يختار فتاة اخرى زوجة له .

ثم يجيء دور شرحبيل الذي يكون قد خسر جميع انصاره فيضربه مولاه ضربة تهلع لها قلوب الخونة في القطر العربي ،وذلك بعد ان يرى ابنته العوبة في ايدي الامراء ثم في ايدي الغلمان .

قالها واغمض عينيه ، ثم غاص في لجة الكرى وهو يتنفس تنفس المريض انشبت فيه الحمى مخالبها القاسية .

فجعل ذو تبع يتفرس في وجهه ، وصدره يغلي، وعاطفة المروءة تنازع عاطفة البغض في نفسه ، والشرف يصارع النذالة والغدر .

وليس بدعاً ان ينتصر شرفه ، فذو تبع من الفتيان الذين لا تخرجهم المواقف الصعبة عن ابائهم ، ولا تضيع الشدة عظمة نفوسهم وخلقهم النبيل .

وبينا هو مستسلم الى تفكيره ، رأى يداً تمتد من وراء الستار لترفعه وكانت يد عتيك بن روضة ، ثم رأى وجهه الاصفر وخيل اليه ان شفتيه ترتجفان .

فاومأ اليه بان يحتجب ، ثم ينصرف ، ونهض فنادى الحراس القادمين بالرواق قائلا لهم : تعالوا نحمل الملك الى فراشه .

ولكن الملك فتح عينه في تلك اللحظة وجعل يهذي قائلا: احملوني الى فراشي فالنار التي ترسل السنتها الي لا يخمدها الا الدماء . !

واقبل الحراس فحملوه وهو يقول :
احذروا ان تلوثوا ايديكم بدم ملككم ايها الانذال .
وعندما وضع في فراشه واحاط به غلمانه وجواريه ، تراجع ذو تبع وهـو يخاطب نفسه قائلا : لقد كنت مخدوعا في اخلاصي لك ايها الملك السفاح الذي يستحل الاعراض وتحتمي بعرشك العالي النائم على جثث الابرياء .
وكان يردد وهو ذاهب الى حجرته : ويل لليمن منك اذا هي لم تسلبك هذا العرش الذي يحميك ! .
ولم يدخل تلك الحجرة حتى اقبل عليه عتيك يحجبه الظلام عن عيون الغلمان، وبات الاثنان يتحادثان .

• • •

لقد وعد شرحبيل الملك ، انه سيحمل اليه غداً جواب بلقيس وانا لم اسألك عن هذا فهل تعلم ماذا يكون ذلك الجواب ؟
فقال ذو تبع : سيكون جوابه مطلا اذ لا يخطر لشرحبيل ان يرضى بما يطلبه ذو القرنين ..
ـ ولكن الملك سيثور لهذا المطل الى الجفاء .
ـ وماذا يفعل بعد ذلك ؟
ومن يعلم ماذا يصنع ، انه في النهار فريسة شهوته وكبريائه ، وفي الليل فريسة سكره وهو في الحالتين لا عهـد له ولا نظام .. ولكني ارى ان شرحبيل سيلقي بنفسه بين براثن الاسد وان الاسد سيبدأ بالعض والنهش .
قال : ستخدر بلقيس اعصابه بجواب تطيب له نفسه .
قال : اتظن ؟
ـ بل اعتقد فدهاء الملك وحيلته لا يذكر ان عند دهاء هذه الفتاة الفتانـه الجريئة بكل شيء .

قال : هو الحب يملي عليك ذلك يا ذا تبع .

ــ اصبت غير اني لست اعمى في حبي ولا يمنعني غرامي من ان اذكر لك ما رأيت وعرفت

قال : ابذل نصف حياتي لمن يجمعني مع بلقيس ساعة واحدة .

ــ لماذا ايها الامير ؟

ــ لاقترح عليها اقتراحاً ارجو ان تبلغ معه الغاية من سكوت الملك .

ــ اذكر لي هذا الاقتراح ان شئت ثم ننظر في امر نقله الى قصر شرحبيل ،

ــ يجب ان يقول شرحبيل للملك ان بلقيس لا تعد بالزواج قبل ان يعود ولي العهد وتراه وتسمع رأيه فيه !

لنفترض ان الملك رضي بهذا الجواب فماذا يحدث بعد رجوع عمرو ؟

ــ تقص عليه الفتاة كل ما جرى بينك وبين الملك في هذا الليل وتشرح له غرض ابيه وحيلته !

فتراجع مذعوراً وهو يقول : اذن تريد ان يضرب الملك عنقي عند ما يسأله ولده عن ذلك .

ــ واي شأن لك بهذا ؟

ــ ان الحديث الذي جرى بيني وبين الملك سر من اسراره كما تعلم لم يبح به الا لي فاذا انتهى اليه ان بلقيس نقلته الى ولي العهـــد عرف اني افشيته لها ولمس بيديه الاثنتين غرامي الذي اخفيه .. وهل تظن ان الملك يعدل عما يفكر فيه اذا فضح امره ولي عهـــده ؟؟ انه عندئذ يزداد غضباً ويأمر بان تحمل بلقيس الى البلاط ...

فضحك قائلا : لقد اخطأت من ناحيتين يا ذا تبع ، الاولى ان الفتـــاة لا تحمل الى هذا القصر الا اذا رضيت ، والاخرى ان ولي العهد يأبى ان يتزوج على هذه الصورة ولو اكرهـــه ابوه بالسوط على الزواج ... وبين حيلة الملك وتردده في امر يتسع المجال للمتآمرين ويتعجلون في اظهار العصيان .

ــ وانا ؟

ـ اما انت فستنجو من غضب الظالم بحيلة اذكرها لك الآن .

واطرق وهو يستدين بقريحته النارية ثم قال : لقد كان ولي العهد ، في لاعوام التي مرت على وجودي في البلاط ، راضيا عن سكوتي ، محدوعا بابتساماتي القصيرة وخضوعي لامره واعجابي بكل ما يفعل وكل ما يخطر له .

ـ نعم .

ـ وكان ناشر امين سره الذي هو شر رجل في البلاط يثق بي ويظهر رغبته في التقرب الي والافضاء باسرار القصر .

ـ واذا كان هذا ؟

ـ اذا كان هذا هان علي الامر واستطعت ان اقول لناشر عندما يجيء : ان بلقيس لن تكون زوجة لمولاك وابوه حي ، ثم اخبره كل شيء دون ان اذكر له ان لك علما بما اقول ..

ـ ولكنه سيسألك بدوره عن الرجل الذي باح له الملك بهذا السر .

ـ اجل وسأقول له ان الرجل ذو تبع نفسه الذي لا يحبه ولي العهد ولا يريد ان يرى وجهه .

فظهر التردد على وجه الفتى .

اما هو فاستطرد قائلا : سأصف له مجلس الملك في قاعة الشراب واعيد عليه حديثه بشأن بلقيس كأنه يسمعه من فه . ولا اتردد في القول اني سمعت ذلك الحديث كلمة كلمة وانا في الرواق !..

قال : احذر ايها الامير فانت الذي تلقي بنفسك بين براثن الاسد .

ـ اعرف ذلك ولكني لا ابالي فولي العهد يستطيع ان يحميني ويحول دون وصول هذا الاسد الي .

ـ ومع ذلك فسيبوح لابيه باسمك ويطلب اليك الملك ان تصف له وقوفك بالقرب من باب مجلسه تنصت الى ما يهامس به نديمه وساقيه في ساعات لذته وسكره !..

قال : اعتقد ان ناشرا وولي العهد سيكتمان الملك اسم عتيك .

ــ اما انا فاعتقد انهما لا يكتمانه شيئا .

قال : سأقذف بنفسي الى الهوة واحتاط لامري فلا تخف . ان الغاية من هذا أن يعلم ولي العهد حيلة ابيه فيغضب لكرامته اذا كان له شيء من كرامة الملوك ويتعكر الجو بين الاثنين .

ثم قال : اذن اطلب الى ولي العهد ان يقول للملك : ان حارسا من اولئك الحراس الذين يقومون بباب المجلس ، نقل اليك ذلك الحديث .

ــ واذن يموت الحارس وهو بريء .

ــ ليمت جميع من في البلاط ولتسقط السماء على الارض فانا مثل الملك لا اهتم الا لنفسي . ء آه كيف اصل الى بلقيس الليلة ام في الصباح لاخبرها ما اشاء قبل ان يجيء شرحبيل الى القصر .

قال : انها تعلم اسرار الملك كما تعرفها نحن .

ــ ذلك لا يكفي فقد يكون جواب شرحبيل جواب قبول .

فاستيقظت في صدر الفتى عاطفة الغيرة وجعل يقول في نفسه : اجل ، قد تنسى بلقيس قسمها ويكون الجواب جواب قبول ؟

وذهل عن عتيك وعن كل ما حوله ، وطارت روحه الى قصر بن يعفر ترفرف فوق فتاة القصر بألم وكآبة .

فقال عتيك مازحا : اين انت الآن يا ذا تبع ؟

ــ بين يدي شرحبيل بن عمرو اسأله ان يزوجني ابنته .

ــ وهل تحبك ؟

ــ لقد عرفت ما تريد ان تعرفه فاسكت اذا شئت .

قال : اذا كانت بلقيس تحبك فقد ضاعت آمال ولي العهد واذا اضمن لك انها لن تكون له ! انها اذا وعدت وفت وليست من اولئك الفتيات اللواتي يغررن العيش في البلاط ويستسلمن الى اللذات .. واما اذا لم يكن هنالك قلب يخفق

فالامير الذي سيلبس تاج الملك بعد ابيه لا يستطيع فتى من فتيان اليمن ان يسلبه اياه الا بقوة سلطان الحب الذي لا يغلب .

قال : لقد ثارت المطـــامع في صدر بلقيس حتى لا اخشى ان تظفر بالغرام الذي اعترفت به ووثقت بقوته .

ــ اي انك تخاف ان يغرها التاج ..

ــ نعم .

قال : ان لك تاجاً صغيراً هو تاج همدان وقد ترضى بــــه ولكن هذا القلب يكاد يذوب لهذه الغيرة التي تتأجج نارها فيه .

ــ اذن ارجو ان تثق بها كما تثق بالآلهة ولا تعد الى هذا .

ــ وعلى اي شيء عولت الآن ؟

ــ على ان اطرق باب، شرحبيل في هذا الليل .

فلمع الامل في عينيه قائلا : بل اذهب انا فقد لا يصدق كلمة مما تقول له ولكن اخشى ان يستيقظ الملك ويسأل عن ساقيه .

قال : لو سقطت عليه جدران هذا القصر لما استطاع ان يفتح عينيه .

ــ واخشى ان ينتبه الحراس لخروجي ويبلغ الخبر الملك في الصباح .

قال : لي في البلاط غلام من قومي تلبس قلنسوته وثيابه .

ــ واين هو ؟

فخرج ولم يلبث حتى عاد والغلام معه وهو يقول : البس ثوبــــه وسيبقى في هذه الحجرة حتى ترجع .

ففعل ولم يتردد ، وحجب جبينه بقلنسوة الغلام ثم خرج وهو يمشي بسرعة كما يمشي الغلمان حتى وصل الى الباب فقفز الى الخارج والحراس ينظرون اليـــه ويعجبون بخفتـــه وهم يظنون انه خرج في مهمـــة بأمر الملك او غيره من امراء القصر ...

ثم دب النعاس في العيون فباتوا ينظرون الى الداخلين الى القصر والخارجين

منه كما ينظر النائم الى اشباح تتراءى له في الحلم .

ولم يعلموا في اي هزيع من الليل رجع ذلك الغلام الى البلاط .

***

٢٣

ماذا تقولين يا نائلة ؟ امير همدان في القصر في مثل هذه الساعة ؟

ـ نعم يا مولاتي وقد امرني مولاي الامير بأن ادعوك الى قاعة القبة .

وكانت تلك القاعة لا تبعد عن الباب الكبير غير بضع خطوات وكان سقفها قبة مذهبة الجوانب يظهر فيها الفن القديم على انواعه .

وكثيراً ما كان شرحبيل يجلس فيها مع اضيافه .

فلما دخلت بلقيس رأت حبيبها يهامس اباها وهو اصفر الوجه وقد اغتصب ابتسامة بدت على شفتيه كأنها دليل استهزاء .

فجلست بالقرب من ابيها وقلبها يكاد يثب من موضعه ، واخذت تتفرس ذلك الوجه الاصفر الذي يجذب سحره القلوب .

ثم قالت لـه وصوتها يضطرب : اي شيء حملك على المجيء الينا في هـذا الليل ؟..

فأجابها وعاطفتـه تشع في عينيه قائلاً : جئت انقل اليكم اني اصبحت اسير الملك لا استطيع ان اغادر قصره الا اذا اطبق السكر والنعاس جفنيه .

فذعرت بلقيس لتلك المفاجأة وجعلت تنظر الى ابيها كأنها لا تصدق ما سمعت وهي تردد تلك الكلمة التي قالها ولا تجد معنى لذلك الاسر .

ثم خيل اليها ان الفتى يمزح ، فقالت : وما هذا الثوب الذي تلبسه ؟

فقال شرحبيل : هو ثوب غلام من غلمان البلاط والامير اذا اراد الفرار لا يستطيعه الا اذا لبس غير ثوبه وتنكر لحراسه !!

قالت : الا تحدثني بما جرى لك ؟

ـ بلى ، لقد جعلني الملك نديماً له اجالسه على شرابـــه واسقيه افلم تكن هذه المنادمة اشد وقعاً علي من الاسر كما ترين ؟

فابتسمت وهي تقول : واين ذهب حاشد اللعين ؟

ارسله ليستعجل ولي العهد .

ـ اذن فانت نديم لبضعة عشر يوماً ؟

ـ من يعلم فقد يطول اجل المنادمة شهورا .

ـ ولكن هذا الاسر الذي تشكوه هبة تخدمنا بها الاقدار افلا تعلم ان مجالسه الملك على شرابه مفتاح الاسرار ؟

ـ اعلم ذلك ولكني لا اطيق ان اسمع عربدته كل ليلة كما سمعت منذ ساعـــة واحتمل منه ما لا يحتمله الا الجبان .

واعاد على الامير حديث الملك ثم سكت .

قالت : اتخرج من البلاط بثياب الغلمان لاجل هذا ؟

ـ بل اتيت ليطلعني الامير على الجواب الذي يحمله غدا الى الملك .

فقال شرحبيل : وما هو رأيك في ذلك ؟

ـ ليس لي فيه رأي ولكن انقل اليك رأي عتيك بن روضة .

ـ أرأيته ؟

ـ نعم وهو على دعوتنا ولا يصدق متى تأتي الساعة التي يجرد فيها السيف على الملك الذي هو عدو اليمن .

فافتر ثغر بلقيس قائلة : وهذه هبة اخرى وهبتها لنا الاقدار ، واما رأيه ؟

ـ اما رأيه فهوانتظار ولي العهد حتى يعود ، ثم تظهرين بعد ان تريه رغبتك في الزواج او عدمه .

قالت : يظهر ان الرجل من اصحاب الرأي !.

ـ وهل تفكرين في رؤيته ؟

ـ اجل فسأحارب الملك بولده وستعلم كل شيء .

ـ والخطر يهدد يا بلقيس ؟

ـ اما الخطر فسأقتحمه وانا واثقة بالقوتين ، الحيلة والجمال .

ثم قالت : افلم اذكر لك هذا الخطر امس ؟

ـ بلى :

ـ افلم ترض ان تخوض المجال معي ساكتاً واثقاً بوعدي ووفائي ؟

ـ بلى .

ـ وما الذي طرأ عليك الليلة يا ذا تبع ؟

قال : ايأذن لي مولاي الامير ان ابوح بسري ؟

فاجابه قائـــلا : لقد عرفت هـــذا السر وانا اقسم لك ان بلقيس لم تفكر في الزواج الا بعد ان رأت امير همدان !

ـ ولكن الغيرة يا مولاي ..

فقالت : دعها للملك وولي عهده اللذين ستقضي عليهما ، والآن ارجو ان تعود الى القصر خوفاً من ان يستفيق ملكك وتسمع جواب ابي غدا قبل ان تطلع الشمس ، ثم تسمع رأي الملك في هذا الجواب عندما يستولي عليه السكر .

ـ وكيف انقل اليك ما اسمع ؟

ـ سترى نعمى في البلاط كل يومين فان لم تشأ ان تحادثها على مرأى من القوم فعتيك بن روضة يتولى هذا الامر عنك . قم فانا خائفة .

قال : بقيت لي كلمة هي ان امير نحلة يحاول ان يغـــدر بالملك من ذلك ولم استحسن هذا الغدر .

ـ ويل له وكيف ينجو من القتل ؟

ـ يضرب الملك عندما يصرعه السكر ثم يفر الى بـــلاد قومه فيمنعونـــه ويبذلون ارواحهم في سبيل الدفاع عنه .

ـ احذر ان تبدر منه بادرة . انه اذا فعل خرج القوم عن طاعتنا وقـــامت اليمن كلها تنتصر لولي العهد وتجلسه على العرش .

ـ لماذا ؟

ـ لان الذي يغدر بالملك لا يستحق عطف الاشراف واهتمامهم لامره ولا يلقى الا الخيبة من الصفوف . نعم ، فاذا حاربنا الملك حاربناه في وضح النهار وملأنا مآرب صياحاً انه الملك الجائر الذي يصعد في سلم الغنى والمجد على جثث الابرياء ودعونا الناس الى حمل السيف للدفاع عن حق الامة بخلعه عن العرش .

ثم نهضت كأنها تدعوه للانصراف .

فتردد في النهوض، ثم هم بالكلام فوقفت الالفاظ في حلقه .

فادركت بلقيس ان الخجل يمنعه من قول ما يشاء فقالت له :

لولا قسم اقسمته امام الآلهة لبحت لك بجميع ما في الصدر . ولكن اعلم ان السر الذي كتمتك اياه كتمته جميع الناس وهذا ابي يشهد انه لا يعرف من امري اكثر مما تعرف وقد احترم قسمي فلم يسألني عن السر الذي ذكرت . وها انا احلف لك برأسه ان ذا القرنين وولي عهده لا يساويان بنظري قلامة ظفرك ، أيكفيك هذا ؟

فقام عندئذ وقد وثق الوثوق كله، ولكنه تحير في امر ذلك السر الذي احتفظت به واخفته عن الناس .

وقبل ان يخرج استوقفته قائلة : اعيد عليك قولي السابق اني لا احب ولي العهد ولا اريده زوجا لي ، ولكني مكرهة على الوقوف معه موقف العاشقة التي يبرح بها الغرام، اتستطيع ان تحتمل ذلك يا تبع؟

وهمت بان تقول ايها الحبيب .

فقال : لو كان يرضيك احتمالي عذاب الموت لما ترددت في احتماله .

ـ اذن فاذهب مطمئنا واهزأ بكل ما ترى .

وعندما انصرف وجاوز الفناء اقبلت على ابيها تقول له :

يخيل الي انه سيتعذب كثيراً من اجلي ولكن ما حيلتي والقدر الساخر لا يرحم ولا يلين .

لقد قرأت ان نعمى حدثت بلقيس بكل ما دار بينهـا وبين الملك وقصت عليها حكاية حاشد وسفره الفجائي الى شبام ، وانصراف الهمداني الى منادمة مولاه .

ولكن بلقيس ، عندما زارها الحبيب في ذلك الليل ، لم تظهر له انهـا تعلم شيئاًمن امرتلك المنادمة ، كما رأيت ، بل كانت تصغي اليه اصغاء فيه الاستغراب كأن ذلك الحديث شيء جديدلم تسمعه من قبل !

وكانت لها في ذلك غاية ، هي ان يحتاط حبيبها لامره ، ويعتمد على نفسه ، لا على نعمى ، في نقل الاحاديث التي تجري في البلاط .

حتى انها لم تذكر له نعمى ولم تقل له عنها كلمة .

فلما غادر القصر كما مر التفتت الى ابيها قائلة له : علي بعبد من عبيد القصر يكتم الاسرار !.

قال : الليلة ؟

ــ نعم يامولاي وفي هذه الساعة .

ــ ليس بين عبيدنا الا المخلصون الامناء ، ولكن ما هي مهمته ؟

ــ اريد ان ابعث به الى شبام .. ثم قالت : ولكن لا ، فعبيد القصر يعرفهم جميع الناس وليس من الرأي ان يكون رسولي منهم .

ــ اتريدين ان يتبع حاشدا ويسمع ما يدور بينهوبين ولي العهد؟

ــ لا ، فانا لا ابالي بما يقال في شبام ، بل اريد ان اعلم الساعة التي يصل فيها ولي العهد الى مأرب .

قال : ان مع ذي مغار ثلاثة من العبيد لا يعرفهم القوم وهم اصدق الرجال المقربين اليه .

ــ اذن اختار احدهم واوصيه بما خطرلي ، ثم خرج الاثنان من قاعة القبـة حتى اقبلا على الجماعة فقالت بلقيس لذي مغار :

ايريد الامير ان يأمر احد عبيده بأن يطيعني كما تطيعني زائلة ؟

فأجابها ضاحكاً : وكما يطيعك الامراء الذين يتآمرون على العرش .. اننـا

عبد الملكة!!.

قالت : اتمزح ؟

ــ بل اكاد ارى التاج يلمع على جبينك الوضاح .

ــ اذن فانا صاحبة الامر في اليمن وملكتها الآن .

ــ نعم .

ــ فارادت ان تجاريه في مزاحه فقالت :

ــ وانتم قواد الملكة وحراس عرشها .

ــ نعم، ونفدي هذا العرش بالارواح فقولي ما تشائين .

فجلست كما تجلس الملكات وهي تقول : لقد احسست الساعة ان التاج على رأسي والصولجان في يدي وانا املي ارادتي على القوم .

ــ والامر يا مولاتي كما تقولين .

فخاطبت الامير الصغير غالباً قائلة له :

قم ايها الامير وادع عهداً من عبيد ابيك .

وكانت العظمة والعز في تلك اللهجة .

فخرج الفتى ساكتاً والهيبة تملأ نفسه ولم يلبث حتى عاد والعهد معه .

فقال له ذو مغار : اتعرف من هي هذه ؟

وأومأ الى بلقيس .

فقال : هي سيدة القصر يا مولاي .

ــ بل يجب ان تعلم من الآن انها سيدة اليمن كلها وانك عبد لها أفهمت ؟

فلم يجب ، بل جثا عند قدميها على ركبتيه قائلا :

لتأمر سيدة اليمن اذاً بما تشاء .

قالت : سأجعلك رسولي الى شبام فهل تعرفها ؟

ــ اعرف بلادي كلها بالذراع .

ــ وهل تستطيع كتمان الاسرار ؟

ــ لا يستطيع الموت نفسه ان ينتزع كلمة واحدة من هذا الصدر .

ـ لقد قيل لي ان ولي العهد في شبام وسيتركها راجعاً الى مأرب في هذا الشهر ...
ـ وماذا تريد مولاتي منه ؟
ـ يهمني ان اعلم موعد رجوعه .
قال : أأساله يا مولاتي عن هذا الموعد ؟
فابتسمت قائلة : اذا فعلت ذلك كان الموت جزاء لك ، ولكن تسأل الجنود ...
ـ وبعد ذلك ؟
ـ تمكث في شبام حتى يرحل الجيش فتسير وراءه مع طوائف الفقراء والغرباء ذوي الحاجات ولا تتركه الا عند ما يقارب الوصول الى مأرب .
ـ لقد فهمت ولم يبق الا ان تأمربني بالانصراف .
ـ ولكن احذر ان يعلم احد انك عبد ذي مغار .
ـ بل انا من عبيد اليمامة يا مولاتي وقد هجرتها فراراً من جيش سابور ..
قالت : لقد وثقت بدهائك فانصرف ولا تنس ما امرتك به .
ثم قالت للهدهاد : اعطه شيئاً من المال يستعين به على قضاء اغراضه .
فاعطاه ، ثم خرج الى فناء القصر فاخذ جرابه وعصاه وهو يقول لرفاقه : لقد ارسلني مولاي ذو مغار في مهمة له الى الحجاز وسأعود بعد شهرين .

* * *

لم تكن غاية ولي العهد من سفره الى اليمامة ان يتصدى لسابور كما مر ، بل كان هو وجيشه طليعة من طلائع ذي القرنين تنقل اليه اخبار عدوه . وتدعو اليمنيين الى الاستعداد للحرب ، اذا دخل سابور اليمن غازياً .
على ان سابور ، لم يمر باليمامة ، الا كما تمر العاصفة الهوجاء التي تحطم وتهدم وتعفي الآثار .

بل كما يطوف الوباء بين الاحياء تاركاً وراءه الموت ، بصوره الهائلة وجفائه المروع .

ثم لم يلبث حتى غادرها الى ضواحي يثرب ، كما تقدم في الاجزاء السابقة ، لينشر الذعر بين قبائل العرب التي استخفت بملكه وهو طفل .

وكل بلد ينزل به سابور تنزل الصواعــق على رؤوس اهله لا ينجو منهم الا اولئك الذين يتعجلون في الفرار .

فلما وصل ولي العهد الى حدود اليامة ، وكان الفارسي قد ضرب ضربتــه وزحف الى الحجاز دون ان يفكر في القطر اليمني ، وكانت هنــاك طوائف كثيرة نفرها الجيش الغازي فلجأت الى السهل والجبل للنجاة من الموت .

بين تلك الطوائف الشيوخ والفتيان والنساء والاطفال من جميع عشائر اليامة والاحياء .

فخيل اليهم عند وصوله ، ان جيشاً فارسياً آخر يسد عليم منافذ السهل ،وان سابور ملأ البر خيلا وجنوداً .

فهموا بالالتجاء الى الوادي الكبير الفاصل بين القطرين لو لم يتبينوا الاعلام العربية الخافقة في الهواء .

وكانت الخيل قد احاطت بهم واقبل الفرسان يسألونهم عما فعلت الفرس في اليامة ...

فعاد الامل الى الصدور وارتفعت اصوات الاستغاثــة من النساء والغلمــان يطلبون الى الجيش العربي ان يحميهم من الفاتح .

فاشار ولي العهد على رجاله بالنزول ، وضربت له في ذلك الموضع المطل على الوادي خيمة دعا اليها شيوخ القوم .

ثم امر فحمل الطعام الى تلك الجماعات وبعث بالرسل الى ربذة تبتــاع من اهلها الزاد .

وضربت للاجئين خيام وراء المعسكر من جهة اليمن والناس يــدعون لذي القرنين ويهتفون لولده قائد الجيش .

وكان الليل قد ارخى سدوله وساد السكون والقوم يملأون خيمته وذل الهزيمة يبدو على الوجوه .

فقال لهم : اختاروا رجلا نحدثه .

فاومأوا الى شيخ بينهم قائلين : هذا كبيرنا .

فقال : ماذا يعلم الشيخ عن اليمامة ؟

ــ لم ار يا مولاي شيئاً اصفه لك ، ولكني اعلم ما يعلمه جميع الناس عن شدة سابور وجوره ، وقسوته وجفائه .

ــ ولكنه فتح اليمامة ..

ــ نعم فتحها واباد اهلها ونحن في هذه الارض لا تقع عيوننا على مشاهد التخريب والتدمير .

ــ اذن تركتم اليمامة قبل ان يصل اليها .

ــ اجل ، كان سابور في بلاد عبد القيس عندما لجأنا الى الفرار .

فابتسم قائلا : لقد كنتم يا رجال اليمامة ابطالا في ساحة الحرب .!

ــ ومن يجسر على الوقوف في وجه هذا الفارس وقد جعل ارض البحرين قبراً لاصحابها وخضب هجر بالدماء ؟

ــ لا يجسر على ذلك غير الرجال الذين ترأسهم انت !

قال : لقد اراد بعض قومنا ان يتولوا امر الدفاع فافناهم السيف حتى لم يبق احد منهم .

ــ وكان يجب ان تموت انت ويموت رفاقك وهؤلاء كما مات اولئك المدافعون تحت حوافر الخيل !! أليس من العار ان يفر العربي من سيف الفرس ويلجأ الى الجبال والاودية جاعلا بلاده ميداناً لجيوش الفاتحين ؟

فسكت الشيخ ولكنه كان يقول في نفسه : يظهر انه من الفتيان الاغرار الذين ليس لهم بالحرب عهد .

ثم قال ولي العهد : واين سابور اليوم ؟

ــ يقولون انه ساق خيله الى الحجاز .

ـ ولماذا لم تعودوا الى اليمامة ؟
ـ لاننا نخشى يا مولاي ان يسحق الحجاز ثم يرجع اليها .
فقام احدهم فقال : بل نعود اليوم ونحن لا نخافه .
ـ ومن وهب لك هذه الجرأة ايها الرجل ؟
فقال هيبة ذي القرنين والجيش الذي يقوده ولده !
قال : خير لكم ان تنشروا هيبتكم بقوة السيف من ان تستمدوا هذه الهيبة من ابناء اليمن الذين سينصرفون بعد ايام .
ثم قال : اما سابور فلن يعود الى اليمامة ؛ انه لم يكن فاتحا بل كان نارا آكلة تحرق الاجسام وتلتهم الاشياء دون ان تهدأ . . لقد استخفت به العرب وهو غلام ، فغضب لكرامته عندما استطاع ان يحمل السيف وسينتهي امره مع العرب بعدحين.
والتفت الى رجاله قائلا : ومع ذلك فسنمكث في هذه الناحية شهراً كاملا يحمل الينا الرجال في اثنائه اخبار سابور .
وكأنه كان يسأل امين سره ناشراً ان يبدي رأيه .
فقال ناشر : اختر الليلة هؤلاء الرجال .
قال : لك ان تختار انت من تشاء
ـ سأجعل بينهم رسلا من ابناء اليمامة انفسهم اذا اذنت لي .
ـ افعل .
فقال ناشر للشيخ : ان الامير يحتاج الى خمسة عشر رجلا من قومك .
قال : كلنا رجال الامير فليأمر من يشاء منا ونحن نطيع .
قال : خمسة عشر رجلا منكم ومثلهم منا يذهبون فرقاً ثلاثا الى اليمامة وفي طريقي البادية والحجاز .
فخرج الشيخ من الخيمة ودعا الرجال فانضم اليهم اليمنيون وامرهم ولي العهد بان يبيتوا ليلتهم على ان يخرجوا عند الفجر .
ثم جعل يسأل الشيخ عن ماضيه وماضي اليمامة والرجل يقص عليه حكايات

الزمان الذي مر حتى دب النعاس في الجفون .

ولكنهم قبل ان يتفرقوا ، سمع في المعسكر صوت فتاة تستغيث بالامير اليمني ثم اقترب ذلك الصوت حتى امسى امام الخيمة يلج في طلب الدخول .

فظن ولي العهد انها ضحية احد الجنود ، فقال ضاحكا :

من هي صاحبة هذا الصوت ؟

فاجابه الشيخ وقد تجهم وجهه : انها عاتكة بنت خداش يا مولاي ، وهي سليلة الاشراف في اليمامة .

ــ ادخلوها فان لها حكاية .

ولكنها لم تتوسط الخيمة ، حتى استولت الدهشة والاعجاب على ولي العهد وناشر وجميع من حولهما من اركان الجيش .

فتاة سمراء ذات جمال ساحر ومحاسن فتانة لها وجه تشع الهيبة من جانبيــه ، وعينان ذابلتان صافيتان ، تتلألآن كالدموع التي تجول فيهما .

وفي الفتاة حياء ، دل عليه اطراقها في ذلك المجلس الذي يغص بالناس .

فرقت عينا عمرو وجعل يتفرس فيها كما يتفرس المعجب الذي يستهويه الجمال ، والمشفق الذي تملأ صدره عواطف الحب .

ولو رأى ولي العهد ناشراً في تلك الساعة ، لابصر في عينيه كآبة وألمــا هما الهوى بكل ما فيه .

كان الاثنان ينظران اليها وقلباهما يخفقــان . وكل منهما يحس بالهوى يتمشى في دمه .

اجل ، كانت عاتكة فتنة ، تزيدها فتنة وجمــالا ، تلك اللآلىء المنحدرة على الخدين

وكانت عيون اهل اليمامة ، القائمين بالمجلس ، قــد اتجهت الى عمرو وتنتظر حكمه بقضية عاتكة .

وقد رأوا عاطفته في عينيه ...

فلما هدأ روع الفتاة ، فاجأها ولي العهد بقوله :

أأنت التي تستغيثين بقائد هذا الجند ؟
فاجابته وهي لا ترفع نظرها : نعم يا مولاي .
ــ وماذا جرى ؟
ــ عكر علي صفو العيش فتى لا قلب له .!
ــ ويل له فمن هو؟
ــ ابن عم لي يا مولاي .
فتنهد قائلا : لقد خيل الينا ان هذا الفتى جندي من جنود اليمن ، خبرينا ماذا جرى وكفي عن البكاء .
قالت :لي حكاية طويلة يعرفها هؤلاء القوم فارجو ان تسأل احدهم وتنصفني من الرجل .
ــ لا نسأل احداً بل تقصينها الآن دون ان تنسي منها شيئاً ... قولي اولا من هو صاحبك ؟
ــ عباس بن شعبة .
ــ وحكايته ؟
ــ اراد ان يتزوجني فأبى ابي ان اكون زوجة له .
ــ وانت ؟
ــ اما انا فخير لي ان يتزوجني جني من ان اصبح في بيته .
فاطرق ملياً ثم قال :
ــ اتعشقين سواه يا عاتكة ؟
ــ كنت عاشقة يا مولاي ، ولكن هذا العشق اختنق في صدري وهو في فجر العمر ...
ــ لماذا ؟
ــ لان ابن شعبة قتل الفتى الذي عشقت !
ــ وبعد ذلك ؟
ــ ثم قتل ابي بعد ذلك واقبل الوقح يسألني ان ارضى به زوجاً ويلح في

طلبه وانا اهرب منه حتى كرهت الحياة .

فنظر الى من حوله من القوم قائلا لهم :

ـ يقتل عباس فتيانكم لغاية في نفسه وتسكتون عنه ؟

فقال شيخهم : ومن يجسر على ان يتصدى لعباس ؟ انه طاغية الحي وحوله من فتيان اليامة طوائف تفديه بالمال والارواح .

ـ ولكنك شيخ القوم وسيدهم على ما نرى ؟

ـ نعم يا مولاي غير ان هـذه السيادة لا حول لهـا ولا طول فهي اسم لا مسمى له ...

فقال في نفسه : لم أر ضعفاً مثل هذا .

ثم قال لعاتكة : وماذا فعل عباس الليلة ؟

ـ تصدى لي وانا قادمة الى هذا الموضع وطلب الي ان ارضى بـه او يقتلني كما قتل الذين ذكرت .

ثم هم بان يقبض علي ليسمع جوابي فاستغثت ، فتركني وهو يقول : لم يبق امامك الا الموت .

ورفعت رأسها وهي تنظر بازدراء الى بني قومها قائلة : اما هؤلاء يا مولاي فليس لي بينهم احد .. كلهم جبناء وقد مات شرفهم ومروءتهم ونسوا ابي الذي كان حامياً قومهم وحافظاً اعراضهم بقوة سيفه .. اجل ، انهم يخافون ابن شعبة يا مولاي ولا يجرأون على مراجعته فيما يفعل لان خنجره يسبق قولـه . ولكن عاتكة لا تخاف احداً وستقتل نفسها عندما يخطر لعباس ان يمد اليها يده الملوثة بدم حبيبها وابيها !

وجعلت تشهق بالبكاء وتقول : لم يسمع في العرب قط ان فتاة تزف الى قاتل ابيها او تطيق النظر اليه ولو كان سيد الناس !

فجاشت المروءة في صدر ناشر ، وهو الفتى الذي لا مروءة له ، واخذ يحدق الى مولاه وعيناه تلمعان .

فقال عمرو : أكان ابوك يا عاتكة كبير قومه ؟

ـ نعم يا مولاي : وكان يحمي الجار ويغيث الضعيف ويبذل ماله لصعاليك اليمامة .

فقال : يا اهل اليمامة ! أليس فيكم من يطلب بدم سيده ويصون عرض الفتاة المظلومة التي كان ابوها اعز رجل في قومه ؟

فاخفى القوم وجوههم في ايديهم وساد السكوت .

ثم قال : انسألكم عما فعل سابور ببلادكم وانتم لا تستطيعون اخماد النار المضطرمة في صدر ابن شعبة ؟

وماذا يفعل سابور بقوم يقتل سيدهم وهم ينظرون الى ابنته كأنها ليست منهم وكأنهم لا اعراض لهم !

ومع ذلك فلم يجيبوا .

فقال : عار على العرب ان يكون فيها مثل هؤلاء ... قم ايها الشيخ وادع طاغية الحيّ الذي تخافونه .

فجعل المسكين ينظر الى جانبه وهو يتردد في الامر .

فقال : انه يخاف ان يدعوه وتربة حمير . اخرج معه ايها الفتى ولا تبال !

وأومأ الى احد الحراس القائمين بالباب !

ولكن الاثنين لم يخرجا . فان ابن شعبة كان قد توسط الخيمة وهو يقول :

ـ هذا عباس بن شعبة ايها الامير .

فدهش القوم لجرأة هذا الفتى واستخفافه ودخوله على ولي العهد دون ان يقول كلمة او يستأذن في الدخول !

وغضب ولي العهد لجرأته وارتجفت شفتاه ..

غير انه استطاع ان يخفي غضبه وراء مظاهر الهدوء فقال : ا كنت تسمع من الخارج يا عباس ما نقوله لهؤلاء ؟

فاجابه بوقاحة المجنون قائلا : اجل ولم اشأ الا ان امتثل بين يديك باسطا لك امري ...

قال : لا نريد ان تقول كلمة الا اذا سألناك .. أقتلت ابا عاتكة لانه لم يشأ

ان يزوجك اياها ام ماذا ؟

ـ قتلته !

وقتلت ذلك الفتى الذي احب عاتكة ؟

ـ نعم !

ـ وما هي غايتك مما فعلت ؟

ـ ان تصبح عاتكة لي ..

قال : الم تكن قادرا على ان تأخذها بقوة سيفك وانت طاغية الحي وفارسه وسيد فتيانه ؟

ـ بلى ولكن ابن شعبة لا يتزوج الفتاة التي لا تحبه ولا ترضى به !

ـ اعجب لوجود هذه العاطفة النبيلة في صدرك يا عباس ! تحب ابنة عمك ثم تقتل اباها وعاشقها وتسألها ان ترضى بما ترغب فيه ؟

ـ اجل فالحب شيء وسفك الدماء شيء آخر وسترضى عاتكة غدا ان لم ترض اليوم .

ـ اذن ستظل صابرا حتى يتم لك ما تشاء ..

قال : نعم ايها الامير !

ـ ولكنها تقول انها تؤثر عليك فتى من فتيان الجن .

ـ اذن تموت من يدي على مرأى ومسمع من هؤلاء .

ـ يظهر انك شجاع يا عباس لا تعبأ بالاخطار ؟

فجعل النذل ينظر بتيه وخيلاء الى اهل المجلس وهو يقول : لو لم تكن شجاعا يا ابن حمير لما عرفت من انا .

ـ ولكن قل لنا كيف هربت من وجه سابور ؟

ـ لم افر عن خوف وعجز كما ظننت ، بل خفت ان يتزوج عاتكة سواي فآثرت اللحاق بها على البقاء في اليمامة !

ـ اي ان عاتكه احب اليك من المجد واعز من الشرف ؟

فتردد الفتى قليلا ثم قال : مهما يكن الامر فاهل اليمن لا شأن لهم معنا

وليس لك ان تسألني عن هذا .

قال : اصبت فقد جاوز هذا اليمني الذي تخاطبه حده في السؤال .. خذه يا ناشر وتولّ امره وانصف عاتكة منه .. اخرجي يا عاتكة مع ناشر ، واخرج انت يا فارس اليمامة . فناشر لا يضيع لك حقاً ولا يغفل عن شيء .

ثم اومأ الى القوم بالانصراف واستلقى على فراشه يفكر في جمـــال عاتكة ، وذبول عينيها ، ودموعها البريئة التي فعلت في نفسه ما لا يفعله السحر .

ولكنه لم يغص في لجة تفكيره حتى مثلت بلقيس امام عينيه ، بقامتهـــا التي وصفت له ، وجبينهـــا الوضاح الزاهي الذي لا يعرفه ، وثغرها الضاحك الفتان الذي لم يره ! .

وقام في ذهنه ان عاتكة ، بالرغم من جمالها الخلاب ، لا تستحق ان تكون جارية لتلك الفتاة التي اختارها لنفسه .

ولكن هذه الصورة لم تلبث حتى امحت من ذهنه ، وقامت مقامهـــا صورة عاتكة من جديد ، كأن غرامه شهوة شباب تزول بعد ساعة ، وخاطر لا يخطر له حتى يضمحل .

وبات يتقلب في فراشه وهو يفكر في الاثنتـــين .. حتى عول اخيراً على ان تكون بلقيس زوجة ، وعاتكة حظية له .

والويل لمن تحدثه النفس بان يسلبه احدى الفتاتين .

• • •

٢٥

خرج ناشر وامر بعض الحراس بان يتبعوه الى خيمته وفي القلب ما فيه من عاطفة وهوى لم يحس بمثلها من قبل .

اجل ، لقد امسى ذلك الكاذب اللئيم عاشقاً ، وصار الذئب الغـــدار انساناً

له شعوره واحساسه !.

وهو الفتى الذي لم يعرف في حياته غير الخزيات ، ولم يهتم الا لما فيـــه الذل والسعاية والفضيحة والعار .

خرج وقلبه يخفق على ذلك الحب الجديد الذي فاجأه في خيمة مولاه ، ووعد نفسه بان عاتكة ستكون له لا لسواه .

وكان عباس بين الحراس يتمتم ألفاظاً لا يفهمها الذين حوله ، ولا يرفـع نظره في ذلك الظلام عن ابنة عمه التي تغص بالدمع .

وناشر يهامس عاتكة قائلا : امسحي هذه الدموع فقد ارسلت اليك الآلهـة نصيراً من اليمن هو ناشر امير ظفار .

فطابت نفسها وأحست انها بين يدي رجل شريف الغاية نبيل القصدينصفها من ابن عمها العاشق القاتل .

فلما وصل القوم الى المضرب الذي اعدوه لامين سر عمرو ، اشار ناشر على الحراس بان يحفظوا الباب ، وامر ابن شعبة وعاتكة بالدخول .

ثم جلس وهو يقول : ماذا تطلب الآن يا عباس ؟

ـ اطلب ان ترد عاتكة الى ابن عمها الليلة !

قال : الا تصبر ريثما يطلع الصباح ؟

قال : لا فان لم ترض بي الليلة ضربت عنقها وحلفت لا اشهد بعـد الآن مجلساً فيه امرأة .

فقال وهو لا يبتسم : اسألك باسم ولي عهد اليمن ان تعفو يا ابن شعبة .

قال : هذا حقي لا انزل عنه ولا اعفو ! انها ابنة عمي وليس لها في قومها من تلجأ اليه !

ـ ولكن الا يطيب لك ان تصبح ابنة عمك زوجة لامير من امراء البـلاط الحميري يملأ راحتيك مالا ؟

ـ ومن هو هذا الذي تعنيه ؟

ـ هو انا ...

قالها ناشر وعيناه تنظران الى الفتاة !

فاجابه قائلا : انها اذا كانت لا ترضى بي فهي لا تجسر على الرضى بسواي ولو كان الملك نفسه !

فرفعت رأسها وجعلت تتفرس فيه بعينين كأنهما جمرتان .

اما ناشر فقال : اذا كان هذا فانا اردها اليك لتفعل ما تشاء . . ماذا تقولين يا عاتكة ؟

قالت : خير لي ان يقتلني مولاي الامير وانا في خيمته من ان يطرحني بين يدي هذا المجنون الذي قتل عمه غدراً في ظلام الليل . ان الآلهة نفسها اعجز عن ان تكرهني على الرضى به .

قال : اسمعت ايها القاتل ؟

فلم يجب ، بل تناول خنجره وهم بان يطعنها به فسقط الخنجر من يده بضربة فاجأه بها احد الحراس من الوراء ، ثم احاط به اليمنيون والسيوف في الايدي وهم يقولون لناشر : مر ايها الامير فيطير رأسه .

فاسكتهم قائلا ؟ اغمدوا سيوفكم فابن شعبة الذي لم يجسر على شهر خنجره في وجه عدو قومه يريد ان يجرب هذا الخنجر بصدر ابنة عمه .

وكانت عاتكة قد تراجعت لتحتمي به ، فقال :

ــ اتخافينه وانت في جيش ذي القرنين ؟

فاطرقت وكأنها احست انها تحب ذلك الفتى الذي قرأت عطفه في عينيه وخيل اليها انها سمعت منه كلمات الحب !

ثم تمتمت قائلة : وكيف لا اخافه وهو يتبعني من موضع الى آخر كما يتبعني ظلي وليس في قومي من ينتصر لي ؟

فاراد ناشر ان يغتنم الفرصة ، فقال :

ــ لقد امسيت في ظل امير ظفار وانتهى دور الجزع والخوف الآن . . . قولي ماذا تريدين [illegible] صنع بابن عمك وكيف ننصفك منه ؟

ــ لو كنت اعلم انه يسكت عما تعود ان يفعله كل يوم لطلبت الى الامير ان

يجزيه ثم يرسله حراً الى اي بـلد أراد . ولكنه لا يرجع عن غيه ولا يستطيع الا ان يقابل المعروف بالاساءة ويكافىء الخير بالشر .

ـ اذن نفعل ما نشاء ولا نبالي . امسكوا ابن شعبة ايها الحراس .

وكانت عينا عباس في تلك اللحظة تشبهان عيني النمر الخائف وهو ينظر الى القوم نظرات المضطرب المذعور .

اجل : لقد كان واثقاً منذ ساعة ان قائد الجيش اليمني لا يجرؤ ان يمد يده وهو في عشيرته وبين قومه اهل اليمامة الذين يرهبون جانبه .

ولكنه رأى عندئذ ان ثقته كانت كاذبة ، وان قومه اضعف من ان يلجأوا في سبيل الدفاع عنه الى القوة والسيف .

رأى نفسه بين حراس ناشر ، اسيراً عاجزاً واهي العزيمة مشلول الاعضاء . والفتيان الذين يسندونه ويعيشون تحت لوائه ، يستسلمون الى الكرى وراء المعسكر الذي استخف بقواده .

اي ان ابن شعبة ، صحا من سكره ، بل من جنونه واستولى عليه الرعب الذي لم يكن له عهد به من قبل .

وقد اصفر وجهه وتلعثم لسانه ، عندما احاط به الحراس ووضعوا ايديهم عليه .

ثم قال ناشر : اوص يا ابن شعبة !

فارتجفت ركبتاه . وخيل اليه ان ارض الخيمة تهتز تحت قدميه !.

ثم استطاع ان يهمس قائلا :

أتحكمون علي بالموت ؟

فابتسم امير ظفار ، في تلك الساعة الرهيبة ، كأن شفتيه قد تعودتا الابتسام لاحكام الموت !

نعم ، لقد كان ناشر وسيده عمرو بن ذي القرنين يحكمان بالموت على الابرياء كل يوم لا يطرف لهما جفن ، ولا يخفق لهما قلب ! ولم يكن عباس بن شعبة ، غير واحد ، من فريق كبير ، ارسل بأمر منهما الى العالم الآخر .

ثم قطب حاجبه بعد ذلك الابتسام وهو يقول :
نعم ، لقد حكمنا عليك بالموت يا فارس اليمامة وستموت بعد ساعة !
فضيع المسكين رجاءه ومد يديه الى الامام يستعطف عاتكة قائلا : يموت ابن عمك يا عاتكة وأنت لا تقولين كلمة ؟
فاجابته وهي لا تنظر اليه لقد قتلت ابي يا ظالم ولم اقل كلمة ..!!
وكرهت ان تذكر ذلك القتيل الاخر الذي فجعها به ...
قال : ولكن الماضي لا يرجع وانا قـد ندمـت على ما فعلت فاسالي امير الجيش ان يعفو عن ذنبي !
قالت : لا تخرج من هذه الخيمة حراً الا لتنغص علينـا العيش من جديد وتهددني بخنجرك الملوث بالدماء .
ثم ذكرت عز ابيها وماضيه ، فهاجت كما تهيج اللبؤة وجعلت تقول : لا لا بل اسأل الامير ان يتعجل في قتلك لاستطيع ان اغمض عيني :
قال : رحمة يا ابنة العم .
قالت : لا تسألني امراً لا تعرفه ولم اجد في قلبك شيئا منه .
ـ وهل تريدين ان يقتلني بمني ؟
فقال ناشر : بل تقتلك هي بخنجرك نفسه ، اتريد ذلك ؟
ـ نعم ...
ـ اذن فاوص ، وخذي خنجره يا عاتكة وضعيه في القلب .
فبكى « طاغية الحي » وجرت دموعه على خديه ، ثم وقع على الارض قائلا: بل لا اريد ان اموت من يدها فليضربني الحراس وليحمل قومي جثتي الى اليمامة الى التراب الذي نشأت ونشأ آبائي فوقه .
فاغتنم امير ظفار الفرصة مرة اخرى ، فقال : الا توصي ابنة عمك بان تحفظ لك العهد وتكون وفية لك بعد موتك .
قال : لا تهزأ بي فالحب الذي تغلل في صدري هو الذي اوحى الي بان اكون قاتلا ..! أجل لقد كنت قادرا على ان اتزوج عاتكة على رغم اهل اليمامة واهل

اليمن ثم اغمد هذا الخنجر في صدرها والحق بهـا الى القبر ... ولكن غرامي لم يكن كاذبا ، ولم اشأ ان اكرهها على ما لا تحب فقضيت ايامي بـين مهده ومستعطف علها تجود علي بنظرة رضى واحدة فلم تفعل .

وهم بان يصف ذلك الغرام وهو يبكي .

فقاطعه ناشر قائلا : ولكنها ستجود علي بما بخلت به عليك وستكون بعـد موتك زوجة للامير اليمني الذي يخاطبك الآن .

وكان اللعين يريد ان يقرأ ما في نفس عاتكة قبل ان يضرب ضربته : يموت ابن شعبة اذا رضيت عاتكة به زوجاً لها .. ويبقى حياً ان لم ترض .

ولماذا يعبأ ناشر بتلك الفتاة الغريبة اذا هي آثرت غيره عليه وخرجت مـن خيمته لتعود الى اليمامة مع قومها يوم يصفو لهم الزمان ؟

بل لماذا يطلب بدم ابيها وينصفها من ابن عمها وهي ليست له .

ان العدل لم يتعوده امير ظفار . بل لم ير في حياته كلها وجهه الوضاح ...

لقد تعود ان يجعل معروفه خاضعاً للشهوة لا للعاطفة والا يعطي احداً درهماً الا اذا وثق بانه سيتناول بعد ذلك دينارين ..

وأخذ يحدق اليها ليلمس تلك الالوان التي تبدو على وجهها .

وكانت هي تنظر اليه فرأى من خلال كآبتها ، املا يلمع في عينيها الذابلتين وتشع منه انوار الاحلام والمنى .

فطابت نفسه ، وقام فوقف بباب الخيمة واومأ الى الحراس بان يجروا المسكين الى الخارج ويتخطفوه بالسيوف .

فصاح عباس مستغيثا ، ولكن استغاثته ضاعت في الفضاء ، ثم جعل صوته يضعف حتى اختنق ... وفاضت روحه على الشفار الحادة التي غاصت في جسده الجبار .

وعينا عاتكة تنظران ، واذناها تسمعان .. ولكنها لم تستغث ولم تخف ، بل جالت الدموع في عينيها لحظة قصيرة ، ثم زها جبينها وافتر ثغرهـا عندما حمل الحراس ذلك القتيل العاشق ليدفنوه !.

ولعلها احست في تلك الساعة ان الزمان سيعود الى صفوه ، وسيخلق لهـا عاشقاً جديداً ، غير ذينك العاشقين المنكودي الحظ .

* * *

نهضت مترددة وهي تهم بالانصراف .

وقد تفرق الحراس ولم يبق غير ناشر ، فقال لها وصوته يضطرب : اجلسي وقولي لي في اي شيء تفكرين الآن ؟

فنظرت اليه كالمرأة تنظر الى المحسن اليها قائلة :

افكر في امر واحد هو اني لا استطيع ان اقابل هذا المعروف بمثله .

ففاجأها بقوله : بل تستطيعين ان تحسني اليّ باعظم مما احسنت اليك .

ــ انا ؟

ــ نعم :

فتجاهلت غايته قائلة : وما هو هذا الاحسان الذي تستطيعه فتاة مثلي تستجير بالناس لينقذوها من الظالم .

ــ كلمة واحدة تقولينها . ألم تسمعي ما قلته لعباس انك ستصبحين زوجة لي؟

قالت : انك تمزح يا مولاي ؟

ــ لم يخطر لي هذا المزاح الذي تذكرين ، لقد خفق لك هذا القلب عندما كنت تستغيثين ، ثم اضطرب وزاد خفقانه حين ابصرت وجهك في خيمة ولي العهد . فبوحي الآن بما في صدرك من عاطفة واسرار . اتريدين ان تكوني اميرة في ظفـار ام تؤثرين العيش في سهول اليمامة على قصور اليمن ؟

فسبحت الفتاة في فضاء الاحلام ساعة طويلة وهو ساكت ، على لذة وامل، حتى رفعت رأسها قائلة :

ــ لا اجسر على ان احب احداً خوفاً من يكون حبي شؤماً عليه .

ــ اما انا فلا يطيب لي غير هذا الشؤم .

ــ اعترف لك ان قلبي يحدثني بانك ستندم على هذا الحب .

ــ هذا هو حبي الاول فليكن هناء دائماً او فليكن ندمــاً مراً قاسيا فانا لا ابالي ، ولكني كثير الغيرة يا عاتكة فاذا انتهى امرنا الآن بالرضى فاحذري من ان يتغير لك رأي ...

فابتسمت وهي تقول :

ــ لو كنت تعلم من هي عاتكة لما خطر لك ان توجه الي مثل هذا التحذير .. ان لي ارادة يفنى الحديد وتثبت ، وتتلاشى حياتي وهي باقية . اسمع الآن اني احبك وسأموت عندمـــا ارى ان يد القدر تستطيع ان تفصلني عنـــك . أيكفيك هذا ؟

فجثا ناشر عند قدميها قائلا : وانا اقسم لك برأس الملك وولي عهـــده اني سأكون عبداً لا زوجاً .

ثم نهض فوضع يده بيدها ومشيا الى الخارج .

فقالت : الى اين ايها الحبيب ؟

ــ الى المعسكر ثم الى الخيام التي يقيم بها اهل اليمامة لاقول للفريقين : انك اصبحت لي والويل لمن يعرض لك بسوء بعد الآن .

ــ ولكن لي رغبة قبل ان تفعل .

ــ وما هي ؟

ــ هي ان نصبح زوجين قبل ان نعود الى مأرب .

ــ ان للزواج عندنا شروطاً فمن يكتب العقد ؟

ــ يكتبه ولي العهد الذي هو امير الجيش ثم يجيزه الكاهن اليمني عندما ندفعه اليـــه . .

ــ سيكون غداً ، وغير ذلك ؟

ــ لم يبق لي ما أسألك اياه . فامش الآن وانا اســير وراءك الى حيث تشاء .

فسار الاثنان الى المعسكر ثم انتهيا الى حي اهل اليمامة وناشر يقول للقوم : لقد

اصبحت عاتكة لي .
ولم يعلم القوم ماذا جرى لعباس . بل لم يجسروا على ان يسألوا عنه .
غير انهم وثقوا بان امره قد انتهى ، ولم يبق لعاتكة ما تخافه .
وعندما لجأت الفتاة الى خيمتها عـــاد ناشر الى المعسكر ليستسلم ، وهو في فراشه ، الى الاحلام العذبة والامل الضاحك .
واستولت السكينة على ذلك الوادي وساد الصمت والهدوء . . .

***

٢٦

كانت الاقدار تساعد المتآمرين على عرش ذي القرنين .
فان ولي العهد لم يغمض له جفن في ذلك الليل . .
لقد اعجبته عـــاتكة كما قرأت فليس من الرأي ان تفلت من يـــده لتكون لسواه ، وقد لا يجد مثل عاتكة بـــين حسان العرب اللواتي يرسلهن الامير هدية اليـــه .
ولو لم تكن بلقيس اميرة الجمال ، كما قيل له ، لجعل فتاة اليمامة ولية للعهد ، الا لا يمنعها ذلك النسب الشريف الذي تنتمي اليه ، من ان تجلس بعد حين عـــلى العرش الحميري .
وملأ الاعجاب صدره حتى امسى غراما .. وحتى احس انـــه لا يطيق ان يبعد عاتكة عنه !
فلما بزغ الفجر قال لحاجبه :
ـ قل لامير ظفار ان يحضر الساعة .
ولم تكن الا لحظة حتى اقبل ناشر وولي العهـــد في فراشه ، وآثار السهـــر والتفكير على جبينه وفي عينيه .
فقال : اجلس يا ناشر وخبرنا ماذا فعلت بعباس .

وكان الواحد منهما يجهل ما في صدر الآخر من عواطف الغرام !

فقال : لقد طوته الارض يا مولاي !

فاكتفى بان يبتسم لذلك الخبر ابتسامة الرضى ، وكانت ابتسامته ابلغ رثاه لابن شعبة المسكين ، ثم قال :

ــ متى قتلته ؟

ــ في هذا الليل الذي يتنفس صبحه .

ــ كان عليك ان تأمر بقتله عند الصباح على مرأى ومسمع من القوم . واين هي الفتاة الآن ؟

ــ في حيها وراء المعسكر .

قال : أرسل من يدعوها الى هذه الخيمة لان لنا كلمة نقولها لها قبل ان يستفيق الجيش !

ــ لقد عرفت بعض اسرارها فاسأل عما تشاء .

ــ ان هنالك امراً لا يعرفه سواها .

ــ وهل تكتمني اياه يا مولاي ؟

ــ لا ، سنسألها ان تعود معنا الى مأرب لتكون بين حظايا البلاط !

فاصفر وجهه قائلا : اي الك تريد ان تجعلها حظية لمولانا الملك ...

ــ بل حظية لمولاك ولي العهد .

فمد يديه المرتجفتين وهو يقول :

ــ انك تكاد تقتلني يا مولاي !

قال : لماذا ؟

ــ لاني احببت هذه الفتاة حباً ملأ نفسي .

فقهقه الفتى المستهتر ضاحكاً ثم قال :

ــ ولكن ولي العهد احبها الحب نفسه قبل ان تخفق في صدرك عاطفة !

قال : وتعاهدنا يا مولاي على الزواج .

فلم يبال بمظاهر الالم التي قرأها على جبين امين سره بل كان وقحاً الى حد

انه انكر عليه حقه بالحب وكان يقول :
ـ انس الآن ما فعلته امس وينتهي الامر !
ـ لا استطيع يا مولاي فهي اول خفقة لهذا القلب !
ـ ونحن مثلك لا نطيق ان تكون عاتكة لك .
قال : اذكر ماضيّ يا مولاي فنساء اليمن بين يديك وستكون لك بلقيس اجمل نساء العرب .
فتمادى في وقاحته قائلا :
ـ هذه زوجة ، وعاتكة حظية فلا تعد الى الرجاء .
ـ واذكر اني اخلص الامراء للعرش !
ـ ليس للاخلاص شأن مع الغرام ، ومع ذلك فـاذا كنت كما تقول فاخنق هواك ودع عاتكـة لمولاك فالاخلاص ان لم ترافقه التضحية يكون كاذبـاً لا قيمة له .
فأحس الفتى ان اخلاصه انقلب فجأة فصار حقداً !! حقداً تغذيه الغيرة التي لا تخمد نارها في صدره ويمليه الاستخفاف الذي جرح كبرياءه !
انه امير ابن امير ، وظفار احدى دعائم العرش الثابتة الاركان . افيستخف ولي العهد بكرامته وهواه ويعبث بالاثنين ؟؟ انه موقف مدهش غريب لم يقم في ذهن ناشر ان يقدم عليه .
فقال له وصوته يرتجف وعيناه تختلجان :
ابذل لك يا مولاي مالي كله وظفار كلها على ان تبقى لي عاتكة !
قال : قضي الامر فابحث لك عن فتاة اخرى بين اللاجئين الى هذا الوادي فنحن لا نرجع عما هممنا به .
ونهض فلبس ثيابه وهو يقول :
ادعها فنسألها عن الفتى الذي تختار .
ـ اتأذن لي في ان اكون رسولك اليها ؟
فأجابه دون ان يتردد : بل ترسل اليها احد الحجاب وتبقى انت في هـذه

الخيمة ريثما تحضر .

فقال في نفسه : ويل لك يا عمرو من هذا الحب الذي صيرته بغضاً .

ونادى حاجب الامير وامره بان يدعو عاتكة ، وقد مرت سحابـــة سوداء امام عينيه ..

ولولا بقية حكمـــة في نفسه ، لعمد الى سيفه ، وضرب به مولاه الغـــادر حتى يموت ..

ولكن العيون تراه ، وليس هنالك قوة تحفظ حياته وحياة عاتكة اذا هو قتل ولي العهد ..

وكانت الفتاة في تلك الساعة تحلم بامارة ظفـــار ، وتفكر في ذلك الحبيب النبيل الذي بعثت به الآلهة .

فلما نقل اليها امر ولي العهد ، خطر لها انه سيكتب عقـــد الزواج ، بطلبه ناشر ، وان شمس ذلك اليوم لا تطلع الا وهما زوجان .

وقامت فانصرفت والابتسامة تغمر ثغرها الفتان .

على انها لم تبصر وجه ناشر حتى دب في قلبها الذعر ، واحست ان الساعة قد انقضت .

ولكن الاميرين ابتسما واذن لها ولي العهد في الجلوس وهو يكاد يفترسهـــا بعينيه ثم قال :

أأنت راضية بما فعلناه من اجلك امس ؟

ـ بل انا شاكرة للامير انصافه وعدله ولن انسى هذا العطف الذي احاطني به.

قال : لا يستطيع الملوك والامراء الا ان يعطفوا على هذا الجمال الجذاب .

ـ لقد كان جمالي وبالا علي وعلى اهلي يا مولاي .

ـ ولكن الامراء لا يبالون بما تقولين ولا ينظرون الا الى هذا الوجه الساحر الذي يستهوي جماله القلوب .

فالتفتت الى حبيبهـــا فرأته مطرقاً جامداً لا يطرف له جفن ، فظنت انـــه اعترف بهواه وقد جاء دورها بالاعتراف ، فقالت له :

لقد اراد امير ظفار ان يشرفني بحبه وانا اخشى ان يجرهذا الحب الى الهوة!
ــ ولكنك نسيت ان هنالك اميراً آخر برح به هواك في ليــلة واحدة هو رئيس ناشر ومولاه .
فعرفت عندئذ سبب هذا الاطراق فقالت :
لا تستحق هذه الفتاة حب ولي العهد .
ــ بل تستحقين ان تكوني ملكة على عرش ، لقد ارادك ناشر لنفسه واردناك لانفسنا فاختاري لك واحداً منا قبل ان يطلع الصباح !
فابتسمت .. ولكن لليأس لا للأمل .. وادركت ان الموقف صعب وان كلمة واحدة تقولها تصفع قلباً وتبعث الحياة الى قلب .
ولكن لا بد لها من ان تتكلم .. ولا بد للحادث الرائع من الوقوع ، فخير لها ان تصافح ولي العهد وتداريه قبل ان يخرج من فمها ذلك الحكم القاضي ، في وقت واحد ، بالحياة والموت ، فقالت وهي مذعورة خائفة :
انك انت الملك الآن يا مولاي وليس لاحد ان يختار شيئاً والملك حاضر .
قال : لقد نزلنا لك عن هذا الحق .
ــ خير لي ان اقص حكايتي على مولاي قبل ان افعل .
ــ ستقولين لنا انك عاهدت ناشراً على الوفاء أليس كذلك ؟
ــ نعم .
ــ لقد قص علينا ناشر ما تريدين ان تقوليه .
ــ وهل يطيب للامير الذي يقود جيشه الى ساحات الفخار ان انكث عهدي واهدم عند الفجر ما بنيته امس ؟
قال : ان هذا الامير الذي تذكرين لا يعبأ بالعهود والوعود .. لقد احببناك كما احبك امير ظفار ، ولم يخطر لنا انه سيكون اسبق منا الى الاعــتراف بهواه .. أمرناه بأن ينظر في امر ابن عمــك في الليل الذي مضى ، على امل ان ينظر ولي العهد في امر نفسه عند الصباح .
ولكن ناشراً لم يشأ الا ان يتعجل في غرامه دون ان يسأل مولاه عن رأيه في

هذا الغرام ... اسمعي يـــا عاتكة . لقد كان ولي العهد قادراً ، لولا هواه ، ان يطلق يد عباس في كل شيء ولا يبالي بالفتاة التي تشكوه بل كان قادراً على ان لا يصدق كلمة واحدة من تلك القصة الطويلة التي روتها له . ولكنه رأى فتاة حسناء فاعجبته فامر بان يقتل ابن شعبة ، ليستطيع ان يقول لهذه الفتاة في صباح اليوم الثاني : انها حظية لي !

فانطرحت عند قدميه تذرف الدموع وهي تقول :

لقد مضى ما مضى يا مولاي فأنسى هواي .

فزادت قساوة عمرو ولم يرد ان يلين .

وكان القدر الذي لا يعرف الناس له هوى ، يدفعه بيديه الاثنتين القويتين الى هذه القساوة ، ليقل انصار العرش ويكثر انصار شرحبيل بن عمرو !

على ان عاتكة الجبارة ، الكبيرة في نفسها ووفائها ، لم تخن شرفها ولم تستسلم الى القوة بل كانت لهجتها لهجة فتاة تؤثر الموت طاهرة الخلق ، على العيش في ذل الخيانة والعار .

وكانت تقول : لقد احببت ناشراً ووعدته بان اكون زوجة له ، فلم يبق الا ان يأمر مولاي بالوفاء بما وعدت، او يأمر جلاده بان يفعل بي ، كما فعل الحراس بعباس بن شعبة .

قال : أليس لك ما تقولينه غير هذا ؟

ــ لا يا مولاي ، هذا ما اقوله الآن ، وما ساقوله بعد شهر وبعد عام فافعل ما يطيب لك !

فالتفت الى امين سره قائلا : وانت يا ناشر ؟

ــ انها لك يا مولاي اذا ارادت .

قالت : ليقل ناشر ما يشاء فان وفائي لم يكن ملكاً لاحد يشتريه من يرغب في الشراء ...

فاحمرت عيناه من الغيظ وجعل يقول :

بل يكون ملكاً لنا نبيعه او نهبه لمن نريد ... اخرج يا ناشر وتول النذار ...

دون الجيش ولا تعد الينا الا اذا دعوناك .
فتردد الفتى في الامر ، وكان صدره يهيج وقلبه يكاد يثب منه .
غير ان دهاءه كان يمنعه من الاسترسال في هياجه ويضع حـداً لتلك النار المضطرمة في احشائه .
اما عمرو فكاد يفقد صبره لذلك التردد ، فقال له: نأمرك بالانصراف وتبقى يا ناشر ؟ !
قال : انسيت اخاك ناشراً وامين سرك ورفيق صباك ؟
ــ لقد نسينا كل شيء فانصرف الآن .
فايقن الفتى عندئذ ان غرامه لم يخلق الا ليموت وان تلك الفتاة التي اراد ان يجعلها آلهة نفسه قد ضيعها الى الابد .
وخرج صامتاً مطرقاً يتعثر بخيبة الرجاء .
ولكنه لم يجاوز الباب حتى هم بالرجوع .
فقالت له : انصرف بامر مولاك ايها الحبيب فعاتكة لك لا لسواك .
ثم خاطبت ولي العهد قائلة له :
هذا هو الرجل الذي اخترت ! ! انه ينصرف بامرك الى المعسكر لا يعبأ بي ولا يبالي !
فخيل اليه انها نسيت عهدها فقال :
ومع ذلك فقد عاهدته على الزواج وانت ترفضين ان تكوني لولي العهد .
ـ قلت لك يا مولاي اني وعدت وخير لي ان اموت من ان ارجع عما قلت.
ـ ولكن حبك قد ضاع فنحن لا نرضى بان تصيري زوجة لناشر ولو قتلت.
ـ وانا لا ارضى بان اصير حظية لك ولو قتلت .
قال : الا يطيب لك ان تصبحي سيدة في البلاط ؟
قالت : عندك الحسان اللواتي يغص بهن قصرك فاله بهن ما شئت .
قال : ستندمين يا عاتكة .
ـ انا اعلم ان هذا الموقف سيبعث بي الى القبر ، ولكن ما حيلتي وقد احببت

ناشرا وهو الامير الصغير ولم احب ولي العهد الذي سيلبس تاج حمير بعد حين .
وانا يا مولاي لا اطيق العيش مع رجل لا احبه ولو جعلني سيدة الناس .

قال : الم تري كيف خرج ناشر الآن دون ان يلتفت الى الوراء .

ففهمت انه يوغر صدرها على امين سره ، فقالت :

وهل كان يستطيع ان يعصي امرك وانت مولاه ؟

ـ اجل ، كان قادراً ان يقول : لا اخرج الا بعد عاتكة .

ـ ولكنك تعمد الى حراسك فتقول :

اقتلوا المتمرد الخارج على قائده ...

قال : وكان يجب ان يستهين بالموت في سبيل من يحب .

فتفجر الدمع من عيني المسكينة وارخت نظرهـــا الى الارض ثم اصيبت بالذهول .

نعم ، لقد رأت ان حبيبها كان جباناً في غرامه ، وضعيفا في مروءته وابائه كما قال عمرو .

فآثرت الصمت على الدفاع ، واستسلمت الى الضعف تذرف الدمع وتشهق بالبكاء .

فغر عمراً ذلك الضعف . وعول على ان يسبر غور الفتاة من جانب آخر له تأثيره في حياة الفتاة العذراء ، فقال لها وهو يخفض صوته :

لنا رأي جديد نقوله فاسمعيه ..

فنظرت اليه دون ان تجيب .

ثم قال : خطر لنا ان نجعلك ولية للعهد لا حظية فماذا تقولين ؟

واستند الى فراشه يصغي الى ما تقول ...

واية فتاة يسعى اليها الملك فتأباه ، ويعرض عليها التاج فتغض طرفها عنه .
بل اية فتاة عربية يقول لها ابن ذي القرنين انت حظية لي ولا تصغي الى هذا القول ؟

اتظن ان في العرب فتاة تقف موقف بلقيس فتصون عرضهـــا بارادة من

الفولاذ لا تزعزعها الحادثات ولا تلين مع الزمان ؟

نعم ، كانت عاتكة مثلها ، تؤثر الفقر مــع الشرف على الغنى مع الذل ، وتؤثر الموت بريئة طاهرة كما رأيت على ان تطعن فيها الافواه .

ولم يخطر لها قط ان عمراً صادق في قوله ، وهب انه كان صادقاً فمن يضمن لها الراحة على سرير الملك ؟

ان الحياة مع فتى يبادلها العاطفة ، احب اليها من الحياة في قصور الملوك ، المصبوغة بجميع الالوان .

فرفعت صوتها قائلة : لو خطر لك ان تجلسني الآن عــلى عرش ابيك لما رضيت .

وكان الصبح قد طلع وعاد الحرس .

فنهض دون ان يتكلم ووقف بباب الخيمة قائلا لهم :

في اي مكان وضعتم ابن شعبة ؟

فأومأوا الى موضع القبر الذي حفروه له .

فتراجع ثم تناول سيفه وهو يقول لحاجبه: عندما تخرج هذه الفتاة من الخيمة تخرج روحك .

وسدل ستار الباب ، وجعلت عاتكة تلعن جمالها وتندب حظها وهي تذرف الدموع .

• • •

لم يذهب ناشر الى المعسكر كما امره ولي العهد .

بل اتكأ على سيفه وراء الخيمة ينصت الى حديث عمر ويصغي الى كل كلمة تقولها عاتكة ..

حتى سمع كل شيء ولم تفته كلمة واحدة من حديث الاثنين .

فلما قالت عاتكة انها لا ترضى بالجلوس عــلى عرش ذي القرنــين ، ايقن

عندئذ ان وفاءها لا شك فيه ، ومشى يريد المعسكر وهـو مضطرب ثائر لا يعلم اين يضع قدميه .

ولكن ذلك الاضطراب لم يخرجه عن حده ، بل استعان بكل ما يملك من جلد ودهاء وصبر ، ليخفي مظاهر ثورته وحقده ، ويضع ، وهو هادىء ، ذلك المنهاج الذي سيتخذه في حياته الجديد مع ولي العهد الخائن المستخف .

حتى ان حقده الفجائي ، كاد ينسيه ذلك الغرام الذي تغلل في نفسه ، وحتى كاد ينسى ان في صدره قلباً يحب !

وقد عول على ان يكيد ولي العهد بعد رجوعهم الى مأرب ، ويضع يده بايدي اولئك الامراء الذين يضمرون البغض لذي القرنين .

واغرب ما تراه من امر ناشر ، ذلك الهدوء الذي اعتصم به وهو الفتى الغر الذي لم يعرف الهدوء من قبل .

وكان ولي العهد قد ذهب الى المعسكر من الجانب الآخر وجعل يطوف بين الخيام لا يخاطب احداً ولا يحادث اميراً حتى انتهى اخيراً الى الموضع الذي دفن فيه عباس فوقف لحظة عند قبره ينظر الى ذلك التراب الذي يغطي جسده الجبار ويبتسم ابتسامة غريبة لخاطر هائل كان يخطر له .

وعين ناشر تراه من بين الخيام التي تجاور القبر ... وصدره يغلي وعيناه ترشلان النار .

فلما انثنى ولي العهد راجعاً ، احتجب امين سره عن عينيه وهو ذاهل الطرف ينتقل بالذهن الى خيمة ولي العهد مقر عاتكة ، ثم الى مأرب ، ثم الى البلاط يستعرض الرجال المقيمين به ...

ولكن ذلك الاحتجاب لم يطل ، فما هي الا ساعة قصيرة حتى تلاقى الاثنان عند بيوت المؤونة وهما يتظاهران بالاهتمام لشؤون الجيش

فاشرق جبين ناشر عندما رأى مولاه .. كأن ذلك الحادث الغريب بينهما لم يكن ، وكأن قلبه لم يخفق الا على الاخلاص لمولاه ..!

وافتر كذلك ثغر عمرو وخيل اليه ان عاطفة الحب التي احسها ناشر كانت

ذابلة فهي لم تظهر الا لتضمحل .

ثم قال له : لقد كانت عاتكة وفية لك فلم ترض ؟

فأجابه قائلا : كدت انسى عاتكة يا مولاي فافعل ما تشاء !

ـ وماذا افعل ؟ اني لا ارجع الى الخيمة الا عند المساء فاذا رأيتها راضية انتهى كل شيء والا .

ـ والا ماذا يا مولاي ؟

فقهقه ضاحكاً وهو يقول : انظر اين دفن عباس . ألا ترى الارض هنالك فاتحة ذراعيها لتحتضن جثة اخرى من اهل اليمامة الانذال ؟

فضغط امير ظفار قبضة سيفه حتى كاد يسحقهاثم لم يستطع الا انيقول :

ـ اكتف يا مولاي بان تعيدها الى البلد الذي خرجت منه فهي لم تخلق لامل اليمن .

ـ بل نبعث بها الى ذلك العاشق الذي لم تحبه فتجود عليه وهما تحت التراب، ما بخلت به وهما على الارض .

فقال الفتى في نفسه : لقد كتب لهذه المسكينة ان تموت يوم بسم لها الحظ وكتب لي ان اشحذ سلاحي لاطلب بثاري .

وارخى نظره ليخفي بريق الحقد في عينيه .

اما عمرو فاستطرد قائلا : كل فتاة لا تريد الاقامة ببلاط الملك يسوقونها بالسوط ، اما انا فلا احب ان افعل ذلك مع عاتكة لان ابن شعبة نفسه كان ارفع من ان يكرهها على اللحاق به .. امش يا ناشر فقد كادت هذه الفتاة تجعل ولي العهد وامير ظفار عدوين .

وبينما هما يتمشيان ابصرا كبير القوم الذي حادثه عمرو في خيمته في الليل الماضي فقال له :

ـ الا تسألنا عما جرى لابن شعبة ؟

ـ وماذا جرى له يا مولاي ؟

ـ انه يرقد شرقي المعسكر في حفرة لا تتجاوز الذراعين !

فتراجع الشيخ مذعوراً ثم تنهد قائلا :
ــ لقد نجت عاتكة !
ــ بل تلحق به هذا المساء اذا لم ترض بالذهاب الى مأرب والاقامة بهـا الى الابد !
فهم الشيخ بـان يلتمس العفو منه دون ان يعرف ذلك الذنب العظيم الذي جنته الفتاة .
غير ان التماسه وقف عند شفتيه كـأنه لم يجسر على ان يخاطب القائد المغرور الظالم ، بامر العفو !
رآه فتى طائشاً يقتل لرغبة له في القتل ، ويفاخر القوم بانه قاتل ، فكره ان يستعطفه لئلا يفضي به الاستعطاف الى حفرة تشبه حفرة عباس .
على انه حدث في تلك اللحظة ما غير موقف الثلاثة فقد اقبل احد الحراس يقول : ان الفتاة تستغيث وقد ملأت المضرب صياحاً !
فقال وهو هادىء : لا تبالوا ولو ملأت الفضاء بكاء !
ثم قال : ارفعوا الستار عن باب الخيمة وامكثوا عنده ولتفعل ما تشاء .
ــ لقد فعلنا يا مولاي وكانت قد همت بان تطعن قلبها بخنجر ذي حدين
ــ خذوا ذلك الخنجر واحتفظوا به ريثما اعود .
ــ ان الخنجر مع رئيس الحراس ولكن الفتاة لاتهدأ وهي تلح في طلبه !
فقطب حاجبيه قائلا لناشر : ابق هنا ولا تغادر هذه الخيام .
ولم ينتظر جوابه بل اكتفى بان يقول لحارسه :
ــ تعال فنحن نعطيها خنجرها ونجعلها حرة .
وعندما توارى عن نظر الاثنين قال ناشر للشيخ : ان عاتكة ستموت الساعة فالامير يريد ان يجعلها حظية له وهي لا ترضى .
فتردد قليلا في الجواب ثم قال :
ــ وماذا تفعل وهو ابن ذي القرنين والجيش وراءه ؟
قال : خذ شيوخ القوم وانطرحوا جميعكم على قدميه لعله يعفو .. اذهب ولا

نتردد فالموت لا يبعد عنا غير خطوة واحدة .

فتمتم قائلا : لقد خفنا من سابور فاذا نحن بين يدي رجل لا يطيب له الا ان لسفح الدماء .

قال : اذهب وافعل ما قلته لك قبل ان ينتهي الامر ..

فجعل الجبان يتلفت مذعوراً كأن الخيل تحيط به .

فدفعه بيديه الاثنتين وهو لا يعلم ماذا يفعل .

فمشى كبير القوم بخطوات متثاقلة ليدعو زملاءه الشيوخ ، وصدر ناشر يكاد ينشق وهو يقول : لم أر في العرب قوماً اجبن من هؤلاء !

وظل الشيخ ماشيـاً وناشر يمشي خلفـه حتى وصل الى خيام قومه فهامس الزملاء والابطال وانثنى معهم يريدون مضرب عمرو .

فخيل الى ناشر انهم ذاهبون الى عرس .

فوقف واخذ ينظر الى السماء يستوحي الهتهـا وهو متحير في امره . أيلنتصر لغرامه فيقتل مولاه ثم يقتل وتقتل عاتكة بعده فيخسر كل شيء ، ام يسكت على من ويصبر على ذل حتى تسنح له الفرصة فيضرب ضربة تشفي غليله ؟

ان الصبر اولى ، فليختنق غرامـه ، وهو في فجره . وليتفطر فؤاده الذي لم يشق من قبل !

ثم دار دورة طويلة ، وسار من الجانب الذي جـاء منه ، ليصغي من وراء خيمة مولاه الى كل ما يقال .

* * *

كانت عاتكة تبكي وترسل الزفرات .

فلما اقبل ولي العهد نهضت كاللبؤة الجريحه قائلة له : ارحم ضعفي ايها الظالم ودعني اخرج من هذا السجن الذي جعلتني فيه .

فأجابها وعاطفته تطل من عينيه : انسيت ناشراً ؟

ــ بل نسيت اهــل الارض جميعهم وانا اؤثر الموت على الحياة .. لقد كان حراسك قساة فسلبوني سلاحاً كان في يدي قدرهم ان يردوه .

ــ ان الحسناء مثل عاتكة لا تحتاج الى سلاح . اتريدين سلاحاً امضى وابعد اثراً من عينيك الذابلتين ؟

قالت : انه خنجر ابي فلا انزل عنه .

ــ ولكن لا نريد ان تموتي وانت في زهرة العمر !

ــ واي نفع لحياة ليست ملكاً ؟ كانت ملكاً لعباس بن عمي ثم اضحت الآن ملكاً لك يا ابن ذي القرنين ، والموت احب الي من هذا .

قال : لا تعودي الى الجنون يا عاتكة .

ــ المجنون من يحاول ان ينتزع الحب انتزاعاً من صدر فتاة لا تحبه ولا تريده زوجاً لها ولا تفكر فيه ، بل لا تريد ان ترى وجهه .. المجنون هو انت !

ــ عاتكة ..

ــ ليس لك امل بان تسمع مني كلمة غير هذه .

قال : لقد اثرت ناشراً علي وانا لا اطيق ذلك .

فضيعت ذلك الهدوء الذي احتفظت به من قبل قائلة :

ان الارض التي انبتت عمراً انبتت ناشراً .. كلا كما نذل .. ولو لم يكن ناشراً نذلا لما اختبأ في المعسكر الآن كما تختبىء النساء .

فلم يغضب الامير لكرامته الجريحة ، بل لم يبد على وجهه اثر واحد من اثار ذلك الغضب ، كأن عاتكة كانت تعني سواه بذلك الحديث الذي وجهته اا وجعل يقول : احبك وستكونين لي .

فهاجت وحاولت ان تخرج من الخيمة وهي تلعن الساعة التي ابصرت فيها وجهه ووجه ناشر الجبان .

ولكنه تصدى لها بيدين حديديتين واومأ الى الحاجب القائم بالباب بان يسدل الستار ففعل ، فساد المكان شيء من الرهبة والظلام .

ثم قال وصوته يرتجف : لقد اصبحت خائفاً من نفسي .

ــ اما انا فلا اخافك .

قال : واخشى ان اخرج عن حدي فتموتي .

قالت : استحلفك بشرفك اذا كان هذا الشرف موجوداً ان تفعل .

فجرد الوحش خنجره وقال : كلمة واحدة اقولها ثم اضرب . اتريدين ان تكوني لي ؟ .

فجثت ، ثم فتحت ذراعيها للموت وهي تقول :

اضرب يا ظالم فليس على الارض قوة تكرهني على هذا .

فاغمض الذئب المفترس عينيه واقبل يضربها وهو لا يبصر اين تقع ضرباته حتى وقع الخنجر من يده ، ثم استفاق من حلمه الرائع فاذا عاتكة جثة مخضبة واذا هو في حوض من الدماء .

فتراجع قليلا الى الوراء وهو يضحك !! ثم خاطب الجثة المكفنة بذلك النسيج الاحمر قائلا لها : لقد اردت أن تكوني لعباس فاستقام لك الامر .

ومشى الى الباب فرفع ستاره فابصر شيوخ اليمامة يترددون في الدخول .

ففاجأهم بقوله : ادخلوا واحملوا عاتكة الى القبر .

فجعلوا يحدقون الى الداخل وهم لا يصدقون .

واقبل الحراس ليروا تلك الفتاة التي قتلت دون ان يرتفع لها صوت .

فابصر الجميع جسداً مزقته الشفرة الحادة ... وصبغته الدماء التي خرجت منه .

ولكنهم لم يقولوا كلمة ، بل لم يخفق لاحدهم قلب ولم تجل في عين احدهم دمعة ! كأن الصبية الحسناء التي لفظت روحها ليست منهم ولا عهد لهم بها من قبل !

قلوب كالصخر ، لا شرف فيها ولا عاطفة ، وضعف يملأ الصدور ، فيه النذالة والذل .

وكان ناشر من وراء الخيمة ، قد عرف كل شيء ، فاصفر وجهه ، ثم بكى.

ثم وضع يده على قلبه ليسكت خفقانه وهو يقول :

اصبر يا قلب على ما رأيت ، فلهذا الظالم يوم .

ثم سمع صوت عمرو يقول لحراسه :

اقذفوا بالجثة الى الحفرة التي يرقد فيها عباس !

ومشى يريد المعسكر وهو لا يلتفت الى الوراء ، ولكنه كان يرسل نظره الى الجانبين لعله يرى ناشراً .

فمحا حقد ناشر في تلك اللحظة جميع عواطف قلبه ، واستطاع ان يستعيد قواه كأن عاتكة لم تكن .

ثم رجع الى خيام الجيش يحمل حقده وصبره ، وهو يتفرس في الارض التي تطأها قدماه ولا يريد ان يوجه نظرة واحدة الى خيمة مولاه لئلا يرى عاتكة محمولة على الاكتاف .

وكان عمرو يطلبه بين الخيام لينقل اليه البشرى بموت حبيبته .

فلما وقعت العين على العين قال له والشماتة في لهجته : اذهب وشيع عاتكة قبل ان يحجبها التراب .

فاجابه قائلا : وهل ماتت يا مولاي ؟

ــ لم تمت حتف انفها ولكن بخنجر مولاك .

فلم يضطرب ولم يعبأ بل كان يقول :

لتنم اذاً قريرة العين بالقرب من ابن شعبة !

فخيل الى ولي العهد ان حب ناشر كان كاذبا ، وان تلك العاطفةالتي اختلجت في صدره تشبه عاطفته التي تلاشى اثرها في ساعة واحدة . فقال :

الا تذكر عاتكة يا ناشر ؟

ــ لقد نسيتها عندما رأيت مولاي يريدها لنفسه .

ــ وكيف قلت انك احببتها حبا ملأ نفسك ؟

قلت لك ذلك يا مولاي وكنت صادقا ولكن اخلاصي قل وايثاري ايـاك على كل شيء حملاني على ضغط عاطفتي والتخلي عمن احببت !

فاشرق جبين الذئب ، عندما كان الذئب الآخر يهزأ به . وعندما كانت نار البغض تضطرم في صدره وتحرق احشاءه .

ولم يزد على ما قاله كلمة ، بل انصرف الى خيام اهل اليمامة يفتش فيها عن عاتكة اخرى يشكو اليها الغرام .

ولم تغرب الشمس حتى عرف الحي ان عاتكة وابن عمها نائمـــان في السهل فارسلت العيون دموعها ولكن من وراء الستار .

ان اهل اليمامة ، الكبار النفوس ، لم يجسروا على ان يبكوا الفتى والفتاة اللذين ماتا بامر قائد الجيش .

وهذا ابلغ ما تراه من نذالة وضعف !

* * *

٢٧

مرت الايام واخلاص ناشر لم يتغير ، ولم ينم عليه حقده وكآبة نفسه .

غير انه كان يبكي عاتكة بدم قلبه ، كلما خلا الى نفسه ، ويذكر تلك الساعة القصيرة التي اعترف لها فيها بهواه ، ويلعن السماء التي تظلل عمراً ، والارض التي تدوسها قدماه .

لقد خنق عمرو غرامه وهو في المهد ، فليمت عمرو ، وليسقط عرش حمير على رأسه ورأس ابيه .

وانك لا تقدر ان ترى فتى قوي الارادة يستطيع ان يمسك على ما في نفسه من غيظ وبغض مثل ناشر .

يتظاهر بالوفاء . وهو غادر ، ويلبس لباس المخلصين وهـــو ثائر ، وينام على الاذى كأن الاذى فراشه الوثير .

وولي العهد مطمئن وقد نسي الماضي بما فيه ، حتى انقضى على وجود الجيش

في ذلك البر شهران رجعت بعدهما الرسل الذين وجهوهم في اثر سابور الى الاقطار .

وكانت الاخبار التي يحملون ، اخبار قتل ونهب وتدمير حتى امسى الفارسي الغازي في نظر العرب ، قضاء جائراً يمحو من الوجود كل ما تقع عليه العين

غير ان هذا القضاء كان قد تعب من جوره ، فترك يثرب الى ارض بكر وتغلب بين فارس والشام ، ثم رجع الى عاصمة ملكه ، ليهضم فريسته وهو في البلاط .

فلم يبق الا ان يعود الجيش اليمني الى مأرب ، حاملا معه من تلك الرحلة الطويلة ذكرى مقتل عاتكة وعباس

وصدر الامر بالرجوع الى ريدة ، ومنها الى عمران ، ثم الى شبام ، ثم الى مأرب .

وعندما وصل حاشد ، ساقي الملك ونديمه ، الى شبام كان الجيش قد وصل اليها منذ عشرة ايام وهو يهم بالرحيل .

وكانت بلقيس قد عادت الى ذهن ولي العهد ، بصورتها الفتانة ، وجمالها الخلاب ، اللذين رآهما في خياله .

وبينا هو في مساء اليوم الاخير يعلل النفس بها ويحدث ناشراً بامرها ، اقبل حاجبه يستأذن لحاشد الذي قدم في تلك الساعة .

فأذن له وهو يعجب لقدومه وخاطبه عند دخوله قائلا :

عجل يا حاشد وخبرنا لماذا قدمت .

ــ : لخير يا مولاي !

قال : اذكر المهمة التي بعثك لاجلها الملك .

ــ : لقد طال غيابك يا مولاي فأراد الملك ان يستعجلك .

ــ وليس هنالك غير ما ذكرت ؟

ــ : لا يا مولاي .

قال : يخيل الينا ان للملك غرضاً آخر فهل تعرف شيئاً عنه ؟

ـ : لا يا مولاي ولكني اظن ..
ـ ماذا ؟
ـ سمعت الملك يحدث شرحبيل بن عمه بشأن الزواج
ـ وغير ذلك ؟
ـ : ويسأله ان يعده الوعد الاخير ببلقيس .
ـ : وسمعت جواب شرحبيل ؟
ـ : نعم لقد كان يقول انه لا يستطيع ان يعده بشيء قبل رجوع ولي العهد
فنظر الى ناشر قائلا : ما هي الغاية من هذا ؟
فرأى الفتى ان الفرصة سنحت له ليمد اصبعه فقال : يريد شرحبيل ان يخاطب ولي العهد بالامر ويسمع باذنه رغبته في بلقيس
قال : نخشى ان يكون هنالك غاية اخرى .. ماذا ترى يا حاشد ؟
ـ اني ارى ما يراه مولاي فشرحبيل لم يكن صريحاً في قولـه ، ولم يشأ ان يعاهد الملك على الوفاء بما سأله اياه .
ـ وكيف رضي الملك بذلك ؟
ـ لم يرض يامولاي بل امره بان ينقل اليه جواب بلقيس بعد يومين، وتركت مأرب قبل ان يحمل شرحبيل هذا الجواب .
ـ والآن ؟
ـ اما الآن فاطلب اليك باسم الملك ان تتعجل في الرجوع .
قال : نعهد اليك في تنفيذ هذا الامر يا ناشر .
ـ الليلة يا مولاي ؟
ـ نعم وسنبلغ عاصمة اليمن بعد بضعة ايام ؟
فنهض ناشر وهو يقول في نفسه .
سأقتل بلقيس ايها اللعين اذا رضيت بك .. نعم يا عمرو وانك ان تـتزوج وانا حي ، والويل للفتاة التي تحدثها النفس بالاستسلام اليك .
وخرج وهو يحلف ويردد ذلك القول . وكان واثقاً بأنه يستطيع البر في يمينه .

ثم قال ولي العهد لحاشد : من هو الذي ينادم الملك ويسقيه ؟

ـ هو ذو تبع يا مولاي امير همدان .

قال : ويلك اتهزأ بي ؟

ـ لا يا مولاي فقد عهد اليه في منادمته وانا حاضر ثم امرني بعد ذلك بان اكون رسوله اليك.

ـ اذن سينتهي الامر بان يجعل الملك هذا الهمداني شريكاً له في العرش !

ـ ان للملك غاية يا مولاي هي انه اراد ان يلزم الهمداني البلاط ولا يخرج منه الا لامر .

قال : لماذا ؟

ـ لانه يخشى ان يخدعه شرحبيل بقصصه واكاذيبه .

ـ اي انه لا يحب ان يزور ذو تبع قصر ابن عمرو .

ـ لا . كما انه لا يحب ان يكون بين الاثنين صلة ولاء .

فاحمرت عيناه قائلا : وكيف يخشى الملك ما يخشاه وذو تبع لا يترك البلاط الا الى همدان .

فحدثه عندئذ بما جرى بين الملك وشرحبيل ، وذهاب ذي تبع في اثر هـذا الاخير ليسمع ما يقوله لاهله ، ثم قال .

وقد دب الشك في صدر الملك عندما سمع امير همدان يـدافع عن ابن عمرو ويذكر اخلاصه للعرش .

وجعل يقص عليه ما يعلمه عن هذا الامر ، فأحس ولي العهد بالغيرة تنهش احشاءه وقام في ذهنه ان بـين ذي تبع وبلقيس رابط غرام ، وان ذلك الغرام اوحى الى الفتى بذلك الدفاع .

لكنه لم يستسلم الى احساسه عند اعتقاده ان امراء اليمن جميعهم لا يستطيعون ان يجاروه في ذلك الميدان ، وان بلقيس لا تؤثر احداً منهم على ولاية العهد .

وبات ليلته يفكر في غرامه . مع ان تلك العاطفة لم تكن غراماً . بل كانت نزوة قلب طائش خفاق .

وعند الصباح نهض الجيش يعد عدة الرحيل ، ولم تمر بضع ساعات ، حتى كانت اعلامه تخفق في الهواء .

ولم يأو الى خيامه في المساء ، حتى كان عبد ذي مغار ، الذي ارسلته بلقيس، قد انضم الى صفوفه .

***

٢٨

الليل هادىء والسماء صافية ، والنسيم المنعش يبرد حر مأرب ، في ليالي الصيف

وكان قد مر على الملك ساعتان وهو يشرب الخمر مع معدي كرب وعبد شمس، وعتيك بن روضة .

والفتى الهمداني هو الذي يسقيه .

وقد سكر الاميران الاولان وسكر ذو القرنين .

اما عتيك فقد كان كاذبا في شربه ، كما كان كاذبا في اظهاره الطاعة والاخلاص لمولاه . .

وذو تبع يعلم كيف يصب الخمر في الاقداح :

اجل ، كان هنالك اتفاق بينه وبين عتيك على ان يكيد الخصوم ، ويطلعا على الاسرار التي يفضحها السكر .

ثم يجيء شرحبيل حاملا جواب بلقيس بشأن الزواج ، فيستطيع المتآمرون الثلاثة ان يقرأوا ما في صدر الملك السكران ، ويحتاطوا لامرهم من كل نواحيه.

وتلك هي المرة الاولى التي يجالس فيها عتيك بن روضة ذا القرنين على شرابه .

كان يعتذر له ان الخمر تضيع عقله . . اما اليوم فقد طاب له ان يرضيه ولو ضيع كل شيء . .

والملك يشرب ثم يشرب ضاحكاً وهو يقول :

لقد وعدنا ابن عمنا ان يحضر الليلة ولم يفعل ، حتى ترنح وهو قاعد . !

وجعل يتمايل ويهذي ثم يبتسم ويعبس وجهه وعيناه تلمعان .

ثم ادركه سعال فجائي شديد كادت كبده تتقطع من شدته حتى تلاشت قواه وغشي عليه فنهض القوم مذعورين وهم يستغيثون بالحراس ولكنه صحا ورأسه على صدره

وفي تلك اللحظة دخل شرحبيل بدون اذن . . لانه رأى الذعر على وجوه القائمين بالرواق

فبرقت عينا الملك ونسي ألمه ، غير انه كان مضطربا فلم يقل كلمة ، بل اومأ اليه بالجلوس واشار على ذي تبع بان يسقيه .

ويظهر ان شرحبيل كان خائفاً من تلك الساعة ، وقد اراد ان تقوى الخمر جنانه فشرب كاسه جرعة واحدة وهو يدعو لصاحب العرش .

ثم مضت لحظة اخرى كان الملك فيها ساكتاً .

ثم قال : أرأيت ماذا جرى للملك يا ابن العم ؟

ــ لم ار شيئاً يا مولاي .

ــ لقد فاجأنا سعال ملعون ضاقت له انفاسنا ونحن نحس ان سهاماً تخترق هذا الصدر .

قال : لتحفظ الآلهة مولانا الملك . .

فتنهد قائلا : وقد بدأنا نشعر بتعب . .

ــ ذلك ما يحدثه السعال يا مولاي .

ــ لم يكن هذا السعال موجوداً من قبل . . هات يدك يا عبد شمس .

فمد اليه الامير يده فقبض عليها وهم بالنهوض فلم يقدر .

السكر من جهة . . وضيق الصدر من جهة ، وقد تعاون عليه الاثنان فضعضعاه ونهكا قواه .

فقام شرحبيل فقال : أيريد الملك ان يأوي الى فراشه ؟

اجل فمدوا ايديكم واحملوا ملككم الذي يتمزق صدره ولا تغادروا البلاط الليلة لان الملك يكاد يموت

قال . متى كان ذو القرنين يخاف ؟

فتمتم قائلا : كان ذو القرنين اسداً ماشي كالحمل الذي يساق الى الذبح . . هذا شبح الموت يدنو منا ولا مفر منه . . خذوا الملك . خذوه الى فراشه . . وحطموا هذه الكؤوس التي ترسل السعال الى صدور الملوك .

ثم استولى عليه ما يشبه اليأس فاسود وجهه ، وارتجفت يداه ، وتلألأ الدمع في عيني الملك الجبار الذي لم يبال ، حياته كلها ، باحد ، ولم يخف الله .

نعم ، ان ذا القرنين ، الذي ابكى الامراء ، والفتيان ، والعذارى ، من كل جنس ، كان يبكي ..!

وكان يخشى ان تجور عليه الاقدار ...!

وكان الامراء والحراس حوله مضطربين ، وعتيك بن روضة ينظر اليه بعينين تتقد فيهما النار ...

ثم غمرت الابتسامة ثغره وخاطبه قائلا :

اعطني يدك الاخرى يا مولاي واترك قاعة الشراب الى قاعة نومك فنبات جميعنا عند قدميك !

وقال معدي كرب : بل نموت عند فراشك ...

اما ذو تبع فلم يقل كلمة ، بل كان يظن ان ساعة الملك قد دنت ، وان ذلك الحادث نهايته الموت .

ولكن حدث في تلك الحفلة ما دهش له القوم ، فان الملك المرتجف الباكي رفع رأسه فجأة ، ولمع في عينيه الامل حاجباً مظاهر اليأس ، وانفرجت ازمة صدره بعد ما كاد يختنق ..

كان ذلك السعال ضيف خفيف الظل لم يشأ ان يبيت ليلته عنده ..

ثم اومأ فتنحى الامراء واستلقى على وسائده وهو يقول : لقد زال ما ألم بالملك فتعالوا نشرب .

وجعل يجيل نظره حتى وقع على شرحبيل فقال له : متى قدمت ايها الامير ؟!
ـ : منذ لحظة يا مولاي .
قال : عرفنا من نعمى وذي تبع اشياء واشياء :
ـ : ماذا عرفت يا مولاي .
عرفنا انك ذلك الامير الصادق في خدمة الملك كما قلت لنا من قبل ، وان الذين سعوا بك كانوا خونة ...
ـ : حسبي هذا ايها الملك ..
ـ : ولكن ألا تسألنا عن اسماء اولئك السعاة ؟
ـ : لا اسألك عنهم لاني لا ابالي بهم ..
ـ : والملك لا يذكر اسماءهم لاحد لانه لا يخون المقربين اليه ... ولكن بلقيس ، آه اننا نشعر بالحمى تحرق احشاءنا .. ماذا فعلت بلقيس يا شرحبيل ؟
ـ : بلقيس عبدة الملك كما يعلم واحدى جواريه .
ـ : بل هي سيدة نساء حمير .. ارضيت بما طلبناه اليها .
ـ : امرتها يا مولاي فاطاعت وهي تنتظر قدوم ولي العهد من اليمامة .
قال : لتزف اليه ؟
ـ : بل ليسأله الملك رأيه في الزواج .
فوضع يديه الاثنتين على جبينه وقال : لقد زادت الحمى الان وزاد اللهيب .. ان ابن عمنا يعللنا بالامل ولا يعد كاننا نلتمس هـذا الامر التماساً او كاننا نحاجه اليه ... لقد قلت لنا مثل هذا القول يا شرحبيل قبل الان ولم نرد ان نصغي اليه أفتعود الى جواب سمعناه وهزأنا به وبقائله ؟؟
ـ : ذلك جواب بلقيس يا مولاي وليس لي رأي فيه .
قال : سيعود ولي العهد بعد بضعة ايام .
ـ : ليعد بعد يوم يا مولاي .
ـ : ولكن يخشى ان تعمد بلقيس بعد رجوعه الى حيلة اخرى تدعونا بها الى الصبر ..

قال: نظن يا مولاي اننا نلجأ الى الحيل فيما تأمرنا به
ــ : اجل ومع ذلك فقد سكتنا وسيستمر هذا السكوت يومين آخرين ريثما ينتهي الاجل الذي ذكرت . ولكن نقسم بالسماء والارض لئن خطر لك او لبلقيس ان تهزأ بالملك مرة اخرى لجعلناك مضغة في افواه اهل الجزيرة ..
وعاوده السعال الجاف فاستوى جالساً وهو يتلوى كما يتلوى الجريح والقوم يعجبون للحادث الذي اصابه ..
فصبر عتيك حتى هدأ سعاله ، ثم قال له :
اشرب يا مولاي فالخمر تطفيء النار ...
فقــال : هات الكأس يا ذا تبع ولا تنس ان تسقي ابن عمنــا الذي يملأها بوعوده .
فجاء دور عتيك في تلك اللحظة ، واتت الساعة التي يستعين فيها بدهائه لتتم له الغاية من انتزاع سر ذي القرنين ، فأخذ يقول :
لو رأى مولانا الملك بلقيس بنت شرحبيل ، لكره ان تكون لسواه .. انهــا بهجة اليمن يا مولانا .
فأجابه وانفاسه تتقطع مع الكلمات :
ماذا تعني بقولك يا ابن روضة ؟
ــ اعني ان ولي العهد فتى في فجر حياته وهو يطوف في البلاد ويرى العذارى الحسان اللواتي يخلبن الالباب .
ــ اما الملك ؟
ــ واما الملك فهو مقيم بالبلاط لا يخرج منه الا الى الميادين فاذا طاب له ان يضع يده ، من جديد في يد فتاة ، فلتكن اعظم فتاة في العرب .. نعم يا مولانا انت سيد العرب وعلى الفتاة التي تنضم اليك ان تكون آية الجمال .
قال : اسمع يا شرحبيل ، ان الامراء يريدون بلقيس لنا وتريدهــا انت لولي العهد كأن الملك لا يستحق ان تكون له ..! ولكن سترى يا عتيك انها لن تكون لغير الملك .. ثم قال لمن حوله :

ماذا تقولون ايها الامراء ؟ اتريـــدون ان تكون اجمل فتاة في العرب للملك ام لسواه ؟

فقالوا جميعهم : بل للملك .

ومن يجسر على ان يقول غير ذلك .

الا شرحبيل فقد بات ساكتاً .

فقال له : مسكين انت يا ابن العم لقد خانك الحظ ولم تجد لك نصيراً بـين هؤلاء .. كلهم يطلبون ما يطلبه الملك وسيبلغون الغاية .

فقال عتيك وقد كثر كلامه .

أتصبح بلقيس ملكة يا مولانا ؟

فقطب حاجبيه قائلا : لقد ماتت ملكة حمير ولسنا بحاجة الى ملكة اخرى . ستصبح الملك وهذا يكفي ..!

قال : اليوم ، قبل ان يقدم ولي العهد ؟

ــ بل بعد قدومه .

فقال النعين : وكيف ذلك ؟

ــ ان الملك لا يقص اسراره على جميع الناس ... اخرج يا شرحبيل فقـد عرفنا ما اردنا ان نعرفه منك وقل لبلقيس اننا سنصبر ريثما يجيء عمي .. اخرج يا ابن العم واسأل الاقدار بان تبسم لك بعد الآن .

فابتسم ابن يعفر ابتسامة الاستخفاف وقد ايقن بان الملك سيبوح بسره لامرائه وستردد هذا السر السنة الغلمان .

وخرج وهو لا يلتفت الى الملك المحروم .

فاخذ ذو القرنين يشرح للقوم تلك الحيلة التي اعدها لبلقيس وولي العهـد ، وصدره يعلو وينخفض وعيناه تشبهان عيني المجنون .

فاقبل امير نحلة يهامس عبد شمس قائلا له لم اكن اظن قط ان الملك يخون ولده !!

قال : لا تزد كلمة فهو يسمع الآن كل شيء ..

ـ ولكن عمراً لا يطيق ان يخدعه ابوه على هذه الصورة وقد يعلم ذلك عند وصوله الى البلاط .

ـ سنحفظ السر فلا نطلعه عليه .

ـ بل نذكر له كل ما سمعناه حتى لا يقوم في ذهنه بعد قليل اننا جميعاً وافقنا الملك في هواه .

ـ اصبت فخير لمن يريد العيش في البلاط ان يكون اقرب الى ولي العهد منه الى الملك .

فحدجهما ذو القرنين بنظره قائلا : الامراء لا يتهامسون في مجلس الملك .

فقال عتيك في نفسه :

بل يتآمرون ايها السكران .

وكان قد نفث سمه كما اراد ، فسكت وهو يفكر فيما سيحدث بين الوالد والولد يوم تفضح الاسرار .

ثم عاد الملك الى سعاله وهذيانه . ولم تمر ساعة حتى اطبقت الحمى جفنيه .

فحملوه كما تعودوا ان يفعلوا وهم يقولون :

لقد خلقت له الخمر الليلة هذا السعال الذي انتابه . وفاتهم ان السل ، السل الذي تهلع له القلوب ، انشب مخالبه برئتي الملك المسكين !

اجل ، لقد امسى ذو القرنين مسلولا ! مسلولا بقوة وعنف ، كأن ذلك العدو الهائل كان كامنا برئتيه ، لم يشأ الا ان يصرعه في اول جولة .

وكان السعال الجاف ، في نظر اهل ذلك الزمان ، امراً عادياً لا يبالون به ، ولم يكن له دواء الا الخمر .

وعندما احاطت الجواري بفراش الملك وتفرق القوم قال عتيك لذي تبع ، لقد سقط الملك في الشرك الذي نصبناه له ، وسترى ان ولي العهد سيغضب لكرامته ، وسيتم الامر كما ارادت بلقيس .

فاجاب وقلبه يخفق : اما انا فاكاد اضيع هدوئي واشعر بان الغيرة تسد منافذ الصبر .

قال : كن رجلا واذكر ما اوصتك به بلقيس .
ـ : احاول ان اكون كما تقول فتخونني العاطفة .
ـ : احذر ، واذا كنت لا تستطيع الصبر فارحل الى همدان .
فسكت مكرهاً ، ثم انصرف الى غرفته ليحارب شعوره ويكون رجلا
واستولت السكينة على البلاط بعد نوم الملك .

* * *

٣٩

في الليلة التي انتهى بها خبر فشل الجيش الحبشي الى العلى اسكندي ، وصل
الى بلاط الملك ، رجل من اولئك العمال الذين يرسلهم في تجارته الخاصة .
وكان الملك في تلك الساعة يستعيد خبر الهزيمة من فم القائدالذي غلبته العرب .
فلما ذكر له الرجل امر بأن يؤذن له وكان من اقرب المقربين اليه واصدقهم
اخلاصاً وطاعة .
وكان اسمه مناع ، فقال له والكآبة على وجهه : متى قدمت ؟
ـ : في هذة الساعة يا مولاي .
ـ من اين ؟
ـ : من اليمن ، بلاد الملك المتكبر الظالم الذي يغلق ابواب مدنــه ويمنع
الحبشان من الدخول في ارضه .
ـ : ولكنك لم تقل لنا عندما تركت اكسوم انك ستذهب الى اليمن .
ـ : ان اليمن قريبة يا مولاي وقد تعودت ان ابيع فيها جميع اشيائي واعود
قبل ان تعود رسل الملك .
قال : لا نسألك الآن عما بعت بل عما رأيت ..
قال : بعت القليل من العاج ثم رأيت اني عاجز عن بيع الباقي .. لقد كنت

.. رأ للقوم يا مولاي والعدو لا يبذل حياته لاعدائه ..
قال : لقد سمعنا الليلة جميع اخبار السوء.. ماذا جرى لك في ارض اليمن يا مناع ؟
ـ : كنت اطوف في مأرب يا مولاي كأني في اكسوم والقوم لا يعبأون بي ولا يسألوني عما افعل ..
ـ : نعم
ـ وكنت اتردد في بيع ما معي لتزداد رغبة القوم في الشراء .
ـ وبعد ذلك ؟
ـ انتهى الي بعد ذلك ، وانا عند باب السور الكبير ، ان جنـــد ذي القرنين قبضوا على رجل حبشي ورفيق له من اليمن .
فانتفض الملك لهذه الكلمة وقال :
رجل حبشي ورفيق له من اليمن ؟؟ انه اميناس .
ـ نعم يا مولاي انه اميناس وزير قصرك !
فتجلد بعد ذلك الذعر وجعل يقول :
لقد نمت على اميناس غاية نفسه فهو لا ينجو من الموت .
ـ لا يا مولاي .. انه لم ينج من الموت .
ـ اذن قتل اميناس ؟
ـ نعم ولحق به اثنان من براقش .
قال : ويلك ومن خبرك هذا ؟
ـ رأيت بعيني رأس اميناس يتدحرج في الساحة وكنت خائفـــاً ان يعرفني الجند فيسقط رأسي ...
فنهض العلي اسكندي عن مقعده وجعل يروح ويجيء في تلك القاعة الكبيرة وهو يقول :
لم يترك لنا ملك حمير مجالاللصبر .. يفوز جيشه على الشاطيء ، ويقتل اميناس في مأرب والجند الحبشي باق في اكسوم ؟؟ انها حال لا يرضاها العلي اسكندي

ولا يسكت عنها ملك الروم ..

ثم قال لحاجبه : ليحضر الآن افرونيم وهر وسامور وجميع الصيادين .

وهؤلاء اسماء قواده الذين شرفوا قومهم بقوة السيف .

فمثل الثلاثة بين يديه تتبعهم طائفة من الرجال الاشداء ، فقال مخاطباً القائد الاكبر افرونيم :

لقد كتب النصر لجيوش حمير كما عرفت .

ــ وسيكتب لك النصر بعد حين يا مولاي !

ــ ولكنك لم تعلم ان ذا القرنين قتل اميناس في مأرب .

فضج القواد لهول ما سمعوه ، ولكنه اسكتهم قائلا : واحد بمائة وسنطلب بدمه بعد شهر فهل تزحفون الى اليمن ؟

قالو : نفعل وسنتهيأ للحرب بعد بضعة ايام .

فقال سامور وهو الرجل الذي هذبته التجاريب :

لينظر الملك في امر الحرب الليلة اذا شاء .

قال : اجلسوا ايها القواد وليبد كل منكم رأيه .

فقال افرونيم : نفاجىء الشاطىء اليمني بالجيش ثم نزحف الى الجبل والسهل فنقتل وندبي ونضرم النار .

وقال وهر : بل نحاربهم على الشاطىء نفسه ونجعل المؤونة في المراكب وراء الصخور حتى تتلاشى قوى ذي القرنين .

اما سامور فكان اعقلهم اذ قال :

لا يستطيع الجيش الغازي ان يجعل الشاطىء وحده ميداناً لخيله . ان الحرب تخلق الحادثات وقد يكره الجيش على التوغل في ارض اليمن فتدور عليه الدوائر ويطوقه الحميريون من الجهات الاربع فيخسر كل شيء .

فقال الملك : اذن فانت تؤثر الحرب في الساحل كما قال وهر .

ــ نعم يا مولاي ، او في السهل ولكن لي رأياً .

ــ ما هو .

ـ اذا اردت ان نبقى على الشاطىء فاكتب الى ذي القرنين كتاباً وابعثه مع فتى من فتيانك المخلصين .

ـ وماذا نكتب اليه ؟

اما ان يدفع اليك وزيراً من وزرائه تضرب عنقه واما ان يوافيك بجنوده الى ضواحي مهرا .

قال : لا يكتب الى ذي القرنين مثل هذا الا الابله . اتراه يهب لنا احد رجاله وهو اعز العرب ؟

ـ لا يا مولاي ولكنها وسيلة يوجه بها جيشه الى حيث تشاء .

ـ وقد لا يوجد هذا الجيش كما تقول :

ـ اذا لم يفعل نظرنا عندئذ في امر آخر على ان لا تكون الحرب في الاودية او على الجبال .

قال : احسنت ، فجيوش العالم كله لا تستطيع ان تقتحم جبال اليمن الوعرة الرافعة رؤوسها الى السحاب .

ثم قال : اجعلوا الجيش الذي تقودونه عشرين الفاً يحملون السيوف والرماح وليكن في المقدمة ألفا رجل من الرماة .

ـ سنفعل كل ما يأمرنا به مولانا الملك .

ـ واختاروا من الآن ذلك الرجل الذي يحمل كتابنا .

ـ لك ان تختاره انت يا مولاي !

وكان الملي اسكندي يعلم ان مثل هذه المهمة لا تطيب لرجال قصره ومن حوله الامراء ، فقال :

لقد جعلنا رسولنا قائداً من كبار القواد الذين يثق بهم الملك كما يثق بنفسه اتعرف من هو؟

ـ هو انا يا مولاي .

ـ اصبت فانت هو ذلك الرسول الذي يدخل بلاط ذي القرنين ويتبين مافي ذلك البلاط من قوة واسرار وعظمة ودهاء .

فابتسم قائلا : أيغادر القائد ساحة الحرب لتكون رسولا الى مأرب ؟

ـ اجل فقد يفعل هذا الرسول في مأرب ما لا يستطيع جميع القواد ان يفعلوه في الميادين .

ـ ولكني أوثر ان اعد الصفوف ويذهب سواى .

ـ ونحن نوثر ان تذهب انت ويعد الصفوف هؤلاء الرجال . ان الغاية ليست في حمل الكتاب الى ملك حمير كما تعلم ونحن نخشى ان نبعث احــدهم فيهزأ بنــ ويقذف بكتابنا الى البحر ثم يعود قائلا :

ليس لكتابك جواب .

ـ ومن يقدم على هذا يا مولاي ؟

ـ لا نستطيع ان نسمي لك الرجال الذين يفعلون ذلك ، ولكننا واثقون بان في البلاط امراء كثاراً يخافون ان يغدر بهم ذو القرنين وهم ضيوف عليه .

ـ اذن سأموت في مأرب يا مولاي .

ـ اخائف انت ؟

ـ نعم ومن هو الرجل الذي لا يخاف الموت ؟

قال: ومع ذلك فنحن لا نبالي بخوفك ، وستذهب يوم يغادر الجيش اكسوم

قال : وانا لا ابالي ، مت في الحبشة ام في اليمن فالموت واحد في البلدين .. اكتب ما تشاء يا مولاي .

ـ سنفعل بعد ان يحمل الجيش سلاحه .

وباتوا يضعون منهاجهم ويتحدثون بامر الحرب حتى بزغ الفجر فانصرف كل قائد الى عمله وارسلت الرسل الى الغابات والجبال يدعون الرجال .

وراحت النساء يساعدن ازواجهن في اعداد العدة ويحرضنهم على القتال . ولم يبق في الحبشة فتى لم يمد اصبعه في قضية الحرب .

* * *

٣٠

قبل ان يبلغ جيش ولي العهد عاصمة اليمن ، خرج جاشد نديم الملك من بين صفوفه ينقل الى مولاه خبر وصوله .

وخرج في اثره عبد ذي مغار ، يحمل الى بلقيس ذلك الخبر نفسه .

فجعلت بلقيس تسأله عن كل ما يخطر لها وهو يذكر لها كل ما يعلم كأنه قضى حياته كلها في الجيش .

ثم صرفته ،وارسلت نعمى الى البلاط ، لترى امير همدان وامير نخلة وتهامسهما بما حملتها اياه ..

وكان الملك لم يزل في فراشه ، وذو تبع وعتيك لا يخشيان عيون الرقباء .

فحدثتهما بما قدمت لاجله ، واستطاعت ان تدخل تلك القاعة التي ينام فيها ذو القرنين المسلول دون ان تقول له كلمة .

كان محموماً مضطرباً ، فلم يهتم لها ، ولم يبال بما في صدرها من اسرار .

ثم رجعت الى قصر شرجبيل وهي تقول : لقد رأيت الاميرين يا مولاتي وانتهى الامر كما تشائين .

ــ : وهل رأيت الملك ؟

ــ : نعم رأيته وهو في فراشه وقد صرعه سعاله .

ــ : ولكن السعال لا يصرع احداً وقد خبرني ابي انــه عالجه بالخمر في تلك الليلة فزالت آثاره .

ــ : اما انا فاقول ان الداء اشتد وقــد يخسر الملك في الصراع ويحني رأسه اخيراً مستسلماً الى القوة ..

ــ : ومن قال لك ذلك ؟

ــ : حدثتني به الجواري ورأيت بعيني كما ذكرت .

قالت : صفيه يا نعمى .

قالت : أرأيت يا مولاتي ذلك الوجه الذي كانت النضارة والقوة تتدفقان

منه ؟ لقد اصبح وجهاً اصفر فيه عينان صغيرتان غارقتان في محجريهما .. وخلالق جعدهما الالم وبدت عليهما سطور الخوف .

ـ : ذلك تأثير السهر والسكر اللذين هما احب شيء الى ذي القرنين .

ـ : بل هو تأثير النار التي تشتعل في احشائه ، واقسم لك يا مولاتي اني كدت ارى الموت ظاهراً بصورته الهائلة على ذلك الوجه الشاحب اللون .

ـ : احذري ان تبالغي في الوصف يا نعمى فالامر خطير جداً وهو اعظم مما تظنين .

ـ : اني اعرف ما اقول يا مولاتي فالملك سيموت .

ـ وسيغير موته وجه المؤامرة التي نعالج امرها منذ حين .

ـ : ولكنه لا يموت اليوم بـل يعيش بضعة اشهر كأنه ميت وسترين اني لم ابالغ فيما وصفت .

فاطرقت ، واستولى عليها ما يشبه الذهول ثم قالت : اذا كان هذا فاحفظي ما قلته لك ولا تنسي كلمة منه

قالت : سأكون في البلاط يوم يصل اليه ولي العهد ، وسأراه بعد ان يراه عتيك بن روضة .

ـ : لقد غيرت رأيي الاول يا نعمى ، ان ولي العهد سيجيء وسيمكث بضعة ايام ثم ترينه بعد ذلك عند ما يوعز الي امير نخلة .

ـ : اذن سأبقى هنا يوم قدومه .

ـ نعم وستعرفين عند الحاجة ، كل شيء ، ولكني اريد ان احصي انفاس الملك كما امرتك واعرف كل كلمة تلفظها شفتاه وهو في فراشه ..

ـ لقد وعدني عتيك بان يفعل .

ـ ولكنك لم تذكري لي كلمة عن ذي تبع !!

ـ وماذا اذكر عنه يا مولاتي ، انه لا يبتسم لاحد الا كما يبتسم المرائي ولا ينظر الى الناس الا كما ينظر اليائس من الحياة .. مسكين هـذا العاشق لقد كاد قدوم ولي العهد يفقده عظمة نفسه ويقضي عليه .

ـ مع اني اوصيته بالصبر واقسمت له اني لن اكون لسواه .. ارجعي الليلة الى البلاط وقولي له ان الغيرة التي تنم عليها مظاهره ستفضح بلقيس . وأوصيه نعم أوصيه من جديد ، بان يكتم ما في قلبه ، ويبتسم لكل شيء .

وجعلت تقول عجباً ، يعد بالصبر ثم ينسى ويثق بحبيبته الوثوق كله ثم يدب في صدره الريب ... اذهبي يا نعمى واعيدي عليه هذا القول واستحلفيه باسم حبنا ان يخنق غيرته فولي العهد عدوه اليوم ولكنه سيمسي صديقاً له بعد ايام .

ثم اخذت تقول في سرها . لقد حرمتني لذة الهوى ايها التاج وستسلبني الراحة والهدوء ايها العرش .

واغلقت باب القاعة واستسلمت الى احلام الشباب .

***

٣١

خرجت مأرب كلها وكل من البلاط من امراء وغلمان لاستقبال عمرو بن ذي القرنين !!

كأنه ملك يزور ملكاً ، او كأنه الغازي الذي مد رواق النفوذ اليمني فوق الاقطار !!

وكانت النساء والاطفال على السطوح وفي الشرفات ، يهتفون لذلك الفاتح العظيم الذي غير وجه الجزيرة .

غير ان عمراً لم ير اباه ، ومن عادة ذي القرنين ان يكون اسبق الناس الى مثل هذه المظاهر الخلابة التي تبعث الجلال والهيبة ، الى نفوس اليمنيين .

ولكنه لم يسأل الامراء عنه ، ولم يخبره احد منهم انه مريض ، بل كانوا يصافحونه وينحنون له ثم ينضمون الى الصفوف .

وهو يبتسم بكبر ، وينظر مغروراً الى عطفيه !.

حتى صافح امير نحلة ، فقال لناشر :
هذه هي المرة الاولى التي ارى فيها عتيكاً ضاحكاً .
فاجابه ابن روضة قائلا : ان قلب عتيك يضحك مع شفتيه .
قالها ثم مشى عن يمين ناشر والابتسامة لا تفارق ثغره ، وقد رأى ان ناشرا يغتصب الكلمات اغتصاباً .
فلم يشأ ان يسأله عن شيء في تلك الساعة بل سكت كما كان الموكب كـ اه ساكتاً ...
وعينا ولي العهد لا تقفان . بل كانتا تفتشان عن الملك عند باب القصر والملك غير موجود .
ثم دخل القوم والملك لا يبين له اثر في مأرب !
فقال عبد شمس : انه في الرواق يا مولاي .
وبعد لحظة ابصر الفتى أباه يتهادى بين جاريتين ويجر رجليه كالشيخ الـ ـ اتعبته السنون الكثيرة التي يحمل ..
فخيل اليه انه رجل يشبه الملك ، ولكنه عندما داناه ذعر لذلك الخيال الـ ـ يمشي وقام في ذهنه انه خارج من القبر !.
جسد ناحل هزيل ينوء بسقمه .. وشبح مسترخ اصفر تضطرب ركبتاه ويلمع اليأس والالم في عينيه ..
فتلعثم لسان ولي العهد .. ثم قدر بعد قليل ان يجثو عند قدمي ابيه ويتمتم قائلا :
أهذا انت يا مولاي الملك ؟
فاجابه والدموع على خديه : هذا هو الملك يا بني فانهض ليراك .

* * *

لقد جعل الداء ذلك الجبار القاسي اباً . ووهبت العلة للحجر الاصم قلبا تجول فيه عاطفة حب !

ايه ملك حمير .. اين ذلك العز الذي ارتفعت معه الى السماء ؟ واين هو الملك الذي اجلسك في حضن الله ؟

ألا تذكر انك سيد اليمن وربها وصاحب العرش الذي استوت قائمتاه فوق الغمام ؟..

الا تذكر ان ابتسامتك كانت حياة ، وغضبك كان موتاً ، وان اللعنة التي تصدر من فمك كانت نعمة ؟!

ايه ملك حمير . أيستطيع هذا السعال الضعيف ان يمزق رئتيك القويتين ويعكر عليك صفو العيش وانت ابن الآلهة ؟

أكنت تحس من قبل ، ان لك نفساً تلين ، وفؤاداً يرحم ؟

لا . وهذا التاريخ يشهد ، انك لم تكن قبل السل انسانا !

***

نهض ولي العهد وارتمى بين ذراعي ابيه .

فاستند ذو القرنين الى جاريتيه كي لا يسقط .. واقبل يلثم جبينه بحنو وعطف غريبين تمليهما الحياة الزائلة .

اما اضطراب ولي العهد فلم يكن شعوراً صادقاً بهول المشهد ، بل كان استغرابا لما رآه من تغيير حال الملك .

وكان ينظر الى جانبيه وهو يقرأ الالم على الوجوه .. ثم قال للملك وهما يمشيان : ماذا فعلت بك الايام يا مولاي ؟

فكره المغرور ان يعترف بدائه على مسمع من القوم فاجابه قائلا : حادث ألم بي ولا يلبث حتى يزول .

ــ وهذا الضعف الذي اراه ؟

فهمس في اذنه يقول : انه ضعف يتقدم الموت يا عمرو . ولكن اسكت الآن سندخل القاعة وتسأل فيها عما يطيب لك .

ثم وصل القوم الى آخر الرواق حيث تقوم قاعة الملك فدخلها ذو القرنين وأومأ الى ولده بان يتبعه ثم خاطب ناشراً قائلا :

اما انتم فانصرفوا الى قاعة الجلوس وامكثوا بها ريثما يخرج ولي العهد .

واغلقت الجواري باب القاعة واستلقى المسلول على فراشه وقال : لم اشأ يا بني ان اصف لك حالي امام الامراء لان فيهم من يشمت بي ! قلت اني سأموت لان الداء الذي اصابني لا ينتهي الا بالموت .

فارخى ولي العهد نظره كأنه يفكر في ذلك الموت .

وظن الملك ان كلمته اخترقت فؤاد ولده البار ، في حين ان ذلك الولد لم يكن يفكر الا في التاج .

ان الموت ، كلما مشى خطوة الى ابيه ، مشى هو الى العرش خطوة ، واستطاع في النهاية ان يتولى امر الملك ويصبح سيد اليمن .

والتاج يخلب العقول ويغر !

اجل ، ليمت ذو القرنين ففي موته حياة وعز لولي عهـــده ، وسلطان ليس له حد ..

وقد استسلم في تلك اللحظة الى حلمه العذب .

غير ان الملك ، الذي احسن ظنه به ، اراد ان ينقـــذه من ذلك الاستسلام فقال له :

كيف رأيت اليمامة يا عمرو ؟

ــ لم اصل الى اليمامة يا مولاي ولكني بقيت في ذلك السهل الصغـــير الذي يطل على الوادي « وادي الدواسر » وضربت خيامي في الجانب الشرقي منه .

ــ اذن لم تر احداً من اهل تلك الارض ؟

ــ بل رأيتهم جميعهم وقد فروا من سابور .

وقص عليهم حكاية هربهم وزحف سابور الى ضواحي يثرب .

فقال : وماذا كنت تصنع وسابور غير موجود ؟

ــ ارسلت الرسل في اثره وانتظرت رجوعهم .

ولعله اراد ان يغير حديث الملك ويخاطبه بذلك الشأن الذي كان يفكر فيه ، فقال :

ولكن ماذا جرى لك يا مولاي ؟

ــ جرى لي ما تراه وسينتهي امر ذي القرنين وتحمل انت صولجان الملك .

قال : لا اطيق ان اسمع ما تقوله . !

ــ بل يجب ان تسمعه فانت الملك بعد ابيك وان لم يمت ابوك اليـــوم مات غدا وعصبت رأسك بتاج الملك . اسمع يا بني اني اخشى ان اغمض عيني قبل ان اقول لك ما اريد قوله . لقد تركت لك مالا لا يفنى ... وملكا واسعـــاً عزيز الجانب تخفق فوقه رايات العز فارجو ان تحتفظ بما تركت لك وتصون عرشك من كيد اعدائك الذين تخفي ابتساماتهم الكاذبة ما في صدورهم من حسد وبغض.

قال : لا توصني الان يا مولاي .

وتظاهر بالاكتئاب ..

فاجابه قائلا : بل اوصيك بكل شيء قبل ان يغدر بي الداء . . ان في اليمن امراء كثاراً يستهينون بالعرش ويبذلون جهدهم مـــن وراء الستار ، ليقوضوا اركانه ..

ــ ولكن ايديهم لا تمتد الى هذا العرش ..

ــ بل يفعلون كل ما يطيب لهم اذا غفل الملك عنهم واستخف بأمرهم ..انهم رجال حيلة ودهاء وعندهم الجيش يحميهم بالسيف ..

ــ من هم يا مولاي ؟

ــ اعظمهم جميعاً شرحبيل بن عمرو .

ــ انه ابن عم الملك !!

ــ والملك لا يخاف احداً كما يخاف ابن عمه !

ــ وكيف عرفت ذلك ؟

ــ لا تسألني عن هـــذا ، فقد علمني الجلوس على العرش ان اعرف صديق عرشي وعدوه ، والخائن والوفي .

ـ مع أني اذكر ان شرحبيل كان اطول الامراء سيفاً واثبتهم جناناً في حرب شبوة .

ـ لقد كنت في تلك الحرب ، غلاماً لا يذكر شيئاً .

ـ ولكني لم انس خروجه من الساحة والدماء تصبغ وجهه ويديه ، وثوبه وفرسه .

ـ ومع ذلك فقد كان يؤثر ان تكون تلك الدماء دماء الملك نفسه ، وان يكون رأس الملك بين يديه .

ــ اذن هو عدو العرش يا مولاي !

ــ نعم يا بني واحب شيء اليه ان يموت الملك ليجرد السيف في وجه ولده ويسلبه هذا الملك .

فذكر ولي العهد عندئذ ما جرى بين ابيه وبين شرحبيل ، فيما يعني بلقيس ، ثم ذكر ذلك الزواج الذي وعده به ، واستيقظت عواطف قلبه ، ولكنه لم يشأ ان يحادثه بهذا الشأن ، قبل ان يسمع حكاية ابيه الى النهاية ويعرف ما في صدره.

اجل ، كان يعلم ان هنالك امراء لا يرغبون في الاقامة بالبلاط ، ولكنه لم يقم في ذهنه قط انهم اعداء العرش .

ان اباه لم يذكر له شيئاً من ذلك من قبل ، وقد نهى رجاله عن ان يحدثوه بذلك الامر .

ومعنى ذلك ان ذا القرنين ، كان يخاف ان يخرج ولده عن حده ، فيضيع دهاءه ، وتشتعل نار الفتنة التي يخافها الملك الحميري . . .

وكان عمرو ، قد تردد في الجواب وابصر الملك تردده فقال :

أفهمت الآن من هو شرحبيل ؟

ــ نعم يا مولاي ولكني لم اعلم من هم شركاؤه . .

قال : صاحب مغار وابن عمه ، وامير براقش وبينون ويخيل الي ، ان الفتى الهمداني الذي قربه الملك اليه انضم الى الجماعة واصبح من المتآمرين !

ــ اتعني ذا تبع ؟

ـــ اجل فقد رأيت في عينيه شعاعاً غريباً لم اره قبل الآن وكدت ألمس عاطفة جديدة ينطبق عليها صدره .

فارتسم الحقد على وجهه وجعل يقول : لقد صبرت وصبر الملك على كبريائه حتى اصبحت هذه الكبرياء استخفافاً .

قال : اذا ذكرت الاستخفاف والكبرياء فاذكر بلقيس .

ـــ ماذا تقول يا مولاي ؟

ـــ اقول انه ليس في هذا البلد يمني يستخف بالملك كما تستخف ابنة شرحبيل الحسناء به .

ـــ ولكني لا استطيع الا ان استغرب ما تقول يا مولاي .

ـــ غير ان هذا الاستغراب سيزول ، عندما تعلم ان بلقيس شر فتاة ظللتها سماء اليمن .

قال : لا تنس يا مولاي انك اردتها لنفسك ثم نزلت عنها لولي العهد .

قال : اخطأت يا بني فالملك لم ينس شيئاً .

ـــ وكيف ترضى بان تدخل هذه الفتاة قصرك وتكون من حظاياك .

فقهقه الملك قهقهة مريض متألم لا يطمع بالحياة ثم قال : اردت ان اجعلها من نساء البلاط لاخمد نار كبريائها واتخذها سلاحاً ارد به سلاح ابيها الخفي ..ولكنها ابت وابى شرحبيل فلم ار الا ان اعمد الى حيلة اخرى ابلغ بها الغاية .

ـــ هي انك سألتها ان ترضى بولي عهدك زوجاً لها ؟

ـــ نعم وقد وعدني شرحبيل بانه سيحمل الي جوابها بعد رجوعك ، فما هو رأيك الآن يا بني ؟

ـــ في اي شيء يا مولاي .

ـــ في هذا الزواج .

ففكر الفتى قليلا ثم قال : لقد خبرنا الناس ان بلقيس اجمل نساء العرب أليس كذلك ؟

ـــ نعم .

ـــ وتقول انت يا مولاي ان شرحبيل عدو عرشك وانه اعظم الامراء خطراً على الملك

ـــ نعم .

ـــ اذن فمن الرأي ان تصبح بلقيس ولية للعهد ، لتجلس في عرش حمير اجمل امرأة في العرب ، وتخنق بهذا الزواج صوت ابيها واصوات رفاقه الى الابد . .

ـــ وهل تستطيع يا بني ان تضمن اخلاصها لعرشك ؟

ـــ واي ملك لا يضمن اخلاص زوجته يا مولاي ؟

فتنهد المسلول وهم بان يبوح بسره ، غير انه رأى رغبة ولده وهواه فــآثر الصمت خوفاً من ان يصطدم بارادة من الفولاذ ، ثم قال : ألم تر في البلاد التي طفت فيها فتاة تصلح لك ؟

ـــ اعجبتني فتاة في اليمامة ولكنها لم ترد ان تترك قومها لتقيم باليمن .

ولم يذكر له شيئاً عن ناشر .

ـــ وماذا صنعت بها ؟

فعض على شفته قائلا : مزقت جسدها بهذا الخنجر وجعلت لها ولابن عمها حفرة واحدة .

قال كما انك جعلت ابناء اليمامة اعداء لك وهذا ما لا يفعله امير يخلف اباه على العرش !!

قال : تلك هي العادة التي ألفها رجال بلاطك يا مولاي .

ـــ ان اولئك الرجال لا يقتلون الحسناء بل يقتلون اهلها المترددين في الطاعة ثم يحملونها الى الملك .

ـــ ولكن العداوة يخلقها قتل الرجال كما يخلقها قتل النساء .

فأحس الملك انه مغلوب مع ولده ، وايقن بان بلقيس تملأ قلبه ونفسه ، فقال : أتصر على قولك يا عمرو ؟

ـــ لو لم تذكر لي بلقيس يا مولاي لما خطر لي ان اتخذها زوجة ، ان الرأي رأيك وانت الذي امرت به ثم رأيتك الآن تتردد في تنفيذه .

— اجل ، وذلك لاني اخاف عليك !

قال : سأسحق اعدائي الذين ذكرت عند ما تصبح بلقيس لي ..

— بل تسحقك بلقيس يا بني وانا انصح لك الآن .

فقال الفتى في نفسه : انه خاطر جديد لا اعلم اي حادث أوحى به الى الملك وهم ذو القرنين بان يبلغ الغاية من نصحه ، فأصابه السعال الملعون الذي تتلاشى معه قواه ، فأومأ اليه بالانصراف ، ثم استطاع ان يقول له :

لي ايضاً ما اقوله لك وسأدعوك ..

ودخلت الجواري في تلك الساعة ليعالجن الملك ..

اما عمرو فلم يبال بسعاله ، بل انصرف الى جناحه الخاص ليرى حظاياه . وابوه يتقلب على فراش الاوجاع والآلام !!

* * *

تفرق الامراء في البلاط ،بعد ان خبرهم ناشر امير ظفار ، ما يعرفه عن سابور الفارسي ولم يبق في القاعة غير عتيك بن روضة .

وكان صدر ناشر قد ضاق ، وقد احس انه كاد ينفجر اذا هو لم يجد رجلا من رجال القصر ، يبوح له بسر غرامه الذي خنقه ولي العهد .

وعتيك بدوره يريد ان ينفث سمه ..

فلما خلت القاعة ، كان امير نخلة هو البادىء فقال :

من كان يظن ايها الامير ان الملك يفاجؤه الداء وينتهي امره الى هذا الضعف الذي رأيت ؟

قال : ولماذا يصفو الزمان لذي القرنين وهو الزمان الغدار الذي لا يصفو لأحد . . لقد قضى الملك حياته كلها والدهر غافل عنه والحادثات لا تمد يدها اليه ولكنني ان سابور ، غول فارس ، لم يعرض له ولا يجسر على الدخول الى ارضه .

ـــ ولكن الداء الذي اصابه لا يعرف الرحمة .
ـــ من يعلم فقد يخشاه هذا الداء ويهرب منه .
وكانت لهجته لهجة شامت قاس يغلي الحقد في داخله .
فقال : ان الروح لا ترجع الى الاموات .
قال : خير لنا ان يبقى ذو القرنين من ان ينتقل الملك الى ولده !
فبرقت عيناه قائلا : يظهر ان عمراً لم يعبأ بما حدث لابيه .
ـــ بل كاد يقتل نفسه ... ألم تره كيف جثا على ركبتيه عندما رآه ؟...
ـــ بلى رأيته ، ولكن خيل الي ، في تلك اللحظة ، انه يبتسم ابتسامة غريبة تشبه ابتسامة الظفر .
فخرج ناشر الى الرواق وجعل يجيل نظره به ثم انثنى وهو يقول :
عتيك . سأفضي اليك بسر لا يعرفه احد افتعاهدني على كتمانه اذا بحت به الساعة .
فاجابه دون ان يتردد :
انصح لك بان تكتمني اياه لاني سأبوح به لمن اشاء من النساء والرجال .
قال : ومع ذلك فسأقوله ولا ابالي . ان ولي العهد لا يعبأ بالداء يقتل اباه بل لا يعبأ باليمن كله الآن لانه لا يفكر الا في الزواج !
ـــ اتريد ان تقول انه سيتزوج بلقيس ؟
ـــ نعم
فضحك قائلا : ان سرك يا ناشر حديث اهل البلاط افلا تذكر ان الملك خاطب ولده بشأن زواجه قبل ان يترك مأرب ؟
قال : ما اردت بالسر هذا الزواج .
ـــ ولكن ماذا ؟
ولكني اردت ان احول بين ولي العهد وبين بلقيس ولو كان في ذلك موتي .
فرقص قلب عتيك من الفرح .
غير انه استعان بدهائه كله ليخفي مظاهر فرحه ، ثم قال :

الا تحدثني بما جرى بينك وبين الامير ؟

ــ بلى . انه خنق حبي وسأخنق حبه اذا قدرت .

واخذ يقص عليه حكاية عاتكة وشفتاه ترتجفان وصوته يضطرب .

فقال عتيك عندئذ : اذن فانتما عدوان الآن .

ــ بل صديقان لاني لم انفر الظالم ولم اخرج عن اخلاصي له .

ــ وماذا ترى ؟

ــ أرى ان احبط مسعاه كما ذكرت ، وانا اعلم يا عتيك انك لا تحبه ولا تحب اباه .

ــ ولكن اتقسم لي انك صادق في قولك ؟

ــ اقسم لك بعظام ابي وقبره ، والدماء التي تفجرت من جسم عاتكة ان الحياة لا تطيب لي الا اذا نغصت عيش عمرو وجعلت ايامه كلها تعباً وشقاء ... أتساعدني في هذا ؟

فمد اليه يده قائلا : ان القضاء نفسه يساعدك فيه ونحن الآن اخوان .

قال : هات رأيك .

ــ الرأي ان نضع ايدينا بيد شرحبيل بن عمرو الذي يسعى الى ما نسعى نحن اليه .

قال : سمعت انه رضي بما طلبه اليه الملك .

ــ انه رضى مزيف كاذب لا يلبث حتى تظهر آثاره .

ــ الا تزف بلقيس الى ولي العهد ؟

ــ لا ، فبلقيس لا تحبه ووعود شرحبيل وعود دهاء وحيلة ليس غير .. والآن فقل لي . اريد ان تحول بين عمرو وبين الزواج ام تريد ان تثأر لعاتكة ؟

ــ بل اثأر اذا وفرت لي اسباب الثأر .

ــ وتقسم ايضاً انك تطيعني دون ان تتردد او تسأل عما تراه .

ــ اجل ؟

ــ اذن فاجعل امير همدان صديقاً جديداً لك وانس ما كان بينك وبينه .

قال : انه صديقي منذ الآن وقد نسيت كل شيء .

ـ وقل لولي العهد ان يدعوه الليلة الى مجلس الشراب وعلي الباقي .

ـ ولكنه لا يفعل ذلك لانه عدوه .

قال : يجب ان يتم الامر كما اقول لنبلغ الغاية .

وأطرق قليلاً ثم قال : متى ترى عمراً ؟

ـ بعد ساعة عندما يخرج من قاعة الملك ويصافح نساء البلاط ..

ـ ارجو اذن ان تهامسه عندما تراه قائلا له :

لقد ندم ذو تبع على ما بدر منه فيما مضى وهو يريد ان يستغفر .

ـ وما هو غرضك من هذا ؟

ـ ان احمل ولي العهد على الوثوق به ليستقيم لنا الامر كما نشاء .

قال : اتخون صاحب همدان ذا القرنين ؟

ـ بل يخون خنجره في صدره وصدر ولده عندما آمره بان يفعل .. ولكن احذر يا ناشر ان يتم عليك حقدك فالامر اعظم ممـا تظن وقد ينتهي بسقوط الاثنين عن العرش .

قال : لقد بدأت ان ارى ما لا افهم !

ـ اجل وبالقليل من الصبر تفهم كل شيء .

ـ ولكني اسألك عن الرجل الذي يلبس بعدهما تاج الملك اذا انتهت الحال كما قلت ؟

قال : قد يستولي الخوف على قلوب الرجال فلا يجسر احدهم على لمس هذا التاج !!

ـ وتبقى اليمن بدون ملك ؟

قال : ولكن في اليمن فتاة تفعل ما لاتفعله الرجال فتصعد الى العرش بخطى هادئة ، وقدم ثابتة ، وقلب كبير لا يتردد في امره ولا يعرف الخوف !

فايقن امير ظفار بانه يعني بلقيس . ولكنه لم يقل كلمة ، بل اكتفى بابتسامة قصيرة هي ابتسامة الراحة والرجاء ثم نهض وهو يقول :

سأظل في الرواق حتى يخرج ولي العهد فأحدثه بما اردت واسأله ان يقـابل ذا تبع ويصفح عنه .

ــ اما انا فسأرى ذا تبع وامهد السبل لهذا اللقاء ونحن بالانتظار .

وخرج الاثنان ، وقلب ناشر الذي جرحه قتل عاتكة يرقص من الفرح عند اعتقاده ان شاعة الانتقام قد دنت .

***

٣٢

كان ولي العهد ، في خلال الساعتين الطويلتين اللتين قضاهمـا بين حظاياه ، قد نسي مرض ابيه وتاجه ، وجميع ما حوله من مظاهر ، ومـا في البلاط من صور ! !

ولكنه ذكر كل ذلك ، عندما خرج الى الرواق ورأى ناشرا يروح ويجيء فيـه ...

واستيقظت في صدره ، عواطف كثيرة ، اعظمها وابعدها اثرا عاطفة طمعه بالعرش الذي سيتربع فيه بعد ابيه الفاني ..

وكان قد هم بان يدعو ناشراً قبل ان تقع عينه عليـه ليخاطبه بشأن الملك ، وينظر الاثنان في الامر من جميع نواحيه .

فلما ابصره ، اومأ اليه بان يتبعه ، وتقدمه الى احدى القاعات التي تطل على سور مأرب العظيم .

وفي تلك القاعة جلس الفتيان .. وولي العهد مطمئن هادىء ، وامير ظفار ثائر مضطرب ، ولكن اضطرابه لا تقرأه العيون .

ثم قال عمرو وهو يخفض صوته :

اي شيء هو اغرب ما رأيت بعد دخولك البلاط ؟

فاجابه والكآبة في عينيه : مرض الملك يا مولاي !

قال : هو ذاك وسأبوح لك بما قصه علي وهو في فراشه لترى رأيك فيه وتكون عونا لي .

قال : هات يا مولاي .

ـ ولكن قل لي قبل ان ابدأ كيف رأيت الملك ؟

فعرف اللعين غاية عمرو من هذا السؤال فقال في نفسه :

بل تقول لي انت كيف رأيته ..

اي انه اراد ان يسمع رأيه ليجاريه في هواه .

ثم قال له : كما رأيته انت يا مولاي .

قال : ان الملك في خطر ولا يلبث حتى يموت .

فتراجع مذعوراً وهو يقول : الملك يموت ؟ !

ـ نعم يا ناشر . ان صورة الموت في وجهه . وفي جسده الهزيل المتهدم الذي صرعه الداء !

قال : لا يستطيع الموت ان يضع يده على ذي القرنين !!

فاصبح ولي العهد فيلسوفا وكان يقول :

لم نسمع من قبل ان الحياة دامت لملك . الملك والعز يزولان وكل شيء يفنى ! وقد اعترف ابي نفسه بضعفه وهو يشعر بان الموت يدنو منه !

قالها والابتسامة تكاد تغطي مظهر كآبته الكاذب

فاجابه قائلا: وماذا نصنع يا مولاي ؟ لقد انتقل الملك اليه بعد ابيه، وينتقل اليك بعده فكأن الآلهة لم تشأ ان تعصب رأسك بالتاج وانت فتى في زهرة العمر ...

وبدت على جبين ناشر مظاهر الغبطة والابتهاج .

قال : ولكن الملك اوصاني بما تضطرب له القلوب وخبرني ان للعرش اعداء كثاراً يحيطون به ويتآمرون عليه .

قال : عرش حمير ؟ !

اجل عرش حمير وقد عجبت مثلك لحديث الملك واستغربت روايته، ولكني اعترف لك الآن باني خائف .

قال : لقد عشت في البلاط يا مولاي ونشأت في ظل العرش فلم اجد له عدوا كما تقول . .

ـ وانا لم يخطر لي من قبل ان له اعداء . .

قال : الا تذكرهم لي يا مولاي ؟

ـ ما اردت ان استشيرك في الامــر ألا لاذكر لك كل شيء . . ان زعــيم هؤلاء شرحبيل بن عمرو وهذا ما يثبته الملك !

فجعل يردد كلمته وهو يهز رأسه كأنه غير واثق برواية الملك .

فقال ولي العهد : اتصدق هذا ؟

ـ لا يا مولاي .

ـ ولكن الحذر لا بد منه وسأختبر بنفسي اخلاص شرحبيل .

قال : لقد نسيت يا مولاي ان بلقيس ستكون زوجة لك .

قال : ان الفتى الذي سيجلس على العرش لا ينسى شيئاً .

ـ ولكني لا افهم كيف يتآمر شرحبيل على عرش ابنته .

قال : الرجل الذي يفكر في العرش يدوس ابنته بنعله ولا يبالي .

قال : اعترف لك يا مولاي باني لا استطيع ان اصدق شيئاً من هذه الظنون . انه خوف لا سبب له ، واخشى ان تعمد الى الاختبار فتفضح نفسك وتخسر بلقيس الى الابد .

فاطرق ولي العهد يفكر في امره .

اما ناشر فاستطرد قائلا : لقد كان شرحبيل اول المدافعين عن الملك كما تعلم ولو كان طامعاً بالتاج لما فعل ذلك ولما نقل قدماً الى الحرب . .

ـ وما هي غاية الملك من وصيته ورغبته عن بلقيس ؟

قال : وهل حدثك بامر الزواج ؟

ـ نعم وهو يقول ان بلقيس تماشي اعداءه وتنفخ في الصدور روح التمرد والعصيان .

فابتسم وقال : مع انه هو الذي طلبها لنفسه ثم اراد ، بعد فشله بطلبه ، ان يجعلها ولية للعهد .

ـ وماذا تظن ؟

ـ اظن ان الملك يكره الفتاة واباها لان الاثنين لم يرضيا بما امرهما به !!

فبرقت عيناه قائلا : هذا ما خطر لي عندما قص الملك علي حكايته ، ولكني لم اشأ ان اغضبه وابوح له بما في الصدر .

فتمادى ناشر في اخلاصه وجعل يقول: وكيف يرضى الملك بان تكون بلقيس لسواك وهي اعظم فتاة انجبتها العرب !!

فهامسه المغرور قائلا : ستكون لي على رغم الملك نفسه ...

ـ ولكن أتثق يا مولاي بما ذكره لك عن شرحبيل ؟

ـ لا . فشرحبيل اضعف من ان يفكر في العرش ويطمع به .. غير ان هنالك اميراً آخر اخشاه ، وانا لا احبه .

ـ من هو ذا ؟

ـ امير همدان الذي صبرت وصبر الملك على كبريائه .

قال : لا تتعجل في حكمك اذا اردت ان تكون ملكاً :

قال : لقد حذرني الملك منه ...

ـ وانا اقول لك انه من اخلص الامراء ..!

قال : الا تذكر انه كان عدواً لي وعدواً لك ؟

ـ بلى ، ولكنه ندم على عداوته وهو يرغب في ان يراك ليسألك ان تنسى الماضي فيصبح خادماً للعرش .

ـ ومن خبرك ذلك ؟

ـ امير نحلة وطلب الي ان استأذن له عندما تأمر بالشراب .. انك يامولاي

ستصير ملكاً وعلى الملك ان يحيط الامراء الذين حوله بعنايته وفضله لتثبت اركان الملك .

اي انك ترى ان اغفر له واضع يدي بيده .

ـ نعم يا مولاي كما اني ارى ان تقرب جميع الامراء الذين يظن بهم الملك الظنون .

فرأى ولي العهد ان الصواب فيما يقوله ناشر وانه اذا كان لا بد له من الجلوس على العرش فخير لعرشه ان تسنده قوى القواد والزعماء ، من ان يعمل هؤلاء ، من وراء الستار على تحطيمه ، وسحق الرجل المتربع فيه .

فقال له والامل يلمع على جبينه :

لقد اذنت لذي تبع فليحضر مجلس الشراب عند المساء وليعترف بذنبه . ولتمت عظمته الكاذبة وكبرياؤه التي لم تقف عند حد !

ـ ولكني ارجو ان يبتسم له ولي العهد وان يستعين بحلمه على بلوغ غايته .

فافتر ثغره قائلا : سترى ان عمراً بن ذي القرنين ابعد نظراً من ابيه واكثر دهاء ، انصرف الآن على ان تدعو الى مجلس الشراب من تشاء .

ـ سادعو عتيكا وذا تبع ليس غير وهذا هو الرأي .

ـ افعل ما يطيب لك فانت اقرب امراء اليمن الى الملك الجديد .

فنهض ناشر والحقد يغلي في صدره وهو يخاطب نفسه قائلا : يطيب لي ان تموت يا عمر كما ماتت عاتكة .

* * *

٣٣

كان الغوث بن راهط رجل شدة وبأس ، ورجل حرب .

وجميع اهل براقش ابطال ورجال ميادين .

وقد عرفت انه كان ابعد الناس عن البلاط واقربهم الى الاستقلال بشؤون قومه .

وهو واسع النفوذ فلا يحتاج الى البلاط ليغذي نفوذه . وهو ملك في علاه فلا يضيع ملكه ، بالعيش في ظل ذي القرنين .

حسب ذي القرنين ، انه هادىء لا يتعبه ولا يخرج عن طاعته ، بل حسبه انه ينظر الى ما يجري في بلاطه . وهو ساكت لا يرتفع له صوت .

وعشائر براقش ، كثيرة نامية ، وقد وفرت له في ظل الغوث اسباب العيش بالسعة والرخاء وبنو سعد ، اكثر هذه العشائر عدداً واعظمها شأنا ، وهم رهط الغوث وانصاره واركان امارته .

وكان جرول واخوه ، اللذان قتلهما ذو القرنين مع اميناس الحبشي، من بني سعد ، ولهما في القوم منزلة الفتيان الاشداء اصحاب الجرأة والرأي .

وكان خبر القتل قد رددته الالسنة وتناقلته افواه العرب في كل بـلد ، فلما بلغ بني سعد ثار ثائرهم ، واقبلوا على اميرهم يسألونه ان يثأر بالقتيلين ، بالخروج عن طاعة الملك ، والاحتكام الى السيف .

ولكن الغوث كان حكيما ، فقد استطاع ، على رغم هياجه ، وثورة نفسه ، ان يعيدهم الى الهدوء ، ويعدهم ، وعد الرجل الحر بانه سيهرق من دمـاء آل الملك اكثر مما اهرقه من دمائهم .

وكان يقول : ان الغوث بن راهط ، لا يستطيع وحـده ان يبارز ذا القرنين الكثير الجيش ، ولكنه يستشير سواه من الامراء ويضع يده بايديهم ، ثم يحمل لواء العصيان خفاقاً في كل مخلاف ، فيزعزع اركان الملك ويحطم قوى الملـك المنفر السفاح .

وعمد منذ تلك الساعة الى السعي في سبيل الحرب ، وكان جبار بن دوير ، امير بينون اول من خاطبه بهذا الامر .

وجبار حليف الغوث ، وله رأي يشبه رأيه : فيما يعني الابتعـاد عن الملك ومفاسد بلاطه .

اضف الى ذلك تلك العاطفة الخاصة التي كانت تختلج في صدر جبار ، فقد كان يبغض الملك بغضاً غريبا لا تشعر بمثله القلوب الخبيثة السوداء !

يعود عهد هذا البغض ، الى زمان الشباب ، يوم كان ذو القرنين ولي عهد وقد جرح جباراً في ميدان السباق وفضحه على مرأى من ابطال اليمن والامراء.

ولكنه لم يشأ في تلك الساعة ، الا ان يلجأ الى الحكمة ، قبل ان يلجـأ الى السيف فقال له :

ماذا يريد بنو سعد ؟

ــ يريدون ان يطلبوا بدم جرول واخيه .

ــ بالحرب ؟

ــ نعم ، فالدماء التي تجري في الميادين تغسل العار .

ــ ولكنك تستطيع ان تمحو عارهم بقتل الملك وحده ؟

ــ بل اسألك ان تحقن دماء قومك وتبعدهم عن الهوة التي تبتلع براقش . ان انصار الملك كثار ، وجيشه جيش الغزو والنصر ، وفيه القواد المجربون الذين خفضوا لسيدهم جميع الرؤوس واخضعوا جميع المخاليف التي فكرت في الثورة ، من قبل ، فليس من الرأي اليوم ، ان نشهر عليهم السيف .

ــ وكيف نصنع اذن ؟

ــ يذهب احد بني سعد الى البلاط فيستأذن على الملك ثم يطعنـه في صدره طعنة تخرج معها روحه ، ثم ينتزع خنجره فيطعن نفسه وينتهي الامر .

قال : ولكن ولي عهده وامراء البلاط لا يسكتون عند هذا الحد بل يزحفون الى براقش ليفتكوا ببني سعد ويعفوا اثارهم ، وهذه هي الحرب .

قال : اذا فعلوا عمدنا الى الدفاع حتى نظفر او نموت .

ثم قال : ومع ذلك فما هو ذنب الملك الذي تستعر نار الحرب من اجله ؟

ــ ذلك القتل الذي اقدم عليه .

ــ ان الملك يفعل ما يشاء ويقتل من يشاء ولا يسأل

ــ اما انا فقد اردت هـذه المرة ان اسأله ... لقد كان ابوه يستشير ابي في

كل ما يتعلق بـبراقش ... ولم يكن يجسر على قتل رجل منا الا ذا كان ابي حاضراً ...

قال : آلا ترى ان جرول واخاه يستحقان القتل وهـا اللذان يخونان اليمن لينالا حظوة في عيني ملك الحبشة .

ـ بلى ولكني لا اطيق هذا الاستخفاف يظهره لي الملك كأني غير موجود.!
ومن يطيق مثل هذا يا جبار ؟ اترضى انت بان يقتل ذو القرنين رجلا من قومك دون ان يسأل عنك ؟

ـ لا

ـ واي امر تعمد اليه اذا فعل ؟

ـ ارسل اليه من يقتله وهو في مجلسه كما ذكرت ، بعد ان اخبر جميع الامراء الذين يبغضونه كما ابغضه .

قال : لقد جئت اليك على امل ان اطوف في البلاد واستشير جميع الانصار .

قال : لا تنس ذا مغار وابن عمه .

ـ وكيف انساهما وهما عدوا الملك .. ولكني اخشى ان يتصدى لنا امير همدان وينتصر لمليكه .

قال : استعن اذا شئت بابن عم الملك شرحبيل بن عمرو الذي يقال انه غـير راض عما يحدث في البلاط .

قال : انه صديق ذي مغار وهو الذي يتولى امر استشارته في قضية الحرب.

ـ اذا رضي شرحبيل بان يبرز الى الساحة تقدمت انا جميع الصفوف برجاله يبنون وزحفت الى مأرب .

ـ وان لم يرض ؟

ـ طلبت اليك للمرة الاخيره ان تستريح من الملك كما قلت لك .

ثم استدرك قائلا : بل انصح لك بان تتبع رأي شرحبيل بن عمرو وتسير على النهج الذي يضعه لك .

فاستحسن جوابه وجعل يقول : هذا هو الرأي فالملك لا يعـارض الا اذا

انجد القوم وكثرت السيوف وسأذهب غداً فأرى ذا مغار واسأله ان يقابل شرحبيل ويسبر غوره .

ــ ولكن تعجل في امرك قبل ان يعود ولي العهد من اليمامة .

ــ سيعود على كل حال قبل ان ينتهي الامر . .

قال : لقد خطر لي خاطر آخر ارجو ان نبلغ به الغاية .

قال : ماذا؟

ــ ان يخاطب ذو مغار امير همدان قبل ان يخاطب ابن عم الملك .

قال : هذا ما افكر فيه الآن وستعرف بعد رجوعي كل شيء .

ــ اما انا فسأعد عدتي وآمر رجالي بان يتهيأوا للحرب اذا قضت بها الاقدار .

ــ ولكن احذر ان يعرف هؤلاء الرجال اننا سنحارب الملك .

ــ وماذا تخاف ؟

ــ اخاف ان يحتاط الملك لامره ويفاجئنا بجيشه قبل ان نفعل شيئاً

قال : احسنت وانا اعدك بالكتمان .

وظل الاميران يتحادثان حتى غربت الشمس فأقبلا يشربان الخمر الى ان تخدرت الاعصاب ودب النعاس في الجفون .

ــ وهكذا ، كما رأيت ، كان نطاق المؤامرة يتسع ويمتد ، يدفعه القدر الساخر الى التوسع والامتداد .

وقد جهل الاميران في تلك الليلة ، ان الملك الذي يتهيئان لحربه ، ينخر عظمه الداء وان وفاء امير همدان امسى عداوة وحقداً .

* * *

٣٤

أقبل ذو تبع على مجلس الشراب وهو يتردد في الدخول .

لكن امير نحلة كان يدفعه بيده ويقول :

تجلد واصبر على كل ما تسمع وترى ، واذكر ان بلقيس تريد هذا .
فدخل يتبعه عتيك ، وفي المجلس ولي العهد وامير ظفار يسمّيه .
وقد منع ناشر الغلمان والحراس من الدخول .
فابتسم ولي العهد للرجلين ، ابتسامة فيها العظمة ، وفيها الكبرياء والدلال .
فقابله صاحب همدان بابتسامة مثلها وانحنى قائلا له :
لقد استأذنت عليك يا مولاي لاثبت لك اخلاصي للعرش واسألك الصفح عما مضى .
قال : وما الذي يدعوك الى ذلك ؟
قال : جفاني الزمان عند ما جفاني ولي العهد !!
ـ واين ذهبت تلك الكبرياء يا ذا تبع ؟
فاصفر وجهه وتمتم قائلا : طرحت بها عند قدميك يا مولاي ...
قال : وعرفت ان المجد والعز يموتان ان لم يكن مصدرهما الملك ؟
ـ نعم كما عرفت ان السماء والارض تغضبان عند ما يغضب ذو القرنين ووارث تاجه !!
فخيل اليه ان الذعر يملأ قلب امير همدان ، وهو الذي يملي عليه ذلك القول .
فابتسم من جديد ابتسامته المعروفة واراد ان يعبث به فقال : انفترض ان ولي العهد لم ينس كبرياءك فماذا تصنع ؟
فوضع يده على جبينه ليخفي مظاهر غضبه ثم قال :
اخرج من البلاط الليلة على ان لا يرى احد وجهي بعد ذلك .
ـ واذا خطر لي ان اضرب عنقك ؟
لا اظن انك تفعل ذلك يا مولاي لاني في ظل الملك .
قال : أفلا تعلم اني سأصبح ملكاً .
ـ ان لم ينته اليك امر الملك اليوم انتهى غداً ... ومع ذلك فانا لا اخاف الملك الذي ابذل له حياتي وافديه بدمي ...
قال : لقد انقذك ابي من يدي بالامس ولكنه اليوم غير قادر على ذلك .

ـ اذن فافعل ما يطيب لك يا مولاي وهذه عنقي فاعمد الى سيفك !!
فالتفت الى ناشر وهو يقول : اتضمن وفاءه ايها الامير ؟
فتردد الآخر في الجواب ثم قال : نعم يا مولاي .!
ـ وكيف تفعل وهو عدوك ؟
ـ رأيت اخلاصه يجول في عينيه ..
فقال عتيك ، وانا اضمنه ايضاً يا مولاي لاني رأيت ما رآه الامير ..
قال : أتعد بالطاعة ياذا تبع ؟
ـ اعد ما تشاء .
ـ ولكن اعلم انك لا تستطيع ان تستغفر مرة اخرى وان ولي العهد لا يعفو اذا خطرت الخيانة لك .
ـ اعرف كل شيء يا مولاي فثق بما اقول .
فجعل يهامس ناشراً ثم قال : لي كلمة اخرى اقولها لك واسمع جوابك .
ـ ما هي يا مولاي ؟
ـ اية صلة بينك وبين شرحبيل ابن عمنا ؟
ـ صلة ولاء اوجدته اقامتي بالبلاط !
ـ قيل لنا ان هنالك غير ما ذكرت .
ـ يقولون ان شرحبيل يتآمر على العرش وانك شريك له في هذه المؤامرة!
فذعر الثلاثة لهذه المفاجأة .
ثم عرف الهمداني ان يبرىء نفسه فقال : لقد اصاب الذين حدثوك بهذا يا مولاي ولكن شرحبيل ليس من المتآمرين .
ـ اذن فانت تعرف الاشخاص الذين يخونون الملك .
ـ بل اعرف الرجال الذين يتآمرون يا مولاي .
قال : ان المؤامرة والخيانة شيء واحد ، من هم هؤلاء ؟
ـ اذكر لك منهم رجلين اثنين لا اعرف لهما ثالثاً هما عتيك بن روضة امير نحلة وذو تبع امير همدان .

فاضطرب عتيك وجعل ينظر اليه وقد استولى عليه الاستغراب !

وفتح ناشر فمه كما يصنع الابله الذي لا يعلم ماذا يجري حوله !

اما هو فلا يبال بل استطرد قائلا : ان هذين الاميرين يتآمران في ظلام الليل وقد عاهد الواحد منهما الآخر على الوفاء الى النهاية .

فقال : انت يا عتيك ؟

قال : لا افهم ما يقوله امير همدان يا مولاي .

ـــ انه يعترف بخيانته ويقول انك شريك له .

فقاطعه ذو تبع قائلا : لقد اعترفت بوجود مؤامرة ولم اعترف بالخيانة .

ـــ ومعنى ذلك ؟

ـــ معناه اننا كنا متآمرين على اعداء العرش ومتعاهدين على الاخلاص لولي العهد الذي لا يلبث حتى يتربع في كرسي ابيه .

فظهر البشر على وجوه الثلاثة وقال ولي العهد : اتعلمون في اي شيء كنت افكر الآن ؟ كدت اعتقد ان الهمداني مجنون وقد املى عليه جنونه ان يعترف بخيانته ويبوح بأسماء انصاره !

ثم قال : اذن فشرحبيل لم يخن الملك .

قال : لم اعلم عن هذه الخيانة شيئا يا مولاي ، ولكني علمت ان ابن عمك رجل يقل وجود امثاله بين الامراء . علمت انه يحب الملك ويخضع له ، وسمعت نعم سمعت يا مولاي انه سيزف اليك ابنته التي هي اجمل حسان اليمن كما يقولون

فافتر ثغر العاشق قائلا : الا تعرف بلقيس يا ذا تبع ؟

لا يا مولاي فقد زرت شرحبيل في قصره مرة واحدة بامر الملك ، ولكني لم ار هذه الفتاة !

ـــ وانت يا امير نحلة ؟

ـــ وانا ايضاً لا اعرفها يا مولاي .

قال : عجباً تقيم بلقيس بمأرب ولا يعرفها احد من الامراء ! ! انها اذن تعيش في السماء كما تعيش الآلهة .

قال : يعرفها حاشد يا مولاي وهو الذي ذكرها للملك فسأل الملك عندئذ شرحبيل ان يهبها له .

قال : لو لم تكن احسن النساء لما ارادها حاشد لمولاه .

فرأى عتيك ان الفرصة قد تيسرت له فقال : اجل يا مولاي ولكني اتمنى ان تصبح زوجة لك قبل ان تعصب رأسك بتاج آبائك .

قال سيكون لك ما تمنيت .

ــ اواثق انت يا مولاي ؟

فضحك هازئاً به ثم قال له : اظن ان ولي العهد يعرف نفسه .

ــ ولكني سمعت الملك يقول ..

ووقفت الالفاظ عند شفتيه كأنه خائف !

فقال له : ماذا سمعت ؟

فتردد في الجواب وهو ينظر الى الجانبين ويرسل بصره الى الاروقة

فرفع صوته قائلا : اذكر ما سمعت .

ــ لا اجسر على ذلك يا مولاي .

ــ امرتك بان تقول فافعل !

ــ ان الامر يتعلق بالملك وانا لا استطيع ان اغضبه .

ــ ولكن الملك في فراشه الآن !

ــ ومع ذلك فانا اخشى ان تنقل اليه الجدران ما اقول . اتعدني يا مولاي بانك لا تذكر للملك كلمة واحدة مما سأرويه لك ؟

لقد وعدتك .

ــ وتقسم لي بالتاج الذي ستضعه اليمن على رأسك ؟

ــ اقسم لك بالعرش والتاج وكل ما تشاء .

قال : كان الملك يقول انه لا يريد ان يتم امر زواجك ..

فاستوى في مجلسه قائلا ، أأنت سمعته ؟

ــ نعم .

ـــ ولكنه هو الذي أراده كما تعلم انت ويعلم سواك .
ـــ بل اراد ان يحتال ويكيد شرحبيل !
قال : انها حكاية هائلة يا ابن روضة . .
ـــ اجل ، فهل اذكر كل شيء وانا آمن ؟
ـــ اذكر كل ما سمعت دون ان تزيد او تنقص . . قل كيف أراد الملك ان يكيد شرحبيل ؟
ـــ لم تكن غاية الملك ان يكيده وحده يا مولاي بل كان هنالك شخص آخر أحب ان ينتهك حرمته ويجرح كرامته ، هو انت !!
ـــ انا ؟؟
ـــ نعم انت ولي عهد ذي القرنين !
فقال ذو تبع : كفى يا عتيك !
قال : لقد أراد مولاي ان يعرف كل شيء ويكتم الملك ما يسمع فسأبوح له بكل ما اعلم !
فانتهره ولي العهد بقوله : خبرني حكايتك ولا تبال باحد .
قال : ألم يرد الملك ان يجعل بلقيس حظية له ؟
ـــ بلى .
ـــ ولكنه عندما رأى ابن عمه لا يوافقه في هواه سأله ان يزف ابنته الى ولي العهد كما رأيت !
ـــ واين هي المكيدة التي ذكرت ؟
قال : لم يكن الملك راغباً في هذا الزواج يا مولاي، بل كانت غايته ان تدخل بلقيس البلاط، ليمنع ولده عندئذ من الزواج ويقول له : أمرناك بان تترك مأرب الساعة لحاجة لنا ، ثم يقول لابن عمه في الوقت نفسه : هذه ابنتك حظية لنا على الرغم منك فافعل ما تشاء !
ـــ ومن قال له ان ولده يرضى بما يصنع ؟
ـــ ليس للولد ان يراجع اباه فيما يفعل ، هكذا كان يقول لجلسائه وهو يشرب

وكان ذو تبع حاضراً .

قال : ماذا يقول امير همدان .

ــ رواية صحيحة يا مولاي لم يكن من شأن عتيك ان يقصها عليك !

فتميز الفتى غيظاً وجعل يقول : لقد خبرني الملك اليوم انهم يتآمرون عليه ولكنه لم يخبرني انه يتآمر ــ هو نفسه ــ على ولي عهده ..

وثار ثائره ، وكانت الالفاظ تخرج من فـــه متقطعة مبتورة لا لون لها ولا وزن .. كالسكران المعربد أفقدته الخمر هداه .

ثم صحا فقال : لقد ذكرت الآن .. اسمعوا ايها الأمراء ، ان الملك يتهم شرحبيل بن عمرو بالخيانة ليبعدني عن بلقيس .. ولكني لم اعلم غايته من اتهامه امير همدان !.

واخذ ولي العهد ، الرصين ، يفضح اباه ويبوح باسراره كأن تلك الاسرار لا علاقة لها بالدولة والعرش !

والامراء الثلاثة يوغرون صدره ، وينفخون فيه تلك الروح السامة التي يعمد اليها المرائي النمام .

حتى انفجر البركان اخيراً ، وساعدت الخمر ، المتآمرين الثلاثة في قراءة مـــا خفي من اسراره وافكاره ..

كان يلعن وهم يوافقونه في اللعن ، وكان يهدد وهم يدفعونه ويشاركونه في التهديد ، وشاء ان يختم جنونه باستعجاله الموت لابيه الخبيث !

وكانت « الكلفة » قد ارتفعت في تلك الساعة كما يقولون ، فجعل ذو تبع يستعيد القصة التي رواها له ابوه وهو يعيدها ، وذو تبع يقول :

لم اكن قط ولن اكون خائنا كما اراد الملك ان يقول لك !

فاستيقظ الغرام في صدر السكران ، فقال :

لقد خيل الي من قبل ان ذا تبع يعرف بلقيس ..انه لو كان الامر كما ظننته لما خطر لي ان اغفر له !

ــ لماذا يا مولاي ؟

ـ لان الذي يعرف بلقيس من الفتيان يسيء الى ولي العهد ..!
ـ ولكن الواجب يقضي علي بان اعرفها قبل ان تزف اليك وقد تجعلني انت رسولك اليها في احدى الساعات .. أليس كذلك يا مولاي ؟
ـ بل ارسل امير نحلة دون سواه ..
فقال عتيك : ارسل من تشاء فكلنا عبيد لك .. ولكن ماذا تصنع بالملك ؟
ـ سأسأله غداً ان يأذن في الزواج .
ـ وان لم يفعل ؟
ـ اذا لم يفعل سألت شرحبيل بنفسي ، ان يزوجني وجعلت بلقيس سيدة البلاط على الرغم من الملك !
قال : اخشى ان تتصدى لك بلقيس يا مولاي .
ـ بلقيس ؟
ـ نعم فقد تكره ان تزف اليك وابوك غير راض وقد يكون لشرحبيل هذا الرأي نفسه ...
فاصفر وجهه وقال : ايضيع شرحبيل وابنته رجاء فتى يجلس بعد ايام على عرش حمير ؟
ـ لا اعلم يا مولاي ولكنه خطر خاطر لي .
ـ اذن يجب ان تخاطب بلقيس واباها بهذا الشأن قبل ان اخاطب الملك .
بل تخاطبها انت يا مولاي وتمهد مع ابيها اسباب الزواج !
قال : تذهب انت اولا عند الصباح فتسألها رأيها في الامر ثم تنقل الي كل ما رأيت وسمعت !
قال : لي رأي آخر يا مولاي هو ان نعمى بنت الريان تعرف اسرار الفتاة بل تعرف ما في صدرها من بغض وحب .
ـ وترى ان يحدثها ولي العهد بشأن زواجه ؟
ـ نعم ، فهي وصيفة بلقيس بامر الملك ، واحدى الخطايا اللواتي كانت لهن الكلمة النافذة في البلاط .

قال : متى تجيء ؟

ـ غدا يا مولاي فاذا جاءت ارسلتها اليك لتبوح لك بما تعلم دون ان يعرف اهل البلاط شيئا مما نفعل .

فتنهد ثم التفت الى ناشر قائلا :

اسقني يا صاحب ظفار ، ان النار التي تحرق هذا القلب لا يخمد لهيبها غير الخمر. واشربوا انتم ايها الامراء ان ملك حمير الجديد يأمركم بهذا ويسألكم ان تكونوا له اعوانا على كل ما تحدثه النفس بالخروج عن طاعته .

فرفع عتيك كاسه وهو يقول :

اشربوا وليعش عمرو بن ذي القرنين ملك حمير !

وقال ناشر : اشربوا وليمت عدو الملك ولو كان ذو القرنين نفسه !

اما ذو تبع فقال : سأشرب دماء اعدائك يا مولاي كما اشرب كأسي هذه .

وطابت الخمر للملك الجديد ورجاله الامنـــاء ، .. ولم ينصرفوا الى مخادعهم الا عندما انتصف الليل .

وقد دب الشك في صدر ولي العهد ، وبات تلك الليلة وهو يبغض اباه .!

• • •

٣٥

عندما كان ولي العهد يحلم بالتاج الذهبي الذي سيضعه على رأسه بعـــد موت ابيه ، كان ابوه يتقلب على فراش اوجاعه ، وكان الدم الذي تقذف به رئتـــه يصبغ ذلك الفراش ويخضب شفتيه ويديه .

وقد استولت الكآبة والخوف ، على الجواري اللواتي يقمن عند رأسه وعند قدميه .

سعال دائم تخرج معه رئته قطعاً حمراء .. ويـــذوب له قلبه ، الذي اذابته

قسوته وجفاؤه : طائفة كبيرة من قلوب رعاياه ..

وليل المريض المتألم طويل لا يطلع صبحه حتى تزهق الروح .

انظروا الى الملك العظيم الذي استعبد شعبه وملأ قلوب قومـــه رعباً ، انظروا الى ذي القرنين الجبار يتململ كالنعجة بين يدي الجزار وهو لا يستطيع ان يرد الداء ، ويبعد تلك الشفرة الحادة التي تلمع فوق رأسه !

ـ انظروا الى الملك العظيم الذي كـــانت حراب حراسه ، وسيوف قواده ، تحيط به في نهوضه وقعوده ، انظروا اليه وهو بين اربع من جواريه ، في مخدع يسوده الصمت ، لا تحميه السيوف ، ولا تقوم ببابه حراب الحراس .

ولي العهد واعداؤه اللابسون ثياب الاصدقاء ، يسكرون ، والبـــلاط يلهو بأباطيله ومفاسده ، وذو القرنين يتألم وحده ويشكو جور الزمان !

ولا يمر بمخدعه ، من حين الى حين ، من امرائه الكثار ، غير معدي كرب وعبد شمس المخاصين له ، ويسألان جواريه عنه ، ولا يبصران وجهه !

وهو ينظر الى الباب لعله يرى ولي عهده ..! ولكنه لم يره ..!

لقد كان ولده بعد نصف الليل ، يغط في نومه ، والخمر والاحلام تبني لـــه القصور الشاهقة وترفعه الى السماء .

حتى كاد يتنفس الفجر .

فرفع المسلول رأسه وهو يمسح دمه الظاهر على شفتيه وقال :

اين ولي العهد لا اراه ؟! علي بولي العهد .

فقالت احدى الجواري : قد يكون في فراشه يا مولاي .

فقال : اذهبي وايقظيه فسينام بعد ايام ملء جفنيه ..

ووضع يده على جبينه وجعل يتمتم قائلا :

نم يا بني .. ان الداء يصرع اباك .. ولكن لا تنم عندما ينازعك الاعـــداء السلطان ويصرعون عرشك .

وكانت الجارية قد خرجت لتدعو ولي العهد ، ولكن الحارس الواقف كان على باب حجرته ، لم يأذن لها في الدخول ولم يجسر هو نفسه على ان يدعوه .

فقالت : آمرك باسم الملك ان تفعل .
فارتجف الجندي لهـــذه الكلمة وتنحى مذعوراً فدخلت وهي ترتجف ايضاً ، فابصرت ولي العهد في فراشه ، يبتسم لاحلامه ، وعلى جبينه جلال الملك .
فترددت قليلا ثم نادت : مولاي .
فافتر ثغر مولاها لحلم جديد ولم يجب .
فاعادت قولها بصوت عال وتراجعت الى الوراء .
ففتح الفتى عينيـــه واجالهما في الغرفة ثم استوى جالساً وهو يقول : ماذا جرى ؟ !
فانحنت له قائلة : امرني مولاي الملك بان ادعوك الى غرفته الساعة .
وكان الولد البار ينتظر بشرى موته !! ..
فقال : وكيف كان ليله ؟
– ليل وجع لا يطاق ، لم يغمض للملك معه جفن .
فالتف بعباءته ، وتقدمها الى تلك الغرفة التي لا يسمع فيها غير انين المسلول.
وكان النور يغمر جوانبها ، ويستطيع الداخل ان يتبين وجه الملك الاصفر وعينيه الغائرتين وشفتيه المخضبتين ...
فجلس الابن على سرير ابيه وهو يقول :
ها أنذا يا مولاي .
فقال الملك لجواريه : اخرجن الى الرواق .
فلما خلا لهما الجو قال له :
دعوتك لترى بعينيك حال ابيك ! انظر الى هذه الدماء التي تخرج مع السعال.
قال : دماء صدرك ؟...
– نعم ، بل هي حياتي تتلاشى امام عيني .. اسمع يا بني لقد نصحت لك امس بان تحذر اولئك الامراء الذين يبغضونك ويبغضون اباك .
فاراد الفتى ان ينجو من نصائحه ، فقاطعه قائلا :
سأفعل ما تشاء يا مولاي .

ــ ولكني نسيتك اميراً آخر هو اشد خطراً من جميع من ذكرت لانـــه من رجال البلاط المقربين اليك .

قال : معدي كرب ام عبد شمس ؟

ــ بل هـــو عتيك بن روضة الذي يقضي ايامه بيننا طائفاً في الاروقة هائماً صامتاً لا يقول كلمة .

قال : ايكون عتيك من المتآمرين ؟

ــ لقد خيل الي في هذا الليل انه منهم !

ــ وكيف ذلك يا مولاي ؟

ــ ذكرت ان ابي قتل اباه وقد يخطر له بعد ان أموت ان يقتلك بأبيه !!

ــ ولكنك كنت سا كتاً عنه لا تخافه ولا تخشاه .

قال : لقد انساني الملك كل شيء .. ولكني استعرضت ماضي في هذه الليلة وذكرت جميع الاعداء والمحبين ، ثم خفت ان يغمض الموت عيني قبل ان ابوح لك بكل ما اعلم . احذر ابن روضة يا عمرو ولا تنس ما اقوله .

ــ لقد فهمت يا مولاي ..

ــ واذا كان لا بد لك من الوثوق بمن حولك من الرجال فثق بمعدي كرب وعبد شمس فهما اصدق الامراء طاعة واشدهم اخلاصا .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ اسألك بعد ذلك عن رأيك فيما حدثتك به امس .

قال : الزواج ؟

ــ اجل وهذا الزواج هو اعظم الاشياء في نظر الملك .

ــ أنسيت يا مولاي اني ذكرت لك امس ما افكر فيه ؟

ــ لا : غير اني ارجو ان تعدل اليوم عن رأيك وتختار لايمن ملكة اخرى غير بلقيس .

قال : دعني اتزوجها وانا ولي العهد ثم اطلقها عند ما اصبح ملكاً ..

ــ وما هي الغاية من هذا ؟

ـ ان افسد المؤامرة التي يدبرها شرحبيل واعوانه .

قال : لا تزد فانت اضعف من ذلك والملك لا يريد ان يتم هذا الزواج .

فاراد الفتى عندئذ ان يختبر اباه ،ويلمس بيديه صحة ما قيل له عنه ، في الليل الذي مضى ، فقال له :

وهل تريد ان تكون بلقيس حظية لولدك ؟

ـ وكيف تقدر على ذلك ؟

ـ : امنع عقد الزواج عند ما تحمل بلقيس الى البلاط .

قال : أصنع هذا اذا قدرت فانا اوافقك فيه ، واما ان تتزوج ، ثم نطلق ؛ لم نكون لكاهن مأرب يد في امرك وتقوم حولك الظنون فهذا ما لا اسلم بـــه ولا ارضاه .

فقال في نفسه : لقد كان عتيك صادقا فيما رواه فليكن ما شئت انا، لا ما شئت انت ايها الملك .

ثم قال : ولكن الا يجوز ان يصر شرحبيل على كتابة عقد الزواج في قصره قبل ان تخرج ابنته منه

فغضب ، وبدت اسنانه الحمراء وجعل يقول :

اذا اصر اللعين على هذا حملت بلقيس على رؤوس الاسنة .

وكأن ذلك الغضب اتعبه فاستلقى على الفراش وهو يئن ويردد قائلا :

اي وتربة حمير اذا فعلها شرحبيل حملت ابنته على رؤوس الاسنة ومشيت على جثث ابناء قومه .

ولكنه ذكر ضعفه وعجزه واخذ يقول :

ستتولى انت يا بني هذا الامر فابوك لا يستطيع ان يمـــد يده الى عـــدوه بعد الآن .

ـ وهل بقي لك ما تقوله يا مولاي ؟

ـ بقي ان تسمع لي، خوفا من ان يصيدك عدوك بعد الوقوع في شركه

قال : لا تخف . فانت لم تزل ملكا والامر امرك في كل شيء .

ثم ضاق صدره فقال : أتأذن لي في الانصراف ؟
فاسود جبين الملك قائلا : انصرف، على ان ترسل الي الآن ، معدي كرب وعبدشمس.
فخرج عمرو وهو يقول في سره : لقد انتهى دورك يا ابي وجاء دور ولدك.
واومأ الى الجواري بالدخول ، ثم تغلل في الرواق ليرسل الاميرين الى ابيه .

* * *

دخل عبد شمس ومعدي كرب وهما يسمعان انفاس الملك ويحسان باللهيب المتصاعد من صدره المحترق .
فلما وقع عليهما نظره ، اومأ اليهما بالدنو مـــن فراشه وخاطبهما بصوته الضعيف قائلا :
لقد كاد الملك يموت في هذا الليل وانتما لا تعلمان ؟
فجثا الاثنان على ركبهما وقالا : يعيش الملك .
فقال : انهضا فالحياة عندما تذهب لا ترجع ·· اني سأموت وانا لم اسألكما المجيء الي لاندب نفسي وابكي عزي وملكي ولكني اردت ان اعهـــد اليكما في قضاء حاجة لي وانا على فراش الموت ، فقولا لي اتعاهدان مولاكما على الوفاء ام ماذا ؟
فارتفع صوت الاميرين المخلصين يقولان : عشنا للملك ونموت في طاعته
قال : ان السر الذي ابوح به الآن لا يعرفه احد من رجال البلاط ويجب ان لا يعرفه احد، أتقسمان على كتمانه ؟
— نعم يا مولانا .
فالتفت الى جواريه قائلا : سأذكره امام جواري ولا ابالي . ولكن الجارية التي تفشيه تضرب عنقها في ساحة القصر .
فارتجفت الجواري وخفضن الرؤوس.

ثم قال : اعلما ايها الاميران ان ولي عهد ذي القرنين سيخسر عرش اجداده!
تراجع الاميران ونظر احدهما الى الآخر وقد بدا الذعر في العيون .
اما هو فاستطرد قائلا : لقد استسلم الى اعدائه وليس بعد هذا الاستسلام ، غير الندم ثم الموت !
ــ من هم هؤلاء الاعداء يا مولانا ؟
ــ سأذكر لكما اسماءهم فاحفظاها ولا تنسيا منها اسماً .
وجعل يسمي اعداءه واحداً واحــداً حتى انتهى الى ذكر بلقيس فقـــال : وهذه الفتاة التي اراد الملك ان يجعلها حظية له ليحارب بها اباها ، واراد عمرو الا يجعلها زوجة ستنقلب مع ابيها العرش الحميري .
فقال عبد شمس : ان العرش لا تصل اليه ايدي الاعداء .
قال : اما اذا كثر المخلصون فلا ولكن عندما يغص البـــلاط بالخونة الانذال تهوي قوائم العرش الى الحضيض وينهار هذا البناء العالي الذي تتصل ابراجـــه بالسماء . . .
ــ ليأذن لي الملك في ابداء الرأي ؟
ــ قل يا عبد شمس .
قال : ان عبدك هذا لم ير دليلا من دلائل الخيانة التي ذكرت ، اجل قد يكون شرحبيل طامعاً في العرش كما تقول ولكني لا ارى له انصاراً في اليمن غير قومه ، وقومه لا يثبتون ساعة واحدة في المجال .
ــ لقد تعود ذو القرنين ان يرى غير ما ترون ايها المخلصون ، قلت لك ان هؤلاء جميعهم يخونون مولاهم وستثبت لك الايام اني كنت على صواب .
ــ وماذا يريد الملك ان نصنع بهم ؟
ــ احدثكما الآن بشأن العرش الذي ستحطمه العاصفة ثم اوصيكما بما تصنعان! لقد عرفتما ولي العهد واثق بمن حوله ، ولكن هؤلاء لا يستطيعون ان يهـــدموا عرشاً ويبنوا عرشاً الا اذا وضعوا ايديهم بيدي الملكة .
فقام في ذهن الاميرين ان الملك يهذي !

وعرف هو ما خطر لهما ، فقال :

ألا يصبح ولي العهد ملكاً بعد موت ابيه ؟

ـ نعم .

ـ وماذا تدعى الفتاة التي تزف اليه ؟

ـ ملكة حمير .

ـ اذن فاعلما ان العرش لا يسقط الا اذا كانت للمرأة يد في ذلك .

فقال معدي كرب : اتعني بلقيس يا مولاي ؟

ـ اجل فولي العهد يريد ان يجعلها زوجته وانا اريد ان احول بينه وبين هذا الزواج .

ـ وهل يخطر لولي العهد ان يتزوج فتاة لا يريدها الملك ؟

فقطب حاجبيه قائلا : لا يخطر له الا ان يجاري هواه ولو اغضب اباه ؟ انه ولد مستهتر اخطأ الملك في اطلاق يده وهو صغير وكان عليه ان يبعده عن بلاطه ويسلمه الى الامراء الذين يعيشون في جبال اليمن فينشأ بعيداً عن اسباب الترف واللهو والدلال وماذا يفعل الملك الآن ؟

اذا حرمه حقه بالملك انتهى امر العرش الى شرحبيل وولده ، وان لم يحرمه اياه مد شرحبيل يده الى هذا العرش بدهائه ودهاء بلقيس وخرج الامر من ابناء آل ذي القرنين الى الابد .

ـ ولكنك تستطيع يا مولاي ان تقطع يد شرحبيل قبل ان يمدها الى عرشك .

ـ اي انك تريد ايها الامير ان اسعرها حرباً تقضي على اليمن كلها في شهر واحد لا لا . اني لو اردت هذا لفعلته وانا قادر على حمل السيف وخوض الميادين . اريد الآن ان تحصيا على ولي العهد وعتيك بن روضة والهمداني انفاسهم ، وتحذرا شرحبيل واهل بيته ، وتمنعا ، اذا مات الملك ، بالحيلة او بالقوة ، هذا الزواج الذي ذكرت .

ثم قال : ولا تنسيا امير ظفار فهو مخلص للملك فلا تكتماه الاسرار .

ـ ايأذن لنا مولانا ان نخاطب ولي العهد بهذا الشأن .

ـ افعلا ما يطيب لكما على ان تستعينا بالدهاء ولا تفضحا الملك .
واطرق ملياً ثم قال : سأسير غور شرحبيل لآخر مرة ، فاذا جاء الى البلاط ولم اره فقولا له ان الملك بحاجة اليك .
قال : سيجيء فهو لم يكن مع الامراء الذين استقبلوا ولي العهد
ـ حسناً ، فانصرفا الآن وابذلا الجهد كله لتعرفا اسرار ولي العهد .
فلما انصرفا خاطب جواريه قائلا :
اذكرن ما قلته لكن الآن، ان الجارية التي تبوح بما دار بيني وبين الاميرين ، تموت ...
فا كتفين بالانحناء والصمت ..
اما الملك فاغمض عينيه وساد الحجرة سكون رهيب .

٣٦

عندما كان ولي العهد في غرفة الملك كانت نعمى بنت الريان في غرفة عتيك ابن روضة ومع الاثنين امير همدان
وقد اقبلت بامر بلقيس تسأل الاميرين ان يمليا عليها ما تقوله لعمرو .
وكانت توصي ذا تبع بالصبر ، على عادتها كلما وقعت عينها عليه وهو يتململ ويلعن الزمان ..
وبعد ساعة طويلة عرف الثلاثة ان عمراً ترك أباه واقبل على القاعة التي يجلس فيها الملك للناس .
فقال عتيك : اذهبي ونحن نلحق بك على الاثر قبل ان يغص المجلس برجال البلاط .

فخرجت وذو تبع يقول : لا تبالغي يا نعمى في وصف الغرام .
وهي تبتسم ، وتنصح له بان يخنق الغيرة التي تتأجج نارها في صدره .
وكانت مترددة في الدخول الى القاعة دون ان يأذن لها او يدعوها اليه .
اي انها كانت تؤثر ان تدخل ، بطلب منه ،وقد فاتها ان ذلك العاشق المغرور ينتظرها وقد مضى ليله يفكر فيما سيقوله لها لتنقله الى بلقيس .
على ان الحظ كان خادماً لهـــا ، فان ولي العهد كان بباب القاعـــة عندما وصلت اليه .
ففاجأها بقوله : نعمى بنت الريان . انك اليوم في قصر شرحبيل بن عمرو وقد نسيت ولي العهد .
فانطرحت جاثية عند قدميه وهي تقول : ان الجارية المخلصة لا تنسى مولاها الذي أحاطها بنعمته وغمرها بفضله .
قال : متى قدمت البلاط ؟
ــ في هذه الساعة يا مولاي
ــ وهل تجيئين كل يوم ؟
ــ لا يا مولاي فقد اغيب يومين او ثلاثة وعشرة ايام على الاكثر .
ــ وتنقلين الى الملك اسرار القصر الذي تقيمين به ؟
فارسلت نظرها الى جوانب الرواق ثم قالت :
ــ نعم يا مولاي افعل ما يأمرني به الملك .
فتقدمها الى القاعة قائلا : ادخلي فان لي ما اقوله لك الآن .
ــ الا تريد يا مولاي ان اقابل الملك ثم اعود ؟
ــ ان الملك لا يقابل احداً في هذه الساعة لانه مريض وقد انساه الداء شؤون الملك !.
ــ سيأذن لي عند ما يعلم اني ببابه ...
قال : لقد امرتك بالدخول فاتبعيني وسترينه بعد قليل .
فلم تر بدأ من الدخول وكان يقول :

اجلسي وحدثيني بما تعلمين وسأبوح لك بما في البلاط اليوم من اشياء واشياء
قالت : مر يا مولاي بما تشاء .
قال : يقولون يا نعمى ان شرحبيل لا يحب الملك وولي عهده .
فصاحت صيحة ذعر وجمات تنظر اليه وهي لا تجيب ...
قال : اتخافين ؟
— وكيف لا اخاف يا مولاي وانت تتهم ابن عمك بما هو بريء منه .. لقد قام في ذهن الملك من قبل انه خائن فجعلني عينا عليه وعلى اهل بيته فلم ار اثراً لهذه الخيانة ولم استطع ان اسمع كلمة تنم على كره وبغض .
— وانا ارى ما ترين ولا اتهم شرحبيل ، ولكن الملك لا يصدق فليظن ما يشاء ... وبلقيس ؟
— وماذا اقول لك عن بلقيس يا مولاي ؟ انها حسناء اليمن التي لا يذكر مع جمالها جمال نساء الجن ، واعجب كيف يطيق ولي العهد ان تكون اسواه .
— ويلك ومن قال لك انها ستكون لسواي ؟
— لقد وصفت لسابور الفارسي وقد يطلبها لنفسه .
فاضطرب قائلا : واي عربي وصفها له ؟
— رجل من الحجاز كان ضيفاً على شرحبيل في العام الماضي .
— ان شرحبيل لا يزف ابنته الى سابور الذي هو عدو العرب .
— ولكنه لم يكن عدواً لليمن .
— وبلقيس نفسها لا ترضى بان تترك قومها .
قالت : ان التاج يغر وسابور من اعظم الملوك .
— ولكن الا تعلم ان في مأرب تاجا اعده لها عمرو بن ذي القرنين ؟ ؟ . انها لي ، وليس في العالم كله قوة تستطيع ان تنزعها من يدي !
ثم قال: وهل يجوز لها ان تفكر في سابور وانا حي ؟ الم يسأل الملك شرحبيل ان يزفها الى ولي عهده يوم يعود من اليمامة ؟
— بلى يا مولاي ، ولكن الملك كان هازئاً وقد سمعه الامراء يقول : ان

بلقيس لا تزف الى ولي عهده ما دام هو ملكا .

فعض على شفته قائلا : لقد ملأ حديث الملك المسامع والاذهان . ولكن من حدث بلقيس بما تقولين ؟

ـ انه خبر تناقلته افواه الغلمان يا مولاي .

قال : اسمعي يا نعمى ، ان الملك يرغب في ذلك وانا لا ارغب فيما لا يريده وسأتزوج بلقيس ولو خسرت العرش ، ولكني لا اعلم الى الآن اذا كانت هي تحب ولي العهد وتؤثره على جميع الناس .

فهامسته قائلة : انقل اليك الآن يا مولاي جميع ما اعلم واستحلفك بشرف آبائك ان لا تبوح به .

قال : ماذا ؟

قالت : اقسم لك انها تحبك ويكاد يذيبها هــذا الحب ، ولكنها لا ترضى بهذا الزواج والملك غير راض .

ـ واي شأن للملك بذلك ؟

ـ ان ذا القرنين في نظر اهل اليمن كل شيء ، ومع ذلك فقد سمعتها تقول لابيها انها لا تسلم بان يكون زواجها سبباً لغضب ذي القرنين على ولي عهده وخير لها ان تبقى في ظل أبيها الى الابد .

فضغط وسادة كانت على ركبتيه ورفع صوته قائلا .

يجب ان تعلم بلقيس ويعلم شرحبيل ان ذا القرنين يصارع الموت ، وان الكلمة الاولى والاخيرة في البلاط هي لي ، انا الملك . . .

فاجابته هادئة : ومن يعلم يا مولاي فقد يعيش الملك بضعة اشهر او بضعة اعوام .

ـ ليعش الف عام فانا لا ارجع عن رأيي ولا أترك بلقيس . .

وفي تلك اللحظة اقبل الهمداني وابن روضة وسمعا صوته . .

فتظاهرا بانهما يهمان بالرجوع ، فقال لهما .

ادخلا فانتما تعرفان السر الذي نتحدث به ، هذه نعمى بنت الريان جاسوسة

الملك في قصر شرحبيل تقول ان بلقيس لا ترضى بان تزف الي الا اذا رضي الملك» فماذا تقولان ؟

فاجابه عتيك قائلا : اقول ان الملك سيرضى .

قال : لا فقد كنت عنده هذا الصباح وامرني بان اعدل عن هذا الزواج او اكتفي بجعل بلقيس بين حظايا البلاط !

ــ اذن اصبحت يا مولاي بين اثنين لا يرضيان .

ــ نعم وانا اخشى ان امشي الى غايتي راكباً فرسي والسيف في يدي وورائي الجيش !!

ــ بل خير لك ان تقنع أحدهما لتبلغ الغاية .

قال : ان الملك يؤثر ان يموت اليوم على ان يرضى غداً .

ــ وماذا تقول بلقيس يا نعمى ؟

ــ لا اعلم ايها الامير فقد تؤثر الموت كما يؤثره الملك .

ــ واذا خاطبها بالامر ولي العهد نفسه ؟

ــ لا استطيع ان اقول شيئاً لاني لا اعلم ما في صدر الاميرة من شعور وعاطفة

قال : لم يبق الا ان تقابل بلقيس يا مولاي ، وتبوح لها بهواك ثم تنظران في الامر .

فبرقت عيناه قائلا : ومتى يكون ذلك ؟

ــ عند ما يشاء مولاي .

فاصفر جبين الهمداني وحول وجهه . . .

غير ان ولي العهد لم ير اصفراره ، فقال :

أتذهب يا عتيك مع ولي العهد ؟

ــ اذهب اذا اردت ويذهب ذو تبع .

ــ بل نذهب نحن الاثنين ويبقى الامير . . .

ثم قال لنعمى : ألا يجيء شرحبيل اليوم ليعود الملك .

ــ بلى وهو لم يرك يا مولاي بعد رجوعك .

ــ اذن احدثه بامري واسأله رايه .

وبينا هم يهمون بالخروج ، اقبل شرطي يقول لولي العهد : لقد دخل مأرب الآن رجل من الحبشة يزعم انه رسول ملكها الى مولانا الملك .

ــ واين هو الآن ؟

ــ قبض عليه الحراس وهو داخل ولم يزل عند السور .

قال : علي به .

وفي تلك اللحظة ظهر على الباب معدي كرب وعبد شمس فقال لهما : أيقابل الملك احداً في هذا الصباح ؟

ــ نعم وقد كنا الآن عند فراشه .

قال : لقد سألتنا وصيفة بلقيس ان نأذن لها في الذهاب اليه فلم نفعل ... اذهبي يا نعمى الآن .

وكان الاميران قد اصبحا جاسوسين للملك ، فقالا : ان نعمى تخرج من البلاط وتعود اليه بامر الملك ولها ان تراه عند ما تشاء .

فخرجت نعمى ، اما هو فقال : كيف رأيتماه الساعة .

فاجابه عبد شمس : لقد انشب الداء مخالبه به واخشى ان ينتهي الصراع الى ما لا نحب .

قال : رأيت ما لا اراه ، فالملك لا يغلب وسيجلس للناس بعد ايام ..

ــ ولكني رأيت دمه على شفتيه يا مولاي ..

ــ ذلك جرح احدثه السعال في صدره فلا يلبث حتى يبرأ .. اسمعاها الامر ان ولي العهد لا يريد ان يقول احدكم ان الملك سيموت ... ان في موته ويلا لليمن واهلها وخطراً على عرش حمير ..!

فعرف اللعين ان الفتى يريد ان يمتحنه ويقرأ اسراره فقال : اذا مات الملك كان لنا ملك آخر يقطع جميع الايدي التي تمتد الى عرشه ... انك مـن ابطال اليمن يا مولاي وحولك رجال يبذلون ارواحهم في سبيل تاجك .

فتظاهر بالغضب قائلا : ومن هم هؤلاء الرجال ؟؟

ان في هذه القاعة اربعة من الامراء بينهم اثنان خائنان يتظاهران بالاخلاص ويعملان من وراء الستار على تحطيم هذا الملك !

فايقن عتيك وذو تبع بان هذا الفتى المغرور الطائش اصبح بين ليلة وضحاها، داهيـــة في الموقف الصعب ، وقد علما غايته من ذلك المظهر الجديـــد ، الذي ظهر به ...

فلبثا ساكتين يتظاهران بالاصغاء .

اما عبد شمس فلم يسكت ، بل اراد ان يجاريه في الدهاء ليلمس غرضه بيديه. ولكن الحجاب الذي وضعه ولي العهد بين مظهره وغرضه كان كثيفاً جداً لا تخترقه العيون .

فقال عبد شمس : الا يذكر مولاي هذين الخائنين ؟

ـ اذكرهما ولا ابالي .

واومأ بوقاحة غريبة ، الى عتيك وذي تبع حتى كاد الاثنان يعتقدان انـــه غير هازىء .

فهم عتيك بالكلام لتتم الرواية .

فاسكته قائلا : لا تقل كلمـــة الا عندما يأذن لك ولي العهد .. انظر يا عبد شمس الى هذين الاميرين . انهـــما يقيمان بالبلاط ويعيشان في ظل الملك ولو رأيا انهما قادران على سلبه تاجه وملكه على مرأى ومسمع من امراء المخاليف ورؤساء العشائر لما ترددا في ذلك . هؤلاء هم الرجـــال الذين يبذلون الارواح في سبيل التاج .. وهؤلاء هم الرجال الذين اذا مـــات ملكهم يشهرون سيوفهم ليحموا ملك حمير الذي شرف كل يمني ورفع اسم العرب فوق جميع الاسماء .

فقال عتيك : مولانا ولي العهد !.

فقاطعه بجفاء وهو يقول : اذا ارتفع لك صوت امرت الغلمان بان يحملوك الى خارج القصر وانت مخضب بدمك ! اني احادث عبد شمس فلا يتكلم سواه .

فاطرق الاميران .. والشفاه ترتجف . والجسمان يضطربان .

وبان الغضب على وجه الفتى بصورته الرائعة .

فاغتر عبد شمس بما رآه ، ولم يستطع الا ان يثق الوثوق كله ، بان ولي العهد ينظر الى الاميرين كما ينظر اليهما الملك .

ولكنه لم يشأ الا ان يتظاهر بالدفاع .. فقال :

أأستطيع يا مولاي ان اقول ما اعلم ؟

ـ نعم ، ويجب ان تقول كل شيء ليسلم العرش .

قال : اذكر للخائن خيانته يا مولاي ليعترف بها او يعمد الى الدفاع .. ماذا فعل عتيك وذو تبع ؟

ـ انهما يناصران شرحبيل بن عمرو ؟

ـ وماذا صنع شرحبيل ؟

ـ هذا ابن عم الملك وليس هناك رجل سواه يطمع في العرش بعد موت ذي القرنين .

ـ وهل يبلغ شرحبيل غايته بقوة سيفه ام بقوة الرجال ؟

ـ بقوة الرجال .

ـ اذن له في اليمن شركاء كثار .

ـ اجل والملك يعرف هؤلاء الشركاء .. وامير نخلة وامير همـــدان منهم ؟ أليس الامر كذلك يا ابن روضة ؟

قال : اتأذن لي في الدفاع الآن ؟

ـ نعم ، ولكن لا تذكر شرحبيل بن عمرو فالملك واثق بانه خائن والويل لمن يدافع عنه .

قال : ليدافع الرجل عن نفسه فانا لا شأن لي معه ، ولكني اقسم برأس الملك ورأسك يا مولاي اني لا اعرف شرحبيل الا كما يعرفه اهل البلاط وليس بيـــني وبينه عهد مودة واخاء او صلة ولاء ... أتستطيع انت يا مولاي ام يستطيع الملك ان يقول اني خرجت او حاولت الخروج من البلاط لقضاء حاجة لي ؟

ـ ومعنى ذلك ؟

ـ معناه اني لاأتآمر على الملك وانا في بلاطه ، وعيون رجاله تراني ، والغلمان

والحراس منتشرون في كل رواق من اروقة البلاط .

ـ ولكنك تراه وتحدثه في مجلس الملك وخارج المجلس .

فابتسم قائلا : وهذا معدي كرب وعبد شمس يفعلان كما فعل ويقصان عليه ما يطيب لهما من الحكايات ... انهما خائنان اذن قد عـاهداه على القضاء ، على العرش ...

ـ غير ان الملك لم يشك فيهما ولم يخطر له ان يوجه اليهما التهمة التي يوجهها اليك ...

قال : خطر لي ان اتهمك انت نفسك بخيانة العرش ، أفـلا تجلس شرحبيل عن يمينك ، وتسقيه بيدك وتستشيره في شؤون السلم والحرب ؟؟ قل يا مولاي ، ايكون كل امير يلصم لشرحبيل ويصافحه خائناً مليكه ؟.

فجعل الفتى ينظر الى معدي كرب وعبد شمس كأنه يستعين بهـما على ذلك الدفاع البليغ ، ثم قال :

ولكن نسيت ان لك ثأراً ستطلب به .

ـ وما هو هذا الثأر يا مولاي ؟

ـ اتسأل عنه كأنك لا تعرفه ؟

قال : ان هذا الثأر لا يتعلق بالملك بل يتعلق بابيه وقد مـات ، وليس على الملك ذنب .

ثم غير الحديث فقال : ومع ذلك فانا لا اعلم كيف تتهم شرحبيل وتريد في الوقت نفسه ان تتزوج بلقيس !

فرفع صوته قائلا : ان هذا الزواج معناه القضاء عـلى هذا الرجل الطامـع المستخف بالملك . هو يظن ابنته ستصبح ولية العهد وستنتهي اليها شؤون الملك واموره وقد فاته ان الملك وولي عهده ينصبـان له شركا وسيقـع فيه . نعم ، ستنتقل بلقيس الى البلاط ولكن لتمسي جارية لا ملكة ، بل لتكـون عبدة لا سيدة ..!

فاشار عليه عبد شمس بحاجبيه ان يسكت ويحتفظ بسره ، فلم يعبأ باشارته ،

بل تمادى في الصراحة وكان يقول : سأعلم شرحبيل كيف تكون مطامع الامراء وكيف ينتهي امر الاستخفاف بمولاه .

ولكن ابن روضة لم يبال بذلك التهديد يوجه الى شرحبيل ، بل وان همه ان يبرىء نفسه امام ولي العهد والاميرين المخلصين للملك . فقال :

ارجو من مولاي ان يقول الآن امخلص انا ام خائن ؟

فتظاهر بالتفكير ثم قال : لنفترض انك من المخلصين وان حديث ولي العهد كان مزاحا .

قال : حسبي هذا فقد كدت اموت من الخوف .

وانطرح على قدميه يقبلهما ويذرف الدموع !

فتبادل الاميران المخلصان النظرات وكان كل واحد منهما يقــول في نفسه : لقد اخطأ الملك فعتيك بن روضة لم يفكر في خيانته .

وجاء دور ذي تبع فقال : وانا يا مولاي ؟

ــ اما انت فقد رآك الحراس ذاهبا الى قصر شرحبيل وانت تحاول الاحتجاب عن العيون .

ــ فعلتها مرة واحدة يا مولاي بامر الملك .

قال : احذر ان تكون كاذبا .

ــ يستطيع مولاي ان يسأل اباه الآن فيعلم اني لست كاذبا .

ــ وماذا كان غرض الملك ؟

ــ ان يعلم ما يحدث به شرحبيل اهل بيته .

ــ ولكنك تبغض ولي العهد ولم تشأ الا ان تنكر عليه بعض ما رأيت منه .

قال : اذكر يا مولاي اني ندمت على ما مضى وسألتك العفو على مرأى من عتيك وامير ظفار فلا تبخل علي به .

قال : لا اعلم ما اقول الآن . ولكني انصح لكما بان تحفظا عهد الملك وتكونا عونا لولي عهده على كل عدو ، والا فليس جزاء الخائن غير المــوت . وانا لا ارغم احداً ولا اسمع لاحد .

ودخل في تلك الساعة امـــير ظفار ، وكان يحادث ، منـــذ لحظة ، احدى جواري الملك في الرواق ، وقد عرف منها ما قاله ذو القرنـــين لمعدي كرب وعبد شمس واشرق جبينه عندما ذكرت له ان الملك يحبه ، وانه اوصى الاميرين بالوثوق به .

فقال له ولي العهد : ناشر ·· علم امير نحلة وامير همدان الطاعة والوفاء .

فاجابه وهو لا يعلم ما جرى : لقد عرفتهما مخلصين طائعين يا مولاي .

ـ ولكن الملك يراهما خائنين !

فاملى عليه الخبث ان يقول : الامراء الذين يعلمون ان الخونة يموتون معلقين باذناب الخيل ، لا تخطر الخيانة لهم .

قال : وكلت امرهما اليك فاحذر .

ـ وانا قد رضيت ، وليس لك الا ان تضرب عنقي عندمـــا ترى غير ما تراه ...!

وخفض الامراء اصواتهم عندئذ وساد الصمت ، فقد دخل الحاجب يقول : رسول ملك الحبشة ..

فاذن له الامير في الدخول ، واتجهت الى الباب الانظار .

• • •

٣٦

رجل ضخم الجثة ، قصير القامة ، تلمع الجرأة والذكاء في عينيه ، كما تلمع وجنتاه السوداوان .

وهو كبير الرأس ، وقد غطاه بقطعة من جلد النمر تشبه القلنسوة فيها طائفة من ريش النعام .

وفي وسطه حزام من جلد الاسد يتدلى منه خنجره وسيفه ، وفي الجانب الايمن منه جعبة سهامه .

اما قوسه فقد سلمها الى الحاجب قبل دخوله .

ذلك هو سامور ، احد قواد النجاشي العلى اسكندي الذي ذكرنا الك شيئاً عنه فيما تقدم من الفصول .

وكان يمشي بخطى ثابتة ، في تلك القاعة الفسيحة ،وقد دهش لعظمتها ولنقوش الذهب التي بدت على جدرها ، حتى مثل بين أيدي الامراء فوضع يديه على صدره وجعل ينظر اليهم وهو لا يرى بينهم ملكاً ...

ثم انحنى مسلماً ، ولم يجث كما يجثو لمليكه وتمتم قائلا : جئت من اكسوم احمل رسالة من مولاي الملك الى ملك حمير .

وكان الامراء جميعهم يعرفون لغة الحبشان .

فأومأ اليه ولي العهد بالجلوس وقال له :

أتكون من وزراء النجاشي ؟

ـ لا ، بل من قواد جيشه .

ـ وماذا يطلب مولاك اليوم ؟ أيريد ان يبعث جيشه مرة اخرى الى شراطىء مهرا ؟

ـ ستعلمون ماذا يطلب من رسالته التي احملها للملك .

قال : ما اسمك ؟

ـ سامور .

ـ انظر يا سامور الى هذين الاميرين ، انهما قائدا العرب اللذان قلدا عند مهرا بجيوش مولاك الى البحر .

واشار الى معدي كرب وعبد شمس .

فاخذ يتفرس فيهما وهو يقول : لا اعرفهما لاني لم اكن في مهرا ولم اشهد الحرب .

قال : اذا عاد مولاك عدنا ...

فسكت لانه لا يعلم من هو الفتى الذي يخاطبه ، ثم قال : متى استطيع ان اقابل الملك ؟

ــ وهل تعرف ملك حمير من قبل ؟

ــ لا ولكن يخيل الي ان الملك غير موجود ..

ــ ان الملك في مثل هذا اليوم لا يقابل احداً فاذا اردت ان تسلم الي رسالتك فهاتها وانا احمل اليك جواب الملك .

ــ ولكني لا اعلم من انت .

ــ انا عمرو بن ذي القرنين .

فاخرج رسالته وناوله اياها ، فقرأها وهو يقهقه ضاحكاً زيوجه الى سامور نظرات الاستخفاف .

فقال معدي كرب : ماذا يريد النجاشي ؟

ــ انه يدعونا الى الميدان او نرسل اليه احد وزرائنا ليثأر بأميناس الذي قتله الملك اسمعوا ايها الامراء ..

« من العلي اسكندي ملك اكسوم وريدان الى ذي القرنين ملك اليمن :

« لقد قتلت في مأرب ، ايها الملك ، وزيرنا أميناس ، فعبثت بحق الحبشة واستخففت بالنجاشي الذي تهابه الملوك ، فاما ان توجه الينا احد وزرائك مع القائد سامور او توافينا بجيشك الى الموضع الذي غدر به الجند اليمني بجند الحبشة والويل لك »

ثم قــال : هذه رسالة العلي اسكندي الذي تهابــه الملوك .. فماذا ترون يا قواد حمير ؟

فقالوا : رأيك يا مولانا ورأي الملك ، ثم نقول ما نعلم .

فطوى الرسالة ونهض قائلا : هذا ضيفكم فكرموه ، واعطوه مــا يشاء ، ريثما اعود ...

وغادر القاعة وهو مضطرب ، فقــد فاجأته الحرب ، عندما كان يفكر في الحب ، ويهم بالزواج .

ودخل غرفة ابيه ، وفيها نعمى والجواري ، فلم يعبــأ بهن ، بل جلس على فراشه ومد اليه يده برسالة الملك الحبشي .

فقال ذو القرنين : ما هذه ؟

ــ رسالة من العلي اسكندي .

قال : أيطلب بدم اميناس ؟

ــ نعم يا مولاي .

قال : اقرأ . فقد جار الزمان ، ودهمتنا المصائب من كل مكان .

فقرأها عمرو ثم سكت، وحدقت العيون الى المسلول .

اما هو فاجال نظره بين جواريه ، ثم رفعه الى العلاء كأنه يناجي آلهته ، ثم رأوا ذلك الوجه الفائر ، يسود ، وتينك الشفتين الصفراويين تتمتمان قائلتين :

لولا خوفنا من ان يقول النجاشي ان ذا القرنين ضعيف جبان لارسلنا اليه .. شرحبيل بن عمنا .. ليقتله بوزيره !. .

فخفق قلب نعمى لتلك الكلمة الهائلة التي لفظها الملك والابتسامة على شفتيه .

اما ولي العهد فضحك ضحك المستهزىء ولم يجب .

ثم قال الملك : ارسل الي ناشراً وليبق الرسول مع الامراء في قاعة الجلوس .

ــ وارجع مع ناشر ؟

ــ بل تبقى مع الرجل ولا تقل له اني مريض .

ثم التفت الى نعمى قائلا: اذهبي يا نعمى واكتمي ما سمعت وقولي لشرحبيل ان يجيء .

فخرجت ، وخرج امامها ولي العهد ، ثم قال لها وهما في الرواق : مـــا هو السر الذي يأمرك به الملك اتكتميه ؟

قالت : اخشى ان ابوح به فأموت !

قال : كوني من انصار ولي العهد ولا تبالي .. قولي ما هو ؟

فترددت قليلا في الجواب ثم هامسته قائلة :

يريد ان يبعد شرحبيل ابنته عن مأرب كي لا تقع عليها عين ولي العهد !

ـ لماذا ؟

ـ لانه يأبى ان تزف اليك .

فتمتم قائلا : لقد نسي الملك انه اعجز عن ان يغلب ولي عهده ... ليحضر شرحبيل وسيرى الملك بعد حضوره ان السلطان والنفوذ خرجا من يده واصبحا لي .

فقالت الفتاة في نفسها : لقد اشتعلت نار الحرب بين الاثنين وهذا ما تنتظره بلقيس .

ومشت تريد قصر شرحبيل والبهجة تملأ نفسها وقلبها يرقص من الفرح .

اما عمرو فقد اقبل على القاعة وقال لناشر : ان الملك بحاجة اليك فاذهب ولا تنس ان تعود .

فعرف عتيك ان ذا القرنين يريد ان يستشير امير ظفار قبل ان يبعث جوابه الى العلي اسكندي .

فاستأذن في الذهاب على ان يعود ومشى مع ناشر وهما يتهامسان حتى قاربا مخدع الملك فتركه ورجع الى مقعده الى جانب سامور وكان ولي العهد يقول له :

لقد امر الملك بان تبقى اليوم في مأرب وسيعطيك الجواب غداً .

فاجابه قائلا : وهل يأذن لي في ان اراه ؟

ـ لا ، انه لا يقابل اليوم الا رجال قصره كما قلت لك ، ولكنك تستطيع ان تثق من الآن بان الحرب ستكون جوابه .

ثم جعل يحادث امراءه بالعربية التي يجهلها القائد الحبشي ويسألهم رأيهم في الحرب وسامور يجيل نظره بالقاعة ويعجب لمظاهر الغنى التي تبدو في قصر الملك الحميري .

وكان ناشر قد مثل بين يدي مولاه ، فقال له وهو يتنفس بصعوبة ويشعر بان صدره يكاد يتمزق .

لقد فاجأنا الداء يا ناشر وفاجأتنا الحرب فما رأيك ؟

ــ اما الداء يا مولاي فسيزول بعد حين واما الحرب فقــد تعود جيشك ان يخوض غمارها ويعود ظافراً .

ــ وهل قرأت رسالة النجاشي ؟

ــ قرأها ولي العهد وسمعت ما جاء فيها .. انها رسالة مغرور لا يعلم مـــاذا يصنع ولا يستطيع ان يخفي ضعفه .

ــ ولكن الموضع الذي سيرسل اليه جيشه يقوم في آخر اليمن وهذا يدل على حسن الاختيار . .

ــ انه الموضع الذي خسر فيه الحرب السابقة يا مولاي !

ــ اجل وقد عرف عبد شمس ومعدي كرب كيف ينتصران!

ــ وسيعرفان هذه المرة ايضاً ان ينتصرا .

قال : انها حرب تكثر فيها الجيوش وتبرز الى ساحتها قواد الحبشة ورماتها وافيالها حتى يصبح الشاطىء جنوداً .

ــ وفي اليمن يا مولاي قواد ورماة يغطون الشاطىء ويقــذفون بالحبشان الى البحر كما فعلوا من قبل .

ــ ومن يقود الجيش اليمني هذه المرة ؟

ــ البلاط يغص بالقواد يا مولاي فاختر من تشاء .

ــ يرى الملك ان يجعل ولي عهده على رأس الجيش فماذا تقول ؟

ــ هذا هو الرأي يا مولاي .

ــ ولكن اخشى ان يتردد في الذهاب وانا لا اريد اليوم ان اجفوه واكرهــه على الذهاب .

قال : ان ولي العهد سيد الحرب فلا اظن انه يفعل .

ــ لقد نسيت يا ناشر انه لا يفكر الا في بلقيس .

ــ غــير ان شرف حمير اعظم من بلقيس يا مولاي وانا واثق بانه سيذهب وستخفق فوق جيشه ألوية النصر .

ــ اتضمن هذا ؟

ـ نعم يا مولاي كما اضمن الظفر .

قال : وستولي شرحبيل امر قيادة الفرسان .

فجعل ينظر الى الجواري نظرات الذهول ثم قال :

ان لي في هذا رأياً يا مولاي ، أليس شرحبيل في نظر الملك من الخونة الذين يتآمرون على التاج ؟

ـ بلى .

ـ وهل ترسل الى عدوك خائنا يتخلى عن موقفه في ساحة الحرب ليظفر ذلك العدو ؟..

وكان حزم الملك قد اضحى ضعفاً ، وارادته الحديدية التي لا ترد ، اصبحت تردداً وعجزاً ، فقال :

وماذا اذن ؟

ـ ايريد الملك ان يصغي الي ويسمع لي ؟

ـ قل ما يخطر لك .

ـ خير للملك ان يبقى شرحبيل في مأرب من ان يذهب الى مهرا على رأس فرسان حمير .

ـ ومن يكون عوناً لولي العهد في القيادة .

ـ عبد شمس ومعدي كرب وامير همدان على ان يبقى امير نخلة في البلاط

ـ وانت ؟

ـ اما انا فكما يشاء مولاي .

قال : لا اطيق ان ترحل ويبقى الملك مع امير نخلة وحدهما .

ـ سأبقى يا مولاي .

ـ ولكن امير همدان من انصار شرحبيل وقد سمعت دفاعه عنه في ساعة من ساعات الشراب حيث خيل اليه ان الخمر ضيعت هداي .

قال: انت تعلم يا مولاي اني لا احب هذا الهمداني وكنت اؤثر ان يطرده الملك من بلاطه على ان اراه فيه كل يوم ، ولكن يجب ان تموت عاطفتي الخاصة ازاء

بخدمة العرش وان اذكر لمولاي الملك جميع ما اعلم دون ان يكون لي في ذلك غرض ... ان ذا نبع مخلص لمولاي وفي لعرشه ومن الرأي ان يكون بين قواده الذين يحطمون قوى الحبشة ويشرفون الامم اليمني .

قال : سأموت وانا واثق بانه خائن ، ومع ذلك فسأبعث به مع القواد واوصي الجميع بان يحذروه ...

ثم قال : اذهب وقل لولي العهد ان يكتب الى العلي اسكندي هذه السطور :

« لقد اثبت لي كتابك ان الغرور يملأ نفسك ، فاذا كنت تريــد ان تثأر بوزيرك ، فاختر لك ، اذا استطعت ، واحداً من القواد الاربعة الذين نوجههم اليك وراء رسولك ولكن احذر ان يخونك الحظ فتخسر قوادك ووزراءك الذين حجبتهم مياه البحر عن عيون الجيش اليمني في حرب الشاطىء ... »

اكتبوا هذا ولا تزيدوا كلمة ، وقل للامراء ان الملك يريد ان يوصيهم بما يعلم قبل ان يتهيأ الجيش .

وذكر عندئذ ذلك الحديث الذي افضى به الى نعمى وصيفة بلقيس ، فقال : لقد دعوت شرحبيل الي لآمره بابعاد ابنته الى البلد البعيد النائي كي لا يراها ولي العهد .

— وكيف تبعدها يا مولاي وولي العهد سيترك مأرب ؟

— لقد فكرت في ذلك قبل مجيء الرسول الحبشي ، اما الآن فقد عدلت عما هممت به وسأخاطب شرحبيل بشأن آخر فيه الحياة له او الموت .

فانصرف امير ظفار وهو يعلم ما هو ذلك الشأن ...

ولم يبلغ قاعة الجلوس حتى رأى شرحبيل في اول الرواق ، فدخل وهــو يتظاهر بانه لم يره ، واتجه ابن عم الملك الى رواق آخر يصل منه الى مخدع ذي القرنين .

***

٣٧

أعد علينا يا ناشر ما سمعت .

قال : هذه هي صورة الرسالة التي يريد الملك ان يبعث بها الى النجاشي .

فقرأها الامراء مرتين وثلاثاً وهم يرون شبح الحرب .

ثم قال ولي العهد :

من هم القواد الاربعة الذين ذكرهم الملك في رسالته ؟

ــ جميع من في هذه القاعة يا مولاي الا انا وامير نخلة .

قال : ولي العهد يذهب الى الحرب بدون امين سره ؟

ــ هذا ما اراده الملك يا مولاي وقد التمست منه ان ارافق الجيش فلم يشأ الا ان ابقى بالقرب منه .

ــ ولكنه نسي ان ولي العهد سيتزوج وان الحرب قد يطول امرها الى العام المقبل ..

ــ لم ينس شيئاً يا مولاي ولكنه ذكر لي اموراً فيها خير اليمن الذي هو قبل كل شيء .

ــ اتقول لنا شيئاً منها ؟

ــ اذكرها كلها فقد كان يقول : ان ولدي عمراً قائد اليمن وهو الملك الذي لا يخطو الجيش خطوة واحدة الا باذنه .

فقال عتيك : اي انه لا يريد ان يتولى امور الحرب الا الملك الجديد عمرو ابن ذي القرنين ..

فرفع الفتى رأسه تيهاً وعجبا وجعل ينظر الى سامور الذي لا يفهم من حديث الامراء كلمة .

ثم استطرد امير ظفار قائلا :

واما الزواج يا مولاي فسينجز الملك امره بعد الرجوع من مهرا وستنصر بلقيس حتى يظفر جيش ملكها ويعود لابساً اكليل المجد والفخار .

فتغيرت حال ولي العهد فجأة وملأت قهقهته القاعة ثم اخذ يقول :

لقد صدق الملك وصدق ناشر اني سأتزوج ابنة ... الخائن اللعين الذي يظن ان بلقيس اعظم من ان تكون حظية للملك .. نعم يا ناشر سأتزوج بلقيس ولكن ليس كما تظن ويظن ابي . وسيبكي شرحبيل عظمتـــه وكبرياءه عندما لا ينفعـــه البكاء .

فتحير ناشر في امره وعجب لذلك الانقلاب الذي فوجيء به ، وفتح فاه يريد ان يسأل مولاه عنه !

لكن امير نحلة سبقه فقال : لقد خبرنا مولانا ولي العهد بما يريد ان يصنعه في هذا الزواج ...

واومأ اليه بحاجبيه بان يسكت .

فعرف الامير ان هنالك حيلة فقال: ان شرحبيل سيبقى في مأرب فلا يشترك في شرف الحرب !

فاجابه عمرو قائلا : اجل ، فالرجـــال الذين يخونون وطنهم لا يشتركون في الدفاع عنه .

ثم بدأ يسمي مناصب قواده فقال :

سيقود معدي كرب جيش المشاة كما فعل في المرة الماضية وسيتولى عبد شمس قيادة الرماة واما ذو تبع فسيكون معي في قيادة الفرسان ... أعلمت فرسك يا ذا تبع ان يقتحم الصفوف في الميادين ؟

ــ سأعلمه ذلك عند الوصول الى الشواطيء يا مولاي .

ــ وماذا تقول انت يا عبد شمس ؟ أيظفر بنا هذا الاسود وجيشه ام نجعل الرمال قبوراً لهم ؟

قال : ان الجيش الذي ترأسه يا مولاي لا يغلب .

قال : صف لنا ذلك الموضع الذي جعلته مع معدي كرب ميدانا للخيل .

قال : الصخور تقوم حاجزاً بين البحر والرمال والشاطيء واسع فسيح يتسع للالوف من الرجال .

قال : اخشى ان يختبىء امير همدان بين تلك الصخور عندما تقع عينه على اولئك الرجال السود يحملون الحراب .

فاجابه الهمداني والنار في قلبه : بل الجأ الى ولي العهد فاختبىء تحت فرسه.

قال : احسنت ففرس ولي العهد خير ملجأ للجبناء .

وحول وجهه عنهم كأنه لا يريد ان يسمع جوابا ، وخاطب سامور بالحبشية قائلا : سيرسل الملك الى مولاك اربعة من قواده بينهم ولي عهده ليضرب عنق احدهم كما ضربت عنق اميناس . ولكن أتعلم اين يكون ذلك ؟ هنالـــك عـــلى الشاطىء نفسه الذي صبغت رماله بدماء رجاله .

فقال : ليفعل الملك مايشاء فالشاطىء لم يتغير ورماله باقية . اين هي رسالته؟

ــ نكتبها وندفعها اليك . اكتب يا ناشر رسالة الملك واعطـــه اياها وليقل لمولاه ان جيوش حمير ستزحف الى اكسوم . واما انتم ايها الامراء فانصرفوا الى شؤونكم وارسلوا رسلكم الى الاقاليم ليجتمع الجيش فقد طاب الموت في سبيل اليمن .

فذهب عبد شمس وتبعه معدي كرب ، وبقي في القاعـــة اولئك المتآمـــرون الثلاثة الذين وثق بهم ذلك العاشق المغرور ، فقال لهم :

لقد اصبح الاميران اللذان خرجا الساعة جاسوسين على ولي العهد وكل من ينتمي اليه . ولكنهما لا يستطيعان ان يخدعا احداً بمظاهرهما الكاذبة .

قال عتيك : اواثق انت بهذا يا مولاي ؟

ــ اجل فقد دعاهما الملك اليه ومكثا بالقرب منه اكثر من ساعة وهو يقص عليهما حكايات ولده .

فقال ناشر : صدقت يا مولاي وقد عاهداه على ان يمنعا زواجك .

قال : أرايت احدى جواري الملك ؟

ــ نعم يا مولاي وقد خبرتني انه يسيء ظنه بجميع من حوله الا بثلاثة .

ــ من هم ؟

ــ انا ، ومعدي كرب ، وعبد شمس .

— ليثق بهما ونحن نهزأ ، ولينقلا اليه كل ما يخطر لهما ، فهما غير قادرين ما
معرفة الاسرار ، لقد اسمعناهما الآن ما يطيب له صدر الملك فليهنأ بتعذيب وا ،
والكيد له .

وماذا يطلب الامراء غير هذا ؟ لقد ارادوا ان يعكروا الجو بين الوالد وال
فعكروه وارادوا ان يفسدوا امرهما فافسدوه ، ولم يبق الا ان يقضي احدهما ا
امره فيثور الآخر ويتنازعا السلطان !

* * *

كتب ناشر رسالة الملك وسلمها الى سامور ، واليمن غافلة لا تعلم ان رجا.ا
وفتيانها سيخوضون غمار الحرب .

فحمل الحبشي رسالته وهو يلعن الاقدار التي لم تخدمه في درس احوال البلاط
الحميري كما امره مولاه .

وانصرف وهو يفكر في امر الملك الذي لا يقابل احداً في ذلك اليوم ..

ولولا ضحك الامراء ومزاحهم ، ودلائل البشر البادية على الوجوه ، لوثق
الوثوق كله بان ذا القرنين قد مات !

والا فما هي عادة الملك ، في استقبال الرسل الحاملين انباء الحرب بمثل ذلك
الشكل الغريب الذي رآه !

وكـــان يقول في نفسه : ان هؤلاء القواد الفتيان ، الذين يقسمون لتهديـــد
النجاشي ويستخفون به لا يرجعون من الساحة الا اذا اخضعوا عدوهم واذلوه .

وايقن من تلك الساعة بان موته سيخسر الحرب !

على ان ولي العهد ورفاقه ، لم يستخفوا بالحبشة كما ظن ، بل كان الاضطراب
يملأ قلوبهم عندما قرأوا رسالة العلي اسكندي .

ولكنهم تظاهروا بالاستخفاف كما رأيت ليبعثوا الرعب الى قلب القائد الاسود
وهي حكمة علمهم اياها ذو القرنين سيد ابطال ذلك الزمان .

فلما خرج الرجل من البلاط ، اقبلوا يتشاورون ويضعون منهاجهم ، وانصرف معدي كرب وعبد شمس ليستعينا برأي الملك ، فقيل لهما ان في مخدعه شرحبيل بن عمر .

فجعلا يتمشيان في الرواق واحدهما يقول للآخر :

لقد اخطأ الملك فيما ذكره لنا عن ولي العهد ، فعمرو يكيد شرحبيل كما يكيده الملك نفسه ولكنه لا يريد ان يفضح سره .

اجل ، لقد سمعا تهديد ولي العهد عندما ذكر له شرحبيل ، ورأيا غضبه عندما ذكرت له بلقيس ، فاضمحل الريب الذي اوجدته ظنون ذي القرنين في صدريهما ..

وقد فاتهما ان هذا الفتى المستهتر الطائش ، كان اشد دهاء منهما ومن ابيه . كما فاتهما ان عتيكا ورفيقيه اشد دهاء من الجميع ..

وبينما هما يتحادثان ، اقبل ولي العهد يريد غرفة ابيه ، فاشار عليه بالانتظار ريثما يخرج ابن عم الملك ، فتراجع ثم رأى ان يعود الى قاعة الجلوس منتظراً فيها ذلك الامير الذي ستصبح ابنته ملكة .

وكان المتآمرون الثلاثة قد خرجوا الى احدى الشرفات وناشر يريد ان يعرف من عتيك كل شيء فقال له :

لقد عرفت اننا نحن الاثنين باقيان في البلاط وشرحبيل باق في مأرب ، وهذا ما اردته انت ولكني لم اعلم الغاية من ذلك .

قال : لا استطيع ان اخبرك الآن جميع ما يخطر لي لاني اخشى ان يخونني الحظ وتلعب بي الاقدار .

ــ ولكن ماذا يصنع شرحبيل في مأرب وما الذي نصنعه نحن في البلاط .

قال : عندما تشعل الحبشة نار الحرب ، يتدبر شرحبيل امر ابنته ويفعل لاجلها ما يطيب له دون ان يلج ولي العهد في طلب الزواج ، اما انت فستصبح خلال هذه الحرب بفضل مرض ذي القرنين وعجزه ملكاً او نائب ملك لانك امير ظفار والرجل لا يستسلم الا الى رأيك ... واما انا ، انا عتيك بن روضة فسأفعل

العجائب ، قبل ان يعود الجيش ...

ـ وكيف تطيق ان يكون امير همدان ، بعيداً عنك لا يشهد هذه العجائب ؟

ـ سيتزوج بلقيس بعد رجوعه وهذا يكفيه ..

قال : ذو تبع يتزوج بلقيس ؟؟

ـ نعم فهي معبودته الحسناء وقد برح بالاثنين الغرام .

وقص عليه حكاية ذلك الهوى المتغلل في الصدرين ...

فطابت نفس ناشر وقام في ذهنه ان هذا الحب وحده كاف لاذلال ولي العهد وقتل هواه .

واضحت ثقته بعتيك ، منذ تلك الساعة ، ثقة عمياء ليس لها حد .

وعول على ان يطيعه كما يطيع الملك دون ان يسأله عما يفعل ، ثم قال له :

وكيف يكون موقف ذي تبع مع عمرو في ميدان القتال ؟

ـ موقف امير شريف يدافع عن وطنه وقومه دفاع الابطال الذين يعلمون ان اليمن ليست للملك وحده .

ـ ولكن سيكون ولي العهد قائده وسيده !

ـ ومن يقدر على ان يفعل غير ذلك الآن ، ان ولي العهد سيد الامراء جميعهم وسيصبر أمير همدان على ما يراه منه لتتم له الغاية .

ثم قال له : احذر ان يغير عبد شمس ومعدي كرب رأي الملك فشرحبيل يجب ان يبقى في مأرب .

ـ لا تخف فأمير ظفار يستطيع ان يفسد عليهما كل ما يصنعان ، على رجاء ان يرى عجائبك بعد حين .

قال : سترى وستدوس بنعلك هذا الامير اللئيم الذي وهبت له الاخلاص كله فاستخف بك ...

وعادوا جميعهم الى القاعة فرأوا ولي العهد فقال عتيك : ألم تكن عند الملك يا مولاي ؟

ـ ان شرحبيل في غرفته الآن .

ــ ولكنه لا يلبث حتى يخرج منها ويجيء اليك .
قال : وسأحدثه بشأن الزواج قبل ان ارى بلقيس .
قال : افعل وانا واثق بانه سيكون عند حسن ظنك به .

***

٣٨

أكنت تنتظر يا ابن العم ان يموت الملك لتجيء وتقف عند جثته ؟
فاجابه شرحبيل قائلا : لا تقل هذا يا مولاي فانا لم اعلم انك مريض الا في الليل الماضي .
ــ وماذا رأيت الآن ؟
فكرة الامير الحر ان يكذب ، فقال :
أرى وجهاً ناحلا ، وضعفاً ظاهراً ، وداء قاسياً لا يرحم ..
ــ اذن فاشكر الآلهة التي اسبغت عليك هذه النعمة ... ان الموت في هــذا الفراش ..!
ــ بل اشكرها لانها ستتولى امر شفائك ..
قال : ألك حاجة نقضيها لك ؟
ــ اما حاجتي فهي ان ترجع العافية الى الملك وتعود اليه بهجة أمسه .
فاضطرب قائلا : ستعود بعد حين فنكافىء المخلصين ...
والآن ، فان للملك حاجة أفتقضيها له ؟
ــ يأمر الملك فأطيع ...
قال : لقد عاد ولي العهد من اليامة وسألنا عن بلقيس .
ــ حسبي شرفاً يا مولاي ان يسألك عنها ..
ــ ولكن أتذكر وعدك يا ابن عمنا ؟

ـ اذكره يا مولاي وسأقوم بالوفاء به .

قال : لا تعجل فالملك يسألك الان ان تنسى ما وعدت ؟

قال : ألا تريد بلقيس زوجة لولدك ؟

ـ لا بل اريد ان تختار لها فتى غير عمرو ! ان الملك لم يبق له رأي في هذا الزواج .

فعرف الامير غايته .. لقد كان يخشى ان يموت فينتقل الملك من ولده الى ولد شرحبيل .. فقال :

وانت الا تذكر وعدك يا مولاي وقولك لي ان بلقيس احب الفتيات الى الملك واجدرهن بالعرش ؟

الا تذكر انك امرتني بان انقل اليك جوابها بالرضى ام بالرفض قبل ان يعود ولي عهدك من اليمامة ؟

ـ بلى ، غير ان نظرنا اليوم ، غير نظرنا بالامس ، وقد رأينا ان زواج ولدنا العاجل ينسيه العرش الذي سيرثه ، والذي تهدده الملوك من جميع الاقطار ..

فقال وهو لا يتردد : ليكن ما يشاء الملك وليسلم عرشه .

ـ وهل تعدنا بهذا ؟

ـ اجل يا مولاي ولكني لا اعلم ماذا اقول لولي العهد اذا هو ذكر لي امر زواجه بعد ساعة .

قال : يجب ان تعود الى حكاية النذر !

ـ ولكن الكاهن الاعظم فضح امره وقص حكايته على جميع الامراء .

ـ اذن تقول له ان بلقيس لا تفكر اليوم في الزواج .

ـ وهذا ما لا يفعله شرحبيل بن عمرو ، لانه لا يريد ان يشتري غضب ولي عهدك بمثل هذا الجواب الذي لا معنى له .

ـ اذن تقول له ان بلقيس وعدت اميراً آخر .

ـ واذا سألني عن اسم هذا الامير ؟

ـ تقول له : انه ذو تبع امير همدان .!

فانتفض قائلا : يظهر ان الملك يريد ان تنشب الحرب بين ولده وبين ذلك الهمداني لاجل فتاة .. لا يا مولاي .. بل اقول له ان الملك غير راض وينتهي الامر ...

ففكر قليلا ثم قال : تستطيع ان تقول له هذا فيكون لك عذر ، ولكن تقسم لنا الآن برأس بلقيس والهدهاد انك لا تزفها اليه الا اذا رضينا !

فوقف قائلا : اقسم اني لا ازفها اليه ولو سعرها حرباً تلتهم اليمن !

فبرقت عيناه وهو لم يدرك مغزى ذلك القسم وقال له : لقد كنت الآن صريحاً مع الملك وسنجزيك ..

وعندما هم شرحبيل بالانصراف استوقفه قائلا : نسينا ان نقول لك ان العلي اسكندي يدعونا الى البراز .

فلم يستغرب الامير هذا الخبر الفجائي ، بل قال :

ومتى كان ذلك ؟

ــ في هذا الصباح وقد كتبنا اليه ان الجيش سيوافيه الى مهرا بعد شهر .

ــ ومن يقود هذا الجيش يا مولاي ؟

ــ ولي العهد نفسه ! معه عبد شمس ومعدي كرب وامير همدان ، وستمكث انت بمأرب حتى تقضي الحاجة بذهابك .

قال : كنت اوثر ان اضع سيفي على عنق عدوك .

ــ اما نحن فلا نشك في هذا وسيأتي يوم تشهر فيه هذا السيف وتخضبه بدماء الحبشان .

فخرج وهو يقول في نفسه . نعم سيأتي يوم اشهر فيه هذا السيف ولكن لاخضبه بدمك ايها الملك الظالم الذى تستحل كل شيء ..

وكان الملك يقول : اذهب يا شرحبيل فالملك لم يمت بل هو لا يموت الا عندما يرى جثتك في وادي مأرب ، بين مخالب النسور .

ولم ينصرف شرحبيل ، حتى اقبل وتار ذمر ، كاهن مأرب ودار بينه وبين

ذي القرنين حديث طويل حفظته الجدران في اذهانها فلم يعرفه احد .
ولكن الايام فضحته وسنقصه عليك .

***

مشى شرحبيل يريد قاعة الجلوس وهو يفكر في ذلك الضعف الغريب الذي
استولى على الملك في بضعة ايام .
وقد عرف عندئذ ان نعمى كانت صادقة في وصفها ذلك الضعف لبلقيس
وكان ولي العهد واقفاً في القاعة ومعه المتآمرون الذين يحفرون له القبر !
فصافحه وهو يبتسم ، وولي العهد يهش له ويكاد يفتح له ذراعيه .
ثم دعاه الى الجلوس وهو يقول : كدت اظن اني لا استحق ان ارى لــك
وجها يا ابن العم .
فعجب الامير الكبير لهذه النعومة يهبها الزمان فجأة لهذا الفتى المغرور الذي
لم يكن يعبأ به من قبل ، واراد ان يجاريه الى النهايــة ليجعله آلة في يــده ويد
بلقيس ، فقال :
اما انا فقد كدت اظن ان ولي العهد لا يبالي بي بدليل انه قدم مــأرب ولم
يخطر له ان يخبرني بوصوله كما هي عادة البلاط !
ـ ذلك شأن الملك يا شرحبيل ؟
وماذا اصنع اذا كان مولاي الملك لا ينظر الي كما ينظر الى المخلصين له المقيمين
على طاعته !
قال : اعتذر لك عن الملك فقد صرعه الداء كما رأيت .
قالها والابتسامة لا تفارق شفتيه كأن في ذلك الداء قوة تدفعه الى الابتسام !
فانحنى شرحبيل قائلا : لا يكفي ان يكون الملك راضياً عن ابن عمه .
قال : انه لراض وارجو ان تحدثنا بمظاهر هذا الرضى التي رأيت .
وكان شرحبيل يريد ان يشعل النار وهو لا يصدق متى تأتي الساعة . ولكنه

لم يشأ ان يبوح بما عنده ، والقوم يسمعون .

فجعل ينظر الى الامراء وهو ساكت ، فقال عمرو : اتخشى ان تقص علينا ما قاله لك الملك ؟

ان الملك لا يكتمك شيئا وليس هنالك ما اخشاه .

قال : الى اين انتهى امر الزواج بينك وبينه ؟

فنظر الى الامراء ثانية ولم يجب ، فقال له :

اذكر كل شيء ولا تخف فهؤلاء رجال ولي العهد .

قال : ان امر الزواج قد انتهى الآن .

ـ ولكن الا تعلم اننا سنسير الى حرب الحبشة ؟

ـ بلي .

ـ اذن فقد جعل الملك موعد زواجنا بعد الرجوع منها .

ـ قلت لك يا مولاي ان الامر قد انتهى ومعنى ذلك ان الملك لا يريد ان تذكر له بلقيس بعد الآن .

فدهش قائلا : افعلها الملك ؟

ـ نعم وقد امرني بعدم الاصغاء الى ما تسألني اياه .

فاصفر وجهه وجعل الامراء يتهامسون .

غير ان ذلك الاصفرار لم يطل زمنه . ان الامر امره وهو لا يعبأ بابيه رضي عن زواجه او لم يرض !

وعادت الابتسامة الى شفتيه وهو يقول :

اية فتاة يرغب الملك في ان يزفها الى ولي عهده ؟

ـ هو يرغب في ان تترك امر الزواج اليوم لانه ينسيك العرش الذي تهدده الملوك .

ـ انها نغمة جديدة يعمد اليها ابي في هذه الساعة ، وماذا تقول انت ؟

ـ ماذا اقول يا مولاي؟ اذا قلت نعم اغضبت الملك ، وان قلت لا،اغضبت

ولي العهد وانا اخشى في الحالين ان يعمد كل واحد منكما الى القوة للوصول الى غرضه ...

ــ وهذه ايضاً نغمة غريبة اسمعها منك الآن . اريد ان اعلم الساعة اذا كانت بلقيس ترضى بان تكون لي على رغم اليمن كلها !

فخاف عتيك ان يخرج الامير عن حده ويفسد عليه امره ، فقال :

سألتك يا مولاي من قبل ان تزور بلقيس في قصر ابيها وتحدثها بهذا الشأن

قال : أتأذن لي في هذه الزيارة يا شرحبيل ؟

ــ انها شرف لابن عمك وقومه .

ــ اذن اذهب الليلة ويذهب معي عتيك .

فهامسه ناشر قائلا : خير لك ان يذهب ذو تبع ايضاً لترى بلقيس بعينيها ان معظم امراء البلاط لا يعبأون بالملك اذا كان في اغضابه رضاك ..

فرفع صوته وهو يقول : صدقت فليذهب امير همدان ..

وكان قلب ذلك الامير العاشق يخفق لهذه الزيارة ...

فاجابه قائلا : مرحباً بالموت اذا كان في طاعتك ...!

وهكذا عبثوا جميعهم بولي العهد المسكين،واوغروا صدره ، وايقظوا عاطفته وهيجوا كرامته التي أهينت. ومشوا فيمؤامرتهم خطوة واسعة يصعب بعدها الرجوع الى الوراء .

ثم قال شرحبيل : ولكن الملك سيعلم ما تحاولون اخفاءه ، واذا علم اهتز البلاط واهتزت مأرب لغضبه ..

فقال ناشر : سأقص على الملك بعض حكايات الحرب فيأوي الى فراشه مستسلماً هادئاً لا يسأل عن احد !

وقال ولي العهد : وقد يفاجئه السعال القاتل فينسيه نفسه !!

اما شرحبيل فكان يقول ، مسكين الملك . ان معدي كرب وعبد شمس يدفعانه بأيديهما الملوثة الى ما لا يعلم .

وجاء دور عتيك اللعين فقال : اذا سأل الملك عن ولي العهد ــ وهو لا يسأل،

فليقل له ناشر انه انصرف الى قلاع مأرب وحصونها لينظر في احوال الجيش ، في هذا الليل ، او فليقل له انه يتبع آثار سامور ، حتى يطلع الصبح ...
فقال له : طب نفساً فانا اعلم ماذا اقول .

* * *

٣٩

عاد وتارذمر ، الكاهن الاعظم ، الى منزله ، بعد ان رأى ولي العهد .

ولم تمر ساعة ، على دخوله ذلك المنزل ، حتى خرج منه غلام ضعيف الجسم حسن الوجه ، ومشى يريد قصر الملك .

وهو في زهرة العمر وميعة الشباب ، ذو جبين عال يدل على الذكاء ، وعينين صغيرتين براقتين لا تهدءان، هما عينا الماكر الخبيث، الذي فسد خلقه ، وصغرت نفسه .

فلما وصل الى القصر ، تنحى له حراس بابه ، كأنه من غلمان الملك ، وليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب ، فهو غلام الكاهن الاعظم الذي تعرفه اليمن وتخافه ، ويخطب وده الامراء والمقربون الى ذي القرنين .

أجل ، كان الكهان في ذلك الزمان اصحاب النفوذ والسلطان ، ليس لانهم خدام الآلهة فحسب ، بل لانهم اطباء الملوك ، وعرافو القصور ، الذين يذكرون لك الماضي بما كان فيه ، ويقرأون لك سطور المستقبل مكتوبة على صفحات القضاء .

واسم هـــذا الغلام عباد ، ويظهر انه يعرف جميع ما في البلاط من اروقة ، وقاعات ، ودهاليز ، وقد يعرف ما في صدور رجاله من اسرار ...!

وماذا يصنع عباد في بلاط الملك ؟! انه امسى غلام ذي القرنين . وقد وهبه له وتارذمر اقراراً بالفضل ، واعترافاً بالجميل ...!

وليس في البلاط من يجهل هذا الغلام الذكي الخبيث ، الذي هـو رفيق الكاهن الاعظم ، وامين سره ، ورجل مشورته .

وقد رآه الناس في ذلك القصر العظيم فاقبلوا يسألونه عن غرضه ، ثم وقعت عينه على عتيك بن روضة ، في اول الرواق الذي يؤدي الى حجرة الملك .

فقطب حاجبيه ، وبدت على جبينه دلائل التعب والهم ، غير ان عتيكاً ابتسم له قائلا : اين مولاك يا عباد ؟

فاجابه وهو مضطرب : مولاي في قصره وقد امسى لي الآن مولى آخر اعظم منه هو ملك حمير !

— اذن انت هدية وتارذمر الى مليكه ؟

— بل انا العبد الذي لا يخرج من القصور الا الى حفرته !

— قال : اتأنف يا عباد من خدمة الملوك !

— بل انفت من حياتي التي كانت شقاء ، ولدت في تهامة وانا عبد ، ثم قدمت اليمن وكنت عبداً ، وها انا ادخل الآن بلاط الملك لاموت فيه ؟

فخفق قلب عتيك لحديث عباد ... انه غلام ضعيف غريب لا يجسر على ان يبوح بما باح به ، الا اذا كانت له من وراء ذلك غاية يخدم بها احد الامراء !

ومن هو هذا الامير الذي يشتغل عباد لحسابه ؟

انه الكاهن الاعظم نفسه ، ولهذا الكاهن غرض ارسل غلامه الى البلاط ليتم له ذلك الغرض من وراء الستار .

وخطر له خاطر فجائي اهتزت له نفسه، ولم يجرؤ على التفكير فيه . فقال : ولكن خدمة الملك شرف لك ايها الغلام ، وفي البلاط نفوذ ومال لا يصل الى يدك منهما ، وانت في قصر وتارذمر ، مثل ما يصل اليك وانت في قصر ذي القرنين !.

قال : خير لي ان اكون من صعاليك العرب وفقرائها وانا حر ، من ان ينتهي الي نفوذ الملوك وانا لا املك الحق بالحياة كما يملكه الناس !

وهي فلسفة لم يطمئن اليها امير نخلة ، فقال :

لك أسوة بالغلمان الكثار الذين يملأون بلاد العرب .

ــ ولكن اولئك يروحون ويجيئون اما انا فقد كتب لي ان اعالــج الملك المريض بما يأمرني به الكاهن .

قال : لقد نسي مولاك ان جواري الملك يتناوبن على السهر والحراسة .

قال : تنقصهن الخبرة بالمعالجة كما قال لي .

ــ اصبت فلكل غلام عمل وليس لي الا ان ادعوك الصبر .

وحول وجهه عنه ومشى الى آخر الرواق .

فابتسم عباد ابتسامة خبث واتجه الى غرفة ذي القرنين كأنه في بيته ، اوكأنه من رجال البلاط !

وعين عتيك تراه من وراء العمد القائمة في طرف الرواق وقد قام في ذهنه ان بين ذي القرنين ووتار ذمر ، معاهدة « هجوم ودفاع » وضعت شروطها في ظلام الليل .

وظل في موضعه وهو يرى كل شيء ، حتى اذنت الجواري لعباد في الدخول ، ثم خرجن جميعهن وبقي وحده مع الملك .

فقال في نفسه : ان الملك يشك في جميع من حوله حتي في جواريه ، وانــا اشك في جميع غلمانه ، حتى في غلامه الجديد .

وانصرف فخبر ناشراً كل ما رأى ، واتفق الاثنان على ان يكتما ولي العهد وامير همدان ما عرفاه .

* * *

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع